جيلبرت سينويه

اللوح الأزرق

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

اللوح الأزرق

روايــة

ترجمة

آدم فتحي

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراساته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الإستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ **المصرية**، رواية (٢٠٠٥)؛ **ابنة النيل، رواية (٢٠٠٨).**

آدم فتحي: شاعر تونسي (١٩٥٧) له إسهامات في المقالة الصحفية والدراسة النقدية والقصة. أشرف على عدّة صفحات ثقافية. له العديد من المؤلفات الشعرية والترجمات، منها: **أناشيد لزهرة الغبار**، شعر (١٩٩٢)؛ **يوميات شارل بودلير**، ترجمة (١٩٩٢)؛ **جيلبرت سينويه**: **ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ **نعيم قطان**: **وداعاً بابل**، رواية (١٩٩٩)؛ **إميل سيوران**: **المياه كلها بلون الغرق** (٢٠٠٣)؛ **نعيم قطان**: **فريدة**، رواية (٢٠٠٦).

جيلبرت سينويه: اللوح الأزرق، رواية

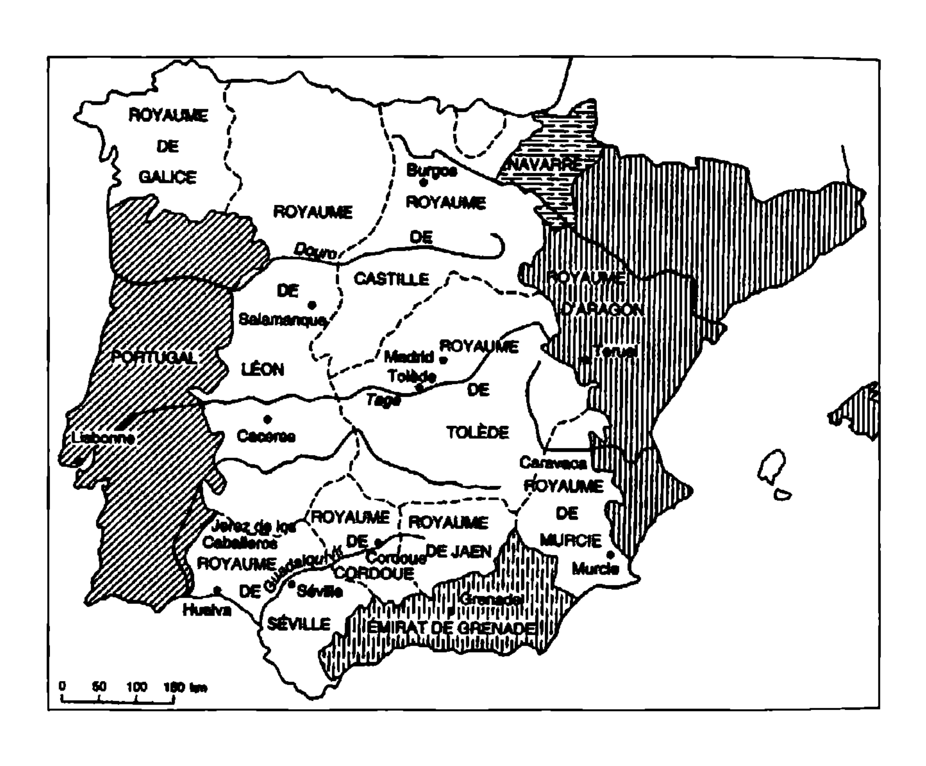
الطبعة الأولى ٢٠٠٨

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de



ROYAUME
DE
GALICE
ROYAUME
DE
LÉON
Burgos
ROYAUME
DE
CASTILLE
NAVARRE
ROYAUME
D'ARAGON
Douro
Salamanque
PORTUGAL
Madrid
Tolède
Tage
ROYAUME
DE
TOLÈDE
Teruel
Lisbonne
Caceres
Caravaca
ROYAUME
DE
MURCIE
Murcie
Jerez de los
Caballeros
ROYAUME
DE
SÉVILLE
ROYAUME
DE
CORDOUE
Cordoue
ROYAUME
DE JAEN
Guadalquivir
Séville
Huelva
Grenade
ÉMIRAT DE GRENADE
0 50 100 150 km

الفصل ١

أسمع شكاوى تخرج من باطن الأرض...

(دموع إسبانيا)

طليطلة، أواخر الشهر الرابع من سنة ١٤٨٧.

كانت الشمس قد علت الكاتدرائيّة وألقت على ساحة سوق الغبار المكتظّة بأكياس الحبوب شبكتها ذات الخيوط الرفيعة المشربة بحمرة الدم. تحرّك فراي هرناندو دو تالافيرا معرّف جلالة الملكة إيزابيل سيّدة قشتالة مداعباً بيده لحيته المذبّبة التي وخطها الشيب وانحنى يهمس في أذن المرأة الجالسة إلى جانبه محاذراً أن يلفت الانتباه.

ـ لا شكّ أنّه ليس أوّل إعدام بالحرق تحضرينه دونا فيفيرو؟

ـ بل هو الأوّل. لم أقبل سابقاً حضور مثل هذا الحفل على الرغم من الدعوات العديدة، ولولا إصرار جلالتها على أن أحضر اليوم نيابةً عنها لكنتُ قد...

غطّى قرع أجراس الكاتدرائيّة والكنائس المجاورة على بقيّة الكلمات. إنّه الموكب يتقدّم من وسط الساحة. كان الصليب أوّل ما يلفت النظر. صليب ضخم مغطّى بقماش من الحرير المموّج. عرش جيوش الآلهة وعربتها فوق ظهور الرهبان الدومينيكيّين التابعين للدير الملكيّ. كان المتعوّدون على مثل هذه المناسبات يعرفون جيّداً لون الصليب الأخضر الداكن الذي لن يُكشف عنه إلاّ لحظة طقس الغفران المهيب. ومن خلفه

توالى جنود يعتمرون خوذات ويحملون حراباً في شكل فؤوس ومن ورائهم لاح رهبان مقلنسون وقساوسة يردّدون مدائح الربّ. في انضباط شديد أخذ وجهاء البلاط ورؤساء الكنيسة يتقدّمون في موكبين متوازيين وفي نظام محكم: القضاة أمام المفتّش العامّ والكهنة القانونيّون أمام العميد وأمام هؤلاء أعضاء مجلس القضاء. في حين لاح المدّعي العامّ وهو يحمل اللواء متمثّلاً في مستطيل من التفتا قرمزيّ اللون مزخرف بدنتيلاً وشراريب فضيّة مطبوع عليه شعار ديوان التفتيش: راية الإيمان.

كان الآثمون يفتتحون المسيرة. قرابة المائة تقاطروا محشورين في عباءاتهم الصوفيّة ذات اللون الأصفر الزعفرانيّ وقد علت رؤوسهم طاقيّاتهم المدبّبة وارتجفت في أيديهم الشموع. أمّا الجموع فقد تدافع أغلبها بالمناكب على جانبي الموكب في محاولة للتسلّل إلى المكان المخصّص لعلية القوم حيث اجتمع كلّ ما كانت طليطلة تملك من نبلاء ووجهاء. في منتصف المسافة الفاصلة بين المدرّج والمنبر أقيمت منصّة محاطة بالقضبان. هناك في ذاك القفص سيقف المحكوم عليهم على مرأى ومسمع من الجميع حيث لن تفوت أحداً شاردة أو واردة من ردود أفعالهم تعبيراً عن الخزي أو الألم أو الندم.

اقترب بعض الوصفاء من مكان المقارئ فوضعوا على أحدها الصندوق الذي حُفظت فيه نصوص الأحكام بينما خُصّص مِقراً آخر لحمل الكتّونة والبطرشل في طبقين كبيرين من المعدن الثمين. فجأة ارتفع صوت كاهن يحمل الصليب في يد وكتاب القدّاس في الأخرى:

ـ نحن المفتّش العامّ والولاة ورجال الشرطة والفرسان والقضاة ووجهاء طليطلة، هذه المدينة الماجدة، وأبناء المسيح الحقيقيّون الأوفياء المطيعون للكنيسة أمّنا المقدّسة، نقسم بالنصوص المقدّسة التي بين أيدينا أن نحفظ رسالة يسوع المسيح المقدّسة وأن نعمل على حمايتها وأن نطارد المارقين وأن نطيح بكلّ من نشكّ في هرطقته أو كفره. ليباركنا الربّ

ولتحرسنا النصوص المقدّسة إذا قمنا بذلك ولينقذ الربّ سيّدنا الذي هذه قضيّته أجسادنا في هذه الدنيا وأرواحنا في الأخرى. وإذا تقاعسنا عن ذلك فليحاسبنا حساباً عسيراً وليسلّط علينا عقابه الشديد الذي يسلّطه على الفاسدين الذين يكفرون عبثاً باسمه المقدّس.

تعالى هدير الجموع وكأنّه يتصاعد من أحشاء المدينة مجيباً بصوت واحد:

- آمين.

ظلّ تالافيرا هادئ الأعصاب طيلة الوقت الذي استغرقته خطبة الكاهن يكاد يبدو لا مبالياً بما يحدث وكأنّ ذهنه مضى بعيداً كلّ البعد عن مكان الحفل. وزاد من غرابة هيئته غير المكترثة تناقضُها التامّ مع ما كان يبدو من إثارة على سحنة مرافقته التي جلست مأخوذة بالمشهد لا تحيد عيناها عنه. ظهر شخص جديد فتقدّم بوقار وبخطوات مهيبة واقترب من قاضي ديوان التفتيش وظلّ أمامه ينتظر جاثياً على إحدى ركبتيه. فما كان من الأخ فرنسيسكو دو باراغا إلاّ أن رسم فوق رأسه علامة الصليب بحركة بطيئة استعراضيّة. استفسرت مانويلا بصوت خافت:

- من هذا الرجل الجاثي؟

- إنّه عظيم التبجيل الأب والأخ الرئيس توما ريبيرا، من الكهنوت الوعّاظ، وهو المُكَيِّف الذي عهدت إليه محكمة التفتيش العليا بتحقيق الجرائم الكنسيّة وفحص الكتب المخالفة للتعاليم السماويّة.

كان الكاهن قد نهض واقترب من أحد المقارئ فحدج الموقوفين في قفصهم بنظرة خاطفة صارمة ثمّ استنشق طويلاً قبل أن يشرع في خطبته:

- هل من المذنبين من هو أشدّ عداوة للربّ وأكثر جدارة بالعقاب من أتباع موسى الخونة؟ الرجاء عندهم عماية والصبر عناد. ما من حياة أكثر آثاماً من حياتهم وما من بشر يبغضهم الربّ والناس أكثر منهم. أليس من

العدل إذنْ أن تعمل المحكمة الموقّرة على عقابهم دفاعاً عن قضيّة الربّ؟ انهض أيّها الربّ ودافع عن قضيّتك.

استرجع عظيم التبجيل أنفاسه ثمّ رفع أصبع الاتّهام في اتّجاه الموقوفين وردّد بقوّة:

ـ انهض أيّها الربّ.

كتمت مانويلا قشعريرة هزّت جسدها كلّه على الرغم من شمس أبريل العالية والسماء الصافية وعلى الرغم من أنّ الجوّ بدا منذ أسابيع حارّا أكثر ممّا اعتادته طليطلة في مثل هذا الفصل من السنة. ثمّ أدهشها أن تسأل بشيء من السذاجة:

ـ هل يقومون بحرقهم هنا؟ والآن؟

ـ كلاّ. ليس في وسع الكنيسة بأيّ حال من الأحوال أن تحكم بالموت فضلاً عن أن تنفّذ مثل هذا الحكم. ما أن ينتهي القضاة من تلاوة نصوص الاتّهام حتّى يُسَلّم الموقوفون إلى السلطة المدنيّة كي يُحملوا إلى خارج الأسوار حيث نُصِبَت المحارق. تستطيعين التأكّد من ذلك بنفسك بعد قليل.

ـ أتصوّر أنّ الجموع مسموح لها هي أيضاً بحضور الإحراق.

ـ طبعاً.

ـ وهل تحضر بأعداد كبيرة؟

ندّت عن تالافيرا ابتسامة لا تخلو من مرارة.

ـ سيّدة مانويلا، كيف لا تعرفين وأنت الشهيرة بسعة الإطّلاع الشغوفة بقراءة الكتب أنّ مشاهدة عذاب الآخرين مصدر متعة خفيّة لدى الإنسان؟ لقد رأيت بعضهم يجاهد لمتابعة عمليّة جمع الأشلاء المتفحّمة ومصاحبة

الجلاّدين حتّى المزبلة العامّة وكأنّهم يريدون التأكّد من أنّ الهراطقة قد عادوا إلى مكانهم الطبيعيّ الذي كان عليهم أن لا يغادروه.

شرع أحد الرهبان الدومينيكيّين في قراءة **الميريتوس**، لائحة الخطايا المقترفة وما يقابلها من عقوبات. ثمّ أعقبه كاهن ثانٍ وتلاه ثالث دون أن يختلف أحدهم عن الآخر في نبرة الصوت وفي إيقاع الكلمات. كانوا جميعهم يتكلّمون بصوت جهوريّ ويسبغون على كلماتهم هالة من الفخامة والمهابة باذلين كلّ ما وسعهم لتأجيج مشاعر الجمهور والاستحواذ على انتباهه مستخدمين كلّ ما برعوا فيه من حِيَل الخطابة وفنون الهجاء.

استغرق الأمر بين ستّ وثمان ساعات ولم يفرغوا منه إلاّ وقد اختفت الشمس وراء الكاتدرائيّة. تصاعد في الجوّ دخان الشمع والبخور مختلطاً بروائح الشياط والتحميص المنبعثة من عربات الباعة المتجوّلين وأحسّت مانويلا بأنّها غدت أسيرة خواء شامل استحوذ على عقلها وعطّل فيها كلّ قدرة على التمييز. غابت عنها مشاعر اللحظات الأولى وتلاشى التوتّر فإذا هي محطّمة خائرة القوى، على النقيض من الجموع التي طال بها الانتظار في الشوارع منذ الفجر وضاقت بها الساحة وشحنتها الخطب على امتداد ساعات بمشاعر الخوف والفتنة والحقد والشفقة، فإذا هي تحتقن على أهبة الانفجار.

التفتت مانويلا بشكل عفويّ ناحية المنصّة حيث جُمِّعَ الآثمون في انتظار أخذهم إلى المحرقة. رجال ونساء ومعاقون ظهرت بينهم دمى مرعبة في حجم آدميّ ترمز إلى المحكوم عليهم غيابيّاً. لم تعرف لماذا انتبهت إلى أحدهم بشكل خاصّ؟ ربّما أدهشها هدوؤه الغريب وبريق السكينة المنبعث من عينيه أو لعلّها رأته يحركّ شفتيه فشدّها الفضول إلى معرفة ما خطر له من كلمات في تلك اللحظة تحديداً. كان طاعناً في السنّ يمشي بصعوبة ويحاول أن يخفّف من انحناء ظهره بالقدر الذي تسمح به

سنه المتقدّمة. تُرى من يكون؟ وبأيّ تُهمة يُحاكَم؟ وهل لديه أسرة؟ لاشكّ أنّه يهوديّ مرتدّ. فجأة التقت نظراتهما فرأت في عينيه شيئاً رجّها في العمق بشكل لا يُوصَف. همّت بالوقوف لكنّ إحساساً غامضاً منعها من الحركة. ما الذي أصابها؟ هل هو فضول مرضيّ؟ هل هي الشفقة؟ تسمّرت في مكانها ذاهلةً عن كلّ شيء حتّى وصلها صوت تالافيرا:

ـ حان الوقت سيّدة مانويلا. هيّا بنا.

وقفت في شبه غيبوبة وتبعت الكاهن وهو يفتح لهما طريقاً نحو المركبة التي كانت في انتظارهما خلف المُدرّج. ثمّ لم تعرف كيف وجدت نفسها بعد نصف ساعة خارج الأسوار في المدرّج المخصّص للنبلاء على مقربة من المحرقة. غاب عن المكان مُدَّعُو محكمة التفتيش وحضر المُكَيِّفون المكلّفون بمساعدة المتّهمين في لحظاتهم الأخيرة. كانوا أصحاب القرار النهائيّ في تحديد من يُسْعَفُ أو لا يُسْعَفُ بأقصى ظروف التخفيف: الخنق.

بدت السماء ستارة حمراء خلف النار التي هُيِّئت منذ البارحة ووقف الجلاّدون ينتظرون في رباطة جأش بينما سجّل الموتى السابقون حضورهم الجنائزي من خلال صناديق مطليّةٍ بالقار امتلأت ببقاياهم المتفحّمة. طال الانتظار قبل أن يظهر المحكوم عليهم بعد أن تقلّص عددهم إلى قرابة العشرين. تدافعت الجموع بالكثافة نفسها لكنّ الرغبة في الفتك والانتقام بدت أوضح بكثير. وسرعان ما انهالت الحجارة على المحكومين: رشقة أولى ثمّ ثانية. وانهمرت عليهم الشتائم من كلّ جانب. والأرجح أنّه لولا حماية الجنود لحوّل غضبُ الجموعِ عقوبةَ الحرق إلى عقوبة الرجم.

بحثت مانويلا بعينيها عن الشيخ الذي لفت انتباهها قبل قليل. رأته هناك مرفوع الرأس محافظاً على هدوئه السابق وخيّل إليها أنّها تلمح على شفتيه ظلّ ابتسامة. اهتزّت من جديد بالعمق نفسه وعانت مرّةً أخرى كي

تكتم في صدرها صرخة تحثّها على مغادرة المكان. أغمضت أجفانها تحاول إسدال ستارة بينها وبين الرعب ولم تفتح عينيها إلاّ وقد أصبح اثنان من المحكوم عليهم فريسة للنار. ظلّ أحدهما يحتضر في صمت بينما أخذ الثاني يصرخ ويتوسّل وينتفض في وثاقه الذي تآكل حتّى انحلّ فألقى بنفسه إلى الأرض شعلةً بشريّةً مولولة. انقضّ عليه الجلاّدون وأعادوه إلى النار بعد لأي لكنّه سرعان ما ألقى بنفسه إلى الأرض من جديد. عندئذ ضربه أحدهم على رأسه بعقب سلاحه فأغمي عليه قبل أن يُلْقَى به في النار للمرّة الأخيرة.

أُثقِلَ جوّ الغروب بخليطٍ من روائح الرشْح والعرَق مع نتانة اللحم الآدميّ المحروق. وما أن أتت النار على الرجلين حتّى أُلْقِي فيها بدميةٍ مُفزعة في حجم بشريّ عُلّق بين يديها تابوت وظهر على التابوت اسم مكتوب بحروف كبيرة: **آنّا كاريّو**. لعلّها توفّيت البارحة في السجن. التهمت النار الدمية والتابوت فجِيءَ بعجوز في الستّين من عمرها موثقة إلى خشبة. وعلى العكس ممّن سبقها لم يُلقَ بها مباشرة في النار فقد اعترفت بما اقترفت وطلبت الرحمة فاستجاب لها المُكَيِّف الرحيم وأسعفها بالموت خنقاً. انحنى عليها أحد الجلاّدين وأطبق بأصابعه على عنقها حتّى جحظت عيناها. بدا أنّها تريد أن تقول شيئاً لكنّ الكلمات ظلّت حبيسةً في حلقها إلى الأبد. انتفض جسدها مرّات متتالية ولم تتمالك عن البول فتعالت الضحكات من كلّ جانب ثمّ أُلْقِيَ بها في النار فارتطم رأسها بصندوق من الخشب المملّس كان يُخْفِي بقايا بشريّة. استمعت مانويلا إلى أصوات تهمس من ورائها:

- يبدو أنّها بقايا واحدةٍ من **المرّانو**، خنزيرة في السابعة عشرة من عمرها أخرجها من تحت الأرض حارس السجن السرّي البارحة.

قال صوت نسائيّ محاولاً كتمان ضحكة:

ـ ولماذا أخرجها من قبرها؟ هل خاف أن يعيدها موسى إلى الحياة؟

ـ كلاّ يا عزيزتي بل خاف أن يُضطرّ إلى تجفيف عظامها وتهوئتها لإزالة النتانة.

ـ النتانة؟ ألا يعرف أنّ هؤلاء نتنون أمواتاً وأحياء؟

شعرت مانويلا بالغثيان وتذكّرت عبارة تالافيرا: «إنّ مشاهدة عذاب الآخرين مصدر متعة خفيّة لدى الإنسان» فعضّت على شفتيها امتناعاً عن الصراخ. كاد المشهد يتحوّل من مأساة إلى مهزلة. كان أحد المحكومين كسيحاً فأُوثِق إلى كرسيّ وبينما هو يُحمل إلى المحرقة أخذ يشتم الجموع والجلاّدين والوجهاء الحاضرين ملقياً بلعناته في كلّ اتّجاه مثيراً ضحك الكثيرين. أعقبت ذلك الهرجَ فترةُ هدوء قصيرة تخلّلها زفير النار وشتائم المتفرّجين. ثمّ تقدّم أحد المكيّفين فأعلن عن اسم الضحيّة التالية:

ـ ابن برول. من مواليد برغش. بائع لوحات زيتيّة. من سكّان طليطلة.

انتفضت مانويلا فقد حان دور الشيخ. لم ينتظر أن يدفعه الجلاّدون في اتّجاه المحرقة بل تقدّم منها بنفسه مرفوع الرأس مستقيم الظهر واثق الخطوة. ضربته يد مجهولة بحجر على وجنته فلم يعر الأمرَ أيّ انتباه. كان على وشك اقتحام النار حين استدار ناحية مانويلا والتقت نظراتهما وكأنّه لم يغفل عنها لحظة. خيّل إليها أنّه يتوغّل في أعماقها بعينيه ولعلّه كان يمكث هكذا ساكناً ينظر إليها لو لم يدفعه أحد الجلاّدين في ظهره كي يتقدّم. نهضت الفتاة دفعة واحدة وقد أحسّت بالاختناق.

ـ المعذرة يا أخ دو تالافيرا فأنا مضطرّة إلى الانسحاب.

أراد الكاهن أن يسألها عن أسباب رحيلها المفاجئ لكنّها كانت قد ابتعدت بسرعة وتوتّر في اتّجاه المركبة.

*

من نافذة قاعة الطعام الملكيّة المشرعة على شفق الغروب تردّدت أصداء الترانيم عبِقةً بتسبيح الربّ وتمجيده. تناول ساقي الخمور كوب الشراب من على خزانة الآنية وكشف عنه الغطاء ثمّ اقترب به من الطبيب. أدنى هذا الأخير الكوب من أنفه وتشمّمه ثمّ تناول منه رشفة صغيرة بعناية ووقار وأدارها في فمه مرّات قبل أن يومئ برأسه موافقاً. استرجع الساقي الكوب واتّجه به ناحية الملكة فجثا على ركبته عارضاً عليها المشروب. لكنّ إيزابيل ملكة قشتالة وزوجة فرناندو دو أراغون رفضت الكوب بحركة من رأسها مشيرة ناحية سيّدة شابّة جالسة إلى يمينها:

- إسْقِ السيّدة فيفيرو.

ثمّ قالت بنبرة يغلب عليها السأم:

- من سلبيّات حروب الاسترداد. . .أنّ البلاط ينتقل من مكان إلى آخر ويتحرّك باستمرار وأنّ على الملكة أن تذكّر كلّ مرّة بعاداتها. بعدم وَلَعِهَا بالنبيذ مثلاً. الحقّ أنّ تقصيراً مثل هذا ما كان ليزعجني إلى هذا الحدّ لولا أنّه انعكاس لمشكلة أعمق. مشكلة الإدارة والموظّفين والدولة بعامّة. كلّ شيء يسير ببطء قاتل.

ندّت عن مانويلا فيفيرو ابتسامة.

- هل تعرفين جلالتك الدعابة التي يتداولها العوامّ: «من المؤسف أنّ الموت لا يختار أعوانه من بين وزراء صاحبَي الجلالة وإلاّ لعشنا ألف سنة على الأقلّ».

ارتسمت على وجه إيزابيل ملامح المرح.

- لم أسمع بهذه النميمة من قبل.

ثمّ مالت إلى الأمام وقد انقبضت أساريرها فجأة.

- لماذا؟

ـ عفوا صاحبة الجلالة؟

ـ لماذا انسحبتِ منذ قليل قبل أن ينتهي الحفل؟ عبّر لي الأخ دو تالافيرا عن انزعاجه الشديد من تصرّفك. لماذا؟

شبكت مانويلا يديها محتارةً، هل تجيب صديقتها بصراحة أم تختار إجابة أكثر مرونة؟ فضّلت المرونة مراعاة للصديقة لا خوفاً من الملكة.

ـ أنهكتني سبع ساعات من الفرجة المتواصلة على إحراق الناس. لم أستطع يوماً تحمّل الألم الجسدي وخاصّة ألم الآخرين. كان مشهداً فوق طاقتي، مشهد أولئك الرجال فريسة للنار وتلك الوحشيّة. . .

ـ خطأ.

دوّى صوت الملكة في القاعة حاسماً بارداً.

ـ هذا خطأ. عليك أن تنظري إلى الأمور بعيداً عن العاطفة. أنت إسبانيّة وابنة الكنيسة والحُكْمُ الإيمانيّ أنجع الطرق لإيقاظ الحسّ الوطني والقناعات الدينيّة. علينا أن لا نتأثّر بمزاعم المناوئين وأن لا نرى في ذلك انتقاماً ولا قمعاً بل فرصة لهداية الأرواح الضالّة. إنّ مصير إسبانيا في الميزان ولا حياة لبلادنا إلاّ متوحّدة في ظلّ دين واحد، في ظلّ الإيمان الوحيد الحقيقيّ، الإيمان بسيّدنا المسيح. لقد مددت يدي للهراطقة فلم يسمعني منهم أحد. صبرت عليهم أكثر من عامين قبل أن آذن بإقامة أوّل محكمة للتفتيش على الرغم من أنّ قداسة البابا منحني مباركته قبل ذلك بكثير. لذلك فإنّي حين أسمع الحديث عن الوحشيّة. . .

ندّت عنها إشارة تبرّم ثمّ أضافت قائلة:

ـ لا أخفيك أنّ انسحابك آلمني، فقد حضرتِ الحفل نيابة عنّي وكنتِ بشكلٍ ما تمثّلين الملكة هذا الصباح.

صمتت فاختار أحد الخدم تلك اللحظة كي يقترب من المائدة بكلّ احترام ويذبّ عن الفستان الملكيّ ما وقع عليه من فتات الطعام. انتظرت

الملكة بهدوء أن يفرغ الخادم من عمله ثمّ استدارت بسرعة ضاربةً على يد مانويلا بودّ.

ـ لننس كلّ هذا. أنا سعيدة بحضورك فقد اشتقت إليك كثيراً.

ـ أنا أيضاً اشتقت إلى جلالتك كثيراً. منذ ثلاثة أسابيع ونحن نتوقّع قدومك إلى طليطلة بين لحظة وأخرى دون جدوى، حتّى ظننّا أنّك تراجعت عن زيارتنا.

ـ ما كنت لأتراجع عن زيارتكم. على الأقلّ ليس قبل أن أراكِ.

ثمّ أسرعت تسألها:

ـ قولي لي يا مانويلا العزيزة. كم مرّ من الزمن على آخر لقاء لنا؟ ستّة عشر عاماً؟ سبعة عشر عاماً؟

ـ بل ثمانية عشر عاماً بالتحديد. أيّامها كنت تراسلينني مستهلّةً رسائلك بالعبارة التالية: «إيزابيل أميرة أستوريا والوريثة الشرعيّة لمملكتي قشتالة وليون ببركة الربّ» وكنت توقّعين على الرسائل بالعبارة التالية: «أنا الأميرة» مضيفةً تحتها: «صديقتك»، هل تذكرين؟

ـ أذكر كلّ شيء وخاصّة الظروف القاسية لآخر لقاءاتنا.

ـ لم أنسها أنا أيضاً. كان ذلك في بيت والديّ في بلد الوليد. كنت أنت قد أتممتِ الثامنة عشرة من عمرك وكنت أنا في مطلع السادسة عشرة.

أبرقت عينا الملكة بشعاع داكن.

ـ يا لها من أيّام عصيبة.

ـ كنت تحاولين الفكاك من قبضة أخيك للأب أنريك وأتباعه مصرّةً على رفض الأزواج الذين حاولوا فرضهم عليك بكلّ وسيلة.

ـ في حين كان اختياري قد وقع على رجل وحيد ولا أحد سواه: الأمير فرناندو دو أراغون.

أدنت مانويلا الكوب من شفتيها وتذوّقت شيئاً من النبيذ.

ـ مولاتي. هل تسمحين لي بطرح سؤال طالما أرّقني دون أن أجرؤ على مصارحتك به؟ لماذا هذا الاختيار؟ كان صاحب الجلالة فرناندو مجرّد ابن عمّ لك ولم تكوني مغرمة به بل إنّك لم تريه البتّة.

علت الكآبة وجه الملكة.

ـ شهدتُ الكثير من المآسي في طفولتي. عانيتُ من أخي ورأيت ما تؤول إليه الأمور حين يفقد المُلْكُ هيبته ويبدي السلطان عجزه وتتمزّق الدولة بين العصابات والأطماع. آليتُ على نفسي إذا أصبحت ملكة ذات يوم أن لا أكون دمية في يد أحد لذلك قرّرت أن أتزوّج فرناندو. اخترته لأنّي حدست وأنا لم أتجاوز السابعة عشرة بأنّ هذا الزواج سيمكّنني من تحويل قشتالة إلى قوّة جبّارة مثلما هو شأنها اليوم. كنت واثقة من أنّ زواجنا سيهيّئ ظروف الوحدة السياسيّة لشبه الجزيرة وأنّنا سنكون ثنائيّاً لا يُقهر قادراً ذات يوم على تحرير إسبانيا نهائيّاً من الحضور العربيّ كي نكمل ما شرع فيه الآباء.

توقّفت لحظة ثمّ أضافت:

ـ ويبدو أنّ حدسي لم يخطئ فأرضنا اليوم حرّة باستثناء غرناطة التي لابدّ أن يحين دورها عمّا قريب.

اهتزّ الصوت وارتفعت الحماسة بنبرته دون وعيٍ من صاحبته وقد بدا واضحاً أنّها تفصح عن قناعة متغلغلة في الأعماق. ثمّ استعاد هدوءه فجأة.

ـ لا أذكر تلك الأيّام إلاّ رسخ في ذهني أنّي حظيت بعناية ربّانيّة موصولة. لكنّي لا أنسى أيضاً عناية رجل لن أتنكّر لديونه عليّ ما حييت: خوان فيفيرو والدك عليه رحمة الربّ. كنت أكنّ له حبّاً عميقاً يا مانويلا.

كان من أولئك الرجال النادرين الذين يجمعون بين نبل السلالة ونبل الروح.

خفضت مانويلا عينيها وقد غلبها التأثّر.

ـ كم أنت على حقّ يا مولاتي. مرّت الآن ثلاث سنوات على وفاته وعلى الرغم من ذلك يُخيّل إليّ أنّي أسمع وقع خطاه وأنّي قد أراه في أيّ لحظة وأنّ بابَ غرفته سيُفتح فجأة فيظهر على العتبة.

تمالكت نفسها ورسمت على شفتيها ابتسامة مرحة.

ـ دعينا من كلّ هذا النكد ولنعد إلى ذكريات أكثر فرحاً. كنّا نتحدّث عن لقائك الأوّل بصاحب الجلالة.

ـ تمّ ذلك في بيتكم. كنتُ قد غادرت أقنة تحت حماية جنود الأسقف كاريّو ولجأت إليكم وبعد خمسة أشهر التحق بي فرناندو. هل تذكرين تلك الليلة؟

ـ وكيف أنساها؟ جَرَرْتِني من سريري جَرّاً لفرط رغبتك في أن تقدّمي لي زوجك المُنْتَظَر. وربّما لأنّك كنت أيضاً...

تردّدت قليلاً فتولّت إيزابيل النطق بالكلمة:

ـ خائفة؟ أجل كنت خائفة. لكنّه ليس ذلك الخوف الذي يدفع إلى الهرب. كان إحساساً أقرب إلى اللهفة منه إلى الخوف. كان نوعاً من التوتّر شبيها بما يعيشه السجين وهو يتأهّب لاستعادة حريّته بعد سنوات من السجن. كان شعوراً قريباً ممّا يشعر به البحّارة وهم يستعدّون للإبحار. كنت كمن يقف على عتبة حياة جديدة أو كمن يستعدّ للترهّب.

ـ يا لها من عبارة موفّقة.

أضافت مانويلا وقد شرد بها الذهن:

ـ افترقنا في المراهقة وها نحن نلتقي في الكهولة.

ـ لكنّ صداقتنا لم تنل منها السنوات. كنتِ دائماً معي تشدّين من أزري حتّى عن بعد على النقيض من تلك العزيزة بياتريس بوباديللا التي طالما تشدّقت بالصداقة وأقسمت على الوفاء ثمّ قلبت لي ظهر المجنّ.

خيّم الصمت من جديد على قاعة الطعام الملكيّة. كان الخدم ينتظرون متوارين في ظلّ الستائر بينما وقف رئيسهم متصلّباً كالصاري وكأنّه يحدّق في نقطة خفيّة أمامه. أمّا المرشد الدينيّ فقد شبك يديه على بطنه وبدا فريسة للنوم. وصلت من الخارج أصداء الترانيم واحتدم الإنشاد في الليل كما تحتدم العاصفة. فجأة أوقد الخدم الشموع التي كانت تزيّن الشمعدانات وانتصفت عتمة القاعة فبدا في ضوئها التباين أخّاذاً بين المرأتين.

كانت ملكة قشتالة امرأة متوسّطة الطول بيضاء البشرة مذهبة الشعر مائلة إلى السمنة أنفها أفطس بعض الشيء وشعرها معقوص ولون عينيها خليط من الخضرة والزرقة، يبدو عليها الهدوء ورباطة الجأش وتشي ملامحها بصفتيها الغالبتين: العناد والإصرار. أمّا مانويلا فيفيرو فكانت على النقيض من ذلك فارعة القوام منتصبة القامة تبدو عليها ملامح المهابة الطبيعيّة سمراء ذات شعر فاحم ناعم يتموّج بالزرقة مشدود إلى الخلف في جديلة ملفوفة بشرائط من الحرير، يزين وجنتها اليمنى خال في سواد السبج ينعكس على بشرتها الذهبيّة مبرزاً نقاء وجهها الطفوليّ. كان لها وجه امرأة طفلة بينما عيناها على العكس من ذلك تشعّان بعاطفة جيّاشة نهِمَة.

فرّق بينهما الشكل وجمعت بينهما الطفولة إذ عاشتا معاً شطراً من حياتهما بفضل الصداقة العميقة التي جمعت بين أسرتيهما. ولدتا في نفس القرية، إحدى قرى قشتالة القديمة، حيث تزوّج أبوا إيزابيل. كما ولدتا في اليوم نفسه ولكن مع فارق سنتين. وما أن بلغت إيزابيل الحادية عشرة حتّى دُعِيت إلى بلاط قشتالة ثمّ توفّي أخوها ألفونسو فعادت إلى القرية وإلى ذكريات الطفولة مع مانويلا قبل أن تفرّق السنوات بينهما من جديد.

همست إيزابيل:

ـ حقّاً ما أسرع مرور الزمن. يخيّل إليّ أنّي البارحة أُزَفّ إلى فرناندو. وأنت؟ لماذا لم تتزوّجي حتّى الآن؟

أطلقت مانويلا ضحكة صافية.

ـ لم أجد رجلاً في قامتي.

ـ دعك من المزاح وأجيبيني؟ ألا ترين وأنت الآن في الثالثة والثلاثين أنّ الوقت حان لتكوين أسرة؟ أعلم أنّ خطّابك لا يُحْصَوْن ولم أذكرك في مكان إلاّ رأيت عيون النبلاء تلمع إعجاباً ورغبة. فلماذا؟

تريّثت مانويلا قبل أن تجيب.

ـ ربّما لأنّي لا أثق في الخيال. ليس أبشع من أن يكون الإنسان سجين رجل أو امرأة لا وجود لهما إلاّ في خياله.

ـ أخشى أنّي لا أفهمك. كثيرون يعتبرونك أوسع نساء شبه الجزيرة علماً فهلاّ وضّحتِ لي الأمر؟

ـ أليس الحبّ وليد الذهن؟ أليس انعكاساً لصورة الآخر في نظرنا وانعكاساً لصورتنا في عين الآخر؟ أليس مثاليّة وإعلاء؟ لو كان الحبّ ممكناً دون أن نتخيّل الآخر على غير صورته الحقيقيّة لما خفت منه.

ـ لننس الحبّ. ولكنْ ماذا عن العقل؟

داعبت مانويلا الخال على وجنتها وسألت مستغربة:

ـ العقل؟

ـ طبعاً. أقصد الأمان والرفاهة والأطفال والأسرة. أستطيع أن أذكر لك ألف سبب للزواج في الثالثة والثلاثين. أسباب لا علاقة لها بالـ. . .خيال أو بالحبّ.

ـ أنت على حقّ. لكنّي في غنًى عن مشاغل الحياة اليوميّة بحمد الربّ

وبفضل الثروة التي تركها لي والدي. وأرى من المؤسف أن تُضطرّ إحدانا إلى التضحية بمصيرها من أجل تفاهات برّاقة وأربعة جدران وحفنة من الأطفال تحمل بهم وتنجبهم وتربّيهم لوحدها تحت أنظار زوج يكتفي بالإخصاب والإنفاق والأمر والنهي. والحقّ أنّي ما كنت لأقبل بالزواج دون حبّ إلاّ بدافع وحيد لا ثاني له: مصلحة الدولة. كما فعلت أنت. أمّا وأنا بعيدةٌ عن أيّ طموح سياسيّ...

ـ فقد فضّلتِ الانقطاع إلى قراءة الكتب ورحت تلتهمينها التهاماً. المجد الأدبيّ والفكريّ هل هذا ما تبحثين عنه؟

ـ لو صحّ ذلك لما كنت أفضل من نساء عربيّات كثيرات ذاع صيتهنّ ونجحن في عالم ذكوريّ أكثر صعوبة. هل تعرفين أنّ من أفضل وجوه الأدب الأندلسيّ امرأة تدعى حفصة الركونيّة هي ابنة أحد وجهاء غرناطة وقصائدها تدور على ألسنة الشعراء حتّى اليوم؟ أستطيع أن أحدّثك أيضاً عن أمّ الحسن وهي ابنة أحد أطبّاء لوشة وكانت طبيبة وأديبة، أو عن زوجة القاضي التي برعت في الفقه حتّى استعان بها زوجها في أحكامه على الرغم من سخرية أصدقائه وزملائه الرجال.

ختمت باسمة:

ـ هل ترين؟ عليّ أن أعرف المزيد عن الواقع قبل أن أواجه الخيال.

رفعت الملكة سبّابتها متظاهرة بالاعتراض.

ـ كنت أفضّل أن تدافعي عن موقفك بذكر أسماء نساءٍ إسبانيّات.

ـ أنت على حقّ يا مولاتي.

ـ اطمئنّي فلن أؤاخذك على ذلك. أعرف أنّ علينا القيام بعمل كبير في هذا المجال فأغلب نسائنا لا يملكن وسيلة للحصول على المعرفة غير القراءات الجنائزيّة التي تتمّ أثناء السهر على الموتى.

داعبت بشكل آليّ الطوق القماشيّ الذي كان يحيط بوجهها وأشارت

إلى المرشد الدينيّ. تقدّم هذا الأخير بسرعة فشكر الربّ على نعمة الطعام الذي تمّ تناوله ثمّ مشى القهقرى راجعاً إلى مكانه. شبكت الملكة يديها وظلّت خاشعة للحظات ثمّ وقفت واقتربت من صديقتها مومئة برأسها ناحية الخارج.

ـ لنتمشَّ قليلاً.

سارتا جنباً إلى جنب إلى آخر الممرّ المفضي إلى مدرج من الرخام. نزلتا المدرج ثمّ عبرتا بهواً مزداناً بالمرمر المزخرف والزجاج اللازورديّ المتوهّج. لاح لهما باب الحديقة عن اليمين فاقتربت منه إيزابيل وأشرعت الباب وخرجت إلى الحديقة فتبعتها مانويلا. وما أن صارتا خارجاً حتّى أخذت إيزابيل تستنشق الهواء بملء رئتيها.

ـ هل تشمّين رائحة الياسمين؟ يقول المُورُو إنّها تسكر إذا شُمّت بإفراط.

ـ أليس ذلك طبع كلّ إفراط يا مولاتي؟

أومأت الملكة برأسها موافقة وقادت صديقتها في ممشى مغطّى بالرمل يتلوّى بين أشجار الصبّار والليمون. قالت مانويلا:

ـ هكذا إذن لم يبطئ الأخ دو تالافيرا في الوشاية بي إليك.

ـ ثقي أنّه لم يفعل ذلك قصد الإساءة أو النميمة. لو عرفتِه جيّداً لتأكّدتِ من أنّه فوق هذه الصغائر. لم يحدّثني في الأمر إلاّ لأنّ انسحابك بتلك الطريقة أثار قلقه على صحّتك. لقد ظنّ فعلاً أنّك تعرّضت إلى وعكة.

استدارت إليها قليلاً وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تواطؤ.

ـ وهو ما حصل فعلا أليس كذلك؟

رفعت مانويلا حاجبيها لا تدري ما تقول فاستأنفت الملكة حديثها.

ـ هو ما قلتُ لك. الأخ دو تالافيرا رجل جدير بالإعجاب. ثمّ إنّه ممتاز في وظيفته كوزير للماليّة. أقلّ ما يقالِ إنّه قادر على التصرّف بأقصى الموضوعيّة ما أن يتعلّق الأمر بخدمة القضيّة التي يؤمن بها. هل تصدّقين أنّ الحرص على الواجب بلغ به منذ سنوات حدَّ مصادرة مزهريّات الكنيسة لتمويل الحملة على البرتغال؟ كلّ شيء فيه يبدو قائماً على الرغبة في التجرّد وبلوغ المطلق وهو يفلح في ذلك.

ـ هذا جدير بالإعجاب فعلاً. كثيرون يحلمون بمثَلٍ أعلى لكن قَلّ من يفلح في الوصول إليه. وأنا أفضل دليل على ذلك. كم حلمت بإنجاز أشياء جميلة ونبيلة وكم تمنّيت الطيران فوق أعلى الذرى وأبهاها لكن ها أنا كما ترين: لا أسافر إلاّ من خلال الكتب ولا أفارق الكتب إلاّ إلى الأرض.

ـ أراك فجأة شديدة القسوة على نفسك. ألم تصمّي أذنَيّ منذ لحظة بمدائح المطالعة والتغنّي بمُتَع الذهن؟

انتزعت النبرة الساخرة ابتسامة من بين شفتي مانويلا.

ـ أنتِ على حقّ ولكن ماذا أصنع؟ ربّما لم أكن سوى كتلة من التناقضات.

ـ لا بأس. سيتكفّل العمر وكمائن الأيّام بتخليصك من تناقضاتك. ولكن على ذكر تالافيرا. . .إذا كان لي أن أتحدّث عن عيوبه فلاشكّ أنّ عيبه الرئيسّي يتمثّل في افتقاره إلى شيء من الواقعيّة.

أغمضت عينيها لحظة كأنّها تريد أن تستجمع ذاكرتها.

ـ قبل أحد عشر عاماً كنّا في طليطلة وخرجتُ في موكبي من القصر إلى الكاتدرائيّة. ارتديتُ فستاناً من الإستبرق الأبيض مطرّزاً بقطع ذهبيّة أذكر أنّها كانت في شكل أُسُودٍ وقُصُور. تزيّنت أيضاً بحلية من الياقوت ووضعت تاجي وتدثّرت بمعطف مبطّن بفرو الفقم يحمله من خلفي

وصيفان. ذاك كلّ ما في الأمر. فهل تدرين ماذا قال لي بعد سنوات طويلة وهو يذكر موكبي يومها؟ لقد لامني على «الإسراف» وعاتبني على «الاستعراض العقيم» للثروة. لكنّه مخطئ على الرغم من احترامي الكبير لذكائه. علامات الثراء وأبّهة الاحتفالات وبريق البلاط والعناية التي أوليتها وأوليها لزينتي وملابسي، كلّها تفاصيل أريد من ورائها التأكيد على المسافة الفاصلة بين سلطة الملك وغيرها من السلطات. إنّها التعبير عن رغبتي ورغبة زوجي في إعادة الهيبة إلى سلطة الدولة في كلّ المجالات. وفي هذا السياق يندرج حرصي على إسقاط بعض الامتيازات عن عدد من النبلاء وإبعاد البيوت الكبيرة وأصحاب الألقاب عن الوظائف الإداريّة الكبرى.

مع تقدّم الملكة في الحديث ارتسمت ملامح الحرج على وجه مانويلا. وما أن وجدت الفرصة سانحة حتّى قالت بصوت متردّد:

ـ لم أتمكّن يا مولاتي حتّى الآن من أن أشكرك باسمي وباسم أخي على كرمك وسخائك، فلولا تدخّلك بعد أن أُسقِطت عنه امتيازات الحضور في مجلس النبلاء لَمَا استطاع أخي الحصول على منصب سفير في روما.

ـ لا علاقة لهذا بالكرم والسخاء يا مانويلا. إنّه ضريبة أدفعها لرباط مقدّس يجمع بيني وبينك منذ الطفولة.

توقّفت عن الحديث وأثبتت عينيها في عيني مانويلا.

ـ هو رباط الصداقة. أنتِ تعرفين عمق هذه الكلمة أليس كذلك؟

ـ مولاتي، هل هناك في الوجود أجمل من أن نكون واثقين من صداقة إنسان؟ لو امتلكتُ الجرأة الكافية لقلت إنّي أحمل لك من المشاعر ما تتعانق به الأرواح وتتداخل حتّى يمّحي الخيط الذي يربط إحداها بالأخرى. حدّثتك منذ قليل عن مآخذي على الحبّ وأستطيع إضافة مأخذٍ

آخر أرى في علاقتنا أفضل دليل عليه: في ضوء البعد والسنوات والمسافات يمرّ الزمن على الحبّ فيصيبه بالضُعف ويمرّ على الصداقة فيزيدها قوّة.

صمتت هنيهة قبل أن تضيف:

ـ هذا لا يمنع أنّي مدينةٌ لك في ما يتعلّق بأخي خوان. وأتمنّى أن تتاح لي الفرصة ذات يوم كي أعبّر لك عن امتناني واعترافي بالجميل.

ردّت الملكة بنبرة واثقة:

ـ أعرف أنّك ستفعلين. ويومَها لا مجال للانسحاب كما انسحبت اليوم.

ـ مولاتي.

رجّع الصوت بين الأشجار وظهر أحد الخدم يركض في اتّجاههما وما أن وصل حتّى انحنى أمام الملكة وقال لاهثاً:

ـ مولاتي. أحد رجال الاستطلاع أخبرنا أنّ زوج مولاتي قد عَبَرَ نهر تاجه ويصلُ بعد ساعة من الآن.

فاجأها الأمر لكنّها لم تسمح لنفسها بإظهار أيّ علامة اضطراب.

ـ حسناً. أخبروا ماشطتي ووصيفاتي ولتعدّوا المائدة.

ـ سمعاً وطاعةً مولاتي.

ابتعد الخادم في الممشى.

ـ فرناندو هنا؟ في طليطلة؟ توقّعتُ أن لا يصل إلاّ بعد أسبوع. كنت أظنّه يقود المعركة على مشارف لوشة.

تغيّرت لهجتها فجأة.

ـ أراكِ لاحقاً يا مانويلا.

ثمّ انسحبت بخطى سريعة متوتّرة.

الفصل ٢

طليطلة، مطلع الشهر الثاني من سنة ١٤٨٧

صديقي صموئيل.

شالوم ليخا.

طليطلة ممطرةٌ هذه الأيّام ولا أدري لماذا أنظر إلى سمائها المثقلة المتدلّية فوق نهر تاجه فتذكّرني ببطن موريسكيّة أُخبِلت غصْباً. اغفر لي كتابتي المرتعشة وكثرة الكلمات المشطوبة في هذه الرسالة فقد وهن منّي العظم وأتلف عينيّ السهر لكثرة ما سوّدتُ من صحف وما شطبتُ من كلمات في المدّة الأخيرة.

حدثت أمور كثيرة منذ التقينا آخر مرّة قبل خمس سنوات، ولعلّها عشر سنوات. ولكن هل يهتمّ بما انقضى من الزمن من طعن في السنّ مثلنا وغطّت ذكرياته التجاعيد. وحده ما تبقّى من الزمن جدير بالاهتمام أليس ذلك؟ لم تَبْدُ لي هذه الفكرة بهذه البداهة قبل اليوم. والسبب بسيط: أنا على وشك الموت.

لا ترتجف يا صديقي. وإذا غلبتك نفسك فلتتركها إلى الحنين ولتصرفها عن الحزن. أمّا إذا حزنت فإنّ في ما سأفضي به إليك ما يجعل موتي أصغَر من أن يُأبَهُ له. لو لم أكن أعرف أيّ رجل أنت ولو لم أكن

واثقاً ممّا جمعنا من أخوّة في الفكر ولو لم أكن على يقين من الاحترام، وألحّ على هذه الكلمة، الذي شرّفتني به دائماً وعبّرت لي عنه أكثر من مرّة، لما تجرّأتُ على التوجّه إليك بهذه الرسالة. إذ لا أشكّ لحظةً في أنّ رسالتي هذه لو وقعت في يدي أيّ رجل سواك لما تردّد في النظر إليها نظرته إلى هذيان شيخ مجنون. أمّا أنت فأعرف أنّك لن تفعل. أعرف أنّ ثقتك فيّ كانت دائماً نهراً يجري دون انقطاع كالوادي الكبير لا ينال منها الزمن ولا البعد.

لم أنس طبعاً حزنك وخيبة ظنّك يوم أفضيتُ إليك بقراري الخروج من دين أبراهام والدخول في دين الناصريّ ملتحقاً بقطيع الخنازير الذين يطلقون عليهم هنا اسم **المرّانو**. لكلٍّ طريقته في التعامل مع العواصف التي تهبّ عليه. اخترتَ أنت شمس غرناطة واخترتُ أنا ظلّ الصليب ولم أكن الوحيد. فلماذا؟ لماذا هؤلاء الآلاف من المارقين هنا في إسبانيا والحال أنّ شعبنا في سائر بلاد العالم وفي كلّ الأوقات فضّل دائماً المنفى والموت على المروق؟

لديّ جواب قد ترفضه لكنّي أفضي به إليك. ليس اضطهاد اليهود الإيبيريّين وليد اليوم بل هو يعود إلى تلك الأيّام الخوالي حين كان الملوك القوط سادة شبه الجزيرة بلا منازع. وقد تواصل هذا الاضطهاد على مرّ العصور وازداد بطشاً. ولا يخفى عن مثلك يا صديقي أنّ أكثر الناس صموداً يأتي عليه يوم فلا يجد في صموده بقيّة. ينفخ في النار وينفخ ثمّ لا يلبث اللهب أن يرتعش ليفضي في النهاية إلى عتمة. أمّا أنا فلتعلم أنّي دافعٌ ثمن ارتدادي. ولكن عن أيّ ارتداد نتحدّث وأنا لم أجثُ في كنيسة طيلة هذه السنوات إلاّ سمعتُ صوتاً في أعماقي يهتف بي: ***شيما إسرائيل***، اِسمع يا إسرائيل، ***آدوناي إلوهينو***، الربّ إلَهُنَا، ***آدوناي إيهاد***، ربٌّ واحد. لا موجب لهذا الجدل الآن على أيّ حال ولا أدري لماذا تطرّقتُ إليه في حين أنّ موضوع رسالتي أبعد ما يكون عنه.

أدعوك الآن إلى أن تنتبه إليّ بفكرك كلّه وأن تجعل منه سنوّراً بارز المخالب في انتظار القبض على ما أنا مُفْضٍ به إليك. سأكشف لك عن أعجَبِ أسرار الكون وأكثرها خطورة. حرّر عقلك من كلّ شاغل واشرب كلماتي حرفاً حرفاً. اصرف ذهنك عن شذى الياسمين وأذان المؤذّنين وثرثرة النساء المنقّبات حول صهاريج المياه ولا تدَعْ شيئاً من هموم الأرض يشغلك عن قراءة ما يلي.

إنّها حكايةُ كتاب.

كتاب ولد في فجر الزمن بعد المَزْج الأوّل وبعد ظهور الكلمة الأولى في *البرشيت*: سفر التكوين. كان ذلك زمنَ آدم وحوّاء.

إنّها حكاية كتاب.

كتاب لا ذكر له في أيّ من كتب الديانات السماويّة الثلاث. لا ذكر له في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن ولا تتعرّض له آية أو صلاة.

دعني أوضّح لك قبل أن أوغل في الحديث أنّي أستعمل كلمة كتاب رغبة في تيسير الفهم فالأمر متعلّق في الحقيقة بلوحٍ. والعجيب أنّه ليس كالألواح التي ورد ذكرها في الأسفار والأخبار بل هو لوحٌ من الحجارة الكريمة، ومن حجر السفير تحديداً، بطول ذراع ونصف الذراع وعرض ذراع.

بدأ كلّ شيء مع الخطيئة الأولى وخروج آدم وحوّاء من الجنّة واشتعال الغيرة في صدر قايين والوقوع في المحذور: ارتكاب أوّل جريمة على الأرض. ولا شكّ أنّ قتل الأخ لأخيه كان أكبر دليل للخالق على هشاشة مخلوقه. وكان في وسع الربّ أن يمحو هذا المخلوق من الوجود أو أن يجعل له على امتداد حياته سنداً يهديه إلى الصواب عند كلّ عثرة. لكنّه وسعنا برحمته واختار لنا العون والهداية.

اختار الربّ الإله الذي لا يمتنع عن قدرته شيء أن يبدع لنا سِفراً

مُقَدّساً تتغيّر كلماته وتختلف من عصر إلى آخر. فإذا هي كلمات جديدة كلّ مرّة. وإذا هي تتجلّى في القرن واليوم والساعة التي يقدّرها جلّت قدرته فتكشف لأهل كلّ عصرٍ ما أغمض عليهم من أسرار وما أشكل عليهم من مسائل طارئة. فإذا هم يهتدون إلى النور إذا أضلّتهم الظلمات وينعمون باليقين متى افترسهم الشكّ ويستعيدون الحكمة حيث يحكمهم الجنون ويعثرون على الحقيقة حين يسودهم الكذب.

هل أنت على وعي يا صديقي بروعة هذه الهبة الإلهيّة؟ لقد خلقنا الربّ الإله أحراراً وحمّلنا مسؤوليّة أعمالنا إلاّ أنّه عرفنا ضعاف النفوس وهو أكبر العارفين فشملنا بواسع رحمته ووهبنا خارطةً للروح. خارطة تتبيّن بها الروح الخطأ من الصواب. تمعّن يا صديقي في عمق هذه الفكرة وفكّر في عظمة هذه الهبة الإلهيّة ودلالاتها اللانهائيّة.

نَسَلَ عن آدم الآباءُ الأُوَل: شيت وأنوش وقينان ومهلاييل ويارد وأخيراً ذاك الذي جاء في التوراة أنّه سار مع الله وأنّ أيّامه كانت ثلاثمائة وخمساً وستّين سنة. ولا شكّ أنّك عرفت اسمه: أخنوخ. أدعوك إلى أن تحتفظ بهذا الاسم ففيه يكمن مفتاح السرّ الكبير.

لم يشأ الربّ الإله لكتاب السفير أن يتاح لكلّ من هبّ ودبّ بل خصّ به عددا من المختارين من عباده الصالحين. مجموعة من الهُداة يتولّون من جيل إلى آخر قيادة العالم وإعادته إلى طريق الحقيقة.

ستعرف الآن لماذا ذكرت لك اسم أخنوخ. لقد كان أوّل هؤلاء المختارين. جاءه بالكتاب رزيائيل الملاك نفسه الذي ورد في ترجوم سفر الجامعة أنّه كان يقف كلّ يوم على قمّة جبل حورب كاشفاً أسرار الناس للعالَمين فيدوّي صوته في أرجاء الأرض. عاش أخنوخ ثلاثمائة وخمساً وستّين سنة ثمّ لم يمت لأنّ الله أخذه. نعلم أنا وأنت أنّه ما من كلمة في التوراة إلاّ وهي حمّالة أوجه ذات معانٍ خفيّة كالنسغ الذي يختفي تحت

قشرة الجذع. لذلك يكتفي البعض بالمعنى الظاهر من العدد «٣٦٥» والفعل «أخذ» أمّا من كان مثلي ومثلك فيحاول تأويل الكلمات وتحليل الشفرة بحثاً عن بواطن الأمور.

لم «يُؤخَذْ» أخنوخ عقاباً بل جزاءً له على عدله ونأياً به عن الأرض كي لا يواجه سكرات الموت مثل غيره من البشر. أمّا العدد «٣٦٥» الموافق لعدد أيّام السنة الشمسيّة فهو يخفي رسالة مشفّرة لا أرى داعياً إلى الإفاضة في تفكيك رموزها مع مرجع في القبالة مثلك.

لنعد إلى الأهمّ. رحل أخنوخ فماذا حدث للكتاب وإلى من آل أمره؟

للعثور على الجواب لن تحتاج إلى أكثر من اقتفاء أثر الرجال الأبرار الذين سطع نجمهم على امتداد تاريخ البشريّة. ولاشكّ أنّك لن تجد صعوبة في ذكر نوح وأبراهام ويعقوب ولاوي وموسى ويوسف وصولاً إلى سليمان. سليمان الملك المؤسّس. سليمان حكيم الحكماء وباني الهيكل. سليمان الذي يطلق عليه المسلمون اسم ملك الإنس والجنّ. وإذا كان في وسعنا الوثوق من أنّ رجلاً تلقّى هذه الهبة الإلهيّة فلا شكّ أنّ هذا الرجل هو سليمان. بل لعلّي أعلم متى حدث ذلك. ألم يجئ في التوراة أنّ الربّ تراءى لسليمان في حلم ليلاً وكان في جِبْعُونَ وقال له إِسْأل ماذا أعطيك فطلب منه سليمان الحكمة؟ أغلب الظنّ عندي أنّ كلّ شيء حدث تلك الليلة.

لا أحد يجهل كم كان عهد سليمان زاهراً وكم كانت نهايته مؤسفة. هو المختار أطرد نفسه من زمرة المختارين طوعاً. ما الذي زيّن له فجأةً أن يخرج على وصايا الربّ؟ لماذا أخذ فجأة يكنز الذهب والفضّة ويجمع من الخيول ما لا حاجة له به؟ لماذا عنّ له في زمان الشيخوخة أن يحبّ نساءً كثيرة من الأمم التي قال الربّ لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم فأَمَلْنَ قَلْبَهُ وراء آلهة أخرى ونصب لتلك الآلهة تماثيل جَنْبَ تابوت العهد؟

أغلب الظنّ عندي أنّ كتابَ السفير سُحِبَ منه قبل ذلك بقليل ففقد رشده.

ماذا كان مصير خارطة الروح بعد ذلك؟ لقد بحثتُ ونقّبت طويلاً وبذلت من الجهد والصبر ما يفوق الوصف قبل أن أفلح في اقتفاء أثر السِفْرِ النفيس. غضب الربّ على سليمان وقال له: ***«من أجل أنّ ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإنّي أمزّق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك»***. وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك أيّها الصديق. تمزّقت المملكة وأقام الربّ لسليمان خصوماً كثيرين من بينهم يَرُبْعام وهو عبد لسليمان كان قائماً على أعمال البناء عنده. وكان السبي الأوّل. ثمّ جاء عام ٥٨٦ قبل توحيد التاريخ. وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ نصر ملك بابل جاء نَبُوزَرَادَانَ رئيسُ الشُرَطِ إلى أورشليم وأحرقَ بيتَ الربّ وبيت الملِكِ وكلّ بيوت أورشليم. وكان السبي الثاني.

هل تخلّى الربّ السرمديّ نهائيّاً عن أبنائه العاقين؟ هل رأى أن يتركهم لمصيرهم الأسود؟ ولماذا لا يفعل إذا كان هذا الشعب «صلْب الرَقَبَة» قد خان فرائض الربّ مرّات ومرّات على امتداد تاريخه؟ إلاّ أنّ أدوناي كان أوسع رحمة من عباده. ما أن مرّ سبعون عاماً حتّى كان قورش ملك فارس يدخل بابل ويعيد آنية بيت الربّ التي أخرجها نبوخذ نصر ويسمح لبني إسرائيل بالعودة إلى وطنهم. فآثر بعضهم البقاء في أماكن اغترابهم منشئين أوّل طائفة يهوديّة في الشتات وعاد بعضهم كلٌّ إلى مدينته بينما فضّل آخرون، وهم الذين يهمّوننا هنا، أن يختاروا منفى من نوع آخر. اختاروا صَفارِد. وهي غير تلك التي ورد ذكرها في سفر عُوبَدْيَا في قوله ***«وسَبْيُ هذا الجَيْشِ من بني إسرائيلَ يرثون الذين هم من الكنعانيّين إلى صَرْفَة، وسَبْيُ أورشَلِيمَ الذينَ في صَفَارِدَ يرثون مُدُنَ الجنوب»***. لقد اختاروا صَفَارِدَ التي وردت في ترجوم يوناثان باسم إسبميا أو سبمبيا والتي نطلق عليها اليوم اسم إسبانيا.

ليلتها ظهر كتاب السفير من جديد. والغريب أنّ المختار هذه المرّة لم يكن من نسل نوح ولا من نسل موسى ولم يكن أميراً ولا حبْراً بل واحداً من أبناء المنفيّين على ضفاف الفرات خامل الذكْر لا شأن له. كان اسمه إسحاق بَرْوَل وكان يتأهّب للرحيل إلى إسبانيا. لماذا هو؟ لماذا هذا الرجل البسيط المتواضع؟ أزعم أنّي أملك الإجابة وأزعم أنّك لن تخالفني الرأي فيما بعد حين تصل بك الرحلة إلى حيث ينبغي أن تصل. عشيّةَ الرحيل والغروب يمزج اللون الأزرق بالرماديّ ظهر الكتاب المقدّس لإسحاق بَرْوَل وظهرت على اللوح الزرقاويّ كلمة بأربعة حروف:

יהוה

لاشكّ أن تلك الحروف كانت تتوهّج أمام عينيه الذاهلتين ولا شكّ أنّ قلبه امتلأ رعباً وهو يرى إليها ترسل أشعّة أبعد من أشعّة النجوم التي رصّعت سماء بابل.

صديقي صموئيل. أكاد أشعر بالقشعريرة تهزّ جسمك أنت العارف بما ترمز إليه هذه الكلمة الرباعيّة. أكاد أسمع قلبك يخفق وأرى جبينك يتصبّب عرقاً وأنت تعيد قراءة كلماتي المرّة تلو الأخرى متشكّكاً في صدق كلامي. أستحلفك بصداقتنا القديمة أن تثق في كلّ ما أقوله لك وأن لا ترى فيه أيّ كذب أو هذيان أو مبالغة.

יהוה

ها نحن أمام الاسم الذي يتعذّرُ النطق به: **يهوه**. الاسم الذي اختاره إلوهيم كي يتجلّى لموسى عند العُلّيقة الملتهبة والذي ستنشأ عنه علاقة خاصّة بين إسرائيل وربّها والذي يوجد جوهره في العبارة: «**أهْيَهِ الذي أهْيَهْ**» أنا هو أنا.

هل أنا في حاجة إلى الإلحاح على أبعاد هذا الأمر؟ لم يغْفَل إسحاق بَرْول عن أهميّة ذلك الرمز على الرغم من عدم تبحّره في الدين. كان

عاجزاً عن فهم المعنى من وراء تجلّي تلك الحروف لكنّه عرف أنّ وراءها يداً إلَهيّة. وإنّي لأتخيّله الآن من وراء كلّ هذه القرون وقد هرول مفزوعاً إلى حيث التاليث فوضعه على كتفيه بيد مرتعشة ثمّ بقى ساكناً المدّة الكافية لاجتياز مسافة أربعة أذرع مثلما جاء في التعاليم، ولعلّه وجد القوّة كي يصلّي قبل أن يلفّ اللوح المقدّس بقماشة ويضمّه إلى صدره ثمّ يبدأ رحلته الطويلة إلى إسبانيا.

لم أعثُر على أثره هنا إلاّ بعد لأي. بحثت عنه في قشتالة وأراغون وقرطبة وعلى ضفاف نهر دويرة فقيل لي إنّه شوهد في طالقة وسرقسطة، سألت عنه في قمبرة فقيل لي إنّه عاش في غرناطة وسمعت بأخباره في قادس فاتّضح أنّه أقام في برجة. والحقّ أنّي لم أكن أبحث عن أثر الرجل نفسه بل عن الخيط الدقيق لتفاصيل رحلته ورحلة عقبه من بعده. أمّا الكتاب نفسه فإنّي لم أبتعد عنه لحظة. لقد ظلّ طيلة هذه القرون في عهدة الأسرة نفسها، أسرتي، ولا شكّ أنّك ما أن قرأت اسم الرجل حتّى قفز إلى ذهنك اسمي: ابن برول. فهل أخذت الأمور تتجلّى لك الآن بشكل أفضل؟ أنا أحد ورثاء ذاك المنفيّ البابليّ وفي عروقي يجري شيء من دمه. أمّا الكتاب فقد اكتشفت أو لنقل إنّي استنتجت ما حدث له.

ما أن طاب لذلك الجدّ البعيد المقام في إسبانيا حتّى كوّن أسرة وأنجب أطفالا. ولا شكّ أنّه جمعهم ذات يوم وأسرّ لهم بما حدث له يوم خروجه من بابل ولا شكّ أنّه أراهم اللوح الأزرق وحلّفهم أن يفتدوه بأرواحهم وأن يتوارثوا عبء المحافظة عليه جيلاً بعد جيل. وأغلب الظنّ عندي أنّ الشكّ في صحّة الأمر ساور أغلب ورثائه إن لم أقل كلّهم لكنّ أيّاً منهم لم يخلف الوعد الذي قطعه الخلف للسلف. هكذا احتفظوا بالوديعة جيلاً بعد جيل.

الآن أدعوك يا صديقي إلى قفزة في الزمن تحملنا إلى ماضٍ أقرب إلينا بكثير. في السابع من شهر يناير سنة ١٤٣٣ قصّ عليّ والدي حاييم بَرُوَل

نفس القصّة. كنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمري وكنّا نقيم في برغش. قال لي الكلمات نفسها التي سمعها من أبيه. أذكر جيّداً لحظةَ حلِّ الرباط عن القماشة غير المغسولة منذ قرون كاشفاً عن اللوح. ولا أخفيك أنّ خيبة ظنّي كانت كبيرة. ماذا؟ هل هذا كلّ ما في الأمر؟ مساحة مائلة إلى زرقة لا أنكر أنّها تروق للعين لكن لاشيء فيها خارق أو فريد. والأنكى أنّ تلك المساحة كانت ملساء تماماً عاريةً من أيّ كتابة. أين راحت تُرى تلك الحروف التي أبهرت بتوهّجها جدّنا الأوّل؟ أين راحت الكلمة الرباعيّة؟

*

لم أجد صدى لدهشتي ولم يردّ أحد على أسئلتي. سألت والدي فاكتفى بالتأكيد من جديد على ضرورة الالتزام بتعاليم الأجداد ثمّ وضع اللوح في صندوق ولم يعد إلى ذكره.

توفّي والدي حين بلغت الخامسة والعشرين من العمر. وفي تلك الفترة بدأ اهتمامي بالقبالة ونشأ عن ذلك الاهتمام أن توفّرت الظروف كي نلتقي ونتصادق أنا وأنت. قد يخطر لك أن تسأل لماذا لم أُفضِ إليك بسرّ كتاب السفير في تلك الأيّام؟ السبب بسيط: كنّا نعيش أيّاماً عصيبة وكان الكتاب قد خرج من ذهني تماماً.

تذكّر. كنّا في سنة ١٤٤٥ وكانت حروب الاسترداد على أشدّها وكانت الممالك العربيّة تسقط الواحدة تلو الأخرى. ثمّ مرّت السنوات وتزوّجتُ وبعد أشهر تزوّجتَ أنت أيضاً. إلى أن كان اليوم المشؤوم في أواخر سنة ١٤٧٨ حين أصدر البابا سيكستو الرابع المرسوم الذي سمح للملكة إيزابيل وللملك فرناندو بإنشاء محاكم التفتيش. لحظتَها سرتَ أنت في طريق وأنا في طريق. لم يكن أمامي مثل الآلاف مثلي إلاّ التنصّر بينما هاجرت أنت بأهلك إلى غرناطة آخر الممالك العربيّة الصامدة التي كان إخوتنا يجدون فيها الأمن والملاذ.

الآن يا صديقي أسألك المعذرة إن كان حديثي قد طال عليك أو ثقل بكلّ هذه الذكريات. وأدعوك إلى الانتباه من جديد فقد صرنا حيث يحتاج ما أقوله لك إلى كلّ ما تملك من طاقة على الانتباه.

ذات ليلة قبل ستّة أشهر جلستُ إلى طاولتي أكتب كعادتي في مثل ذلك الوقت من كلّ يوم. كنت منكبّاً منذ أسابيع على تأليف رسالة في تحليل أحد الكتب المدراشيّة وكنت مستغرقاً في الكتابة حين أحسست فجأة ودون أيّ سبب بأنّ قوّة لا قِبَلِ لي بها تدفعني إلى النظر ناحية صندوق من خشب الجوز مسندٍ إلى الجدار. شعرت بانزعاج شديد أوّل الأمر وحاولت جاهداً استعادة التركيز على ما كنت فيه من تأليف لكنّ جهودي كلّها ذهبت هدراً. لماذا جلب انتباهي فجأة وبهذا الإلحاح صندوقٌ كان دائماً في ذلك المكان؟ فجأة تذكّرت. . .في ذلك الصندوق نحتفظ بكتاب السفير. منذ أربعين سنة والكتاب بعيدٌ عن دائرة اهتمامي غائبٌ تماماً عن ذاكرتي. قبل أعوام أفضيت بأمره إلى ولدي الوحيد دان وأوصيته بمثل ما أوصاني والدي ثمّ انصرفت عنه إلى شؤون الحياة فلماذا عاد إلى ذاكرتي تلك الليلة وبتلك الصورة؟

نهضت من مكاني وكأنّي لا أملك من أمري شيئاً واتّجهت ناحية الصندوق. لا أدري لماذا مكثتُ ساكناً للحظات قبل أن أرفع عنه الغطاء ببطء. رأيت اللوح لم يبرح مكانه فأخذته وأخرجته من لفافته مثلما رأيت أبي يفعل منذ قرابة نصف القرن. لحظتها رأيت ما هو فوق كلّ توقّع. صدّقني يا صديقي صموئيل. رأيت الكلمة الرباعيّة:

יהוה

يهوه. اسم الربّ الإله.

تراجعتُ فزعاً بل رُعْباً وخفق قلبي بشدّة حتّى خشيت أن يخرج من حلقي. حاولت استرجاع أنفاسي وبحثت عمّا أتشبّث به من حولي فلم

يسعفني فراغ الغرفة بشيء وظللت للحظات أترنّح مثل بهلوان فقد التوازن. لم يكن حلماً ولا وهماً تَصَوَّرَ لذهنٍ هرّأته الشيخوخة. كلاّ. أؤكّد لك أنّي رأيتُ الحروف الأربعة. رأيتُ الاسم الذي نكتبه دون أن ننطق به. رأيت حروفه مثلما رآها جدّي الأوّل تلك الليلة البعيدة وهو على ضفّة الفرات. هل تصدّقني يا صديقي صموئيل؟ أرجوك أن تصدّقني. بل يجب أن تصدّقني فإنّ ما يلي أعجب وأخطر ممّا فات بكثير.

بعد لحظات ومثل اللهب الذي يرتعش قليلاً ثمّ يتلاشى اختفت الكلمة. ظللتُ متسمّراً في مكاني مثل التمثال متسائلاً إن كان ما رأيته حقيقة أم شطح خيال وفجأة أخذت تظهر على سطح اللوح الزرقاويّ كلمات تلو كلمات. ثمّ استوت الكلمات نصّاً وكأنّ يداً كانت تكتب دون أن تراها العين. شعرت بأنّ العبارات كانت تنفصل عن قالبها وترتفع نحو السماء قبل أن ترتمي في عينيّ. كنت أحسّ بأنّها تندفع إلى أعماقي اندفاع السيل من أعلى الجبال. ظلّت السطور تتبع السطور في وضوح باهر ولم يبق مجال للشكّ. كان آدوناي يكلّمني. كان إلُوهيم يكلّمني. لأمرٍ أجْهَلُهُ اختارني الربّ السرمديّ أنا ابن برول كي أتلقّى رسالته.

كم قرأتُ من كتبٍ يا صموئيل. كرّستُ حياتي كلّها من أجل محاولة الوصول إلى الممتنع وفهم الغامض ورؤية الخفيّ. ظننت أكثر من مرّة أنّي أبلغ قاع الحقيقة أو لعلّه قاع الزيف. نهلت حدّ الإشباع من نبع التوراة. ضممت روحي إلى التلمود والزوهار. حثّني نهمي إلى المعرفة على اكتشاف كتب مقدّسة أخرى فقرأت القرآن ووجدت فيه لأبراهام وموسى المكانة اللائقة بهما. ثمّ حاولت تبيّن الخطأ من الصواب في أسطورة يسوع، عيسى المسيح، فقرأت الأناجيل. ها أنت ترى يا صموئيل كم قرأت وكم ظللت ألهث وراء المعرفة وكم جبت الصحارى والسهول الخصبة وكم سهرت الليالي محاولاً إحصاء النجوم. قادني أكثر من فجرٍ إلى حافة الجنون وأوصلني أكثر من غروب إلى عتبات الحكمة ولكن لا

شيء، هل تسمعني يا صموئيل؟ لا شيء يشبه من بعيد ولا من قريب معاني الرسالة التي عهد بها إليّ اللوح المقدود من الحجارة الكريمة، ذلك اللوح الأزرق المقدود من حجر السفير.

لا أدري كم مرّ عليّ من الوقت وأنا واجمٌ في مكاني. استعاد اللوح صمته وغابت الكلمات من جديد وظللت لا أستطيع تحويل عينيّ عن زرقة ذلك السطح الأملس. ثمّ أيقظتني أشعّة الفجر وهي تنعكس على تعرّجات نهر تاجُه فحزمت أمري على التحرّك وقد بدا لي أنّي أضعت الكثير من الوقت. لقد أُمِرتُ بعدم الكشف عن شيء من محتوى ما قرأته في اللوح ولكن سُمِح لي بأن أكشف عمّا يخصّني فيه لأنّه متعلّق بمصيري الشخصيّ.

أخبرتُك في مطلع الرسالة بدنُوّ ساعتي ولم يكن ذلك نبوءةً منّي بل هو ما قرأته في الكتاب. نحن في اليوم الثالث من الشهر الثاني وقد جاء في الكتاب أنّ مجموعةً من أعوان ديوان التفتيش مصحوبين بقاضٍ وعدد من رجال الشرطة سيقومون بإيقافي في التاسع من الشهر أيّ بعد ستّة أيّام. وأعرف منذ الآن محتوى قرار الاتّهام: غيّر ملابسه يوم السبت ورفض أكل شريحة من لحم الخنزير. لم يُذْكَرْ اسمُ من وشى بي لكنّنا نعرف أنا وأنت أنّ الجميع يَشُونَ بالجميع هذه الأيّام: الابنُ بأبيه والمرأة بزوجها والأخ بأخيه. بل إنّ المتّهم نفسه أصبح مجبراً على الوشاية بنفسه والاعتراف بذنوب هو غالباً آخر من يعلم بها.

هكذا لن تصلك رسالتي إلاّ وأنا بعيد عن هذه الدنيا. إحساس غريب أليس كذلك؟ أن تمسك في يديك بورقة عليها رائحة عرقي وأثر أنفاسي مدركاً في الوقت نفسه أنّ جسدي الآن ليس سوى رماد. ولاشكّ أنّك ستسأل أوّلاً لماذا هذه الرسالة المتأخّرة والحال أنّ ما حدث يعود إلى ستّة أشهر؟ فاعلم أنّي لم أفرغ إلى الكتابة إلاّ الآن. كنت مكلّفاً بمهمّة وعلى عتبة الموت. كان عليّ أن أبحث للكتاب المقدّس عن مخبأ آمن. بهذا

انشغلت طيلة المدّة التي بقيت لي على قيد الحياة. أجل يا صموئيل. لقد أخفيت الكتاب.

أكاد أرى من مكاني هذا ملامح الاستنكار تعلو وجهك. أكاد أسمع أسئلتك ونبرة صوتك الغاضبة. ولعلّك تصرخ: «كيف؟ صديقي ابن بَرْوَل يعثر على كتاب إلهيّ يضمّ حلول الألغاز التي أعيت فهمَ البشر على امتداد الزمن وعوضاً عن أن يضع مفتاح هذه الألغاز في متناول الجميع ها هو يحتكره ويخفيه. يا له من عملٍ أخرق. يا له من عملٍ حرام».

كلاّ يا صموئيل. ليس بالعمل الأخرق ولا بالحرام. يصعب عليّ الآن الدخول في التفاصيل ولكن اعلم أنّي لم أفعل غير ما أُمِرت به في ما قرأته. لأسباب يتعذّر عليّ شرحها كان لابدّ للكتاب من أن يختفي وأن يُصبح موضوع رحلة من أجل البحث عن المعرفة. أن يصبح نوعاً من الكأس المقدّسة التي على البشر، وأنت المعنيّ هنا، أن يفوزوا بها أي أن يكونوا جديرين بها. وأفتح هنا قوساً لأقول لك إنّي لم أستعمل كلمة كأس صدفةً. ألا يعتقد المسيحيّون أنّها الكوب الذي احتوى دم يسوع المسيح؟ أليس الدم مبدأ الحياة ومن ثمّ مرادف القلب والجوهر؟ إذَنْ فاعلم أنّ الرمز الهيروغليفيّ المصريّ الذي يدلّ على القلب هو في الوقت نفسه كوب و. . .كتاب. أجل. كتاب.

هل تفهمني؟

الأرجح عندي أنّ إحساسك بالخيبة وشعورك بالإحباط يعميانك عن فهمي. لكنّي أدعوك إلى الوثوق بي. اتّخذْ لك مسافة من الموضوع ونحّ عنك دواعي المزاج ولا شكّ أنّك مع الزمن ستكتشف أنّي فعلت الشيء الوحيد الممكن. ثمّ لا شكّ في أنّ عدم فهمك لي سيتلاشى دفعةً واحدة ما أن يحين دورك في الائتمان على الهبة الإلهيّة. أجل. قلتُ: «ما أن يحين دورك». وذلك لأنّي على الرغم من المظاهر التي قد توحي بالعكس

لم أتصرّف إلاّ عن رويّة وبعد طول تفكير. لا أرحل عن هذا العالم حاملاً سرّي معي. كلاّ. رسالتي هذه مرفقة بمجموعة من الألغاز المحكمة التي تخفي مجموعة من الإشارات والعلامات. إنّها خارطة صمّمتُها في شكل نصوص تضمّ شذرات من روحي. فُكَّ شفرة هذه الشذرات وأنت تجد المكان الذي أخفيت فيه الكتاب.

أعرف أنّ النجاح يتطلّب منك التسلّح بكلّ الصبر والمثابرة والمعرفة التي هي في حوزتك. ولعلّي لا أذكر يهوديّاً في كلّ شبه الجزيرة يحفظ التوراة كلّها عن ظهر قلب مثلك. لكن ها أنا أحذّرك. لن يمنعك تبحّرك في التوراة وفي القبالة من المرور بامتحان عسير. فقد رأيت احتراماً لشخصك وتقديراً للعالِم فيك أن لا أسهّل عليك المهمّة.

ها أنا قلت كلّ شيء.

أنت حرّ طبعاً في القيام بهذه الرحلة أو القعود عنها. وفي وسعك تمزيق هذه الرسالة والخارطة المرفقة بها والإلقاء بهما في النار كما أنّ في وسعك اعتبار كلّ ما قرأته محض هذيان. الخيارات كلّها مفتوحة أمامك. لا أطلب منك شيئاً. لا أطلب منك إلاّ أن ينسجم اختيارك مع حقيقتك الكامنة في أعماق ذاتك. هذا كلّ ما في الأمر.

لكنّي أودّ قبل أن أودّعك أن تتأمّل في هذه الكلمات لمعلّمنا موسى ابن ميمون: ***علّة العلل وأصل كلّ علم أن نقرّ بوجود كائن أوّل إليه يرجع وجود كلّ موجود. وما من مخلوق في السماء والأرض وما بينهما إلاّ وهو مدين بوجوده لحقيقة وجود الكائن الأول.***

سأشتاق إليك يا صموئيل. وإذا كانت الصداقة شكلاً من أشكال الحبّ فثق أنّي لم أكن أقرب إلى حبّك منّي في هذه اللحظة.

لاخ لي شالوم.

ابن برْوَل

الفصل ٣

اعطيه صدقة أيتها المرأة،
ليس أشقى في الحياة من أعمى في غرناطة. . .
(. . . . . .)

غرناطة، أوائل الشهر السادس من سنة ١٤٨٧ .

ترك صموئيل عزرا ليده اليمنى أن تلعب بذؤابة لحيته كعادته حين يكون مشغول البال لكنّه لم يلبث أن أحسّ بألم شديد فأصابعه المنمّلة التي هرّأها التهاب المفاصل أصبحت أشدّ عليه من ذي قبل. قرأ الفقرة الأخيرة من رسالة ابن برْوَل للمرّة الثانية ثمّ قال للشابّ الذي جلس ينتظره في صمت في طرف الغرفة:

ـ كان والدك أعزّ صديق لديّ.

كرّر ملحّاً:

ـ أعزّ صديق لديّ.

ـ بادلك والدي الشعور نفسه يا رِبّي عزرا، فأنا أعرف كلّ شيء عنك من قبل أن أراك بكثير. ومهما رجعتُ بالذاكرة فإنّي لا أرى أبي يلهج بغير اسمين: اسم أمّي سارة التي توفّاها الربّ واسمك أنت.

هزّ الحبر رأسه موافقاً وقد لاح وجهه في ضوء الشمعدان شاحباً بارز التقاطيع. كان الضوء يتوقّف لحظة عند تجاعيد الجبين الشبيهة بالوهاد ثمّ يقفز وكأنّه يعبر حواجز في اتّجاه الأنف الطويل ليتوقّف من جديد حبيسَ

الهالتين الرماديّتين أسفل كلّ عين قبل أن يذوب في الفرجة الوحيدة التي تتخلّل هذا الخليط من العتمة والعذاب: زرقة العينين الفاتحة. بدا له التناقض صارخاً بين شيخوخته ذات السبعين عاماً وشباب دَانْ بَرْوَل ابن صديقه. فكّر أنّ الفتى لم يتجاوز العشرين وخطر له للحظةٍ أنّهما يمثّلان مسيرتين تطلّ إحداهما على الفجر بينما تشرف الثانية على الغروب.

أحسّ بالألم يتحوّل إلى جمرة تتضخّم في أعماقه ولم يكن ذلك بسبب الأخبار التي جاءته بها الرسالة على الرغم من أهميّتها وعجائبيّتها بل كان بسبب حزنه العميق لفقدان صديقه، وربّما أيضاً بسبب إحساسه فجأة بأنّ جانباً آخر من جوانب حياته ينهار إلى غير رجعة. دوّت فجأة أصوات طلقات بعيدة تبعتها انفجارات مدافع وصرخات ثمّ وصلتهم أصداء رشقة أخرى من الطلقات اهتزّ لها جسم دان.

- ما الأمر؟

- إنّهم هؤلاء المجانين العرب يعودون إلى الاقتتال من جديد.

- وهل يقتتلون فيما بينهم؟ كنت أظنّهم في حرب على القشتاليّين.

- يحتاج الأمر إلى شرح طويل. يكفيك الآن أن تعلم أنّنا نشهد منذ أشهر حروباً بين الإخوة لا يخمد أوارها. وإذا استمرّت الأمور على هذا النحو لن يبقى غرناطيّ واحد لمواجهة القشتاليّين وسيكون في وسع إيزابيل وفرناندو أن يدخلا غرناطة دون قتال. لنعد إلى رسالة والدك. لماذا تأخّرت بها عنّي كلّ هذا الوقت؟

- حرصاً منّي على تنفيذ أوامر والدي بحذافيرها. طلب منّي ألاّ أتوجّه إليك بالرسالة إلاّ بعد أن أتأكّد من موته. وقد ظلّ محبوساً طيلة شهرين ولم يتمّ تنفيذ الحكم بالإحراق إلاّ في الثامن والعشرين من الشهر الرابع.

جاهد عزرا كي يخفيَ إحساسه بالغثيان. الإحراق. ها هو جنون الإنسان يُختزل في حروف معدودة. مرّ شريط من الصور في مخيّلته وفكّر

دون وعي أنّ الارتداد يستحقّ شديد العقاب، إلاّ أنّه سرعان ما آخذ نفسه على هذه الفكرة. كان يعرف في قرارة نفسه أنّها فكرة تبسيطيّة وظالمة.

ـ ها أنت وحيد يا ولدي.

ـ أنا يتيم يا رِبّي لكنّي لست وحيداً. أنا متزوّج.

ـ متزوّج؟ في العشرين؟

ـ بل في السادسة والعشرين.

ـ لم تكن مقيماً مع أبيك إذَنْ فكيف وصلتك الوثائق و. . . ؟

ـ أنا أقيم مع زوجتي في قونقة وقد جاءني أبي إلى هناك.

أضاف كمن تذكّر شيئاً:

ـ عليّ أن أعود بسرعة فلديّ طفل في الثانية من عمره وعَملٌ في انتظاري.

ـ وأين تعمل؟

ـ في مدبغة.

ـ لا سبيل إلى أن تَخرج في هذا الليل. هل تعشّيت؟

حاول الشابّ ردّ الاقتراح بحركة خجولة.

ـ بل يجب أن تتناول شيئاً يقيم الأود فقونقة ليست في الجوار. ويجب أن تنال قسطاً من الراحة. يا تيريزا.

سُمِعَ وقع خطوات وأطلّت من الباب خادمة في الأربعين من العمر مائلة إلى السمنة تمنطقت بمنديل وعقصت شعرها وبدت ممتلئة الوجه.

ـ تيريزا. تدبّري شيئاً من الطعام لهذا الشابّ فقد قام برحلة طويلة وأعدّي له فراشاً لأنّه سيبيت معنا الليلة.

أومأت المرأة برأسها مرحّبة ودعت دان إلى الالتحاق بها.

ما أن انفرد عزرا بنفسه حتّى فرغ إلى ما أسماه صديقه الراحل ***«مجموعة من الألغاز المحكمة التي تخفي مجموعة من الإشارات والعلامات»***، فشعر بضيق لم يعرف مأتاه وأحسّ بخليط من الفضول والتخوّف. استنشق طويلاً ثمّ انكبّ على الخارطة محاولاً فكّ شفرتها.

لا يعرف كم مرّ عليه من الوقت وهو في مجلسه ذاك. انتبه إلى نفسه فجأة فإذا الشموع تحتضر وقد انكمشت ذبالاتها وذاب شمعها ثمّ تجمّد على قضبان الشمعدان وأوشك على ابتلاع آخر اللهب. كان الفجر قد أرسل خيوطه الأولى من وراء مصاريع النوافذ نصف المغلقة. ظلّ عزرا ساكناً للحظات وقد اضطرب اضطراباً كبيراً وأخذ منه التعب كلّ مأخذ وكاد لا ينتبه إلى صوت دان المتثائب وهو يسأله:

ـ يبدو أنّك سهرت طوال الليل يا ربّي. هل أنت بخير؟

ـ كلاّ. كلاّ لست بخير.

ـ هل أزعجتك رسالة والدي؟

ـ ليس الأمر متعلّقاً بالرسالة.

نقر على الصفحات بسبّابته التي شوّهها الالتهاب.

ـ الخارطة ناقصة.

اقترب منه الشابّ مضطرباً.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول يا بنيّ إنّ والدك ولأسباب أجهلها أراد أن يتسلّى على حسابي.

وأضاف دون أن يترك لدان فرصة الردّ:

ـ انتبه إليّ جيّداً. هو ذا النصّ. إنّه عبارة عن كرّاس مقسّم إلى ثمانية أجزاء متفاوتة الحجم كلّ جزء منها يحمل عنوان **«قَصْر»**. لا تسألني عن معنى هذه الكلمة ولا عن السبب الذي جعل أباك يختار استخدامها. يكفي

أن تعلم أنّ في وسعنا تعويض كلمة «**قَصْر**» بكلمة «**فصل**». هل تفهمني؟

أومأ الفتى برأسه موافقاً.

ـ تبدو هذه «**الأجزاء**» للوهلة الأولى متناقضة مبهمةً غير قابلةٍ للفهم. تخيّل مشهداً طبيعياً انفجرت ألوانه وأشكاله وتطايرت كلّ في اتّجاه أو غرفة قُلِب أثاثها رأساً على عقب أو صُورة لشخصٍ عُوّضت ملامحه برموز لا شيء فيها يمتّ إلى وجه الإنسان. وعلى الرغم من ذلك فإنّي واثق من أنّ هذه الشذرات المتفرّقة تمثّل، متى أُحْكِم تجميعها، نصّاً مكتوباً وفقاً لمنطق شديد الصرامة.

ـ يبدو أن والدي أرسل إليك ما يمكن تسميته بمجموعة من الكريبتوغرام أو البرقيّات المشفّرة.

ـ هو ذاك تماماً. لكنّ ما يزعجني ويحبطني أنّ العبارات في هذه البرقيّة تبدو غير كاملة. انظر.

انحنى دان من فوق كتف الحبر وأخذ يقرأ:

«القَصْرُ الأوّل الرئِيسِيّ»

مُبَارَكٌ مَجْدُ ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاِسْمُ في ٦.

لَحْظَتَهَا سألتُ أَمِيرَ الوَجْهِ. قلتُ لهُ ما اسْمُكَ. فأجابني...هل كانَ يَنْتَمِي إلَى...أنا الذي رَأيْتَهُ في طَرِيقِي فَكَّرْتُ للَحْظَةٍ في أنْ أَمْنَحَهُ اِسْمَ عَزَازِيل. لكنّي أخطَأْتُ. كان ذَنْبُهُ الوحِيدُ أن يَقْتَرِبَ مِنْ...وأَخْمَدَايَ، وأن يَعِيشَ الآنَ فِي أَعْلَى الهَضبَةِ ذات الانحدارِ الخَفِيف، على أطلال حاديس. عِنْدَ سَفْحِ تلك الهَضبَةِ يَنَامُ ابْنُ يَاوَانٍ، ويَنْسَابُ حُلْمُهُ نَحْوَ البَحْرِ هَامِساً: أَرَى أَنَّهُ لاَ...آمَنَ به بنو إِسْرَائِيل. وأَنَا مِنَ...

أعاد دان قراءة النصّ مرّتين قبل أن يجرؤ على الكلام.

ـ هذا هذيان حقيقيّ.

ـ ألم أقل لك؟ ولكنّي واثق من أنّ هذا الهذيان الظاهر يخفي منطقاً شديد الصرامة. هناك شفرة لا شكّ في ذلك والأكيد أنّ والدك بذل كلّ ما في وسعه كي لا يتاح فكّ هذه الشفرة لكلّ من هبّ ودبّ. لن يفلح في حلّ اللغز إلاّ رجل متبحّر في القبالة وفي الكتب اللاهوتيّة وأغلب الظنّ عندي أنّ أباك كان واثقاً من أنّي سأكون ذاك الرجل.

ـ لكنّك كنت غاضباً قبل دقائق واعتبرت الأمر كلّه مقلباً.

ـ لم أقصد المضمون بل الشكل. النصّ غير مكتمل. انظُر جيّداً. حاول أن تقرأ هذه الفقرة بصوتٍ عالٍ.

همّ الفتى بالشروع في القراءة حين دوّت فجأة أصوات انفجارات جديدة فنظر مفزوعاً ناحية الشارع.

ـ لا تخش شيئاً فالمعارك تدور الآن قرب القصبة في الطرف المقابل من المدينة. اِقرأ.

ـ لَحْظَتَهَا سألتُ أَمِيرَ الوَجْهِ. قلتُ لهُ ما اسْمُكَ. فأجابني...

ـ هل فهمت الآن؟

ـ اعذرني يا ربّي ولكنّي لم أفهم شيئاً بعد.

ـ أعد القراءة ببطء.

ـ لَحْظَتَهَا سألتُ أَمِيرَ الوَجْهِ. قلتُ لهُ ما اسْمُكَ. فأجابني...

ـ **فأجابني**... بماذا؟ ألا ترى أنّ الجملة غير مكتملة؟ خذ أيضاً العبارة التالية: **هل كانَ يَنْتَمِي إِلَى**... ينتمي إلى ماذا أو إلى من؟ ثلاث نقاط متتالية وبعدها تتواصل العبارات دون أن يكون بينها رابط. ثمّ تتكرّر الفراغات.

أشار عزرا بسبّابته إلى فقرة أخرى.

ـ **كان ذَنْبُهُ الوحِيدُ أن يَقْتَرِبَ مِنْ...** أن يقترب ممّاذا؟ وهنا أيضاً: **أرَى أنَّهُ لاَ...** أو العبارة الأخيرة: **وأنَا مِنَ... مِمَّنْ؟**

احتدّت نبرة الحبر.

ـ لو حدث الأمر مرّة واحدة لعزوناه إلى السهو أو إلى قلّة الانتباه لكنّه يعود أكثر من مرّة. فلماذا؟ لماذا عمد أبوك إلى هذا اللعب الذي يتناقض تماماً مع مضمون رسالته؟

ـ لعلّي اهتديت إلى جواب.

ـ أنا مصغٍ إليك.

لاحت على الفتى فجأة علامات الحرج.

ـ ربّما كانت الكلمات الناقصة موجودة في مكان آخر.

ـ في مكان آخر؟

ـ أجل. لعلّها موجودة في الرسالة التي أخذتها إلى عنوان آخر قبل أن أتوجّه إليك.

ـ هل تقصد أنّ أباك وجّه رسالة أخرى إلى شخص غيري؟

ـ رسالة شبيهة تماماً بالرسالة التي وصلتك.

بدا على عزرا الذهول.

ـ هل كتب أبوك الرسالة في نسختين؟ ولمن أوصلت النسخة الثانية؟

قال دان كأنّه يجد صعوبة في تذكّر الاسم:

ـ إنّه...ابن سراج. الشيخ شاهر بن سراج.

هتف عزرا وهو يكاد يختنق:

ـ عربيّ؟

ـ ومسلم دون أدنى شكّ.

ـ ولكن من يكون هذا الرجل؟

حرّك دان رأسه يمنة ويسرة وقد بدت عليه الحيرة.

ـ اعذرني يا رِبّي فأنا لا أعلم شيئاً عن الرجل. كلّ ما في الأمر أنّ والدي ألحّ عليّ كي يكون ابن سراج أوّل وجهةٍ أقصدها.

أصبح الأمر فوق طاقة عزرا على التحمّل. ماذا يريد منه ابن برول؟ يدمغه بحوارٍ عجيب مع الإله السرمديّ ثمّ لا يكفيه ذلك فيصدمه بهذا الرجل العربيّ؟ غطّى وجهه بيديه وأخذ يغمغم بكلمات لم يتبيّن منها دان شيئاً.

ـ ثمّة شيء لا أفهمه وأنا لا أحبّ هذا.

ـ كم أتمنّى أن يكون في وسعي مساعدتك لكنّي...

اندفع عزرا ناهضاً من مكانه بحيويّة قلّ أن تتوفّر لشيخ في مثل سنّه. اكتشف دان لحظتها كم كان صديق والده طويل القامة. كان طويلاً ونحيفا وكانت نحافته تسبغ عليه نوعاً من الرشاقة الخاصّة.

ـ عليك أن تأخذني فوراً إلى هذا الرجل.

ـ هذا مستحيل يا رِبّي. عليّ أن أعود إلى قونقة فضلاً عن أنّ من الجنون الخروج والمعارك دائرة في كلّ مكان.

جمع الحبر وثائقه بتوتّر ووضعها في خُرْجٍ صغير شدّه إلى كتفه واتّجه ناحية الباب هاتفاً بنبرة لا تحتمل الاعتراض:

ـ فوراً. قلت لك فوراً.

ما أن صارا خارجاً حتّى فاجأهما البرد. كان الفجر الوليد ينشر على المدينة سماءً ورديّة تنعكس عليها أشعّة جبال نيفادا المثلجة. دوّى صوت المعارك من جديد قادماً من الناحية الجنوبيّة للمدينة فهتف عزرا متسائلاً:

ـ أين؟ أين يقيم صاحبك؟

ـ إنّه ليس بعيداً.

ـ تقصد أنه يقيم في حيّ البيّازين؟

ـ بل في أعلى الهضبة لكنّ الطريق إلى هناك صعبة وقد لا نصل قبل ساعة.

ـ إذنْ لا سبيل إلى الذهاب مشياً.

ـ والحلّ؟

ـ الحلّ واضح. أملك حصاناً وأنا قادر على ركوبه.

وجدا المطيّة في الساحة الخلفيّة للدار. توقّع دان أن يتعلّق الأمر بدابّة هرمة مثل صاحبها فإذا هو أمام حصان رائع كامل السواد لولا تحجيل في قائمتيه الأماميّتين.

ـ لا تقف كالتمثال. ساعدني على إسراجه.

بعد لحظات وجد الفتى نفسه ممتطياً صهوة حصان خلف الحبر وهما يجوبان شبكة الدروب الملتوية. بدا عزرا على الرغم من تقدّمه في السنّ حسَنَ المنظر وهو يمسك باللجام واثق الملامح منتصباً كالألِف على ظهر حصانه. ما هو إلاّ قليل حتّى ظهر عن يمينهما مرتفع مشجّر توسّطه قصر الحمراء. القصر الذي يقول الموريسكيّون إنّه من عمل الله لفرط جماله وفخامته. انعطفا عند أحد الصهاريج العديدة التي كانت بمثابة خزّانات عموميّة تسقي المدينة بالمياه، وتقدّما مترادفين على الحصان بمحاذاة الحدائق السلطانيّة المرصّعة بأشجار السرو والدفلى. بلغا نهر الدارو فعبرا جسر القاضي منعطفين إلى اليمين وشاهدا من بعيد جنوداً يركضون في كلّ اتّجاه لاهثين يتصبّبون عرقاً. لم يبلغا أعلى الهضبة إلاّ وقد أرسلت الشمس جدائلها النحاسيّة من فوق الأبراج الحمراء. وأمام مسجد عبد الرحمن

أشار دان إلى دار منعزلة طُليت حيطانُها بالأبيض وبدا منها نافذتان صغيرتان معقودتان بأعمدة حجريّة.

ـ هناك.

ـ حسناً. لن أطيل.

ترجّل الحبر وهمّ بالاقتراب من باب الدار.

ـ عفواً رِبّي عزرا. لا أستطيع الانتظار أكثر. عليّ أن أعود إلى قونقة فلديّ زوجة وطفل كما قلتُ لك.

استدار إليه عزرا وقد بدت على وجهه ملامح الإحساس بالذنب.

ـ اغفر للشيخ نزواته يا ولدي. ما رأيك في أن أترك لك الحصان.

ـ شكراً لك يا ربّي لكن لا حاجة لي به.

أثبت فيه عينيه صامتاً.

ـ طريق السلامة يا ولدي.

سحبه من كتفيه وضمّه إلى صدره مردّداً:

ـ *تسيتيخا لو شالوم*.

أحكم شدّ الخُرْجِ إلى كتفه ثمّ اتّجه ناحية الدار فرفع المطرقة الحديديّة وطرق الباب بأقصى قوّته.

ـ تفضّل بالدخول. كنت في انتظارك.

خيّل إليه أنّ في نبرة صاحب الدار شيئاً من السخرية لكنّه لم يكن واثقاً من ذلك.

ـ كنتَ في انتظاري؟

ـ أجل. أو فلنقل إنّي كنت أتوقّع قدوم شخصٍ مَا دون أن أعرف من

يكون بالتحديد. لاشكّ أنّك عرفتَ اسمي مادمتَ قد وجدتني فهلاّ تفضّلت بإطلاعي على اسمك.

ـ صموئيل. صموئيل عزرا.

ـ أهلا وسهْلاً بك في بيتي أم أنّك تفضّل شالوم ليخا؟

تأكّدت النبرة الساخرة هذه المرّة فكتم الحبر إحساسه المتزايد بالضيق واكتفى بهزّ كتفيه.

ـ ما رأيك في أن تصحبني إلى الداخل؟ لن يلبث الأطفال أن ينهضوا من النوم والأفضل أن ننفرد في حجرتي الخاصّة.

كانت دار ابن سراج صغيرة كأغلب الدور العربيّة في غرناطة وخالية من الصحن مثل البيوت المتعلّقة بأهداب الهضاب والمرتفعات. عبرا الردهة وكانت لا تزيد عن ممرّ ضيّق متعرّج. دخلا غرفة ضيّقة مضاءة تتوسّطها طاولة من خشب الصنوبر فُرِشت تحتها زربيّة حريريّة مستطيلة الشكل واصطفّت حولها رفوف مثبتةٌ إلى الجدران مثقلة بالكتب والمخطوطات جعلت المكان كلّه يوحي بالتفرّغ إلى العِلْم. أشار العربيّ إلى أريكة قديمة عليها وسائد مغلّفة بالحرير المقصّب.

ـ تفضّل بالجلوس.

اغتنم عزرا فرصة توجّه ابن السرّاج ناحية مجلسه كي يدقّق النظر إليه. بدا له معتدل الطول عريض العنق مكتنزاً يذكّر مظهره بالثور ويوحي بالقوّة والصلابة. كان في الخمسين ولعلّه في الستّين من عمره وقد أطلق لحية كثّة وخطها الشيب غطّت نصف وجهه الأسفل وجعلت نظرات عينيه تبدو أكثر دكنة. بلغتهما أصوات المدافع وقد ازدادت عنفاً.

ـ لاشكّ أنّك استعجلت الوصول إليّ أيّها الحبر وإلاّ ما غادرت بيتك مع ما يحدث في غرناطة هذه الأيّام.

فضّل عزرا ملازمة الصمت.

ـ قد أكون مخطئاً ولكن يُخيّل إليّ أنّك مغتاظ نوعاً مَا.

أصبح عزرا متيقّناً من نبرة مضيفه الساخرة. لو كان صديقه ابن برول أمامه الآن لوبّخهُ بشدّة. ما الذي ألجأه إلى هذا الرجل الغريب؟ فكّر في مغادرة المكان والعودة إلى بيته فوراً لكنّ الفضول كان الأقوى.

ـ أعتقد يا شيخ ابن سراج أنّك لست أقلّ منّي غيظاً.

ـ ربّما كان ذلك صحيحاً. الأمر مرتبط بما سنصل إليه أنا وأنت من نتائج. هذا... إذا لم تر مانعاً طبعاً.

ثمّ أضاف دون أن يترك لعزرا فرصة الردّ:

ـ هل تُصدّق هذه الحكاية؟ حكاية اللوح الأزرق أو إن شئت الدقّة كتاب السفير؟

ـ وماذا لو ألقيت عليك نفس السؤال؟

ـ اسمع يا عزيزي، أنا وأنت أذكى من أن نهدر وقتنا في مثل هذه اللعبة. أجبني هل تصدّق أم لا؟

ـ وماذا لو قلت لك إنّي أصدّق؟

أمال ابن سراج رأسه إلى الخلف وشرد بذهنه للحظة.

ـ أعترفُ بأنّ الأمر لو صحّ لفاق كلّ تصوّر.

ثمّ سأله دون تمهيد:

ـ هل كنت تعرف ابن برول معرفة جيّدة؟

ـ كان أعزّ أصدقائي. وأنت؟

ـ كان أعزّ أصدقائي أنا أيضاً.

ـ أنت تمزح دون شكّ.

ـ لا يفاجئني ردّ فعلك هذا. أنت لا تفهم كيف أمكن ليهوديّ مثل ابن برول أن يصادق عربيّاً مسلماً مثلي أليس كذلك؟

حاول عزرا إخفاء حرجه.

ـ أصارحك تجنّباً لكلّ سوء فهم بأنّ ما أحببته في ابن برول هو الإنسان لا اليهوديّ.

هكذا على الأقلّ أصبحت الأمور واضحة.

ـ إنّه الفرق بيني وبينك. أنا لا أميّز في ابن برول بين اليهوديّ والإنسان.

ـ اليهوديّ المرتدّ أم الآخر؟

ـ خاب ظنّي فيك يا ابن سراج. قبل لحظات كنت تتحدّث عن الذكاء ولكن ماذا يمكن للمرء أن يتوقّع من عربيّ؟

حان دور ابن سراج كي يشعر بالحرج.

ـ دعنا من هذا ولنتحدّث عن معارفك فلا شكّ أنّ ابن برول لم يتوجّه إليك برسالته اعتباراً للصداقة فحسب.

ـ أغلب الظنّ عندي أنّه لم يراسلك أنت أيضاً إلاّ لأنّه رأى فيك الشيء نفسه ولاشكّ أنّك قادر على تلاوة القرآن كلّه عن ظهر قلب.

ـ تماماً كما تعرف أنت كتب التوراة الخمسة.

اكتفى عزرا بإيماءة من رأسه.

ـ لنعد إلى كتاب السفير.

همّ صموئيل بالكلام حين سُمِع طرق على باب الحجرة فهتف ابن سراج:

ـ ادخُل.

دخل خادم في الخامسة والعشرين تقريباً حسَن الهيئة يوحي مظهره بالاعتداد بالنفس وينبعث منه احتقان غامض لم يَطمئنّ له الحبْر. كان يحمل طبقاً صغيراً عليه فنجان يتصاعد منه الدخان:

ـ الشاي سيّدي.

التفت ابن سراج ناحية الحبر.

ـ لعلّك تشاركني شيئاً من الشاي؟

ـ لا مانع.

ـ دع هذا لضيفنا يا سليمان وهات لي فنجاناً آخر.

خرج الخادم وهو يسترق النظر إلى الضيف فقال صموئيل بمكر:

ـ عبد؟

ـ عبد أو خادم ما الفرق؟

ـ الفرق كبير. أحدهما حرّ.

ـ ولكن ما الحريّة يا عزيزي؟ دعنا من هذا الجدل الآن ولننظر في المهمّ. قلت لي إنّ كتاب السفير قد يكون حقيقة.

تناول عزرا رشفة من فنجانه قبل أن يقول:

ـ أنا واثق من ذلك.

ـ لو صحّ هذا فنحن أمام أعجب وأعظم اكتشاف في تاريخ البشريّة. نحن أمام كنز لا يُقدّر بثمن. نحن أمام الدليل على وجود الله.

ـ أنت تنسى أمراً آخر أكثر التصاقاً بواقعنا. سيكون هذا الاكتشاف طال الزمن أم قصر إبطالاً تامّاً لكامل النظام السياسيّ والدينيّ الذي يحكم إسبانيا منذ إنشاء محاكم التفتيش.

قال ابن سراج عاقداً حاجبيه:

ـ لا أرى العلاقة بين الأمرين.

ـ ستراها يوم تكتشف مضمون هذا الكتاب، هذا إذا وصلنا إليه طبعاً.

ـ يخيّل إليّ من خلال كلامك أنّك تحدس بمضمونه منذ الآن وأنّك لا

تستبعد أن يتضمّن عبارات تشير إلى أفضليّة اليهوديّة على الديانتين الأخريين، أليس كذلك؟

أضاف وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة خفيفة:

ـ أمّا أنا فأتوقّع أن نجد فيه طريقة عملٍ يمدّنا بها الله.

ـ لا أريد الانتقاص من علمك ولكنّي أعتقد أنّ **إلوهيم** أو **آدوناي** أقرب إلى السياق الذي نحن فيه.

ـ لماذا؟ ما اعتراضك على اسم **الله**؟

ـ لا اعتراض لديّ لكنّ هذا الاسم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدينكم. ولو تمعّنتَ في النسخة التي وجّهت إليك من رسالة ابن برول لرأيت أنّ أهمّ عنصر فيها هو الكلمة الرباعيّة **يهوه**. ولا أرى لهذه الكلمة أيّ صلة بالإسلام.

للمرّة الثانية انقطع الحديث بسبب دخول الخادم. وضع هذا الأخير فنجان الشاي أمام سيّده بشيء من التوتّر وغادر الحجرة مسترقاً النظر إلى الحبر من جديد. قال ابن سراج:

ـ أراك تتحدّث كحبر لا كعالم. ربّما كانت كلمتك الرباعيّة في صميم الرسالة لكنّ الأمر مختلف بالنسبة إلى الخارطة.

تناول الشيخ إحدى الأوراق المتناثرة أمامه على الطاولة وأشار إلى خزج الحبر:

ـ أعتقد أنّ كلّ شيء موجود معك.

ـ ليس كلّ شيء للأسف بما أنّ النصف موجود معك أنت.

ـ كلانا لا يملك غير نصف الحكاية. أقترح أن ننظر في نصّ «القصر الأوّل» وأن نقارن بين النسختين وسترى أنّك مخطئ باستبعادك الإسلام.

ـ حسناً.

شرع عزرا في القراءة ببطء.

ـ مُبَارَكٌ مَجْدُ ي.ه.و.ه. في مسكنه. الاِسْمُ في ٦. لَحَظَتَهَا سألتُ أَمِيرَ الوَجْهِ. قلتُ لهُ ما اسْمُكَ. فأجابني...

صمت لحظةً ثمّ سأل:

ـ أعتقد أنّك لديك الكلمة الناقصة.

أكّد ابن سراج الأمر:

ـ اِسْمِي فتًى.

ـ هل كانَ يَنْتَمِي إلَى...

ـ نَوْمَى الرقيم.

ـ هل تستطيع الإعادة لو سمحت؟

ـ **نَوْمَى الرقيم**. عبارة لا تفهمها أليس كذلك؟

لم يستطع عزرا إنكار ذلك.

ـ هذه العبارة من وحي السورة الثامنة عشرة المسمّاة سورة *الكهف*. *في هذه السورة أكثر من آيةٍ تشير إلى النيام والرقيم. خذ الآية ٩ مثلاً:* ***أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا...*** أو الآية ١٨: ***وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ...***

توقّف الشيخ لحظات عن قصد ثمّ سأل بابتسامة جانبيّة:

ـ ها أنت ترى أنّ الله غير بعيد عن السياق الذي نحن فيه. وليس هذا آخر الأدلّة. واصل القراءة لو سمحت.

أصلح عزرا من جلسته على الأريكة واستأنف القراءة:

ـ أنا الذي رَأَيْتُهُ في طَرِيقِي فَكَّرْتُ للَحْظَةٍ في أنْ أَمْنَحَهُ اِسْمَ عَزَازِيل. لكنّي أخطَأْتُ. كان ذَنْبُهُ الوحِيدُ أن يَقْتَرِبَ مِنْ...

ـ أن يقترب من مَالِك.

قال الحبر محتدّاً:

ـ يبدو أنّ كلّ الكلمات البعيدة عن اليهوديّة سُحِبت منّي وتُرِكت إليك.

ـ ها أنت تعترف بالأمر بنفسك. **مَالِك** هو من ناحية ما الاسم المرادف للاسم **عزازيل**.

قال عزرا:

ـ **وأخمداي**.

ثمّ أضاف مشيراً إلى إحدى كلمات النصّ:

ـ فالنصّ يقول: **كان ذَنْبُهُ الوحِيدُ أن يَقْتَرِبَ مِنْ مالك وأخمداي**. إنّ **أخمداي** عندنا هو الشيطان أو بشكل أدقّ شيطان الرباط الزوجيّ. في حين أنّ الأدبيّات المدراشيّة والقبّاليّة ترى في **عزازيل** اسماً مركّباً من اسمي الملاكين الملعونين: **عوزا وعزايل** الذين هبطا إلى الأرض زمن قايين وفسدت أخلاقهما. من ثمّ يمكن اعتبار **عزازيل** اسماً من أسماء إبليس.

ـ هل تعرف ماذا تعني كلمة الحديث؟

ـ وهل هذا سؤال؟ إنّها تعني مجموعة أقوال رسولكم.

ـ إِذَنْ فلتعلم أنّ اسمَ **مَالِك** ورد في الأحاديث القدسيّة ورُوِي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَنَّهُ خازِنُ النَار. ***وَرَأَيْتُ مَالِكاً خَازِنَ النَارِ والدَجَّالَ في آيَاتِ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ***. يبدو أنّنا تقريباً أمام ثلاثة أسماء لإخوةٍ ثلاثة.

أشرع ابن سراج ذراعيه سائلاً:

ـ أمازلت معترضاً على اسم الله؟

لم يردّ الحبر على السؤال بل نهض من مكانه واقترب من الشيخ.

ـ لنواصل. **وأن يَعِيشَ الآنَ فِي أَعْلَى الهَضبَةِ ذات الانْحدارِ الخَفِيف**،

على أطْلاَلِ حاديس. عِنْدَ سَفْحِ تلك الهَضبَةِ يَنَامُ ابْنُ يَاوَانِ، ويَنْسَابُ حُلْمُهُ نَحْوَ البَحْرِ هَامِساً: أَرَى أَنَّهُ لاَ...

- أرى أنّه لا إلهَ إلاّ الذي آمَنَت به بنو إسرائيل.

- وأنا مِنَ...

- وأنا من الخاضعين.

نطق ابن سراج بالكلمة الأخيرة بنبرة انتصاريّة.

- كلّ هذه الفقرة كتبها ابن برول من وحي السورة العاشرة حيث قال فرعون حين أدركه الغرق: ***آمَنتُ أنَّهُ لا إِلَهَ إلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأنَا مِنَ المُسْلِمِينَ***... وكلمة ابن برول الأخيرة إشارة واضحة إلى الإسلام. فلا يخفى عنك أنّ كلمة الإسلام تعني الخضوع لله. إذن فالخاضعون لله هم المسلمون بامتياز.

صمت الرجلان وتبادلا النظرات وكأنّهما مصارعان في حلبة. كان ابن سراج أوّل من استأنف الحوار قائلاً بصوت غابت عنه نبرة الوثوق:

- هل تريد الصراحة؟ أشعر بالضياع التامّ.

- وأنا مثلك. خاصّة حين أذكر أنّنا لم نجتز بعد عتبة «**القصر الأوّل**» وأنّ أمامنا سبعة «**قصور**» أخرى.

دوّى صوت انفجارات جديدة بدت لهما أقرب هذه المرّة فضرب الشيخ على الطاولة بقبضة يده.

- تبّاً لهؤلاء الأمراء وتبّاً لكلّ من معهم من متآمرين. ليُلْقَ بهم في نار جهنّم وليخلّصنا الله منهم إلى أبد الآبدين.

- هل هكذا تتحدّث عن إخوتك في الدين؟

- إخوتي؟ إذا كان هؤلاء المسلمون الذين يقتل بعضهم بعضاً إخوتي

فأنا أنكر إخوتي. هؤلاء مرضى يرتكبون أبشع الجرائم في حقّ الله وفي حقّ الطبيعة نفسها.

نهض من مكانه دفعة واحدة.

ـ تعال معي.

اقترب الشيخ من باب صغير يفضي إلى الشرفة وأشرع دفّتيه ثمّ دعا ضيفه إلى الإطلال معه على المدينة.

ـ انظر إلى هذه الروعة.

كان في وسع العين من حيث وقفا أن تختزل غرناطة والمشهد المحيط بها في نظرة واحدة. امتدّت المدينة لاهثة تحت وهج الشمس وأرسلت جبال نيفادا أنفاسها فتكسّر جليد سهل الفيغا وتصاعد منه الدخان. أمامهما تهادى قصر الحمراء بساحاته وحدائقه الغنّاء المفروشة ورداً وأشجار ليمون. في طرف الهضبة وبعد هاوية تخفّ حدّتها كلّما اقتربت من السفح ظهر سهل مفروش بالخضرة. ولولا صوت طلقات المدافع القادم من القصبة لسمعا خرير مياه الأنهار. جنوباً لم يكن أمام العين غير امتداد شاسع من الغابات والبساتين يتخلّلها نهر شنيل وكأنّه زخارف فضيّة تغذّي آلاف قنوات الريّ.

ـ هل فهمتني الآن؟ إنّهم يخرّبون واحدة من أجمل حدائق الله. إنّهم يفسدون آخر حلم عربيّ في الأندلس. ألا تكفينا مصائب الجيوش المسيحيّة حتّى يمزّق ملوكنا بعضهم بعضاً؟

ـ والأسوأ من ذلك أن يُقال ذات يوم إنّ غرناطة سقطت بسبب امرأة.

حدجه الشيخ بنظرة تشكيك.

ـ أعتقد أنّك تبالغ قليلاً في هذا.

ـ أتظنّ ذلك؟ الأسيرة المسيحيّة إيزابيل دو سوليس التي اعتنقت

الإسلام واتّخذت اسم ثريّا أصبحت قصّتها على كلّ لسان. فقد السلطان أبو الحسن عقله منذ وقع في غرامها وها هو يختم عهده بالجنون والطغيان بعد أن بدأه بالعظمة والحكمة. أهمل زوجته الشرعيّة عائشة وابنيها أبا عبد الله محمد الذي يسمّيه المسيحيّون بوعبديل وأخاه يوسف وفضّل عليهما أبناء الأسيرة المسيحيّة. الجميع يقول إنّ عائشة لم تتآمر على زوجها إلاّ حرصاً على عدم ضياع العرش من بين أيدي ابنيها وها نحن نرى النتيجة.

أومأ ابن سراج متبرّماً.

ـ لا أعبأ بهذه الطوائف فليأخذ الموت الجميع ولتحْيَ غرناطة. لو خسر العرب هذا الجزء الأخير من بلاد الأندلس لخسروا آخر فرصة للسعادة.

بينما هما يتحدّثان عاد الهدوء إلى المدينة من جديد وخفتت أصداء الانفجارات حتّى غابت تماماً وأصبح في وسعهما أن يسمعا خرير مياه النهر القريب واستفاقت روائح الزهور كأنّها خرجت من مخابئ ألجأها إليها جنون البشر. قال عزرا بعد لحظة صمت:

ـ ما رأيك لو واصلنا حديثنا في الداخل؟

أومأ الشيخ موافقاً وما أن جلس إلى طاولته حتّى بادر ضيفه بالسؤال:

ـ هل تساءلت لماذا اختار ابن برول كلمة «**قضر**» ولماذا لم يستعمل كلمة «الغز» مثلاً؟

ـ لا تنْسَ أنّه في رسالته قد أوْلَى شخصيّةَ أخنوخ أكبر الاهتمام مشيرا إلى أنّه أوّل من تلقى الهبة الإلهيّة متمثّلة في سِفْرٍ مقدّس والبعض يتحدّث عن أربعين صحيفة. وأغلب الظنّ عندي أنّ ابن برول استوحى كلمته من كُتُب أخنوخ أو أسفاره. فهل تعرف أيّ اسمٍ أُطْلِق على أسفار أخنوخ الثلاثة؟

حرّك ابن السرّاج رأسه يمنة ويسرة.

ـ «**أدب القصور**». فضلاً عن أنّ السفر العبريّ لأخنوخ مقسّمٌ هو أيضاً إلى قصور.

ـ لم تجبني بعد لماذا اختار هذه الكلمة؟

ـ لست واثقاً من الأمر لكنّي أرجّح أنّه اختار هذه الكلمة لأنّها تشير في الخطاب الهرمسيّ إلى ما هو غامض وسرّي ومتخفٍّ. القصر هو مسكن السلطان وهو من ثمّ مركز كونٍ بأسره ومركز البلد برمّته. ولعلّ صديقنا قسّم خارطته إلى قصور كي يلفت انتباهنا إلى أهميّة الرموز في بحثنا. لعلّه تحذير مقنّع.

ـ فماذا عن الكلمات المضافة: **الرئيسيّ، الفرعيّ**...؟

ـ لاحظتُ حقّاً أنّه ميّز بين القصور فنعت بعضها بالرئيسيّ وبعضها بالفرعي وأعترف بأنّي لم أفهم المغزى من ذلك.

ـ الأمر محيّر فعلاً. ثمّ من قال إنّ فكّ شفرة «**القصور**» يمكّننا من الوصول إلى الكتاب؟

استعاد صموئيل عزرا مجلسه على الأريكة من جديد.

ـ أعتقد أنّ ابن برول لن يحمّلنا هذه المشقّة دون أن يكون في نهايتها اللوح.

استنشق ثمّ نفث الهواء من صدره طويلاً.

ـ لا أخفيك أنّي ظللت الليل كلّه أقلّب المسألة.

ـ هوّن عليك فقد أرّقني الأمر مثلك ولم أجد في هذه المتاهة غير استنتاج وحيد ثابت: القصور الثمانية مبتورة ولا تكتمل إلاّ باجتماع ما عندي وما عندك.

ـ والنتيجة؟

طرح الحبر السؤال على الرغم من أنّه يعرف الجواب مسبّقاً فقد توصّل إلى نفس الخلاصة التي توصّل إليها الشيخ.

- لأسباب نجهلها أراد صديقنا ابن برول أن يوحّد بيننا في هذه الرحلة.

- تقصد أن يوثقنا بالسلاسل.

- المهمّ أنّي لن أصل إلى شيء بدونك وأنّك لن تصل إلى شيء بدوني.

- شيء مضحك أليس كذلك؟

- ليس المهمّ أن يكون مضحكاً أو لا يا عزرا. المهمّ أننّا لا نملك خياراً آخر.

- قل لي يا ابن سراج. فيم يهمّك هذا الكتاب؟ قرأت ذلك مثلي: أبراهام ويعقوب ولاوي وموسى وصولاً إلى إسحاق برول. إنّ روح هذه الكتاب متشبّعة بتاريخ شعبي فما شأنك به؟

- لم أتوقّع منك سؤالاً مثل هذا يا عزرا. هل تعرف بشراً عالِماً أو شاعراً أو عاشقاً للعلوم والآداب حاكماً كان أو محكوماً فقيراً كان أو غنيّاً لم يحلم يوماً بأن يلمح ولو في رفّة جفن الدليل المفحم على وجود الله؟ أجبني. أرني هذا الرجل. ثمّ إنّ هذا الكتاب يجيب على الأسئلة الجوهريّة التي يطرحها البشر. قال ابن برول البشر ولم يقل اليهود. فهل تعتقد أن لا مكان في هؤلاء البشر لأتباع خاتم الرُسُل والأنبياء محمد صلّى الله عليه وسلّم؟

لم يتردّد عزرا لحظة.

- لا مكان لهم في هذا الكتاب. أقول لك مرّة أخرى إنّ هذا الكتاب موجّه إلى شعبي، شعب الله المختار.

ـ ها هي العبارة التي كنت في انتظارها. الشعب المختار. هل نسيت أنّ هذه العبارة لم تعد تنطبق عليكم، هذا إذا انطبقت عليكم أصلاً؟ لقد خنتم تعاليم موسى آلاف المرّات وأصبحتم تحملون التوراة ولا تعملون بها حتّى صحّ فيكم قول الله تعالي: *مَثَلُ الذِينَ حُمِّلوا التوْرَاةَ ثُمَّ لمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَارا*. . .

وقف عزرا ممتقعاً.

ـ الحمار يشكرك يا ابن سراج.

ـ لن أجبرك على البقاء غصباً عنك.

جمع الحبر أوراقه غاضباً وخفّ ناحية الباب فهتف الشيخ:

ـ انصرِف ما دمت تريد ذلك.

ثمّ صرخ فيما كان الباب يُغلق:

ـ لكن عليك أن تعلم أنّك لا تهرب منّي بل من صديقك ابن برول وأنّك تخون ذاكرته. أي نعم. تخون ذاكرته.

عصف بالأوراق الموضوعة أمامه وألقى بها في حنق صارخاً.

ـ *ويل للمكذّبين*.

ـ لكنّك نسيت سورة أخرى يا شيخ ابن سراج.

انتفض الشيخ وقد فاجأته عودة عزرا.

ـ أقصد السورة الثانية وإذا لم تخنّي الذاكرة الآية ٤٧: *يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي التِي أنْعَمْتُ عليْكُمْ وأنِّي فَضَّلْتُكُمْ على العَالَمِين*. . .

بدا العربيّ مرتاحاً لعودة الحبر.

ـ ذكّرتني بسبب آخر لا يملك معه أحد إلاّ أن يرغب في الحصول على هذا الكتاب، وربّما كان السبب الأكثر إثارة. وأعود هنا إلى عبارات ابن برول: *فإذا هم يهتدون إلى النور إذا أضلّتهم الظلمات وينعمون باليقين*

متى افترسهم الشكّ ويستعيدون الحكمة حيث يحكمهم الجنون ويعثرون على الحقيقة حين يسودهم الكذب. سيمكّننا هذا الكتاب من أن نعرف أخيراً من الأقرب إلى الصواب ومن صاحب الدين الأكثر شرعيّة والأجدر بالوجود.

ـ هكذا يكون من الحرام فعلاً أن نتخلّى عن البحث عنه ولن أغفر لنفسي إضاعة فرصة نادرة لمواجهة الإسلام بضلاله.

ـ اعترفْ يا عزرا بأنّ خطأً يعود إلى ثمانمائة سنة قد يكون أقلّ فداحة من خطأ يعود إلى آدم وحوّاء.

أومأ الحبر مستخفّاً بالملاحظة:

ـ سنرى ذلك فيما بعد لكنّي أذكّرك بأنّ ابن برول لم يقل شيئاً عن مضمون الرسالة التي كشف له عنها الكتاب. قد نعثر على اللوح الأزرق لكنّه قد يظلّ صامتاً.

ـ ألا تعتقد أنّ الموضوع جدير بالرهان؟

أومأ صموئيل موافقاً.

ـ أسفي الوحيد أنّي مضطرّ إلى خوض هذه الرحلة معك.

هزّ ابن سراج رأسه مبتسماً.

ـ لتلتمس بعض العزاء يا ربّي عزرا في أنّك لم تقع على أسوأ منّي.

ـ أسوأ من مسلم؟

ـ أجل... كان في وسعك أن تقع على نصرانيّ.

الفصل ٤

لاشيء حقيقيّ تماماً، وحتّى هذا
فهو ليس حقيقيّا تماماً.

(مولتاتولي)

فتحت الملكة مروحتها وأخذت تروّح بها عن وجهها ذات اليمين وذات الشمال في حركات صغيرة سريعة. كانت جالسة وسط دزينة من السيّدات أحطن بها في شكل نصف دائرة محشوّات في ملابس ثقيلة يختلط فيها الإستبرق بالدنتيلاّ صامتات في انتظار أن تنبس جلالتها بكلمة يعرفن في ضوئها هل يضحكن أم يلتزمن الجديّة والوقار. في طرف القاعة الفسيحة التي جلّلتها ستائر مطرّزة بخيوط الذهب وعلى وسائد حريريّة ملقاة على الأرض جلست ثلاث صغيرات أبهجن المكان بوجوههنّ الملائكيّة المناقضة لوجوه الحاضرات العابسة المثقلة بالزينة. وقرب الباب المصنوع من خشب السنديان المُصْمَت لاح رجل وامرأة يتهامسان مستندين إلى الجدار وكأنّهما قد غفلا عن كلّ ما عداهما. توقّفت الملكة للحظة عن تحريك مروحتها وسألت مانويلا بنبرة اختلط فيها المرح بالفضول:

- هل الخبر الذي وصلني صحيح سيّدة فيفيرو؟ هل صحيح أنّك بارعة في قراءة الطالع بواسطة ورق اللعب؟

توتّرت الفتاة وأزعجتها كلمة «سيّدة» التي اعتادت الملكة أن تخاطبها بها في الأماكن العامّة حين لا تكونان على انفراد. بدت لها هذه الكلمة طعناً في صداقتهما وإنكاراً للروابط التي تجمع بينهما منذ زمن طويل.

ـ الحديث عن براعة لا يخلو من مبالغة يا صاحبة الجلالة. كلّ ما في الأمر أنّي اهتممت قليلاً بهذه اللعبة التي تشهد رواجاً كبيراً في إيطاليا هذه الأيّام.

ـ سمعتُ أنّ الأمر نوع من الـ. . .كيف أقول؟ نوع من التنبّؤ. هل هذا صحيح؟

ثمّ أضافت مشهدة حاشيتها:

ـ هل الناس من السذاجة بحيث يؤمنون بإمكانيّة الكشف عن الغيب؟

ندّت عن الحاضرات ضحكات مكتومة من خلف المراوح وهي تمشي وتجيء أمام الوجوه في حركات خافتة فواصلت الملكة حديثها ملتفتة ناحية مانويلا:

ـ إِشرحي لنا الأمر لو سمحتِ؟

فوراً ارتفع في القاعة صوت حادّ وكأنّه الصدى:

ـ أجل. إِشرَحي لنا الأمر يا سيّدة فيفيرو مادمت تعرفين كلّ شيء.

أجالت مانويلا عينيها في حاشية صديقتها. لطالما صعب عليها تحمّل تفاهتهنّ وعقم حياتهن اليوميّة التي لا تتعدّى الجلوس لساعات أمام المرآة لتلطيخ وجناتهنّ بالسليمانيّ، هذا الطلاء البشع الذي يزدنه بشاعة بما يضعن فوقه من أحمر ورديّ وقرمزيّ يدفع إلى التساؤل إنّ كنّ يردن التجمّل أم التنكّر. أمّا الوصيفة ذات الصوت الحادّ التي تمثّل أفضل تمثيل سفالة الحاضرات فقد ذهبت بالحمق حدّ تغليف شفتيها بطبقة من الشمع وانبعثت منها رائحة ماء الورد بشكل فات الحدّ حتّى أزكمت رائحتها الأنوف. تمالكت مانويلا نفسها وكبتت رغبتها العارمة في إطلاق كلمتين مسمومتين أو ثلاث على هذه البلهاء.

ـ أعتقد يا صاحبة الجلالة أنّ الوقت غير مناسب للنظر في حقيقة أو زيف التنبّؤ بواسطة ورق اللعب. كلّ ما يمكنني قوله الآن إنّ الأمر مجرّد

لعبة لعلّها من أقدم الألعاب في العالم. وتتمثّل في التعامل مع عدد من الرموز قراءةً وتأويلاً. ومهما كان الموقف من مسألة التنبّؤ فإنّ لهذه اللعبة أثراً على النفس لا يمكن الشكّ فيه وقد استمتع بها الإنسان وتوارث ما تعلّمه منها على امتداد القرون.

ارتفع أحد الأصوات ساخراً:

- تقولين إنّها من أقدم الألعاب لكن ما أعلمه يا عزيزتي أنّ القُوط لم يعرفوا اللعب بالورق.

ارتفعت من جديد بعض الضحكات المكتومة تأييداً للاعتراض.

- ليس في وسعي سوى الانحناء لثقافتك التي لا يُشقّ لها غبار يا سيّدة سيسّا لكن دعيني أخبرك بأنّ الرموز التي هي جوهر ألعاب الورق موجودة منذ فجر الزمن. ولو عدنا إلى التاريخ القديم وإلى أبعد ما نعرف عن الأشكال التي فكّر بها العقل البشريّ أو عبّر من خلالها عن أفكاره لعثرنا على الطريقة نفسها التي تتمثّل في أخذ أشكال أو ألوان وتحميلها دلالات أو نسبتها إلى أفكار.

توقّفت لحظة ثمّ أضافت بعد أن رسمت على شفتيها ابتسامةً ماكرة.

- أنت مثلاً بزينتك الرائعة المتميّزة لا يمكن للمتأمّل إلاّ أن يرى فيك رمزاً متحرّكاً من نوع خاصّ.

- أخشى أنّي لا أفهمك جيّداً. رمز متحرّك؟ رمز عن ماذا؟

تململت دونا سيسّا على كرسيّها متلفّتة لعلّ إحدى الحاضرات تنجدها بكلمة أو حركة. هل انتبهت إلى ما في شروح مانويلا من غمزٍ أم أنّها رأت في كلامها إطراء ومجاملة؟ قرّرت الملكة وضع حدّ لحوار المرأتين.

- لنعد إلى قراءة البخت. هل تظنّين فعلاً سيّدة مانويلا أنّ في وسعنا الكشف عن الغيب بواسطة الورق؟ أليس المستقبل في علم الربّ وحده؟

ـ لاشكّ في ذلك يا صاحبة الجلالة لكن يبدو أنّ البعض قادرٌ على تفكيك شفرة العلامات. وإذا تمّ تفكيك هذه الشفرة أمكن تأويلها.

فجأة ارتفع صوت الرجل الذي كان يتهامس مع صاحبته في طرف القاعة:

ـ لكن يا سيّدة فيفيرو أليس التأويل مرتبطاً بمشاعر المؤوّل ومتوقّفاً على درجة اطّلاعه أو عدم اطّلاعه على موضوع التأويل؟ ألا تفسح نظريّتك هذه المجال واسعاً أمام الخطابات الأكثر دجلا؟

أضافت المرأة التي كانت واقفة إلى جانبه:

ـ لم يبق إلاّ أن ترى إحدانا في حلمها نواقيسَ تُقْرَع فتستنتج أنّ خطراً يتهدّدها أو أنّ بيتها يحترق. أليس هذا هو الخور بعينه؟

قالت السيّدة إيستيبا أكبرهنّ سنّاً بصوت قويّ:

ـ على أيّ حال أعتقد أنّ حكايات التنبّؤ والكشف عن الغيب من وساوس الشيطان والأجدر أن لا نتحدّث في مثل هذه المواضيع البتّة.

نهضت الملكة مفاجئة الجميع:

ـ أشكركنّ سيّداتي فقد استفدت كثيراً من هذا الحديث. بإمكانكنّ الانصراف.

ثمّ همست خفيةً ناحيةَ مانويلا:

ـ انتظري أنتِ.

ما أن خلت لهما القاعة حتّى أشارت إيزابيل إلى صديقتها بالاقتراب منها.

ـ أعرف رأيك في هؤلاء التافهات ولكن عليك التظاهر بتسامح أكبر. هذا أفضل لك.

ـ أنت على حقّ يا صاحبة الجلالة لكنّ التسامح لا يحبّ أن يكون في خدمة التفاهة البشريّة.

ـ اقرئي لي الطالع . . .

نظرت إليها مانويلا مدهوشة.

ـ هل معك أوراقك؟

ـ كلاّ يا صاحبة الجلالة لكن يمكنني تدبّر الأمر.

ـ حسناً. التحقي بي في غرفتي وهكذا لن يزعجنا أحد.

ـ هل ترغبين في ذلك حقّاً؟ أنا لست بالمهارة التي تظنّين وأخشى أن يخيب ظنّك. هل أنت واثقة يا صاحبة الجلالة؟

اكتفت الملكة بتحريك مروحتها أمام أنف صديقتها مضيفة:

ـ أسرعي.

جلستا وجهاً لوجه وبينهما طاولة صغيرة مدوّرة من الخشبّ المطعّم توسّطت غرفة النوم. وما هي إلاّ لحظة حتّى همست إيزابيل:

ـ والآن؟ ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ اخلطي الأوراق ثمّ اقطعيها باليد اليسرى.

ـ وهل اليمنى غير قادرة على اختيار ورقٍ ينبئ بالسعادة؟

ـ ليس هذا هو المقصود ولكنّ اليسرى هي جهة القلب.

زمّت إيزابيل شفتيها بارتياب لكنّها امتثلت للأمر وقالت وهي تضع على الطاولة مجموعة الأوراق مقلوبة.

ـ حسناً ها أنا فعلت.

رتّبت مانويلا الأوراق في شكل مروحة.

ـ الآن عليك أن تختاري منها اثنتي عشر ورقة وأن تضعيها على الطاولة في شكل دائرة. ودائماً الصورة إلى تحت.

امتثلت الملكة مرّة أخرى لطلب صديقتها.

ـ ولماذا شكل الدائرة؟

ـ قد يكون الأمر على صلة بعلم الفلك ولعلّ هذه الدائرة تمثّل دائرة البروج الفلكيّة، وها أنت ترين أنّ لدينا اثني عشر بيتاً أو ورقة مقابل الاثني عشر برجاً.

ـ يبدو لي كلّ هذا شديد الغموض ولكن واصلي.

وضعت مانويلا يدها على الورقة الأولى من جهة اليسار وبدا عليها ما يشبه التردّد.

ـ ماذا تنتظرين؟

ـ أريد أن أؤكّد لك مرّة أخرى أنّي لست بالمهارة التي تظنّين وأنّ عليك أن لا تحملي كلامي محمل الجدّ وأن لا تصدّقيه حرفيّاً. لا تنسي أنّها لعبة يا صاحبة الجلالة. مجرّد لعبة.

ـ لو لم أكن واثقة من ذلك لما دعوتك إليها إطلاقاً. هل نسيت أنّي ابنة الكنيسة؟ نحن نعرف كيف تنظر الكنيسة إلى مسائل التنجيم.

قلبت مانويلا الورقة الأولى وتأمّلت في الصورة.

ـ المحاكمة. البيت العشرون الرئيسيّ. بين الشمس والعالم الذي يبدو في شكل أمواج هادرة. إنّه يحيلنا إلى أحداث يرسلها لنا الربّ بواسطة ملاك القيامة. انظري إلى الملاك المحاط بهالة بيضاء وفي يده بوق يكاد يلامس قمّة جبل قاحل.

ـ وماذا يعني كلّ هذا؟

ـ يعني أنك على وشك الوصول إلى لحظة فاصلة وأنك ستضطرّين إلى اتّخاذ قرار حاسم.

ضحكت الملكة.

ـ قرار حاسم؟ وماذا أفعل كلّ يوم غير اتّخاذ القرارات الحاسمة؟

ـ أعلم يا صاحبة الجلالة. لكنّ يبدو أنّه سيكون هذه المرّة أخطر من أيّ قرار اتّخذته في السابق وأنّ عواقبه عليك ومن ثمّ على إسبانيا ستكون نهائيّة وغير مسبوقة. ثمّ انظري إلى جناحي الملاك... إنّهما بلون البشرة الآدميّة وهذا يعني أنّه من طينة البشر وأنّه أخوهم وأنّ الإنسان يستطيع أيضاً اكتساب أجنحة روحانيّة. يكفيه في سبيل ذلك أن يعرف كيف يحافظ على اعتداله وتوازنه في طريق صعوده. الرسالة واضحة.

اكتفت إيزابيل بمطّ شفتيها تعبيراً عن الشكّ فقلبت مانويلا ورقة أخرى.

ـ الشمس. علامة الثروة واليسر. هي من أكثر الأوراق غموضاً. اللون الأصفر الغالب على هذه الورقة يرمز إلى الذهب والحصاد.

ـ ومن أين يأتي الذهب وخزائننا فارغة؟

ـ لا أعلم. قد يأتينا من خارج البلاد.

ـ هل يأتي من الحرب؟

ـ لا أعلم.

ـ والحصاد؟

ـ ربّما كان إشارة إلى قرب نهاية الحرب.

انتظرت الملكة المزيد.

قالت مانويلا بعد أن قلبت الورقة الثالثة:

ـ العالم الذي يلتحق بالشمس.

ـ وإلى ماذا يرمز؟

ـ العالم أو تاج المجوس يرمز عادةً إلى الجائزة أي إلى تتويج عملٍ مَا بمكافأة أو إلى جهودٍ تُثمِر أخيراً مع ما يتبعها من الارتقاء والنجاح.

ـ هل يعني ذلك وقوع غرناطة أخيراً في أيدينا؟

أكّدت مانويلا الأمر بسؤال:

ـ وهل يمكن أن نتخيّل السلام دون ذلك؟

دون انتظار قلبت الورقة الرابعة والخامسة ولاح عليها أنها فوجئت دون أن ترغب في إظهار ذلك.

ـ ما الأمر؟

ظلّت مانويلا صامتة فقالت الملكة:

ـ أنا الجاهلة بكلّ شيء في هذه اللعبة أستطيع قراءة ما أراه أمامي.

وأشارت إلى البيتين تباعاً:

ـ البابا والشيطان.

أومأت مانويلا برأسها موافقة فسألتها إيزابيل:

ـ يا للرعب. ماذا يفعل أمير الظلمات جنب البابا؟

ـ إنّه ليس سوى رمز فهو يمثّل رغبة الإنسان في إشباع شهواته بأيّ ثمن ويرفض السيطرة المنظّمة ويدفع نحو التراجع إلى الفوضى والتشرذم.

ـ لم تجيبيني. ماذا يفعل هنا؟ إلى ماذا يرمز؟

ـ السؤال الأصحّ إلى من يرمز؟

ـ تعنين أنّه يرمز إلى رجل؟

ـ لاشكّ أنّه رجل. إنّه رجل سياسة ذو روح سوداء عليك أن تحترزي منه.

ـ من هو؟ اعطيني اسماً.

لم تتمالك مانويلا عن الابتسام.

ـ مستحيل. تلك هي حدود اللعبة.

أشارت إيزابيل بسبّابتها ناحية الصورة الأخرى التي تمثّل البابا.

ـ وهذا؟

ـ إنّه رمز الواجب والأخلاق والضمير وهو بذلك على النقيض من الرجل الأسود. وعلى الرغم من ذلك فكلاهما قريب منك. لكنّ هذا سيحميك ويسدّد خطاك. إنّه النور كما أنّ الآخر هو العتمة.

كانت مانويلا قد قلبت الورقة الخامسة وبدت عليها الدهشة.

ـ ماذا يفعل هذا المجنون في البيت الخامس؟ غريب...

ـ بماذا ستطلعين عليّ هذه المرّة؟

ـ المشكلة يا مولاتي أنّ لدينا ثلاثة أصناف من المجانين. الأوّل هو من كان يملك كلّ شيء وفجأةً فقد كلّ شيء والثاني هو من لم يكن يملك شيئاً وفجأة أصبح لديه كلّ شيء وأخيراً المجنون المريض عقليّاً. لست واثقة من ذلك لكنّي أرجّح الصنف الثالث بالنسبة إلى هذه الورقة.

ـ هل يكون أحد أفراد أسرتي مجنوناً؟

أجابتها مانويلا بشيء من الارتباك:

ـ أو أنّه سيصاب بالجنون.

وجمت إيزابيل للحظات ثمّ جمعت الورق بسرعة وخلطته وأعادته إلى مانويلا.

ـ خذي ورقك وإذا أردت النصيحة فعليك بحرقه أو إلقائه في نهر تاجه. يالها من تسلية عقيمة أن نحاول تأويل المصير من خلال صور. والأخطر أنّ يصبح التدخّل في إرادة الخالق طريقَ المخلوق إلى أبواب

النار والشقاء. بدليل ورقة الشيطان هذه فأنا لم أسحبها عن طريق الصدفة. أنت خبيرة بالرموز وتعرفين ذلك. صدّقيني إنّها علامة دون شكّ. تخلّصي من هذه الأوراق. تخلّصي منها بسرعة.

نهضت دون أن تضيف شيئاً وأدارت ظهرها إلى مانويلا مشيرة إلى شعرها.

ـ ساعديني لو سمحت على حلّ هذه العقصة.

*

غرناطة. اليوم نفسه.

جلس الرجلان القرفصاء ينظران في خريطة لإسبانيا مفروشة على أرضيّة الحجرة جنب دواة حبر غُمِس فيها قلم من القصب. كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر وكان النسيم الدافئ يحمل إليهما أصداء غرناطة وهي تمور بالحركة. انتهت المعارك منذ الفجر وشاع أنّ أبا عبد الله الصغير انتصر على أبيه ودخل القصبة صباحاً بعد أن أمر بإعدام قادة الجيش الذين وقفوا ضدّه. أدار ابن سراج القلم بين الإبهام والسبّابة بحركة متوتّرة.

ـ ما رأيك في أن نبدأ من البداية؟ لنقرأ نصّ القصر الأوّل كاملاً بعد أن قمنا بتجميع الجزئين، الجزء الذي كان معك والجزء الذي كان معي.

«القصر الأوّل الرئيسي»

مُبَارَكٌ مَجْدُ ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاِسْمُ في ٦.

لَحْظَتَهَا سألتُ أَمِيرَ الوَجْهِ. قلتُ لهُ ما اسْمُكَ؟ فأجابني: اِسْمِي فتَى. هل كانَ يَنْتَمِي إلَى نَوْمَى الرقيم؟ أنا الذي رَأَيْتُهُ في طَرِيقِي فَكَّرتُ للَحْظَةٍ

في أنْ أَمْنَحَهُ اِسْمَ عَزَازِيل. لكنّي أخطَأْتُ. كان ذَنْبُهُ الوحِيدُ أن يقترب من مَالِك وأخمداي. وأن يَعِيشَ الآنَ فِي أَعْلَى الهَضبَةِ ذات الانْحدارِ الخَفِيف، على أطلال حاديس. عِنْدَ سَفْح تلك الهَضبَةِ يَنَامُ ابْنُ يَاوَان، ويَنْسَابُ حُلْمُهُ نَحْوَ البَحْرِ هَامِساً: أرى أنّه لاَ إلهَ إلاّ الذي آمنَت به بنو إسرائيل. وأنَا من الخاضعين.

كانا قد سطّرا بالحبر تحت ما اعتبراه الكلمات المفاتيح.

ـ نحن إذنْ متّفقان على دلالة العبارة: مُبَارَكٌ مَجْدُ ي.ه.و.ه. في مسكنه.

ـ أجل. فلا شكّ أنّها تشير إلى المكان الذي يوجد فيه كتاب السفير ولا شكّ أنّ هذا المكان مرتبط بمجد الله وبركته. لكنّ الرقم ٦ يضعنا أمام مشكلة. فالمعنى الظاهر أنّ علينا حلّ ستّة ألغاز قبل الوصول إلى مكان الكتاب والحال أنّنا أمام ثمانية قصور، ستّة قصور رئيسيّة وقصران فرعيّان. لم أعد أفهم شيئاً.

ندّت عن ابن سراج حركة استسلام.

ـ أنا أيضاً لا أفهم شيئاً وأقترح إرجاء النظر في هذه المسألة.

ـ وأنا معك.

تفحّص عزرا الورقة مطوّلاً ثمّ قال:

ـ ثمّة تفصيل قد تكون له أهميّته. قد يرمز الرقم ٦ هندسيّاً إلى ستّة مثلّثات متساوية الأضلاع. هل تسمح؟

أخذ عزرا القلم وغمسه في المحبرة ثمّ رسم خطوطاً متقاطعة.

ـ ممّا يعطينا الشكل التالي:



قطّب ابن السرّاج جبينه.

ـ ها أنت تُقحم نجمة داوود وخاتم سليمان.

ـ يبدو عليك عدم الارتياح لهذا التأويل.

ـ لا يهمّ أن أكون مرتاحاً أو غير مرتاح. المهمّ أنّ هذا الشكل ليس في جوهره سوى مثلّثين متقاطعين وأنّ المثلّثات الستّة الأخرى هي ثمرة هذا التقاطع لا أكثر ولا أقلّ.

ـ لكن عليك الاعتراف بأنّها تعطينا في المحصّلة الرقم ٦.

ـ وماذا في ذلك؟ ما علاقة هذا بمشكلتنا؟

ـ لا أملك إجابةً حتّى الآن لكنّي أقترح أن نحتفظ بنجمة داوود في الذاكرة وأن نتقدّم في النصّ. لنقرأ مثلاً: **لَحْظَتَهَا سألتُ أَمِيرَ الوَجْهِ**. لو عدنا مرّة أخرى إلى أخنوخ ويبدو أنّنا مضطرّون إلى ذلك لأحالتنا العبارة على الكتاب الذي يحمل اسمه. أقصد الكتاب العبريّ المنسوب إلى أخنوخ. في هذا الكتاب يتماهى الأب مع كائن سماويّ اسمه...

ـ أمير الوجه.

ـ أجل. أضف إلى ذلك أنّ الأدبيّات التلموديّة ونصوص المركبة تفيد بأنّ أمير الوجه هو الملاك الأرفع درجة في مراتب الملائكة. ذاك الذي قاد الشعب العبريّ بعد حادثة العجل الذهبيّ. نجد ذلك مذكوراً في الشموط.

ـ الشموط؟

ـ سفر الخروج إذا أردت. حيث جاء: ***هَا أنا مُرْسِلٌ مَلاكاً أمامَ وَجْهِكَ لِيَحْفَظَكَ في الطَرِيقِ ولِيجِيءَ بِكَ إلى المَكانِ الذِي أَعْدَدتُه***... وفي وسعنا بالتالي أن نعتبر أمير الوجه بمثابة «الدليل».

ـ لا اعتراض لديّ.

بدا ابن سراج متردّداً بين الإعجاب بسعة اطّلاع عزرا والامتعاض منه. بعد لحظة قال هذا الأخير:

ـ علينا أن نذكر أيضاً أنّ «**أمير الوجه**» يُدعى في أدبيّات القبالة «**أمير الوجوه**» أو «**الصبيّ**» وهي قريبة من كلمة «**فتًى**».

ـ والخلاصة؟

ـ لنتريّث قليلاً ولنتمعّن في كلمة «**فتًى**» وتقابلها بالعبريّة كلمة تعني «**الخادم**» وتحديداً خادم المعبد أو الهيكل.

هنا أشار ابن سراج إلى إحدى الأوراق أمامه قائلاً:

ـ تحدّثنا منذ قليل عن «**نَوْمَى الرَّقِيم**» وكما قلت لك فإنّ هذه العبارة مستوحاة من سورة الكهف. لكنّي فكّرت في الأمر ويبدو لي أنّ لاختيار هذه السورة دلالة أكبر ممّا تصوّرنا بكثير. ولعلّ ابن برول أراد من ورائها أن يبعث لنا برسالة موازية.

ـ رسالة؟

ـ أظنّ ذلك. فالكهف هو مكان البعث. فضاء مغلق حُبِسَ فيه أهل الكهف كي يُختَضَنُوا وتُجدّد حياتهم. إسمع ما ورد في القرآن في هذا الصدد: ***وَتَرَى الشَمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوَرُ عن كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ وإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِمَالِ وهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ***... هذه «**الفجوة**» هي المركز الذي تمّ فيه التحوّل. المكان الذي أوَى إليه السبعة الرقود دون أن يتصوّروا أنّ الحياة ستمتدّ بهم إلى ما يشبه الخلود. حين استيقظوا كانوا قد ***لَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً***.

داعب عزرا لحيته وقد بدا عليه التفكير.

ـ كلّ هذا مهمّ ولكنّك تحدّثت عن رسالة...

ـ الرسالة موجودة ضمن المعاني الخفيّة للسورة. كلّ من يدخل

الكهف أي كلّ من يدخل الفجوة الموجودة داخل كُلٍّ مِنَّا أو العتمة المتوارية خلف بحار الروح اللامتناهية، كلّ من يفعل ذلك يسير في طريق التحوّل. ما أن يغوص أحدنا في هذا البحر حتّى يمتدّ جسرٌ بين وعيه وما في أعماق البحر وهكذا تتحوّل شخصيّته وتتغيّر سلباً أو إيجاباً.

استمع الربّي إلى حديث الشيخ بكلّ انتباه.

ـ إذا فهمتك جيّداً فهذا يعني أننّا في خاتمة هذه الرحلة إذا وصلنا طبعاً إلى خاتمتها المرجوّة، قد لا نبقى أنا وأنت على ما نحن عليه الآن وقد نتغيّر كما قلت أنت: سلباً أو إيجاباً.

ـ هي على الأقلّ فرضيّة لا يمكن تجاهلها.

ـ لست واثقاً تماماً ولكن من يدري مع رجل كابن برول؟

أشار إلى الوثائق المتناثرة على الطاولة.

ـ ما رأيك في أن نواصل؟

ـ توقّفنا عند عزازيل ومالك وأخمداي. هنا لا شكّ عندي في أنّنا أمام الصورة الثلاثيّة للشيطان. صورة يدعّمها اسم حاديس الذي يحيلنا على جهنّم.

ـ هذا صحيح. لننظر في «**يَاوَان**» الآن. **عِنْدَ سَفْحِ تلك الهَضبَةِ يَنَامُ ابْنُ يَاوَان**. وهو اسم مذكور في سفر التكوين وجاء ذكره باعتباره أباً لتَرْشِيش. لكنّ المشكلة التي تزيد التأويل صعوبة أنّ كلمة ترشيش ترد في سِفرِ يُونَان باعتبارها اسماً لمدينة.

وأضاف مستعرضاً عن ظهر قلب:

ـ فَقَامَ يُونَانُ لِيَهْرُبَ إِلى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ الرَبِّ فَنَزَلَ إِلى يَافَا وَوَجدَ سَفِينَةً ذَاهِبَةً إِلى تَرْشِيشَ فَدَفَعَ أُجْرَتَهَا وَنَزَلَ فِيهَا لِيَذْهَبَ مَعَهُمْ إِلى تَرْشِيشَ

مِنْ وَجْهِ الرَبّ. . . أمّا الكلمة الأخيرة فقد عرفنا بفضل محفوظاتك القرآنيّة أنّها مرتبطة بالإسلام ومن ثمّ جاءت ضرورة تعاوننا.

ظلّ ابن سراج صامتاً للحظات ثمّ قال بنبرة غلب عليها السأم:

ـ لا أرى أننّا تقدّمنا كثيراً.

ـ لست معك في هذا. لو قمنا بحوصلة لِمَا توصّلنا إليه لرأينا أنّ النقاط الخمس تشير إلى مسلك معيّن. انتبه إليّ جيّداً: لدينا ألغاز لابدّ من حلّها ومن أجل ذلك أوضح لنا ابن برول أنّنا نحتاج إلى دليل وهذا الدليل موصوف بشكل دقيق: هو شابّ (صبيّ أو فتًى) وخادم لمعبد وبما أنّ كلّ شيء هنا رمزيّ فعلينا أن نضع هذه الكلمة في سياق مفتوح. قد يكون هذا المعبد كنيساً أو كنيسة أو مسجداً أو أيّ مكان يُعْبَد فيه الله. ونستطيع القول بإيجاز إنّ هذا الدليل شابّ ويعيش في مكان للعبادة. هل أنت معي؟

أومأ الشيخ برأسه موافقاً وأضاف:

ـ لكنّ أماكن العبادة في إسبانيا لا تُحصى ولا تُعدّ. حتّى الكُنُس هناك منها ما لم يُهدّم بعد. المساجد كثيرة أيضاً وإن كانت مهدّدة أمّا الكنائس فبالآلاف.

ـ لا تنسَ الأديرة والصوامع.

ـ أي أنّنا أمام متاهة.

ـ ليس بالضرورة. فابن برول أعطانَا إشارات واضحة إلى مكان وجود هذا المعبد.

ـ أيّ إشارات؟ الشياطين؟ جهنّم؟ ترشيش؟

ـ لا أعرف المغزى من ذكره الشياطين والجحيم. لكنّ حدسي يؤكّد لي بأنّ الحلّ يكمن في كلمة ترشيش. المشكلة أنّنا أمام فهمين ممكنين

لنفس الكلمة. إمّا أن نفهمها انطلاقاً من سفر التكوين وهذا يعني أنّها اسم شخص وإمّا أن نفهمها وفْقاً لما ورد في سِفْر يونان وهذا يعني أنّها اسم مدينة.

لاذ الرجلان بصمت عميق قطعه بين الحين والآخر صليل عربة أو صهيل حصان أو هتاف أحد الباعة المتجوّلين. بعد فترة تنهّد عزرا بحرقة.

ـ هذه المرّة يبدو لي أنّنا وصلنا إلى زقاق.

ـ لابدّ أنّ هناك علامة أو كلمة تمكّننا من...

توقّف عن الكلام فجأة وحدّق في النصّ.

ـ كيف لم ننتبه إلى ذلك؟ الأمر واضح طبعاً... انظر.

وضع الشيخ سبّابته فوق كلمة «الخاضعين» وقال يكاد يصرخ:

ـ السورة العاشرة. في هذه السورة يكمن الحلّ. ألا ترى؟

نظر إليه عزرا محتاراً مومئاً برأسه أن لا.

ـ ضللتُ أنا الطريق واستنتجتَ أنت من كلامي أنّ كلمة **«الخاضعين»** لم ترد في النصّ إلاّ للتأكيد على ضرورة تعاوننا. كان ذلك استنتاجاً خاطئاً من كلينا. ألم أقل لك إنّ العبارة كلّها: ***أرى أنّه لا إلهَ إلاّ الذي آمنَت به بنو إسرائيل. وأنا من الخاضعين***، هي من وحي الآية ٩٠ من السورة العاشرة؟

ـ بلى فهل كنتَ على خطأ؟

ـ كلاّ لكنّي نسيت أن أقول لك الأهمّ. هل تعرف اسم هذه السورة؟

أومأ الربّي برأسه نافياً.

ـ إنّها سورة يونس.

ردّد عزرا بشكل آليّ:

ـ يونس...

ـ لم يبق مجال للشكّ الآن. ألحّ ابن برول مرّتين على يونس ومن ثَمّ

فإنّ ترشيش ليست شخصاً بل مدينة. إنّها المدينة التي ورد ذكرها في سِفر يونان عندكم ويونس عندنا.

ـ شكراً لك يا شيخ بن سراج لقد أثرت إعجابي.

ـ لكنّنا للأسف لم نَخلُص من المأزق بعد. لا أعرف مدينة في إسبانيا كلّها تحمل اسم ترشيش.

ـ لا بأس فالمهمّ أنّنا عرفنا إلى أين يجب أن نتّجه بالبحث.

خيّم الصمت على الحجرة من جديد وظلاّ صامتين لفترة طويلة وقد انشغل كلّ منهما بأفكاره حتّى وصلهما فجأة صوت المؤذّن يدوّي في سماء حيّ البيّازين. لحظتّها نزع شاهر حذاءه وسحب سجّادة من خزانة صغيرة وطرحها أرضاً ثمّ وقف ووجه إلى القبلة، إلى مكّة، واستعدّ للصلاة. كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر وكانت تلك ثاني مرّة تحضره الصلاة وهو في حواره مع عزرا. هذه المرّة لم يكتف الرِبّي بمراقبته وهو يصلّي بل أدخل يده في جيب فرجيّته وأخرج طاقيّة صغيرة وضعها على رأسه ثمّ تقدّم إلى وسط الحجرة واستدار ناحية أورشليم. شرع ابن سراج في تلاوة الفاتحة فشرع عزرا في تلاوة المينخا. وفجأة ارتفعت في الحجرة صلاتان بلغتين مختلفتين ومعنى واحد.

ـ بسم الله الرحمان الرحيم. . .

ـ لِيُمجّد اسمُهُ ولْيُقَدَّسْ في الكَون. . .

ـ الحمْدُ لله ربّ العالمين. . .

ـ الذي خلقه حسب مشيئته. . .

هكذا مرّ الزمن مختلفاً ومتّحداً في الوقت نفسه. أكمل الرجلان شعائرهما فعاد كلّ منهما إلى مكانه وانهمكا في تأمّل الأوراق وتقليبها صامتين. بعد فترة أحسّ عزرا بالتعب وكاد يتثاءب لكنّه تمالك نفسه وقال:

ـ الأفضل أن يفكّر كلّ منّا من جهته. لا أدري ما أنت صانع لكنّي عائدٌ إلى البيت لأنام وإنّ الليل لَنَصُوحٌ كما يقولون.

ـ بل قل النهار أو ما تبقّى منه.

ـ لم يعد جسدي قادراً على التمييز بين الليل والنهار يا ابن سراج. لنستأنف جلستنا غداً بعد الظهر إذا لم تر مانعاً، لعلّ الربّ يهدينا في الأثناء إلى معنى ترشيش.

لملم أوراقه واقترب من الباب مترنّحاً مشيراً بالتحيّة:

ـ شالوم يا شيخ.

ـ مع السلامة يا رِبِّي.

الفصل ٥

خافو وارتَعِدوا
كأنّكم على حافة هاوية
كأنّكم تسيرون على ورقة رقيقة من الجليد. . .
(حوارات كونفوشيوس)

برغش.

اقترب الأخ فرانسيسكو توماس دو توركيمادا من النافذة المطلّة على المدينة شارد الذهن فطالعته كاتدرائيّة برغش بجدرانها العالية وأعمدتها الضخمة. كانت أجمل معالم الفنّ القوطيّ في إسبانيا كلّها لكنّها لم تثر يوماً إعجابه فهو يفضّل عليها كنيسة القدّيس نيقولا ذات المعمار الأقلّ ضخامة والأرهف ذوقاً. نظر يميناً فتراءى له النهر من خلال أوراق الأشجار يتلوّى بهدوء ثمّ ذهب بنظره إلى أبعد فبدا له دير لاس هويلغاس. قفزت إلى ذهنه صورة رئيسة الدير، أهمّ امرأة في إسبانيا بعد الملكة، فلم يتمالك عن الابتسام. كانت امرأة صلبة ذات شخصيّة قويّة جعلت الكثيرين يقولون بمكر إنّه لو سُمِح للبابا بالزواج لكانت وحدها الجديرة بهذا الشرف.

البابا. . .تذكّره توركيمادا فشعر بتأثّر بالغ. أليس مديناً إلى الحبر الأعظم بتسميته مفتّشاً عامّاً لقشتالة وأراغون وليون وقطلانة وبلنسية؟ كم قطع من الطريق منذ أن كان رئيساً متواضعاً لدير صغير لا يسمع به أحد؟ وكلّ ذلك بفضل الربّ وحبّاً في الربّ.

الربّ. . . أقوى الأقوياء. سند الضعفاء عند الشدّة. نور الأمل حين يذهب اليأس بالبشر كلّ مذهب. هو. . . هو وحده العالِم بما في قلب عبده توركيمادا من ألم أمام الكفر السائد في هذا القرن. هراطقة يجدّفون من كلّ جانب وحاخامات يحضّون على الكفر وأئمّة يطعنون في دين المسيح. وحده الربّ يعلم بهذه الغنغرينة التي تتفشّى في جسد إسبانيا كلّه. وحده الربّ يعلم بما يعانيه عبده توركيمادا في سبيل تطهير بلده من الكفرة وما يتحمّله من إساءة المتهامسين خلف ظهره في ليالي إشبيلية أو قرطبة أو سرقسطة للانتقاص من مهمّته التطهيريّة أو عرقلتها. لا شيء يخفى عن توركيمادا من كلّ ذلك لكنّه يعرف أنّ الربّ يقف معه ويلهمه. ويوم الحِسَاب الأخير، يوم تتفتّح العيون أخيراً على الحقيقة، سيرى هؤلاء الذين يمطّون اليوم شفاههم بالاعتراض والإنكار، سيرون أين يضع الربّ فراي فرانسيسكو توماس دو توركيمادا؟ عن يمينه دون أيّ شكّ. لكنّ الزمن لم يعد زمن التأمّل. وهو أفضل من يعلم أنّ طريق التطهير مازال طويلاً وأنّ صليب إسبانيًا ثقيل.

بخطوة نشطة اتّجه توركيمادا نحو مكتبه. نظر في الورقة المبسوطة أمامه: المرسوم الجديد ـ الثامن ـ الذي كان يستعدّ لتعميمه على أنحاء المملكة. كان مخصّصا للحالات التي تجبر أيّ مواطن على الوشاية بهؤلاء المتنصّرين من اليهود الماكرين الذين يتظاهرون بالولاء لأمّنا الكنيسة دون أن يتخلّوا في السرّ عن معتقدات أجدادهم. فكّر طويلاً ثمّ خطّ على الورقة:

ـ الفصل١ : إذا تعامل أحدهم مع يوم السبت على طريقة القانون القديم، ويسهل إثبات ذلك إذا ارتدى يومها قميصاً أو ملابس أكثر نظافة وإذا غطّى مائدته بالأبيض وإذا امتنع عن إيقاد النار في الليلة السابقة.

ـ الفصل٢ : إذا استخرج من اللحم الزيت أو الشحم وإذا استفرغ دمه وإذا اقتطع منه أطرافاً مثل عرق الأسى.

ـ الفصل٣: إذا ذكر اسم الله قبل ذبح الحيوان أو مرّ بحدّ السكّين على ظفره تثبّتاً من رهافته، وإذا قام بعد ذلك بردم الدم في التراب.

ـ الفصل٤: إذا أكل اللحم يوم الصوم الكبير وأيّام القِطاعة.

ـ الفصل٥: إذا غمغم بصلوات يهوديّة رافعاً خافضاً رأسه ووجهه إلى الجدار.

ـ الفصل٦: إذا ختن أو أمر بختان ابنه.

ـ الفصل٧: إذا منح ابنه اسماً عبريّاً.

ـ الفصل٨: إذا تلا من مزامير داود دون أن يختم بعبارة المجد للوطن.

ـ الفصل٩: إذا عمد إلى تسجية محتضر متّجهاً ناحية الجدار.

توقّف توماس لحظة وأضاف بعد تفكير:

ـ الفصل١٠: إذا قال إنّ تعاليم موسى قادرة على خلاصنا مثل تعاليم سيّدنا يسوع المسيح.

رسم إشارة الصليب ببطء مصلّياً من أجل أن يساهم هذا المرسوم الجديد في إحكام الإحاطة بالهراطقة وزعمائهم وكلّ الخارجين على الدين القويم. منذ الغد سيعرض المرسوم على المجلس الأعلى لديوان التحقيق. وما أن تتمّ الموافقة عليه حتّى تحصل المحاكم على نسخة منه ثمّ توزّع بقيّة النسخ على القُضاة والمأمورين والأعوان وعموم المواطنين.

غمره الإحساس بالرضا فتناول ورقة أخرى من ذلك النوع الذي يحبّذه وشرع في وضع ملامح مرسوم آخر في موضوع مختلف هذه المرّة. مرسوم يكون هدفه معاقبة «الجرائم شبه الهرطوقيّة» ويتمّ تطبيقه على عموم المواطنين دون تمييز بما في ذلك «قدامى المسيحيّين»، وهي الصفة التي تُطلق على كلّ مسيحيّ يثبت أن ليس من بين أسلافه يهود أو مسلمون وأن

ليس من بين ذريّته من ارتدّ أو تنصّر قريباً. حدّث توماس نفسه بأنّ المشكّكين في عدله وإنصافه سيُسْقَط في أيديهم بهذا المرسوم الجديد. أثبت بخطّه الملتوي الحالة الأولى التي تستحقّ العقاب:

- الزنا.

أسرع يوضّح أنّ من الضروريّ دحض الفكرة القائلة بأنّ مضاجعة امرأة برضاها ليس ذنباً إذا كانت غير متزوّجة.

- جريمة الخطاب التجديفيّ والعبارات الهرطوقيّة والكلام النابي الفاضح.

غمس الريشة في المحبرة الزجاجيّة الصغيرة وتركها للحظة معلّقة في الهواء كي تكتمل الفكرة في ذهنه ثمّ استأنف الكتابة بيد أكثر وثوقاً:

- الشعوذة.

أحسّ بالغثيان وهو يهمّ بتدوين الجريمة التالية فقد بدت له الأكثر فظاعة:

- الشذوذ الجنسيّ ومن ثمّ البشاعة التي يتضمّنها: اللواط.

ما أن خطّ هذه الكلمات حتّى تذكّر تفصيلاً طالما أثار قلقه بخصوص هذا الأمر. إنّه مرسوم البابا كليمنت السابع الذي طالب المفتّشين صراحة بالتعامل في هذا المجال حسب القوانين المتوارثة جيلاً بعد جيل والمعمول بها في كلّ الأراضي التابعة لعرش أراغون. هذه القوانين تمنح اللواطيّين الحقّ في التعرّف على الواشي بهم وتسمح لهم بمواجهته دفاعاً عن أنفسهم. لو كان الأمر بيد فراي توركيمادا لاستغنى عن هذا التضييق فهو في نظره في تناقض تامّ مع نظام السريّة الذي يحكم قضايا الإيمان. لن يعدم حيلة على أيّ حال. توقّف لحظة وأثبت بصره ساهماً في اللوحة الكبيرة المعلّقة على الجدار المقابل. لوحة لإيزابيل وفرناندو سيّدي إسبانيا.

تسلّل أحد أشعّة الشمس إلى القاعة راسماً خطّاً قطريّاً تامّاً انطلاقاً من إحدى زوايا النافذة وصولاً إلى أسفل تلبيسة الجصّ التي أُثبتت إليها اللوحة فازدادت هذه الأخيرة توهّجاً. بدا الملكان جنباً إلى جنب وخلف كلّ منهما لاح رمز المُلْك الخاصّ به: نير السلطة بالنسبة إلى فرناندو وحزمة سهام العدالة بالنسبة إلى إيزابيل. مع كتابة مُزَخْرَفة للعبارات التالية: **لا فرق بين هذه وذاك. لا فرق بين ذاك وهذه. لا فرق بين إيزابيل وفرناندو.** شعار لا يعني شيئاً في الحقيقة لأنّ عبارته الأصليّة هي: **لا فرق بين هذه وتلك.** دون أيّ زيادة. وكان المقصود بها فرناندو وحده. وقد أشار بها عليه منذ سنوات العالم والأديب أنطونيو دي نيبريغا أحد وجوه النخبة اليهوديّة الذي كان يعرف فرناندو حقّ المعرفة ووجد شبهاً بينه وبين إحدى وقائع حياة الإسكندر الأكبر. إذ يُروى أنّ الإسكندر الأكبر في غزوته لآسيا الصغرى زار يوماً معبد زيوس في غورديون ورأى وسط المعبد نيراً موثوقاً في عقدة لم يفلح أحد في فكّها. وأخبره أحد العرّافين بأنّ من يفكّ عقدة النير يكون سيّد آسيا فحاول الإسكندر فكّها دون جدوى. فأشهر سيفه فجأة وقطعها بضربة واحدة قائلاً: **لا فرق بين هذه وتلك.** من ثمّ جاءت فكرة اتّخاذ فرناندو النير رمزاً لملكه باعتماد العبارة لا فرق بين هذه وتلك (لا فرق بين فكّ العقدة أو قطع الحبل). فلسفة قريبة من شخصيّة الملك: الالتفاف على الصعوبات والحسم بشدّة في اللحظة المناسبة دون التورّع عن شيء.

وعلى الرغم من ذلك فلابدّ من الاعتراف بأنّه لا مجال للتسوية الكاملة بين الملكين. توماس نفسه يعترف بأنّ قلبه يميل ناحية الملكة وهو يعرف سبب ذلك، أو لنقل إنّه يعرف سبب قلّة ميله إلى فرناندو. أليس الأستوريّ يهوديّاً من جهة أمّه؟ يهوديّ... جوديو. انقبضت أصابع توركيمادا على حافة الطاولة. هل تظلّ هذه الكلمة البشعة وراءه حتّى الرمق الأخير؟

كعادته في مثل هذه اللحظات عاودته ذكرى جدّه الثالث سليمان دي

فينسلار بائع الفواكه في طرويل. يهودياً كان ويهوديّين كان ابناه موشي وسيمون ويهوداً ظلّ الجميع. حتّى حلّ ذاك اليوم المبارك من عام ١٣٤٨ حين قرّر سليمان أن يلتحق بصفّ أمّنا الكنيسة وأن يستبدل لقب فينسلار بلقب توركيمادا منتسباً إلى تلك القرية الصغيرة في ريف بلنسية التي هاجرت إليها الأسرة.

نظر توماس إلى يديه المجعّدتين. كان في الخامسة والستّين من عمره لكنّهما بدتا له يدي عجوز في المائة. تخيّل الدم يتدفّق في شرايينه تحت الجلدة الهرمة فاستعرت ناره الخامدة. النار نفسها التي لا يخبو أوارها في أعماقه منذ سنين والتي يغذّيها رعبه الدائم من أن يكون في ملايين الكريّات الحمراء التي تسكنُ جسده بقيّة باقية من ذلك الإرث المخزي. الرعب من أن يكون هو فراي توماس دو توركيمادا المفتّش العامّ، يحمل أثراً من دم يهوديّ. انتبه إلى الباب يُطرَق فانتزعه ذلك من أفكاره. دخل رجل مُقَلْنَس قصير القامة ودنا منه بإجلال.

ـ مرحباً بك فراي ألفاريز.

اقترب سكرتيره من المكتب وقدّم له إضمامة أوراق مشدودة بحلقتين من النحاس.

ـ تقويم المحرقة الأخيرة.

ـ محرقة طليطلة؟

ـ أجل.

وضع القسّ الأوراق أمام توركيمادا.

ـ ألبِسة الآثمين:	٢٠٨,٥٠٠ م
ـ منصّة ومقاعد:	١٤٧،٢٥٠ م

ـ ماء التبريك وحبال وشمع وصلبان وشموع

وقبعات مُقَرّنة:	٩٣،٠٦٢ م
ـ رواتب فرق الجنود الثلاث المكلّفة بتأمين المحرقة:	٧٧،٥٠٠ م
ـ خدمات متنوّعة: جلاّدون وموسيقيّون وحمّالون	
مكلّفون بنقل المدانين المعاقين:	٥٨،٥٩٠ م
ـ وجبات الآثمين وأعضاء المحكمة:	٥٧،٩٧٠ م
المجموع بالعملة المرابطيّة:	٦٤٢،٨٧٢ م

نحّى توركيمادا الوثائق جانباً وقد بدا عليه الضجر.

ـ مازلت أرى أنّ كلفة الملابس مرتفعة أكثر من اللزوم.

ـ وماذا في وسعنا أن نفعل؟ قرّر المجلس أن لا نعرض المتّهمين حفاة عراة فصار لزاماً علينا أن نوفّر لهم هنداماً محترماً. هم لا يستطيعون تدبير أمرهم بأنفسهم لأنّ شهور الحبس الطويلة تستنفد كلّ ما لديهم من مال وتجعلهم عالةً علينا في كلّ شيء. في المحرقة الأخيرة اضطررنا إلى شراء أحذية لمعظمهم كما كسونا ستّة رجال وستّ نساء. وكان علينا. . .

قاطعه توركيمادا بحدّة:

ـ كفى. أعلم أنّ علينا التكفّل بهذه المصاريف لكن لابدّ من التخفيف منها فليس الجميع في سخاء الماركيزة دو إيستيبا. منذ ثلاثة أشهر اضطررت إلى التدخّل بنفسي لدى جلالة الملكة كي تُلْزِمَ مدينة مدريد بتحمّل تكلفة المدرّج. طبعاً لا يعقل أن أفعل الشيء نفسه كلّ مرّة كما لا يُعقل أن نقلّص من المحارق بسبب قلّة الموارد الماليّة. لا سبيل إلى هذا أبداً.

حرص الأب ألفاريز على إكساء وجهه أكثر الملامح تجاوباً مع انزعاج رئيسه.

قال فراي توماس:

ـ واللائحة؟ هل أتيتني باللائحة؟

ـ يقصد سيّدي قائمة المدانين؟ إنّها بين يديك. الأوراق الثلاث الأخيرة.

انكبّ المفتّش العامّ على قراءة الوثائق:

ماريا دو ريفيرا. ٧٥ سنة. من مواليد جيان ومن سكّان طليطلة. أرملة ملشور دو توريز. هرطوقيّة مرتدّة ويهوديّة متشبّثة بتعاليم موسى. تمّ خنقها ثمّ حرقها بتاريخ ٢٨ أبريل ١٤٨٥.

كاتالينا بينيدو. ٥٠ سنة. من مواليد مدريد ومن سكّان برلنجة. زوجة مانويل دي لابينا الهارب والمطارد من طرف الديوان. تنصّرت سنة ١٤٧٥ ثمّ عادت إلى طريق الإثم. أعلنت عن توبتها في الألم فخُنِقت ثمّ أُحرِقت بتاريخ ٢٨ أبريل ١٤٨٥.

الأخ جوزيف دياز بيميينتا. ٥٠ سنة. من مواليد سيقوفة ومن سكّانها. موظّف كبير في دائرة الضرائب. تمّ تجريده من درجته الوظيفيّة وقُدّم إلى المحاكمة باعتباره يهوديّاً متصلّباً يحرّض على الهرطقة ويؤوي هراطقة وينافق في اعترافاته ويتظاهر بالإيمان ليخفي الكفر. لكنّه عاد إلى الإيمان الصحيح ليلة تنفيذ الحكم فيه.

ابن برول. ٧٥ سنة. من مواليد برغش ومن سكّان طليطلة. تاجر لوحات. تنصّر سنة ١٤٧٨ لكنّه ارتدّ إلى يهوديّته من جديد مشكّكا في الدين الصحيح كافراً بالتعاليم مصرّاً على الخطأ. لم يبد عليه الندم حتّى وهو يستمع إلى قرار إعدامه. تمّ تسليمه إلى السلطة المدنيّة فأوثق وأُحرق.

زوى توماس ما بين حاجبيه.

ـ ابن برول. . .غريب. ورد في جذاذته أنّه تنصّر سنة ١٤٧٨.

ـ هذا صحيح فما الذي يثير استغراب سيّدي؟

ـ تعلم جيّداً أن هؤلاء ما أن يتنصّروا حتّى يتّخذوا ألقاباً مسيحيّة. لكنّه لم يفعل.

ندّت عن الأب ألفاريز حركة لامبالاة.

ـ هذا دليل واضح على أنّه لم يتنصّر عن قناعة وأنّه ظلّ في قرارة نفسه. . .

توقّف فجأة عن الكلام ضارباً بكفّه على جبينه.

ـ تذكّرت شيئاً الآن. . .هل تسمح؟

نهض من مجلسه واستعاد الصحف التي جاء بها منذ لحظات فأخذ يقلّبها بيد مرتجفة حتّى عثر على إحداها فنظر فيها قليلاً ثمّ أشار بها إلى المفتّش العام.

ـ هذا ما كنت أبحث عنه.

ـ ما الأمر؟

ـ ذهب المحلّفون إلى بيت ابن برول كعادتهم مع كلّ المتّهمين وكانوا يفتّشون الغرف بحثاً عن أيّ موادّ أو وثائق تؤيّد التهمة حين عثروا على هذه الوثيقة. أقترح على سيادتكم النظر فيها بتمعّن فهي لا تخلو من غرابة.

«القصر الثالث الرئيسيّ»

مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاسم في ٤.

عندئذ فتح فمه وقال: ستجيء ساعة نطيح بالتنّين، الشيطان أو إبليس

كما يُسمّى، مغوي العالم كلّه، سنطيح به أرضاً وزبانيته معه، ابن قابيل هذا. اسمه في الوقت نفسه متعدّد وواحد. اسم خليلة النبيّ. اسم المرأة التي قال عنها الرسول: لا يولد ابن آدم إلاّ لمسه الشيطان يوم ولادته، إلاّ هو وأمّه. وأخيراً اسم السِقط، صانع الخيام. الكلّ، وا أسفاه، لا يساوي أكثر من ثمن عبد. لأنّه يذكّر بذاك الذي كان عليه أن يقع على رأسه، وينشقّ من وسطه، وتندلق أمعاؤه كلّها. على الضفّة، بين شوكتي السعدان، شوكة الجنّة وشوكة جهنّم، احتفظتُ بالـ ٣. إنّه أسفل دموع العنبر، على رأس السيّد وزوجته وابنه.

قرأ توماس النصّ مرّتين كما قرأ أسفل الصحيفة كلمة برغش ملاحظاً أنّ تحتها سطراً.

ـ لم أر في حياتي كلّها نصّاً بمثل هذا الغموض والتناقض. واضح أنّه غير بعيد عن هؤلاء الهراطقة وهذيانهم. ما هذا الهذر؟

ـ لن نفلح للأسف في معرفة المزيد. كلّ ما أخبرني به أعواننا أنّ المرّانو أبدى انزعاجاً كبيراً حين انتبه إلى عثورنا على الوثيقة. هذا كلّ ما في الأمر.

أعاد المفتّش الصحيفة إلى مخاطبه.

ـ إِحْتَفِظْ بها فمن يدري؟ وإن كنتُ لا أرى فيها أكثر من هذيان بائس مسكون بالشرّ. أنت تعرف مثلي كم أنّ هؤلاء مراوغون.

ـ بل إنّهم عُمْيٌ كلّهم. المسلم الذي يتصوّر أنّ الله عربيّ والمرّانو المقتنع بأنّ الربّ يهوديّ. لا أدري متى يكفّون عن ذلك الهراء ويعترفون أخيراً بأنّ الإله لا يمكن إلاّ أن يكون مسيحيّاً.

ارتفع صوت توركيمادَا معترضاً:

ـ أنت أيضاً على خطأ.

سأله الراهب وقد حال لونه فجأة:

ـ ماذا. . . ماذا يقصد سيّدي؟

أجابه المفتّش هامساً وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة:

ـ الإله إسبانيٌ. . . يا فراي ألفاريز. إسبانيّ.

*

غرناطة

أمسك الشيخ ابن سراج بتلابيب عزرا وأخذ يهزّه بعنف وقد جُنّ جنونه. ولو قُيّض لأحد أن يراهما لحظَتَها لخُيّل إليه أنّ الحبر العجوز ستنفكّ عظامه من مفاصلها وتتناثر أعضاؤه على الأرض.

ـ أنت يهوديّ كافر. لاشكّ أنّ أمّك حبلت بك من عقرب.

كان صموئيل مذهولاً يحاول أن يدفع عن نفسه بكلمة أو حركة لكنّ قوّة الهجوم وشدّة الذعر سدّا عليه كلّ منفذ. داهمه العربيّ منذ لحظات في بيته وقد تطاير الشرر من عينيه وما أن رآه حتّى أمسك بخناقه.

دفعه بقوّة أكبر فشعر بأنّه يطير إلى الخلف حتّى اصطدم ظهره بالحائط.

ـ هل جننت؟

ـ يا كافر. يا سارق.

ـ سارق؟

ـ وممثّل بارع أيضاً. . . ها أنت ترتدي قناع النفاق الذي طالما برع في ارتدائه أبناء ملّتك. ***«وإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُم الأنامِلَ مِنَ الغَيْظ. . .»*** صدق الله العظيم.

غمغم عزرا دون أن يشعر:

ـ السورة الثالثة الآية ١١٩.

ـ اخرس.

أضاف الشيخ رافعاً يديه مشهداً السماء.

ـ ويجرؤ على ذكر الكتاب الحكيم.

انحنى على صموئيل وأمسك بخناقه من جديد وأجبره على الوقوف:

ـ أرجع لي قصوري فوراً وإلاّ...

ـ أيّ قصور؟ عمّ تتحدّث؟

ـ كفّ عن المراوغة وإلاّ قسماً بالله ما تركتك قبل أن أذبحك من الوريد إلى الوريد. بل لعلّي أصنع بك أبشع من ذلك. أشي بك إلى أعوان ديوان التفتيش. أرجع لي فوراً الصحف التي تتضمّن الجزء الخاصّ بي من خارطة ابن برول والتي سرقتها منّي البارحة.

كاد عزرا يختنق في قبضة الشيخ لكنّه وجد القوّة كي يصرخ:

ـ أنت مريض. لم أسرق منك شيئاً.

ـ كاذب.

ـ هل تعني أنّي غادرتك ثمّ عدت بالليل وتسلّلت إلى دارك كي...لا...لا...أنت مخبول دون شكّ.

ـ مخادع.

ـ بل مصاب بالتهاب المفاصل.

حدّق فيه العربيّ وقد علت وجهه الدهشة.

ـ وما العلاقة؟

ـ أطلقني وأنت تفهم.

خلّى سبيله فاغتنم عزرا الفرصة وأراه يديه.

ـ انظر.

بدت الأصابع ملتوية منكمشة من الإبهام إلى الخنصر لا مفصل فيها إلاّ وهو فريسة المرض والتشوّه.

ـ هل يصوّر لك عقلك أنْ في وسع هذه الأصابع أن تفتح باباً بليل أو أن تفتّش في صندوق عن أيّ وثيقة؟ لقد قضيت الليل كلّه في داري أدهن يديّ بمرهم البَلَسان وأغلفهما بورق الصنوبر وأتلوّى ألماً.

أُفْحِم ابن سراج فظلّ صامتاً يبحلق في يدي عزرا ويحتدم غضباً، إلاّ أنّه سرعان ما أعلن عن هزيمته في شكل سؤال:

ـ فمن يكون السارق إذنْ؟

ردّ عزرا غاضباً وهو يصلح ما فسد من قيافته:

ـ اِسْأل نفسك.

ـ ألم تفهم بعد؟ الأمر بالغ الخطورة. هناك من استولى الآن على قصور ابن برول.

ـ ماذا فعلتَ بعد خروجي من عندك البارحة؟ أجبني.

تهالك الشيخ على أقرب كرسيّ.

ـ واصلتُ النظر في الوثائق حتّى أنهكني التعب وداهمني النعاس. ثمّ ارتبت فيك لعلّك تطمع في الاستئثار بالأمر لنفسك وأعتقد أنّك لن تلومني على هذا الشعور الطبيعيّ، فقرّرت إخفاء الوثائق قبل أن أذهب إلى النوم ولم أجد أفضل من أن أضعها خلف صفّ من الكتب على رفّ من رفوف مكتبتي.

ـ يا لها من فكرةٍ رائعة.

ـ دعك من السخرية أرجوك.

ـ لن تكون سخريتي أبداً بحجم حمقك. بسببك ضاعت علينا فرصة العثور على كتاب السفير. بدون شذراتك لن نستطيع حلّ الألغاز.

ثمّ أضاف بصوت حادّ:

ـ لماذا يا ابن برول؟ لماذا وضعت ثقتك في هذه الملّة؟

ـ كفى. لستُ بالحمق الذي تظنّه. ما أن وصلتني رسالة ابن برول حتّى انتبهت إلى أهميّتها وقمت بعمل نسخة لها بكلّ أجزائها. والنسخة معي.

تنفّس الحبر الصعداء.

ـ حمداً للربّ.

ـ ها أنت ترى أنّ هذه «الملّة» أقلّ غباءً ممّا يبدو للبعض.

ـ أخبرني بالتفصيل. ماذا فعلت بعد أن أخفيت القصور؟

ـ أغلقت الباب وأدرت المفتاح في القفل مرّتين ثمّ ذهبت إلى النوم. وما أن فتحت عينيّ صباحاً حتّى أسرعت أتفقّد المخطوط فلم أجد له أثراً.

ندّت عن عزرا ضحكة ساخرة.

ـ هل ترى في هذه المأساة ما يضحك.

ـ بل يضحكني أن أراك عاجزاً تماماً عن الاستنتاج الصحيح. ألم تجد قفل الباب سليماً كما تركته؟

ـ بلى.

ـ وعلى الرغم من ذلك صوّرت لك نفسك أنّي جئت دارك ليلاً ودخلت دون أن أكسر القفل. ومن أين آتي بالمفتاح؟ أنا حبر يا ابن سراج ولست ساحراً.

ـ حسناً. أقدّم لك اعتذاري.

ـ لو كنت مكانك لما بحثت عن السارق إلاّ تحت سقفي. وحدهم أهل الدار كانوا قادرين على سماعنا ومراقبتنا ولا شكّ أنّ أحدهم رآك تخفي الوثائق فانتظر أن تنام واستولى على كلّ شيء.

مرّ ابن سراج بيده على لحيته وقد غلب عليه التوتّر.

ـ هذا مستحيل. ليس في بيتي إلاّ من هو محلّ ثقة. زوجتاي وأطفالي الخمسة وخادمي سليمان. وليكن في علمك إذا ساورتك في شأنه الظنون أنه منزّه عن أيّ شكّ. ثمّ إنّه أغبى من أن يفهم حرفاً ممّا خضنا فيه.

ـ لكنّه يعرف القراءة والكتابة.

ـ أقول لك مرّة أخرى لا يعقل أن يكون هو. إنّه في خدمتي منذ خمس سنوات وقد أهدانيه قاضٍ من أصدقائي.

ـ خادمك هديّة؟

ـ أجل ولم أر منه إلاّ كلّ طاعة وكلّ أمانة.

ـ هذا كلّه لا يعني شيئاً.

حدجه ابن سراج بعينين أترعهما الامتعاض.

ـ أنت حقّاً عنيد مثل...

كاد يطلق شتيمةً إلاّ أنّه لم يفعل.

ـ حسناً. تعال معي إلى داري لترى بنفسك أنّي على حقّ.

لكنّه لم يكن على حقّ.

وصلا دار ابن سراج فلم يجدا الرجل. كان سليمان أبو طالب الخادم الوفيّ الذي ظلّ طيلة خمس سنوات مثال الطاعة والأمانة قد غادر البيت دون أن يترك أثراً.

الفصل ٦

أنا غارثيا دو باريدس، وأنا . . .
لكن يكفيني القول: أنا إسبانيّ.
(أنشودة غارثيا دو باريدس)

كان لخيانة الخادم وقع الصاعقة على ابن سراج. استشاط غضباً في البداية ثمّ أصابه الإحباط الشديد وسرعان ما تهالك على وسائد إحدى الأرائك وظلّ يبحلق في ما حوله مذهولاً صامتاً. قال عزرا محاولاً التهدئة من روع صاحبه:

ـ اسمع يا شيخ هذه ليست نهاية العالم. خادمك هرب ولكن بماذا؟ بمجموعة من الأوراق الناقصة؟ ما فائدته من ذلك؟ الألغاز التي تتضمّنها هذه الأوراق من التعقيد بحيث لا أرى إلاّ رجلين في إسبانيا كلّها قادرين على فهم شيء منها ونحن نعرف أنّ هذين الرجلين هما أنت وأنا. فلتهدأ إذنْ ولنواصل عملنا الذي شرعنا فيه.

تململ العربيّ في مجلسه وقال:

ـ ما يحيّرني هو السبب الذي جعل هذا الشخص يسرق هذه الأوراق بالذات. لماذا فعل ذلك؟ ما الذي خيّل إليه؟

ـ لا شكّ أنّه سمع نتفاً من حوارنا فظنّ أنّه يستطيع لوحده الحصول على الكتاب.

ـ وماذا يصنع به؟ هذا العاميّ ليس قباليّاً ولا فقيهاً ولم يبد عليه طيلة حياته أيّ موهبة إلاّ في الخدمة.

ـ لا أدري يا شيخ ابن سراج. ربّما توهّم أنّه قد يحصل من ورائه على مال وفير. ولكن كفاك حيرة. هو لم يحمل معه رسالة ابن برول وهذا هو الأهمّ. بدون تلك الرسالة لن يفهم أحد المعنى من وراء الخارطة القصور. ولا تقل لي إنّ أحداً غيرنا يستطيع انطلاقاً من تلك الجذاذات أن يفكّ شفرة تلك النصوص الملغزة والناقصة. هيّا، هدّئ من روعك أرجوك ودعنا نعد إلى البحث في ترشيش.

لم يبدُ على الشيخ أنّه انتبه إلى كلمات عزرا. ظلّت عيناه شاردتين وظلّ ساكناً في مكانه إلاّ أنّه قال بعد لحظة صمت:

ـ ترشيش هي الصيغة الساميّة للكلمة ترتيسوس وترتيسوس هي التسمية القديمة لتنتو. تأكّدتُ من ذلك.

سأل عزرا فاغر الفم:

ـ تنتو؟ تعني النهر؟

أومأ العربيّ موافقاً.

ـ هل أنت واثق؟

ـ قلت لك إنّي تأكّدتُ من الأمر.

أطلق عزرا صرخة لا شكّ أنّها بلغت آخر غرناطة:

ـ رائع يا شيخ ابن سراج أنت رائع.

انقضّ على إحدى الأوراق البيضاء وأخذ يخطّ عليها بيد مرتجفة السطر تلو السطر قبل أن يرفع رأسه ناحية ابن سراج وهو يرتعش:

ـ أنصت إليّ جيّداً. يبدو أنّنا اقتربنا من الهدف.

ثمّ أضاف بصوت متهدّج:

ـ دليلنا شابّ في مقتبل العمر وهو يقيم في مكان للعبادة وهذا المكان موجود أعلى هضبة والهضبة قريبة من مدينة يمرّ بها نهر تنتو أو على رأيك تارتيسوس.

خرج ابن سراج من شروده هذه المرّة.

ـ كيف استنتجت أنّ مكان العبادة موجود أعلى هضبة؟

ـ تذكّر نصّ ابن برول: **وأن يَعِيشَ الآنَ فِي أَعْلَى الهَضبَةِ ذات الانْحدارِ الخَفِيف، على أطلال حاديس. عِنْدَ سَفْحِ تلك الهَضبَةِ يَنَامُ ابْنُ يَاوَان...** دليلنا يسكن إِذَنْ أعلى هضبة عند سفحها يجري نهر التنتو.

أضاف مكملاً التحليل:

ـ **ويَنْسَابُ حُلْمُهُ نَحْوَ البَحْرِ هَامِساً...** هذا يعني أنّنا سنجد الهضبة حيث يصبّ النهر في البحر. أليس الأمر واضحاً؟

خفّ الشيخ بلهفة ناحية خزانة قريبة فأخرج إحدى خرائط إسبانيا وبسطها على الطاولة.

ـ لننظر...

التحق به عزرا وأغرقَا معاً في تفحّص الخارطة ثمّ قالا بصوت واحد:

ـ ولبة.

ـ هي وحدها في مصبّ النهر لكنّها على بعد خمسين فرسخاً على الأقلّ وتكاد تكون على حدود البرتغال. ثمّ لا تنس أنّ الحرب مشتعلة في الجهة كلّها. الفيغا قسّمت إلى قطع بواسطة الجيوش القشتاليّة ومنذ سقوط الحامية التي كانت تشرف على الطريق من غرناطة إلى مالقة لم تعد الأندلس غير ملتقى طرق كبير تتقاطع فيه الكتائب الموريسكيّة وجنود الجيش الملكيّ.

ـ وهل نملك الخيار؟

قال الشيخ ملحّاً:

- إنّها رحلة طويلة يا عزرا. لا أشكّك في قدرتك على التحمّل لكنّ مسافة مثل هذه قد تنهكك بأسرع ممّا تتوقّع. لو تركت لي أن أذهب بمفردي إلى هناك...

- هل تمزح؟ لا سبيل إلى ذلك. انطلقنا معاً وعلينا أن نكمل الرحلة معاً.

- بل قل إنّك لا تثق بي. قلها بصراحة.

استقام الربّي على قدميه وأثبت يديه على خاصرته.

- هل تريد الصراحة؟ أنا فعلاً لا أثق بك.

اربدّ وجه ابن سراج.

- حسناً.

كان قد اتّجه ناحية الباب حين أوقفه صوت عزرا:

- إلى أين؟

- أودّع زوجتيّ وأطفالي أم تريد أن تصحبني إليهم أيضاً؟

*

اشتدّت الشمس على الرجلين وانهالت أشعّتها على رأسيهما مثل السياط الحارقة بينما عبق الجوّ برائحة رماد سدّت الأفق وحجبت زرقة السماء وغلبت على رائحة الصعتر والبرتقال. لم يخطئ ابن سراج. منذ غادرا غرناطة قبل ستّة أيّام وهما لا يريان في طريقهما غير أراضٍ محروقة وحقول منهوبة وطواحين يتصاعد من تحت ركامها الدخان وأهراء مخرّبة وثغور مهجورة وقرى مدمّرة بكاملها. أدركتهما المعارك مرّتين ولم ينجوا من الموت بسلاح هذا الفريق أو ذاك إلاّ بمعجزة فتلك هي المهلكة المضاعفة، إذا لم يشنّ العرب الغارة فإنّ النصارى هم الذين يهجمون على الرعاة والقطعان.

تركا خلفهما الضياع والحقول المهجورة وعبرا بعض بساتين الزيتون التي لم تطلها يد التدمير بعدُ ثمّ أخذا يعبران سهولاً مقفرة إلاّ من بعض أشجار البلّوط والقطلب. بدت الأندلس في تلك اللحظات العصيبة أشبه بجسد امرأة تنفتح أحياناً على الحياة وتنكمش أحياناً أخرى على الموت لكنّها تظلّ في كلّ حين قادرة على الإنجاب والإخصاب.

دخل الرجلان سهل الوادي الكبير من الجهة الجنوبيّة فبدا الجوّ أكثر هدوءً. وباستثناء قافلة محمّلة بالقمح والشعير لا يدريان من أيّ غارة رجعت لم يعترض طريقهما إلاّ أولئك الذين اعتادوا ذرع طرقات شبه الجزيرة من باعة جوّالين وبغّالين ينقلون الصوف أو النبيذ وتجّار ورعاة من الميستا يسوقون قطعانهم وعمّال بريد يحملون رسائل إلى البلاط وبعض رهبان الرحمة الذين يجمعون الصدقات والتبرّعات على طول البلاد لافتداء الأسرى.

تقدّم ابن سراج الموكب مائلاً على حصانه الأدهم ملتفّاً ببرنس من الكتّان واضعاً على رأسه طاقيّة من الصوف الأحمر وقد تصبّب جبينه عرقاً. وعلى بعد خطوات إلى الخلف تبعه عزرا منتصباً على حصانه كأنّه غير آبه للتعب غير منتبه للفح الشمس، وقد اختار لأسباب يعلمها وحده أن يرتدي جلباباً من قماش عاديّ وأن يضع على رأسه قبّعة سوداء ذات طيّة صغيرة منحته هيئة فلاّح من فلاّحي الميستا.

ـ كيف حالك يا ابن سراج؟

ـ انتبه إلى نفسك أمّا أنا ففي رعاية الله.

واصل العربيّ الكلام مغيّراً الموضوع.

ـ منذ غادرنا غرناطة وأنا مشغول بمسألة لا تغادر رأسي. فككنا شفرة أغلب ما جاء في القصر الأوّل لكنّنا لم ننظر في تلك الإشارات الغامضة إلى النار والشياطين.

أحدّ عزرا عينيه في الأفق.

ـ لم أغفل عن ذلك لكن من يدري؟ لعلنّا في ولبة نجد الإجابة.

ـ أو نجد جهنّم.

أشار ابن سراج ناحية نقطة أمامهما على ناصية الطريق.

ـ تفصلنا أربع ساعات عن إشبيلية وهذا الفندق الصغير آخر فرصةٍ لنيل قسط من الراحة. أقترح أن نأوي إليه حتّى تخفت حدّة الشمس.

أرخيا الأعنّة لجواديهما وما هي إلاّ دقائق حتّى ترجّلا أمام مبنًى من الكلس الأبيض مائل ناحية الأرض يكاد يتهالك. بالقرب من المبنى لاح كوخ شبيه بالإسطبل ولاحظ ابن سراج أحد الصبيان يعنّف بغلاً فعرف أنّه سائس المكان وأشار إليه كي يقترب منهما.

ـ اعتن بالجوادين ولك عندي مكافأة.

أومأ الفتى برأسه موافقاً.

أزكمت أنفيهما رائحة زيت متعفّن فتبادل الرجلان نظرة يائسة وجلسا إلى أقرب طاولة شاغرة.

سأل العربيّ صاحبه:

ـ ماذا تريد أن تأكل؟

غمغم عزرا:

ـ يا له من سؤال. تعلم جيّداً أن هذه الأماكن لا توفّر إلاّ أمرين: قطعة من الخبز الأسود مع أثمان مشطّة.

ـ اِعْتَرِفْ يا عزرا بأنّك مضجِرٌ حقّاً في كلّ ما يخصّ الطعام.

لم ينتظر ردّ الحبر وأومأ إلى صاحب المحلّ فوقف هذا الأخير أمامهما في الحين ببطنه المكوّر وشاربه الكثّ.

ـ بوينوس دياس.

ردّ ابن سراج التحيّة بأحسن منها واستفسر عن قائمة المأكولات.

- لدينا عجّة وحمّص بالعدس وبيض مقليّ في السمن ولدينا أيضاً سمك الغادس كعادتنا كلّ يوم جمعة.

- حسناً هات لي الحمّص بالعدس.

- أمّا أنا فأريد عجّة لكن بعد أن أتثبّت من البيض.

حدجه صاحب المحلّ بنظرة استغراب.

- ليس في بيضنا عيب.

- لا أشكّ في ذلك لكنّي أريد أن أتثبّت من الأمر بنفسي.

ركله ابن سراج من تحت الطاولة هامساً صارّاً على أسنانه:

- ألا تكفّ عن هذه المسرحيّة؟

لم يبد على عزرا أنّه أبه لصاحبه وواصل حديثه مع صاحب المحلّ:

- والغادس هل هو طازج؟

أجابه الرجل بنبرة من كاد ينفد صبره:

- قلت لك يا سيّدي إنّنا لا نقدّم بضاعة معيبة.

- هات لي السمك إذنْ.

- لديّ أيضاً برميل من النبيذ الجيّد.

- لا خمر ولكن مرحباً بإبريق ماء.

ما أن ابتعد الرجل ناحية المطبخ حتّى زعق ابن سراج في وجه رفيقه:

- ألا تكفّ عن حماقاتك يا عزرا؟ لو أردت الوشاية بنفسك وإخبار الجميع بأنّك يهوديّ لما فعلت أكثر من هذا.

- وماذا في سؤالي عن حالة البيض؟ لا أفهم لماذا أخرجك الأمر عن طورك؟

- لا تفهم؟ ألم أقل لك إنّك مضجر في كلّ ما يخصّ الطعام؟ منذ أن غادرنا غرناطة وأنت لا ترضى عن طعام إلاّ بمعجزة وكأنّ الحرب المشتعلة في البلد لا تكفي.

ثمّ أخذ يعدّ على أصابعه:

- يقترح عليك أحدهم عجّة فترفض. لماذا؟ مخافة أن تظهر في إحدى البيضات أدنى قطرة من الدم. يقترح عليك أحدهم لحماً فترفض مرّة أخرى إذ لابدّ من أن يتولّى الذبح أحد الذبّاحين الحلاليّين وأن يتمّ الذبح وفق قائمة طويلة من القواعد المعقّدة...

- هل انتهيت؟

- ليس بعد فهذا كلّه لا يكفيك. هناك أيضاً حكاية الاجترار والحوافر فأنتم لا تأكلون لحم الأرنب لأنّه حيوان مجترّ وإن كان دون حافر مشقوق لكنّكم لا تأكلون لحم الخنزير على الرغم من أنّه غير مجترّ فهو ذو حافر مشقوق، أمّا لحم الحصان...

- لا تنس يا عزيزي أنّنا لسنا وحدنا في تحريم لحم الخنزير.

- هذا صحيح لكنّ لحم الخنزير إضافة إلى الخمر هما كلّ ما نجتنبه من مأكل ومشرب. أمّا لديكم فكلّ شيء حتّى الأواني والأطباق يمكن أن تقود إلى الإثم إذ لابدّ لكم من آنية للحوم وأخرى للألبان و...

- هذا هو العجب بعينه...

أضاف عزرا رافعاً سبّابته في وجه صاحبه:

- وماذا لو ذكّرتك بقائمة طويلة من ممنوعاتكم الغريبة. حتّى في البول تمنعون الإمساك بالعضو باليد اليمنى وتمنعون قضاء الحاجة ووجهكم أو ظهركم إلى مكّة فلا تقضون حاجتكم إلاّ ملتفتين إلى الشرق أو إلى الغرب، أمّا إذا ذهبتم إلى الخلاء فعليكم أن لا تستجمروا إلاّ باستعمال عدد فرديّ من الحجارة.

استرجع أنفاسه ثمّ واصل قائلاً:

ـ اسمع يا ابن سراج إمّا أن تكفّ عن حجاجك السخيف وإمّا أن أتركك هنا وأواصل الطريق لوحدي.

رفع ابن سراج يديه إلى فوق هاتفاً:

ـ لماذا يا إلهي؟ لماذا ربطتَ مصيري بمصير هذا الشخص؟

انزوى كلّ منهما في ركنه من الطاولة وتشاغلا بتفحّص المكان ومرتاديه.

كان الحاضرون صورة مصغّرة عن إسبانيا لذلك العام ١٤٧٨. انتبه ابن سراج إلى أحد النبلاء وقد لفّ عنُقَه بطوقٍ قماشيّ أبيض مُنَشّى مزيّن بالرسوم حتّى بدا رأسه أشبه ببطّيخة موضوعة على طبق من الدنتيلاّ. لاحظ أنّ عباءة الرجل بالية وأنّ الريش والأشرطة التي زيّنت قبّعته في حالة رثّة فتساءل هل هو من نبلاء «الدم» ذوي السلالة الأصيلة العريقة أم من نبلاء «الفحولة» الذين لم يُعْفَوا من أداء الضرائب إلاّ بسبب إنجابهم سبعة ذُكور. أيّا كان الأمر فهو لا يُحسد على وضعه فهذا النوع من النبلاء ليس له ما للكبار من أراضٍ وإقطاعيّات وسلطة وليس من حقّه المناصب العليا والوظائف القياديّة. والأسوأ أنّه محروم حتّى من المشاركة في دسائس القصر ولا ثروة له إلاّ ذلك الشرف الذي ورثه عن سلالة من الأسلاف حاربوا ويحاربون حتّى اليوم دفاعاً عن الإيمان. وقد أصبح هذا الميراث نفسُه مهدّداً اليوم فالموريسكيّون على وشك إخلاء الأراضي الإسبانيّة وفُرَص الشَرف أصبحت أكثر فأكثر نُدرة.

إلى الطاولة المجاورة جلس أحد الفرسان بسيفه المغمد وقد غطّى رجليه بوقاءٍ مشبّك وارتدى قميصاً بياقة منشّاة وغلب على مظهره النشاط والحيويّة فبدا للشيخ وكأنّه طالع من لوحة زيتيّة. خلف الفارس لاحظ ابن سراج غجريّين يتهامسان وقد مال كلّ منهما برأسه ناحية الآخر فتذكّر ما

يجري على ألسنة العامّة من أنّ الغجر أهل ضلالة وليس فيهم إلاّ كلّ صعلوْك مُفْسِد كاذب محتال. أمّا في طرف القاعة فقد تحلّق جمعٌ من رجال أخويّة المغاوير الذين بدوا نموذجاً للنظام والانضباط التامّ. وقد ظهرت هذه الميليشيا أكثر من مرّة في فترات تاريخيّة سابقة لكنّها لم تعرف ازدهارا مثل هذا الذي تعرفه بدفع من إيزابيل وفرناندو. كان دورها أن تحرص على سيادة النظام والقانون في الأقاليم والأرياف وكانت تنفّذ العقوبات فوراً وعلى عين المكان وبقسوة رادعة. كلّ من يسرق متاعاً بقيمة تتجاوز الخمسة آلاف مرابطيّ يعاقب ببتر قدمه أمّا القتلة فيتمّ إعدامهم أمام الملأ. يوثقون إلى أوّل شجرة في الخلاء ويُرشَقون بالسهام. كثيرون يزعمون أنّ ذلك أفضل من انعدام الأمن الذي تفشّى في البلاد قبل ظهور هذه الجماعة المقدّسة ممّا جعل الجميع فريسة لقطّاع الطرق واللصوص الذين كانوا يأتون على كلّ شيء ويحرقون البيوت والحقول ويزهقون الأرواح دون أن تعثر لهم العدالة على أثر.

أحدّ الشيخ بصره كي يتأكّد من هويّة آخر زبائن الفندق. الراهب. خيّل إليه أنّه يرى في لمعان قمّة رأسه المحلوق إسبانيا التي ما انفكّ فرنادو وإيزابيل يحلمان بها منذ أن تولّيا الحكم في شبه الجزيرة. إسبانيا الواحدة الموحَّدة المُطَهَّرة الكاثوليكيّة الرسوليّة. إسبانيا التي تحلم بتحرّرها القريب حتّى لا تتردّد فيها بعد ذلك كلمة «مستعرب» التي اعتيد إطلاقها على النصراني الذي يعيش في أرض الإسلام، فقريباً تسقط غرناطة ولن يبقى من أرض إسلاميّة. وحتى لا يلفظ أحد بالكلمة «مولّد» التي تعني المسلم الذي يعيش في الأراضي المسيحيّة، فقريباً تسقط غرناطة ولن يبقى مسلم. ذهب زمن ألفونسو السابع الملقّب بإمبراطور الأديان الثلاثة وغداً لن يبقى فرق بين النخلة وشجرة الزيتون كما لن يبقى فرق بين الخِطْمِيّة وشجرة الليمون. ستُمحى كلّ الروائح من أجل رائحة واحدة وحيدة. مال بطرفه

ناحية عزرا فبدا له متجهّماً شارد الذهن ولعلّ أفكاره أخذته في الطرق نفسها. رفع الشيخ صوته وكأنّه يستأنف حديثاً انقطع:

ـ هل تعرف أسطورة باب يوسف في غرناطة؟

ـ ليست غريبة عنّي وإن كنت نسيت تفاصيلها الآن.

ـ إنّه باب عند مدخل قصر الحمراء أقامه قبل زهاء المائة عام السلطان يوسف أبو الحجّاج الذي كان صاحب المُلْك أيّامها. كان هذا الباب ذا مكانة خاصّة لدى المؤمنين.

ـ تقصد المسلمين؟

واصل الشيخ حديثه دون أن يأبه للاعتراض:

ـ على القوس الخارجيّ للباب نُقشت يد مفتوحة غير متباعدة الأصابع وعلى القوس الداخليّ نُقِش مفتاح. كانت اليد كما تعلم رقيَةً من عين السوء أمّا المفتاح فهو إشارة إلى سورة الفاتحة. إلاّ أنّ الغرناطيّين اعتبروا هذا التأويل أكثر بساطة أو أكثر عمقاً من أن يقبلوا به فعوّضوه بتأويل آخر يجعل من اليد والمفتاح رمزاً أسطوريّاً لمصير غرناطة: تَسْلَمُ غرناطة مادامت اليد بعيدة عن المفتاح فإذا أمسكت اليد بالمفتاح سقطت غرناطة. لا أدري إن كنت تؤمن بهذه الأمور ولكنّ الزلزال الأخير جعل اليد تنزلق ناحية المفتاح حتّى لم يعد يفصل بينهما أكثر من مسافة بوصة.

زوى الحبر ما بين حاجبيه وقال بنبرة جادّة.

ـ أنا فعلاً «أؤمن بمثل هذه الأمور».

ـ المعركة خاسرة على أيّ حال فنحن أمام جبهة منظّمة بإحكام وإرادة سياسيّة لا تتصدّع ممثّلة في شخصي إيزابيل وفرناندو لا يقابلها من الجهة الأخرى غير إمارة صغيرة تعيش على مجدها الضائع ولعلّها لا تخلو من روح البطولة، لكنّها معزولة أكثر فأكثر ولا أدري كم يتاح لها أن تصمد.

لعام؟ لعامين؟ لخمسة أعوام؟ لا أعرف متى تحين الساعة؟ لكنّ الأكيد أننا عمّا قريب سنقول رحم الله الأندلس.

ـ ترى كيف يكون مصير العرب الباقين في شبه الجزيرة عندئذ؟ كيف يكون مصير العرب ومصيرنا نحن اليهود أيضاً.

ندّت عن ابن سراج ابتسامة حزينة.

ـ لاشكّ أنّه المنفى. . . هذا إذا لم نُجبَر كلّنا على أن نصبح نصارى صالحين.

وصل صاحب الفندق بالأطباق فوضع حدّاً لحوارهما.

ـ الحمّص بالعدس والسمك وإبريق الماء. طاب طعامكما.

شكرا الرجل وشرعا في الأكل لكنّهما كانا يعلمان أنّهما فقدا كلّ شهيّة.

*

ذهب بهما الظنّ إلى أنهما مدركان إشبيلية قبل هبوط الليل لكنّ حدّة الشمس وكبر السنّ وقلّة الخبرة أنهكت قواهما فلم يجد ابن سراج بدّاً من الإذعان للهزيمة ودعوة رفيقه إلى التوقّف. أوقدا ناراً في عراء البريّة الأندلسيّة تحت سماء رصّعتها النجوم واستلقيا على الأرض خائري القُوى.

ـ آسفٌ يا ربّي. لو كان اللوح الأزرق على بعد فرسخ واحد لما زدت خطوة واحدة.

ـ لا عليك يا ابن سراج. لو كان اللوح الأزرق على بعد خطوة واحدة لما مددت له يدي. ماذا تريد من شيخين في مثل عمرنا؟ علينا أن نعرف كيف نسلّم بالأمر حين نكتشف أنّ الشباب ولّى إلى غير رجعة.

شبك ابن سراج يديه تحت رأسه وقال كمن يحدّث نفسه وكان متمدّداً على الأرض ووجهه إلى النجوم البعيدة:

ـ يخيّل إليّ أحياناً أنّ هذا الجسد الذي يمضي بنا إلى أرذل العمر ليس سوى عبء ثقيل. ولعلّنا لا نخلص من هذه الأحشاء الغبيّة والمصارين الحمقاء وموكب الأوجاع الذي يصاحبها إلاّ يوم القيامة.

ردّد عزرا كأنّه الصدى:

ـ يوم القيامة... إن شاء الله كما تقولون.

رفع ابن سراج رأسه ملتفتاً ناحية رفيقه وقد فاجأته نبرة الرجل.

ـ كأنّي أتبيّن في نبرتك شيئاً من الشكّ يا عزرا.

ـ بل أنا على يقين تامّ من أنّ القيامة قائمة ذات يوم يا ابن سراج. وما تبيّنته في صوتي ليس شكّاً في ذلك اليوم بل هو شوق إليه. وإنّي لأدعو آدوناي في كلّ صلاة كي يجعل ذلك اليوم غداً.

اهتزّ صدر العربيّ ضحكاً.

ـ أراك على عجلة من أمرك يا صاحبي.

ـ هو ذاك. أنا أتعجّل ذلك اليوم حقّاً.

استند إلى مرفقه ملتفتاً ناحية رفيقه وقال بصوت غلب عليه تأثر لم يتوقّعه الشيخ:

ـ لقدّ جنّ الناس ومرضوا. ما أن يغادروا الطفولة حتّى يصابوا بِمَسّ فإذا هم يبرطعون ويضربون الهواء ويطاردون السحب وقد سوّل لهم جنونهم أنّهم لاحقون بها. لكأنّهم حشّاشون حُرِموا من جرعات الأفيون.

تمدّد على الأرض من جديد وواصل قائلاً:

ـ لقد جنّ الناس حقّاً.

ـ ونحن يا ربّي ألسنا من المجانين؟ ماذا نصنع هنا في مثل هذا الليل في بريّة الأندلس؟ أليس من الجنون أن نقتحم المجهول وأن نخاطر بحياتنا بناءً على كلمات صديق زعَم لنا أنّه عثر على لوح يتكلّم؟ أليس هذا قمّة

إنكار العقل؟ هل من العقل أن نترك وراءنا البيت والأهل ونخوض البيداء من أجل لوحٍ غامض زَعَم لنا أحدهم أنّه يحمل رسالة إلهيّة لا نعلم عنها شيئاً، تماماً كما لا نعلم إن لم يكن صديقنا قد أفضى لنا بمزاعمه في لحظة هلوسة وتوهّم؟ هل هذا من العقل يا ربّي؟

ـ اسمع يا ابن سراج. إذا كان في وسعك أنت أن تقول هذا الكلام فماذا يقول بطليموس؟ وماذا يقول العلماء الذين سبقوه وتلوه وأفنوا أعمارهم من أجل فهم أسرار الكون ومات أغلبهم دون أن يعثر على إجابة شافية؟ ألم يكن ما دافعوا عنه بعيداً عن العقل في وقته؟ أليس التاريخ حافلاً بنظريّات ليس فيها من اليقين شيء؟ وماذا عن أصحاب تلك النظريّات؟ هل نعتبرهم كلّهم مجانين مخطئين؟ كلاّ يا ابن سراج. لو كان اللامعقول هو كلّ ما لا نجد له شرحاً معقولاً لصحّ أن نشكّك في كلّ ما لا نستطيع تحديده بيقين، بما في ذلك العالم كلّه والطبيعة والحياة وهذه السماء النابضة والفصول وقدرتنا على الحبّ. وعلى الرغم من ذلك فنحن أحياء. والأرض موجودة. ونحن موجودون. أين إذنْ اللامعقول؟ أين يبدأ وأين ينتهي؟ ولماذا تكون رحلتنا من أجل المعرفة أكثر عبثاً من الحياة يوماً بيوم؟ ما أن يرضى أحدُنا بالحياة حتّى يتحتّم عليه في الوقت نفسه أن يرضى بخوض لعبة شطرنج تكون بيادقها سراباً وعواطف وحركات خفيّة، لا شيء فيها حقيقيّ إلاّ في تصوّرنا.

ـ أو في تصوّر غيرنا. في تصوّر المصوّر الأكبر. . .

ـ علّة العلل. . .

ـ الله. . .

ـ يهْوه.

هبّ النسيم وداعب الأعشاب من حولهما فقال ابن سراج وكأنّه يريد أن يوقف تيّار الحلم الذي انساق فيه الحوار:

ـ لنرجع إلى المعقول إذن. كيف نتعرّف على مكان العبادة المقصود في الخارطة حين نبلغ ولبة؟

ـ نبدأ بالبحث عن الهضبة.

ـ الهضاب كثيرة حول المدينة.

ـ لا أعتقد أنّ على قمّة كلٍّ منها مكاناً للعبادة. أمّا الآن...

توقّف عن الحديث ثمّ اضطجع على جنبه مولياً الشيخ ظهره قبل أن يكمل:

ـ أمّا الآن فإلى النوم. تصبح على خير يا ابن سراج. إنّ غدا لناظره قريب.

لم يجبه الشيخ بشيء. ظلّ ساكناً للحظات ينصت إلى أصوات الليل ويتابع رقص النجوم ثمّ أغمض عينيه.

*

ـ هيّا انهض.

قبل أن ينحّي ابن سراج عن وجهه اللحاف الصوفيّ الذي تدثّر به لقضاء الليل كان حذاء الرجل قد ضربه في باطن المعدة ضربة جعلته يصرخ من الألم. تحامل على نفسه كي يفهم جليّة الأمر فرأى صاحبه عزرا يتنفّض بين أيدي مهاجميهما وكأنّ شيخوخته شفعت له فأخذ بعضهم يساعده على الوقوف دون عنف. كانوا قرابة العشرين من الجنود المدجّجين بالسلاح يحيطون بهما في شكل حلقة ويتطاير من أعينهم الشرر. زعق في وجهه أحدهم ولعلّه عريفهم:

ـ ماذا تفعلان هنا؟

كان ابن سراج قد استرجع أنفاسه فقال منتصراً لكرامته الجريحة:

ـ إسمع يا هذا. لا أعلم من تكون ولكنّي لا أظنّك من أهل المروءة والشرف. هل هذا صنيع العربيّ مع أخيه؟

أجابه الرجل بصفعة مدويّة قبل أن يصرخ فيه:

ـ يا ابن الكلب. كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الوقاحة؟

أخرج من غمده سيفاً مقوّساً انعكست عليه أشعّة الشمس فتوهّج مثل لسان من نار ووضعه على عنق الشيخ قائلا بصوت مرعب:

ـ سأجعل الموت يعلّمك مخاطبة الرجال.

صاح عزرا بصوت مختنق:

ـ توقّف أرجوك فلا داعي لكلّ هذا.

ـ اِخرس أنت أيّها العجوز وإلاّ سبقتَه إلى جهنّم.

ـ لكننا لم نأت جرماً فبأيّ جريرة تأخذنا؟

شعر عزرا بنصل السيف يلامس وجنته لكنّه ظلّ متماسكاً.

ـ كفى ثرثرة وقولا لي: ماذا تفعلان هنا وإلى أين أنتما ذاهبان؟

تصدّى عزرا للإجابة:

ـ نحن في طريقنا إلى ولبة.

ـ ولبة؟ ولماذا؟

قال ابن سراج ساخراً:

ـ للاستجمام.

ـ الاستجمام؟ ومن أين جئتما؟

ـ من غرناطة.

ـ هي إذنْ رحلة طويلة؟

ـ هذا صحيح.

ـ كلّ هذا بدون هدف؟

ردّ عزرا بنبرة من نفد صبره:

ـ قلنا لك إنّ هدفنا ولبة.

ـ أجل ولكنكما لم تقولا لي لماذا؟ هل أنتما تاجران؟

تولّى ابن سراج الردّ هذه المرّة:

ـ كلاّ.

أشار الجنديّ بسبّابته ناحية قبّعة عزرا وجزمته.

ـ هندامك شبيه بهندام فلاّحي الميستا.

أجاب الحبر بصوت بدا عليه التردّد:

ـ هو ذاك...

ـ فأين عربتك؟ وأين حمولتك؟

فجأة صرخ العريف في رجاله:

ـ أوثِقوهما.

لم يكد الرجل ينطق بعبارته حتّى كان عزرا وابن سراج مكتوفي الأيدي إلى الخلف. تململ ابن سراج في وثاقه محاولاً الفكاك عبثاً هاتفاً ناحية سجّانه:

ـ هذا غير معقول. ألا تقول لنا بأيّ ذنب تأسرنا؟

ـ لا تحاول خداعي يا هذا فأنت تعرف السبب. البارحة وعلى بعد فرسخ من قرية الهندين هوجمت قافلةٌ محمّلة بالزاد والعتاد كانت في طريقها إلى القلعة المحاصرة. هاجمتها كتيبة قشتاليّة وما كان للنصارى أن يعلموا بخبرها دون واشٍ وما كان لهم أن يهتدوا إلى طريقها دون دليل. وقد تأكّدنا هذا الصباح من أنّ في الأمر خيانة.

اكتست ملامح الشيخ بأمارات الدهشة.

ـ ومن يكون هؤلاء الخونة؟

ـ عربيّان وصلتنا أوصافهما بدقّة. أحدهما في الستّين من عمره متوسّط

الطول عريض الرقبة ذو لحية كثّة وخطها الشيب مثلك تماماً. والثاني أكبر سناً طويل القامة نحيف ذو وجه شبيه بوجه صاحبك.

ـ وماذا لو قلت لك إنّ صاحبي من أتباع موسى؟

ـ يهوديّ؟

أومأ ابن سراج موافقاً.

ـ هذا يدعم التهمة فالخيانة تجري في دمهم.

ثمّ أضاف بسرعة:

ـ علينا أن نأخذكم إلى غرناطة.

غمغم الشيخ وهو يبتلع ريقه:

ـ لا أفهم. . .لماذا غرناطة؟

ـ لأضعكم تحت تصرّف قادتي ومن ثمّ. . .

رسم شكل مشنقة في الهواء.

ـ إلى المشنقة. . .ولكما أن تحمدا الله فلولا الأوامر لنفّذت فيكما الحكم هنا فوراً.

احتدم الغضب في صدر ابن سراج ففتح فمه يريد الصراخ لكنّه لم يجد الفرصة السانحة. هبطت على قفاه ضربة تقصم ظهر البعير فخرّ على الأرض مغشيّاً عليه.

*

برغش.

تساءل الأب ألفاريز إن لم يكن عرضة إلى عمليّة خداع. الأوراق التي جاءه بها عربيّ من سكّان غرناطة لا تختلف في شيء عن تلك التي عُثِر عليها في بيت ذلك المرّانو الذي تمّ إحراقه والذي نسي اسمه. ما اسمه يا ترى؟ بارل؟ بروال؟ نفس الأسلوب المتحذلق. نفس الجمل المنقوصة

الغامضة. نفس الشذرات الإنجيلية المتناثرة كيفما اتّفق مع فارق وحيد: أنّه هذه المرّة أمام رزمة أوراق لا ورقة واحدة. مرّ ألفاريز براحة يده على البقعة الحليقة أعلى رأسه والتفت ناحية زائره:

ـ ذكّرني باسمك.

ـ سليمان أبو طالب.

ـ قلت إنّك عثرت على هذه الأوراق في بيت سيّدك؟

ـ هو ذاك.

ـ وأعتقد أنّك اطّلعت عليها؟

ـ دون أن أفهم منها الشيء الكثير.

ـ حسناً. هذا يعني أنّك لاحظت مثلي خلوّها من أيّ مضمون مريب. إنّها مجرّد هراء بلا معنى فما الذي جعلك تظنّ أنّها تهمّ ديوان التحقيق؟

ـ لو استمعتَ يا سيّدي إلى الحديث الذي دار بين الرجلين لما شككتَ لحظةً في أنّ الأمر يهمّ أمن البلاد وأمن النصارى وينبئ بوجود مؤامرة.

أسند ألفاريز جذعه باسترخاء إلى ظهر الأريكة قبل أن يخاطب ضيفه:

ـ أعد عليّ ما دار بينهما دون زيادة أو نقصان.

ـ سمعتُ الشيخ يقول: «لو صحّ هذا فنحن أمام أعجب وأعظم اكتشاف في تاريخ البشريّة. نحن أمام كنز لا يُقدّر بثمن. الدليل على وجود الله».

انتفض ألفاريز كأنّ صاعقة ضربته:

ـ ماذا؟

أراد الفتى أن يكرّر على مسمعه العبارة من بدايتها لكنّ الراهب أوقفه.

ـ أعد عليّ الكلمات الأخيرة.

ـ الدليل على وجود الله.

ـ هل أنت واثق من هذا؟ هل قال الشيخ هذه الكلمات كما أوردتها الآن؟

ـ أقسم لك بأنّي لم أزد ولم أنقص والربّ شاهد على ذلك.

مرّ الراهب براحة يده على أمّ رأسه من جديد وقد ذهبت به الظنون كلّ مذهب. الحكاية إذنْ أكثر تشعّباً ممّا توقّع. استنشق طويلاً قبل أن يطلب من العربيّ مواصلة الحديث.

ـ ما أن قال الشيخ ذلك حتّى أجابه الحبر: «أنت تنسى أمراً آخر. سيكون هذا الاكتشاف طال الزمن أم قصر إبطالاً تامّاً لكامل النظام السياسيّ والدينيّ الذي يحكم إسبانيا منذ إنشاء محاكم التفتيش». فقال الشيخ معترضاً: «لا أرى العلاقة بين الأمرين». فردّ عليه الحبر: «ستراها يوم تكتشف مضمون الكتاب».

ـ الكتاب؟ أيّ كتاب؟

ـ لا أدري.

ـ وماذا بعد؟

ـ لم أتمكّن للأسف من سماع المزيد. دعتني زوجة سيّدي إلى بعض شؤون البيت فأطعت. إلاّ أنّي حاولت استراق السمع في غدوّي ورواحي أمام الحجرة ففهمت أنّ سيّدي وضيفه يتحدّثان عن خارطة وعن رجل اسمه ابن برول.

ابن برول... فكّر ألفاريز أنّ اسم هذا المرّانو يخفي سرّاً لا ريب وأنّ العربيّ لم يكذب وأنّ في الأمر مؤامرة عليه أن يتصرّف إزاءها بالجدّيّة والسرعة المطلوبتين. لكنّ التجربة علّمته أن يرتاب بالجميع وخاصّة بالوشاة. من أدراه بأنّ هذا العربيّ لم يجئ لتضليله؟ من أدراه بأنّه ليس بيدقاً يحرّكه لاعبون ماكرون يلتحفون بالعتمة؟ عليه أن يكون حذِراً وأن

يتّخذ كلّ ما تستوجبه الحيطة من إجراءات. قرّر أن يكون أكثر مكراً من الجميع والتفت ناحية ضيفه قائلاً بصوت ناعم:

ـ اِسمع يا سليمان. ثق أوّلاً أننّا لن ننسى لك صنيعك هذا وسيكون لك ما تستحقّه من مكافأة على الرغم من عِلْمِنا بأنّك لم تتصرّف إلاّ إحساساً بالواجب. ولكن. . .

أشار إلى الأوراق أمامه.

ـ لا أرى في هذه الحكاية أمراً يهمّ ديوان التفتيش.

قفز سليمان من مكانه كالملدوغ.

ـ ماذا؟

ـ اهدأ يا ولدي. يبدو أنّك لا تعرف شيئاً عن قوانيننا لذلك دعني ألخّصها لك. مهمّتنا الأولى هي مطاردة اليهود المنافقين الذين ظلّوا أوفياء لمعتقدات أجدادهم. وألحّ على عبارة اليهود المنافقين لأنّ لدى العامّة الكثير من الخلط. نحن لا نطارد اليهود بل نطارد أولئك الذين تنصّروا وتعمّدوا ثمّ اتّضح أنّهم خانوا العهد الذي قطعوه. من مهمّاتنا أيضاً الحرص على ملاحقة كلّ من يبدر منه فعلٌ أو قولٌ ضدّ الدين ورجاله وكنيسته. كما أنّ من مهمّتنا مصادرة ومنع كلّ المنشورات التي قد تلوّث الأرواح أو تدخل البلبلة على العقول. كذلك علينا أن نقبض على اللواطيّين والمشعوذين وأن نضعهم بين أيدي العدالة. الآن وقد عرفت كلّ هذا قل لي: بأيّ هذه التهم نواجه سيّدك؟

صرخ الخادم وهو على حافة اليأس:

ـ أذكّرك بهذه العبارة من جديد: «سيكون هذا الاكتشاف طال الزمن أم قصر إبطالاً تامّاً لكامل النظام السياسيّ والدينيّ الذي يحكم إسبانيا منذ إنشاء محاكم التفتيش». ماذا تريد أكثر من هذا؟

ـ هذا لا يكفي فديوان التفتيش على الرغم من دعاوى مناوئيه ليس

بطشاً أعمى. إنّه قائم على مبادئ قانونيّة وإلاّ ما كنّا نمنح كلّ تلك الضمانات للمتّهمين. لولا حرصنا على الإنصاف ما كنّا نصرّ على أن يتمّ التأكّد من شهادات الشهود بواسطة أشخاص مستقلّين عن فرق التحقيق وما كنّا نسمح لهم باتّخاذ من يتولّى الدفاع عنهم.

طبعاً نسي الأب ألفاريز تذكير ضيفه بأنّ من يسمّيهم أشخاصاً مستقلّين هم في الحقيقة رهبان ورعون متفانون في خدمة الكنيسة يصعب عليهم تكذيب إخوانهم في أيّ شيء، وأنّ المكلّف بتولّي الدفاع عن المتّهمين ليس من اختيار المتّهمين بل هو شخص تعيّنه محكمة التفتيش نفسها. واصل الأب خطابه بصوت هادئ:

ـ قبل أن تغادر هذا المكان أريد أن أعرف لماذا تريد رأس ابن سراج؟ إنّه عربيّ مسلم مثلك فلماذا؟

ردّ الخادم دون أن يخفض عينيه:

ـ لديّ أسبابي.

ـ المال؟

ـ أنا أكبر من ذلك.

ـ ماذا إذن؟

ـ قلتُ لديّ أسبابي فما أهميّة أن تعرفها؟

لم يرد الراهب الإلحاح.

ـ حسناً إِذَنْ فلننه الموضوع عند هذا الحدّ.

همّ الفتى بالاحتجاج لكنّ ألفاريز أوقفه بإشارة صارمة من يده:

ـ انتهى اللقاء.

نهض سليمان ساخطاً.

ـ ستندم قريباً. أؤكّد لك ذلك. ستندم لاستخفافك بهذا الأمر.

صفق فردة الباب فاهتزّ طلاء الجصّ في القاعة. ما أن اختلى ألفاريز بنفسه حتّى هبّ واقفاً وخفّ ناحية باب خلفيّ. كان عليه أن يبادر إلى أمرين لا يحتملان الإرجاء: إعطاء الأوامر كي يُقتفى أثر سليمان ورفع الخبر فوراً إلى الأخ توركيمادا.

الفصل ٧

أجل. لكن اليهوديّ يتخفّى ويستضيء
بإشعال أصابع طفل ميت.

(فيكتور هوغو)

تعلّق شفق الغروب بأهداب سفوح جبال نِيفَادَا التي لاحت في الأفق من جديد وعمّا قريب تتسلّل العتمة إلى كلّ الزوايا ويهبط الليل على كلّ شيء. صرّ ابن سراج على أسنانه. لا يذكر أنّه أحسّ يوماً بمثل هذا الانقباض وهو يرى إلى تلك الجبال المنبئة بقرب بلوغ غرناطة. ما هي إلاّ يومان على الأكثر ويجتازون باب المدينة. لم يفكّوا وثاقهما منذ أن قبضوا عليهما وها هو يكاد ينفجر محاولاً عبثاً كتمان مشاعر القهر التي تحتدم داخله. لكنّ الأمر فاق طاقته على التحمّل. هل يضيع الحلم بسبب غباء هذا العريف الأحمق؟ كان لجام مطيّته في يد فارس يقود حصانه على بعد خطوات إلى الأمام، فاستدار خفية ناحية عزرا هامساً كي لا يسمعه الآخرون:

ـ يا لحكم الأقدار يا رِبّي. كنّا نبحث عن الطريق إلى الجنّة وها نحن في طريقنا إلى جهنّم.

ـ وكلّ ذلك بسبب إخوتك العرب الذين لم يخرجوا عن عادتهم في التصرّف كهمج لا يبصرون.

ردّ الشيخ وهو يتميّز غيظاً:

ـ لا تكن أحمق أنت أيضاً فليس إخوتي من ينصب لكم المحارق.

ـ لستم أفضل من النصارى. لقد رأينا الويل نفسه من أجدادكم الموحّدين أولئك البربر المتزمّتين. هم أيضاً كانوا يخيّروننا بين الإسلام والموت.

بصق الشيخ على الأرض.

ـ ها أنت تعود من جديد إلى الخلط والخبط. لا علاقة للموحّدين الذين تتحدّث عنهم بعموم المسلمين إلاّ كعلاقتك أنت برهبان ديوان التفتيش.

كان عزرا يهمّ بالردّ حين علا صراخ أحد الجنود وقد غلب عليه الهلع:

ـ ترجّلوا. ترجّلوا بسرعة.

لم يكد الرجل ينطق بتلك الكلمات حتّى كان سهم من برقيل مجهول يداعب وجنة ابن سراج فيخطئه بأعجوبة. هتف الشيخ:

ـ أطلقونا. فُكّوا وثاقنا.

ثمّ دوى أحد المدافع من حيث لا يدرون فغطّى على توسّلاته وتبعت الدويّ إحدى القذائف المدخّنة فحصدت في طريقها فارسين جعلت منهما في لحظةٍ كدساً من الأشلاء الدامية المشوّهة. بينما صرخ أحد الجنود:

ـ إنّهم الكفّار.

حدث كلّ شيء بسرعة. زحفت فرقة من مُشاة الجيش الملكيّ على الكتيبة الناصريّة وكان الشيخ يرى أزياء النصارى تتقدّم لحصارهم من خلال أشجار الفلّين. لم يشكّ لحظة في أنّ العرب هالكون فالمُشاة الإسبان أشدّ الجنود شراسة ولا يحتاجون إلى معونة من المدفعيّة. أمّا الحبر فقد فكّر للحظة في أنّه وصاحبه ميتان بسبب حرب لا دخل لهما فيها. عزّت عليه

نفسه فانتفض في وثاقه حتّى استطاع الوقوع من على السرج مرتطماً بالأرض بعنف. حانت منه التفاتة وهو يقع أرضاً فرأى صاحبه يلقي بنفسه من على سرجه بنفس الطريقة. دمدم المدفع من جديد فشبَا الحصانان خوفاً وكادا يرفسانهما بحوافرهما. صرخ ابن سراج ملء صوته:

ـ حُلّوا وثاقنا بحقّ الله.

لم يجبه إلاّ صوت المعركة وقعقعة السلاح وصفير ريش السهام. ارتفع الغبار من حولهما وبدا المتحاربون في هيئة ظلال تظهر وتغيب. كان صراعاً حتّى الموت فإمّا قاتل وإمّا قتيل. كم استغرقت المعركة من الوقت؟ الوقت الكافي كي لا ينجو واحد من الناصريّين الخمسة والعشرين. فتك بهم الإسبان فتكاً ذريعاً وبدأت جثثهم تظهر هنا وهناك مع انقشاع غبار المعركة. ظلّ ابن سراج وعزرا ساكنين في مكانهما متماوتين دافنين أنفيهما في التراب. ولعلّهما لم ينجوا إلاّ لاعتقاد الآخرين أنّهما في عداد الموتى.

ضجّ المشهد بأنين الجرحى والمحتضرين وهتاف مشاة الجيش الملكيّ وهم يتجمّعون استعداداً لإخلاء ساحة المعركة في اتّجاه الغرب. لم يجرؤ الرجلان على التحرّك مخافة أن ينتبه إليهما أحد الجنود ثمّ سمعا وقع خطوات تقترب منهما بحذر، وفجأة ارتفع صوت حادّ عاد بهما إلى الكابوس من جديد:

ـ ستدفعان ثمن أرواح أخوتنا.

أمسكت يد بخناق ابن سراج وأجبرته على الوقوف. كان أوّل شيء يطالعه السيف المقوّس في يد العريف العربيّ ثمّ وجهه الملطّخ بالدماء. امتلأ قلبه رعباً وتساءل أيّ معجزة جعلت هذا العربيّ يبقى حيّاً حتّى الآن. غمغم عبثاً ببضع كلمات لعلّ الرجل يثوب إلى رشده لكنّ الرجل كان قد فقد العقل ولم يعد قادراً على سماع شيء. انكمشت أصابع الرجل على

عنُق برنس ابن سراج وجذبته بعنف شديد جذبةً جعلت البرنس يتمزّق وتداعى لها سائر الثوب فانكشف صدر الشيخ.

ـ اِلْتَحِقْ بالكفّار في جهنّم يا ابن الكلب.

كان عزرا يبحلق في المشهد وقد عقد الرعب لسانه وأعجزه عن كلّ حركة. رفع الرجل يده بالسيف وهوى به على عنق ابن سراج فأغمض هذا الأخير عينيه وأجرى لسانه بالشهادتين. في تلك اللحظة وعلى بعد شعرة من الوريد توقّف السيف وظلّ معلّقاً في الهواء. انتظر ابن سراج الموت لكنّ الموت لم يأت. فتح عينيه قليلاً فشاهد الجنديّ متسمّراً في مكانه لكنّه لاحظ أنّ ملامح وجهه قد تغيّرت. غاب عنه السخط وحلّت محلّه الدهشة. كان ينظر بعينين جاحظتين إلى قلادة تدلّت منها ميدالية فضيّة على صدر ابن سراج.

ـ الهلال والسيف... من أين جئت بهذه؟

ـ ورثتها عن أبي الذي ورثها عن أبيه.

ـ هل تعرف ماذا تعني؟

ـ طبعاً. إنّها شارةُ بني سراج.

غمغم الرجل متلعثماً:

ـ تعني أنّك...

ـ أنّي من بني سراج. أجل. أنا شاهر ابن سراج.

ـ هذا... هذا مستحيل.

ألقى الرجل السلاح وأكبّ على يد الشيخ يقبّلها.

ـ اغفر لي يا سيّدي بحقّ الله ورسوله.

ـ لا أفهم.

ـ أنا من جند يوسف بن البرّ.

بات الأمر واضحاً الآن. لم يكن يوسف بن البرّ سوى زعيم حزب بني سراج الذي قام منذ أيّام بإجلاس السلطان الجديد أبي عبد الله على عرش غرناطة. تابع عزرا حديث الرجلين مفترشاً الأرض. هو أيضاً كان يعرف يوسف بن البرّ ويعرف دور بني سراج في السنوات الأخيرة. تذكّر الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ في شرفة داره يوم التقيا أوّل مرّة.

ـ إنّهم يخرّبون واحدة من أجمل حدائق الله. إنّهم يفسدون آخر حلم عربيّ في الأندلس. ألا تكفينا مصائب الجيوش المسيحيّة حتّى يمزّق ملوكنا بعضهم بعضاً؟

ـ والأسوأ من ذلك أن يُقال ذات يوم إنّ غرناطة سقطت بسبب امرأة.

ـ أعتقد أنّك تبالغ قليلاً في هذا.

ـ أتظنّ ذلك؟ الأسيرة المسيحيّة إيزابيل دو سوليس التي اعتنقت الإسلام واتّخذت اسم ثريّا أصبحت قصّتها على كلّ لسان. فقد السلطان أبو الحسن عقله منذ وقع في غرامها وها هو يختم عهده بالجنون والطغيان هو الذي بدأه بالعظمة والحكمة. أهمل زوجته الشرعيّة عائشة وابنيها أبا عبد الله محمد الذي يسمّيه المسيحيّون بوعبديل وأخاه يوسف. وفضّل عليهما أبناء الأسيرة المسيحيّة. الجميع يقول إنّ عائشة لم تتآمر على زوجها إلاّ حرصاً على عدم ضياع العرش من بين أيدي ابنيها. وها نحن نرى النتيجة.

والحقّ أنّ كلّ شيء بدأ قبل ذلك بخمس عشرة سنة حين كان أبو الحسن يحكم غرناطة. خاف أن ينقلب عليه بنو سراج فقرّر أن يضرب أعناق كبارهم ولم ينس له ورثاؤهم ذلك الصنيع. وها هي عجلة الزمان تثبت مرّة أخرى أنّها تدور. أقرّت عائشة العزم على خلع أبي الحسن فبمن استنجدت ومن كان لها خير عون وأكبر جيش ومن ساعدها على كسر شوكة أبي الحسن وإجلاس أبي عبد الله على العرش؟ إنّهم بنو سراج العائدون من القبر. همس عزرا متردّداً:

ـ هل يساعدني أحدكما على النهوض؟

التقط العريف سيفه من على الأرض وفكّ وثاق الشيخ ثمّ فكّ وثاق عزرا وساعده على الوقوف مكرّراً بين لحظة وأخرى وقد بدا عليه الحزن والندم:

ـ هل تغفر لي يا سيّدي؟ هل تغفر لي حماقتي؟

أجابه الشيخ بنبرة محايدة:

ـ ابحث معنا عن حصانينا فقد أضعنا ما يكفي من الوقت.

*

برغش.

أشار فرانسيسكو توركيمادا إلى فراي ألفاريز بالجلوس. أشعّت عيناه ببريق محموم وغلب على مِقرَن شفتيه تشنّج عضليّ يعاوده عند التوتّر وأخذ يشبك أصابع يديه ويفكّهما في حركة متواترة تبدو للغرباء علامة على الغضب، أمّا المقرّبون من المفتّش العامّ فيعرفون أنّها تدلّ على الحماسة الشديدة. منذ أن اطّلع على الوثائق التي جاء بها العربيّ ومنذ أن تأكّد من صلتها بتلك التي صودرت في بيت المرّانو المدعوّ ابن برول وهو يغلي كالمرجل. أخيراً. أخيراً ها هو يتأكّد ممّا ظلّ دائماً يتحسّب منه: مؤامرة. مؤامرة يشترك فيها اليهود والمسلمون. أخيراً ها هو يعثر على الحجّة الدامغة التي سيلقي بها في وجه خصومه. الحجّة التي تثبت أنّ هذه الأعراق الملوّثة من يهود ومسلمين وغجر ولواطيّين ليس لهم سوى هدف وحيد: دمار الكاثوليكيّة وخراب إسبانيا. صحيح أنّ هذه الحجّة مازالت ضعيفة فالأمر مقتصر حتّى الآن على وثائق مبهمة وعلى إدّعاءات خادم عربيّ مشكوك في دوافعه، لكنّ توركيمادا يعتبر ذلك مجرّد صعوبات عليه أن يذلّلها، وهو معتاد على تذليل الصعوبات، بل إنّ الصعوبات كثيراً ما شكّلت بالنسبة إليه حافزاً لا يُضاهى. استند إلى ظهر أريكته جيّداً وسأل معاونه:

ـ هل أنت واثق من أنه سيجيء في الموعد؟

ـ الأب ميننداز مثال الانضباط.

ـ أعلم ذلك لكنّه مثل نظرائه من رجال العلم لا يخلو أحياناً من شرود الذهن.

ـ لا أنكر ذلك لكنّه في هذا الأمر بالتحديد يعرف أهميّة المسألة. بل أظنّ إنّه مفتون بها. أذكر ملامحه حين عرضت عليه الوثائق. ما أن قرأها حتّى بدا مشدوهاً وأخذ يرتعش فريسة للفضول.

لم يستغرب توركيمادا ذلك فهو يعرف طبيعة الأب ميننداز. واسمه الأصليّ دافيد توليدانو. كان ابن حبر وحفيد حبر ثمّ تنصّر قبل عشر سنوات وانضمّ إلى الوعّاظ. بدا له عقليّة لامعة منذ رآه أوّل مرّة وهو الآن من أبرز أساتذة دار العلوم بسلمنقة. احتفظ من أصوله اليهوديّة بشغف واضح بالدراسات القباليّة ومثل نظرائه في هذا المجال كرّس الكثير من وقته وجهده لدراسة تلك القوّة السحريّة المزعومة القائمة على تجميع مجموعات من الحروف والأعداد، بدعوى أنّ لها قدرة غامضة على التحكّم في المصائر. وإذا كان في شبه الجزيرة رجل قادر على شرح ما ألغز من أوراق ابن برول فهو الأب بيدرو ميننداز. همّ توركيمادا بالإلحاح على معاونه كي يذهب لاستعجال صاحبه لكنه سمع طرقاً على الباب فهتف بلهفة:

ـ ادخل.

انفرجت فردة الباب عن شيخ في حوالي الستين من عمره قصير القامة ضخم الجسم مستدير الوجه يبدو ضائعاً في صندله ومسوحه الغليظ الواسع. دخل صارّاً إلى صدره مجموعة من الأوراق وتقدّم من مكتب المفتّش العامّ بخطوات سريعة فأشار هذا الأخير إلى أحد المقاعد:

ـ تفضّل بالجلوس فراي ميننداز.

لم يمهله حتّى يجلس فسأله بلهفة متزايدة:

ـ هه؟ ما هي استنتاجاتك؟

ازدرد الفرانسيسكانيّ ريقه.

ـ نحن أمام أمر غير عاديّ كي لا أقول إنّه خارق للعادة.

تكلّم بصوت خافت مائع لا صلة له بمظهره ثمّ انتظر أن يطرح عليه ألفاريز أو توركيمادا سؤالاً، وأمام صمتها واصل قائلاً:

ـ لقد درست هذه الوثائق جيّداً وثَبَتَ لي أنّها رسالة مشفّرة.

ـ ليس في هذا جديد فرايميننداز.

ـ طبعاً. لكن خلف هذه الرسالة المشفّرة توجد خارطة. خارطة تتكوّن من عبارات مقدّسة مقتطفة من العهد الجديد والعهد القديم والقرآن. وهنا أريد التأكيد على أن صاحب الرسالة كان لا شكّ أكبر علماء هذا العصر بالقبالة والكتب الدينيّة. فما كتبه لا نظير له. بل إنّي لا أجد العبارات القادرة على إيفائه حقّه من التقدير والإعجاب.

لم يرد المفتّش العامّ أن يتركه لاندفاعه.

ـ لا تنس أنّك تتحدّث عن متآمر. فهل يثير عدوّ الدين إعجابك بمثل هذه الحماسة؟

قال الرجل وقد داخله الرعب:

ـ حاشى وكلاّ فراي توركيمادا. كنت أعني الناحية المعرفيّة للرجل و...

ـ لا بأس... لا بأس... تحدّثت عن خارطة.

ـ هو ذاك. خارطة لابدّ من فكّ شفرتها كي يتمّ الوصول إلى مكان أو شيء معيّن. ومن أجل ذلك لابدّ من المرور بعدّة مراحل أو لنقل بعدّة مدن.

ـ وكيف توصّلت إلى هذا الاستنتاج؟

ـ بفضل هذا. . .

فتّش في مجموعة الأوراق أمامه واختار إحداها وهي الورقة التي تمّ العثور عليها في بيت ابن برول، ثمّ أشار إلى كلمة أسفل الصفحة.

ـ انظر.

ـ برغش.

ـ برغش. . . هنا يكمن حلّ اللغز. كلّ الرموز الموجودة في هذا الـ. . . «قصر» هي معلومات من المفروض أن تقود في النهاية إلى مدينة برغش.

ـ هل لديك دليل على ذلك؟ هل حاولت فكّ هذه الرموز؟

بدا على ميننداز الحرج.

ـ حاولت أكثر من مرّة. منذ أن وقعت في يدي هذه الوثائق وأنا أحاول تحليلها وتأويلها. وقد أفلحت في فهم بعضها لكنّي للأسف عاجز حتّى الآن عن فهم أغلبها.

أضاف كأنّه يعتذر:

ـ علماً بأنّ الوقت الذي منحتموه لي ليس كافياً.

ثمّ واصل قائلاً قبل أن يستمع إلى ردّهما:

ـ لننظر مثلاً في هذه الفقرة: **الكلّ، وا أسفاه، لا يساوي أكثر من ثمن عبد. لأنّه يذكّر بذاك الذي كان عليه أن يقع على رأسه، وينشقّ من وسطه، وتندلق أمعاؤه كلّها**. تمعّنت طويلاً من هذه الفقرة وأعتقد أنّي توصّلت الى معرفة الشخص المعنيّ بهذا الوصف.

بدا على توركيمادا وألفاريز الانتباه الشديد.

ـ لنأخذ مثلاً العبارة التالية: **الكلّ، وا أسفاه، لا يساوي أكثر من ثمن**

عبد. نعلم أنّ ثمن العبد وفقاً للتعاليم الموسويّة كان ٣٠ شاقلاً أو ١٢٠ دانقاً. وهذا ما نفهمه ممّا جاء في إنجيل متّى: ***قَال ماذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعْطُونِي وأنا أُسَلِّمُهُ إِلَيْكُمْ. فَجَعَلُوا لَهُ ثَلاثِينَ مِنَ الفضّة.***

توقّف عن الكلام وسألهما:

ـ هل حدستما بما يلمّح إليه صاحب هذه الفقرة؟

قال المفتّش العامّ:

ـ لعلّه يشير إلى يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيّ؟

ـ هو ذاك. وحتّى يلغي كلّ شكّ أضاف العبارة التالية: **لأنّه يذكّر بذاك الذي كان عليه أن يقع على رأسه، وينشقّ من وسطه، وتندلق أمعاؤه كلّها.** وهي اقتباس من أعمال الرسل: ***وإِذْ سَقَطَ على وَجْهِهِ انْشَقَّ مِنَ الوَسَطِ فانسَكَبَتْ أَحْشَاؤُهُ كُلُّهَا.*** طبعاً كان هذا...

هذه المرّة كان ألفاريز هو الذي تكلّم:

ـ وصفاً لمشهد انتحار يهوذا.

فأجابه ميننداز وقد بدا على ملامحه ابتهاج حقيقيّ:

ـ هو ذاك. فهل فهمتما الآن الطريقة التي بنيت بها هذه «**القصور**»؟

قال توركيمادا معترفاً:

ـ بناء لا يخلو من ذكاء حقّاً لكن ما علاقة يهوذا بمدينة برغش؟

أجابه ميننداز وقد غلب عليه الإحباط:

ـ أعترف بأنّي لا أملك إجابة على هذا السؤال. وقد يتطلّب الأمر فكّ شفرة «**القصر**» كلّه.

انتزع المفتّش العامّ الورقة وأشهرها في وجه ميننداز:

ـ وماذا عن هذه العبارة التي تُكَرَّرُ مثل التسبيحة: **مُبَارَكٌ مَجْدُ**

ي.ه.و.ه. **في مسكنه**. لستُ قبالياً لكنّي أعتقد أنّها حجر الزاوية بالنسبة إلى هذا اللغز. هل درستها جيّداً؟

ـ طبعاً. وأنت محقّ في اعتبارها حجر الزاوية فهي التي تعطينا عدد المدن. أعد لي الوثيقة لو سمحت.

استعاد الورقة من توركيمادا وقرأ بصوت عالٍ:

ـ **مُبَارَكٌ مَجْدُ يَ.ه.و.ه. في مسكنه. الاِسْمُ في ٤**. نحن هنا أمام معلومة أساسيّة. «**الاِسْمُ في ٤**» يعني أنّ أربع مدن تفصل الباحثين عن غايتهم النهائيّة و...

ـ دعنا من ذلك وقل لنا لماذا ي.ه.و.ه.؟ لماذا هذه الأحرف؟

بدا على القباليّ الإحراج.

ـ هذه الكلمة الرباعيّة جزء لا يتجزّأ من اليهوديّة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ في اليهوديّة لا يجوز النطق باسم الربّ لأنّه في نظرهم غير قابلٍ للنطق. وقد ظلّت هذه الكلمة الرباعيّة حتّى قرنين أو ثلاثة قرون قبل ميلاد سيّدنا المسيح الطريقة الوحيدة التي يُشير بها اليهود إلى اسم الربّ. ثمّ عوّضوها بكلمتي أدوناي وياب. ومنذ زمن قريب عَمَدَ بعض المسيحيّين وهم يقرؤون التوراة في نصّها القديم إلى التصويت بهذه الكلمة وفقاً لمخارج حروفها فقالوا جيهوفاه أو يهُوه. لكنّ تطوّر هذه الكلمة الرباعيّة بدأ في الحقيقة مع حادثة العُلّيقة الملتهبة. ي.ه.و.ه. هو الاسم الذي اختاره الربّ كي يخاطب كليمه موسى بواسطة العبارة «**أهْيَهِ الذي أهْيَهْ**» وتعني أنا الذي هو أنا، أو أنا هو ما أنا. وقد تجادل الحكماء في العصر التلموديّ وتناقشوا طويلاً في مسألة اعتبروها جوهريّة: أيّ اسم من أسماء الربّ يُسْمَحُ بكتابته والنطق به ثمّ محوه من بعد كتابته؟ وكان استنتاجهم أنّ الأسماء السبعة التالية يمكن كتابتها لكن لا يجوز محوها: ال، إلوهيم،

أهيه، آشر، هيه، أدوناي، ي ه و ه، تسيفاوت وشدّاي. أمّا الأسماء الأخرى...

ـ كفى. استمعت إلى ما يكفي من الهراء في هذا الموضوع.

نهض من مكانه دفعة واحدة وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً.

ـ النتيجة الوحيدة من كلّ هذا أنّنا أمام خارطة تشير إلى ثمان مراحل. إحداها برغش، المرحلة الرابعة.

قال مينداز مصحّحاً:

ـ بل الخامسة. فلدينا قبلها ثلاثة **«قصور»** توصف بالفرعية و**«قصر»** يوصف بالرئيسيّ. لا أفهم المغزى من وراء هذين الوصفين لكنّي أرجّح وجود أربع مدن قبل برغش.

ـ أتّفق معك في هذا الاستنتاج. الآن نحن أمام سؤالين: إلي من أو إلى ماذا تقود هذه الخارطة؟ ولماذا أراد ابن برول وهو يهوديّ أن يُشرك مسلماً في حكايته؟ أضف إلى ذلك العبارات التي نقلها لنا خادم هذا المسلم. عبارات مثقلة بالتهديد. من ذلك إن لم تخنّي الذاكرة قوله: *«سيكون هذا الاكتشاف طال الزمن أم قصر إبطالاً تامّاً لكامل النظام السياسيّ والدينيّ الذي يحكم إسبانيا منذ إنشاء محاكم التفتيش»*.

قال مينداز:

ـ المعذرة سيّدي، لكنّي أذكر أيضاً أنّ هذا الخادم سمع أحد الرجلين يقول: *«لو صحّ هذا فنحن أمام أعجب وأعظم اكتشاف في تاريخ البشريّة. نحن أمام كنز لا يُقدّر بثمن. الدليل على وجود الله»*.

مطّ المفتّش العامّ شفتيه مبدياً الازدراء:

ـ أفضّل عدم الخوض في هذا. إنّه السخف بعينه. ولا شكّ أنّ هذه العبارة حُرّفت عن سياقها. كلاّ. لا مجال للشكّ بعد الآن. نحن على

وشك حصول أحداث في غاية الخطورة. هناك من يسعى ولا أدري بأيّ طريقة إلى تقويض استقرار الدولة والكنيسة.

عاد إلى الجلوس واستغرق في التفكير لمدّة بدت دهراً لزائِرَيْه، وأخيراً رفع رأسه ناحية ألفاريز.

ـ هل تعرف أين يوجد الرجلان الآن؟

ـ كلاّ فراي توركيمادا. أرسلتُ أعواناً تنفيذاً لأوامركم ووفقاً للأوصاف التي مدّنا بها الخادم العربيّ وأمرتهم بتعقّبهما واقتفاء أثرهما. لكنّ لابدّ من مرور بعض الوقت قبل الوصول إليهما. كلّ ما نعرفه حتّى الآن أنّهما غادرا غرناطة.

ـ اعثر عليهما. اعثر عليهما بسرعة. ولكن حذار...

قال الكلمات الأخيرة بنبرة مخيفة:

ـ لا أريد أن يُقبض عليهما ولا أن يُمسّا بأذى، مفهوم؟

كرّر ملحّاً:

ـ لا أريد أن يُمَسَّا بأيّ أذى.

ثمّ ختم كلامه بنبرة واثقة:

ـ أمّا أنا فأعرف ما الذي عليّ فعله الآن.

أشار ألفاريز خفية إلى صاحبه بأنّ الوقت حان للانسحاب. تبادلا نظرة حائرة وهما يتّجهان نحو الباب وقد أرّقهما السؤال نفسه: ترى ما الذي يدور في رأس المفتّش العامّ؟

*

نو مي ها ديجادو. إنّها لم تتخلّ عنّي قَطّ. تلك هي العبارة التي نطق بها ألفونسو إل سابيو قبل قَرْنَيْن مشيراً إلى وفاء إشبيلية في زحمة المواجهات التي فرّقت بين الملك وابنه دون سانشو. عبارة ما انفكّ

صداها يتردّد حتّى الآن على امتداد الأسوار العالية المتينة التي أقامها الموريسكيّون.

بدت إشبيلية زهرةً متفتّحة متهادية في بهائها مثل المراكب المنزلقة فوق مياه الوادي الكبير. لم يبق من النهار إلاّ أقلّه وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ الحركة في الميناء. على الضفّة اليسرى بين برج الذهب وباب تريانة وإلى أبعد من جسر الزوارق كان الرصيف ينوء بأكداس من الألواح الخشبيّة بينما لاحت المخازن مكتظّة بحمولات قادمة من أقاصي الأرض. كان الشاطئ سوقاً دائمة واكتشف الرجلان تلاحق السفن وتقاطعها وهي في طريقها إلى السواحل البربريّة أو وهي عائدة من ضفاف المتوسّط. موريسكيّون من نوتيّة السفن الشراعيّة وعمّال ترصيف من ذوي الوجوه المتصبّبة عرقاً وخلاسيّات وعرّافات وجنود وسقاة ومجهّزو سُفُن من جنوة وبحّارة من البندقيّة. كان القدر يضرب موعداً في هذا المكان للثروة والمجد وللبؤس والخزي. على طول الأرصفة وعلى أهبة التحميل نعست شراشف قشتالة الرائعة وأقمشة تريانة الجميلة وقفّازات أقنة المعطّرة وحريريّات غرناطة الشهيرة. ترك عزرا وابن سراج الرصيف محاولين التماس طريق في خضمّ الحشد المتعدّد المتداخل. همس الشيخ لاهثاً:

ـ تبّاً. لم أر في حياتي مثل هذا العدد من السحنات الداكنة.

علّق الربِّي ساخراً:

_ كلام غريب حين يتفوّه به رجل... أسمر.

ـ قد أكون أسمر البشرة يا عزيزي لكنّي لست في سواد الأبنوس. أُنظر إلى هؤلاء الرجال.

ـ لعلّك لم تلاحظ سوادهم إلاّ بسبب بياض الجدران المحيطة بنا. دعنا من المزاح يا شيخ. أنت تعرف جيّداً أنّ أغلبهم أشقياء جيء بهم من

غينيا لتزويد أوروبّا باليد العاملة. ولعلّهم من نفس الطينة التي ينتمي إليها خادمك الوفيّ سليمان. هل تذكره؟ ذاك الذي بلغ من وفائه أن يسرقك.

ـ هل أصبحت تدافع عن الكفّار؟

ـ بالطبع كلاّ لكنّي أردت أن ألفت انتباهك إلى أمر آخر أدهشني أكثر ممّا أدهشك لون البشرة، هو الثراء البادي على هندام بعضهم. اُنظر...

أشار إلى طيف وسط الحشد.

ـ اُنظر إلى هذا الشخص الذي يكاد يقع أرضاً تحت ثقل التوشيات والحرير والقماش المنخليّ.

غمغم الشيخ:

ـ وما المدهش في ذلك؟ إنّها امرأة.

لم يعلّق عزرا على كلام رفيقه. حدّثته نفسه بأنّ لهذه الكلمة في فم ابن سراج الكثير من الدلالات الضمنيّة. بلغا وسط المدينة فبدا لهما المكان أكثر هدوءً من الرصيف. أولى الفارسان الظهر إلى برج الذهب وشرعا في التقدّم. لم يكن لهما من دليل في هذه الشوارع المتقاطعة غير الجيرلدة، المئذنة القديمة لجامع الموحّدين التي تحوّلت اليوم إلى ناقوس كنيسة. حان وقت الصلاة دون أن يرتفع صوت المؤذّن كعادته في الأيّام الخوالي. قال عزرا:

ـ لقد أخذ منّي التعب كلّ مأخذ فما رأيك في أن نبيت هنا الليلة؟

ـ ذاك ما كنت أفكّر فيه.

ترجّل العربيّ بسرعة أثارت فضول رفيقه.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الصلاة. أريد أن أحمد الله على أنّي مازلت من سكّان هذه الأرض.

أوثق ابن سراج حصانه إلى جذع شجرة ظليلة وسحب سجّادة كانت مفروشة على كفل الحصان ثمّ انزوى خلف الشجرة. حدجه الرِبّي بنظرة منهكة ثمّ ترجّل هو أيضاً ورأى أن يحرّك قدميه بعض الشيء. فكّر في أنّ رفيقه يصلّي كثيراً ثمّ ابتسم وهو يتذكّر أنّه لولا موسى لصلّى ابن سراج خمسين مرّة في اليوم. ورد ذلك في حديث النبيّ عن الرحلة التي بلغت به سدرة المنتهى، إذ قال إنّه فُرِجَ عن سَقْفِ بيته وهو بمكّة فنزل جبريل وأخذ بيَدِه فعرج به إلى السماء، وذكَرَ أنّهُ وجد في السمَواتِ آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم حتّى وقف بين يدي ربّه ففرض الربّ على المسلمين خمسين صلاةً، فرجع النبيّ بذلك حتّى مرّ على موسى فسأله *ما فرض الله لك على أمّتك؟ قال فرض خمسين صلاةً، قال موسى فارجع إلى ربّك فإنّ أمّتك لا تُطيقُ ذلك، قال النبيّ فراجعتُ فوضع شطْرَها فرجعتُ إلى موسى قُلْتُ وضَعَ شَطْرَهَا فقال راجع ربَّكَ فإنّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ، فراجعتُ فوضع شَطْرَهَا فرجعتُ إليه فقال ارجع إلى ربك فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك، فراجعتهُ فقالَ هي خمْسٌ وهي خمْسُونَ لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ. فرجعتُ إلى موسى فقال راجع ربّك فقلتُ استحيَيْتُ من ربّي. . .*

اطّلع عزرا على هذا الحديث صدفةً وهو يقر كتاباً في الفلسفة لم يكن مؤلّفه سوى الطبيب العظيم ابن سينا. ولكن من يعرف ابن سينا اليوم؟

لم يصْحُ من أفكاره إلاّ وهو عند مدخل ساحة البرتقال في الجناح الشمالي للكاتدرائيّة. تحلّق بضعة رجال يتحادثون قرب إحدى النوافير بينما جلس أحد الدومينيكانيّين على مقعد حجريّ يقرأ في كتاب في ظلّ خطميّة. هنا في هذا الصحن كان المسلمون يقومون بالوضوء استعداداً للصلاة. همّ صموئيل للحظةٍ بأن يعود أدراجه ثمّ لم يدر بأيّ حدسٍ عنّ له أن يقترب من الراهب فيسأله مشيراً إلى بقعة شاغرة بجانبه:

ـ هل تسمح لي بالجلوس؟

أجابه الراهب باشّاً في وجهه:

ـ طبعاً. تفضّل.

تزحزح قليلاً عن مكانه كي يفسح له المجال ثمّ عاد إلى كتابه. استولى الصمت من جديد على المكان ولم يقطعه إلاّ خرير المياه من النافورة القريبة. بعد لحظات استرق عزرا النظر ناحية جاره ثمّ همس بهدوء:

ـ بشارة يوحنّا. يا له من نصّ رائع.

ـ لعلّه أروع الأناجيل الأربعة. «الإنجيل الروحانيّ» كما قال أَكْلِيمَنْدُس.

ـ تقصد أَكْلِيمَنْدُس تلميذ بولس الذي ورد ذكره في الرسالة إلى أهل فيلِبّي؟

قال الراهب مندهشاً:

ـ بل أقصد أَكْلِيمَنْدُس الإسكندريّ.

بات واضحاً من ملامح الراهب أنّ ملاحظة عزرا أثارت إعجابه. قال بعد أن نظر إليه مطوّلاً:

ـ يبدو أنّك مطّلع حقّاً على النصوص المقدّسة فنادراً ما سمعت أحدهم يذكر أكليمندس الذي تحدّثت عنه. لا أحد يعرف شيئاً عن تلميذ بولس هذا باستثناء ما جاء في الرسالة إلى أهل فيلِبّي. أهنّئك. هل أنت من علماء الدين؟

ردّ الربِّي بتواضع:

ـ ليتني كنت كذلك. لنقل إنّي مجرّد مهتمّ بأمور الدين.

قال الراهب وقد تهلّل وجهه:

ـ يا للربّ. ها أنّي أتعرّف فيك على واحد من أبرار أمّنا الكنيسة قدّسها الربّ.

ابتسم الرِبّي متظاهراً بالتواضع وفضّل أن يعجّل بالسؤال.

ـ هل أنت من هذه المدينة يا حضرة الأب؟

ـ هو ذاك.

ـ حدّثني بعضهم عن مكان للعبادة موجود في ولبة.

ـ مكان للعبادة؟ ماذا تعني بالتحديد؟

ـ كنيس أو كاتدرائيّة أو مسجد أو دير أو صومعة. المهمّ أن يكون مكاناً للعبادة. هل فهمت قصدي؟

ـ ليس بعدُ.

ـ دعني أطرح عليك السؤال بطريقة أخرى. هل تعرف هضبة تشرف على ولبة؟

صمت الراهب للحظة ثمّ حرّك رأسه يمنة ويسرة.

ـ لا توجد هضبة في الناحية كلّها.

ـ هل أنت متأكّد.

أجابه الراهب دون تردّد هذه المرّة:

ـ أنا أعرف هذه المدينة جيّداً فقد ولدت فيها وأؤكّد لك أن ليس فيها هضبة.

قال الرِبّي مصرّاً:

ـ لكنّ أحد الثقاة أكّد لي العكس. أكّد لي أنّ مكان العبادة المقصود يوجد أعلى هضبة قريبة من ولبة.

ـ هذا مستحيل. المدينة كلّها مقامة في سهل في شبه جزيرة تشبه في انبساطها راحة اليد.

ـ أليست ولبة مصبّ نهر التنتو في البحر؟

ـ بلى ولكن لا وجود لهضبة.

ظلّ عزرا صامتاً للحظات ثمّ نهض من مكانه.

ـ آن أوان الرحيل فليحرسك الربّ أيّها الأب.

ـ أنا آسف لعدم استطاعتي مساعدتك. كان الربّ في عونك.

استدار عزرا على عقبيه ولم يجتز عتبة ساحة البرتقال حتّى وجد نفسه وجهاً لوجه مع ابن سراج.

ـ أين كنت؟ لقد أثرت قلقي.

ـ ما كان عليك أن تقلق. أردت أن أستطلع الأخبار.

ـ وماذا لديك؟

ـ ليست أخباراً جيّدة. يبدو أن لا هضبة في ولبة.

ـ ماذا؟ من قال لك ذلك؟

ـ أخبرني بذلك أحد الرهبان وبدا لي واثقاً من كلامه.

أخذ ابن سراج يذرع المكان جيئة وذهاباً بتوتّر وعشوائيّة.

ـ لا وجود لهضبة؟ هل قطعنا كلّ هذه المسافة وهل كدنا نقتل من أجل وهْم؟ هذا يعني أن تأويلنا لكلمة ترشيش لا يساوي ضرْطَةَ أرنب. ليغفر لي ربّ العالمين سَوْرةَ غضبي وليسلّط عقابه على ابن برول جرّاء كلّ ما صنعه بنا.

أضاف وقد احتقن وجهه:

ـ لا تقل لي إنّ علينا أن نرجع على أعقابنا؟

ـ لا أدري. لم أعد واثقاً من شيء. لعلّ من الحكمة أن نسأل شخصاً آخر.

ـ لا تدري؟ لم تعد واثقاً؟ وترشيش؟ وحديثك عن يونان والصبيّ والحلم الذي ينساب نحو البحر؟ ريح. كلّ ذلك محض ريح.

ـ سينور.

استدار الرجلان في لحظة واحدة ناحية الصوت. تعرّف عزرا على الراهب الدومينيكانيّ الذي تحدّث إليه قبل قليل.

ـ نعم أيّها الأب.

ـ لقد فكّرت مليّاً في كلامك وتذكّرت أنّه توجد فعلاً هضبة وأعلاها دير. لكنّهما ليس في ولبة بل في المنطقة الفاصلة بين ولبة وقرية دو بالوس على بعد فرسخين تقريباً من المدينتين. إنّه دير فرانسيسكاني اسمه دير الرابطة على الضفّة اليسرى من نهر التنتو.

ـ قلت إنّه أعلى الهضبة؟

طرح ابن سراج وعزرا السؤال بصوت واحد وكأنّهما كورس. وكأنهما يصرخان. أجابهما الراهب وقد داخله الاضطراب لهيئتهما الغريبة:

ـ أؤكّد لكما ذلك. بل أستطيع أن أقول لكما أيضاً إنّ الدير مبنيّ على أطلال معبد رومانيّ قديم كان مكرّساً لبروسيربين.

تبادل عزرا وابن سراج النظرات وقد كادت تطيح بهما الدهشة. فجأة تمتم الحبر:

ـ بروسيربين ابنة زيوس وديميتير، إلهة الخصوبة وزوجة... حاديس.

لزما الصمت وتلاحقت أنفاسهما وكأنّ الخبر أسكرهما.

ـ **كان ذَنْبُهُ الوحِيدُ أن يقترب من مَالِك وأخمداي. وأن يَعِيشَ الآنَ فِي أَعْلَى الهَضبَةِ ذات الانحدارِ الخَفِيف، على أطلال حاديس.** أخمداي ومالك: الشياطين والجحيم...

ظلّ الراهب ينظر إليهما صامتاً وقد ظنّ بهما الظنون.

الفصل ٨

ليس عدم جرأتنا على الأشياء بسبب أنّها تبدو لنا
منيعة، بل هي تبدو لنا منيعة بسبب عدم جرأتنا
عليها. . .

(سينكة)

طليطلة.

ارتفع أنين الأرغنّ تحت قبّة الكاتدرائيّة وانطلقت آهته طويلةً عميقةً فعبرت الصحن واخترقت غابة الأعمدة لتلفظ أنفاسها الأخيرة على شفاه الكورس. كان القدّاس على وشك النهاية. التفت رئيس الكهنة العجوز ناحية المصلّين وقد بدا شعره أشدّ بياضاً من المنصفة التي غطّت عنقه وكتفيه فباركهم بيد مرتعشة أثقلها الحرير والبطرَشل وحلّة القدّاس وخيوط الفجر الأولى.

أحكمت مانويلا فيفيرو لملمة شعرها تحت خمار من الدنتيللا السوداء واسترقت النظر إلى الزوج الملكيّ. ترى ما الذي كان يشغل أفكارهما في تلك اللحظة؟ هل كانا يفكّران في خوانا التي وُلدت في هذه المدينة قبل تسع سنوات والتي بدت شبيهة بالدمية البلهاء في فستانها من الساتان الأحمر وفي نعليها المغلّفين بتنوّرتين من الحرير؟ هل كانا يصيخان السمع إلى صوت رودريغو دياز الطالع من أعماق الليل والذي سمّى نفسه قبل أربعة قرون إمبراطور طليطلة؟ هل كانت إيزابيل تتساءل لماذا لهجت بذكره الأغاني العاطفيّة ولماذا جعل المنشدون المسيحيّون من هذا الشخص بطلاً

ولماذا يردّدون اسمه «السيّد المبارز» كما يردّدون اسم قدّيس وهو الذي نهب الكنائس وأحرق الأديرة وقتل من المسيحيّين بقدر ما قتل من الموريسكيّين؟ لا شكّ أنّ زوجته خيمينة تعرف الإجابة لكن أين خيمينة الآن؟ لقد ماتت منذ مئات السنين. فكّرت مانويلا في أنّ صديقتها لاشكّ مشغولة بأفكار أكثر ارتباطاً بحياتها اليوميّة. ولعلّها تستعيد الآن نصائح معرّفها تالافيرا الذي كان جاثياً خلفها بصفّة. تالافيرا الذي أقنعها بأن تحمل عن زوجها ذنوبه وأن تتولّى تربية الأطفال غير الشرعيّين الذين أنجبهم قبل زواجه منها وأن تكفلهم إلى جانب أمّهاتهم عشيقات الأمير الأراغوني السابقات. كلاّ. لاشكّ أنّ إيزابيل كانت تحلم بإسبانيا في حضن هذه الكنيسة الدافئ. إسبانيا التي ستستعيد قريباً وحدتها وشرفها ونقاوة دمها. إسبانيا التي ستنهض باسم المسيح.

التفتت مانويلا خفية ناحية تالافيرا. يا له من شخصيّة غريبة... تذكّرت أنها لاحظت عليه يوم المحرقة عزوفاً واضحاً عن مثل تلك المظاهر «الإيمانيّة»، لكنّها عزت ذلك إلى ما اعتراها هي نفسها من مشاعر ورجّحت أن تكون قد خلطت بين أحاسيسها وأحاسيس الرجل. وهي لا تذكر ذلك اليوم إلاّ آخذت نفسها بشدّة، لا على ضعفها، بل على عدم جهرها بثورتها على كلّ تلك الوحشيّة. تعرف أنّ لديها الشجاعة الكافية ولا تنقصها الرغبة في الحياة، لكن ينقصها ما يعطي لحياتها معنًى. فقد كانت منذ نعومة أظفارها مهووسة بيقين أنّ كلّ ما لا تثبته الممارسة غير موجود. منذ ولادتها وهي تشعر بأنّها تعيش في قيود صارمة تؤلمها كلّما حاولت الخلاص منها، حتّى بدا لها التحرّر منها غاية مستحيلة. لكن أليس التفكير في استحالة الأشياء نوعاً من تبرير العجز عن تحقيقها؟ وفي الأثناء ها هو الزمن ينساب كالرمل من الساعة الرمليّة وهاهو العمر يمرّ شبيها بمياه النهر العابرة، ولعلّها تنتبه ذات يوم بعد فوات الأوان.

ارتفعت الأصوات مسبّحةً بالمجد للربّ في الأعالي فخيّل إلى مانويلا

أنّ التسبيح يتوارى خلف صوتٍ آخر يهمس لها بفقرة من سفر الجامعة، كتابها المفضّل: ***فاذكُرْ خالِقَكَ في أيّام شَبابِكَ قبلَ أنْ تأتِيَ أيّامُ الشرّ أوْ تَجيءَ السِنُونُ إذْ تَقُولُ لَيسَ لِي فِيهَا سُرُورٌ. قبلَ ما تظلُمُ الشَمْسُ والنُورُ والقَمَرُ والنُجُومُ وتَرْجِعُ السُحُبُ بَعْدَ المَطَرِ. في يَوْمِ يَتزَعزَعُ فيهِ حَفَظَةُ البَيْتِ وتَتلوّى رِجالُ القُوّةِ وتَبطُلُ الطوَاحِنُ لأنَّهَا قَلَّتْ وتَظلُمُ النَواظِرُ من الشَبَابِيكِ. وتُغلَقُ الأبوابُ في السُوقِ. حِينَ يَنخَفِضُ صَوتُ المِطْحَنَةِ لِصَوتِ العُصْفُورِ وتُحَطُّ كُلُّ بَناتِ الغِناءِ. وأيْضاً يَخافُونَ من العَالِي وفي الطَرِيقِ أهْوالٌ واللَوْزُ يُزهِرُ والجُنْدُبُ يُستَثقَلُ والشَهوَةُ تَبطُلُ لأنَّ الإنْسانَ ذَاهِبٌ إلى بَيتِهِ الأبَدِيّ والنادِبُونَ يَطُوفُونَ في السُوقِ. قبلَ ما يَنفَصِمُ حَبْلُ الفِضّةِ أو يَنسَحِقُ كُوزُ الذَهَبِ أو تَنكَسِرُ الجَرّةُ على العَيْنِ أو تَنقَصِفُ البَكَرَةُ عِنْدَ البِئرِ. فَيَرْجِعُ التُرابُ إلى الأرْضِ كمَا كانَ وتَرْجِعُ الرُوحُ إلى اللهِ الذي أعطَاهَا***. تنهّدت محاولةً التركيز على الصلاة إلاّ أنّها انتبهت إلى توماس دو توركيمادا، وخيّل إليها أنّه كان يترصّدها منذ فترة، وما أن سنحت له الفرصة حتّى حيّاها بانحناءة من رأسه وكأنّه يريد إعلامها بوجوده.

تذكّرت الرسالة التي وصلتها منه من برغش. رسالة قصيرة غامضة ختمها بالإشارة إلى زيارة له قريبة إلى طليطلة ورغبته في لقائها بخصوص مسألة مهمّة وعاجلة يريد أن يتحدّث فيها معها. منذ لقائهما الأوّل قبل زمن بعيد في قصر الكونتيسة دو بوباديللا وهي لا تشعر نحوه بارتياح فقد بدا لها شخصاً غير جذّاب كي لا تقول مثيراً للكراهية والتقزّز. ترى ما الذي يريده منها؟ ردّت تحيّته بإيماءة من رأسها ثمّ قرّرت أن لا تفكّر الآن في غير الصلاة.

*

انتصب دير الرابطة أعلى الهضبة المشرفة على ولبة وبدا وسط أشجار الصنوبر مثالَ المعبد الهادئ الذي يمكن أن يُذكر فيه اسم الربّ بعيداً عن ضجيج العالم. لا صوت يدخل هذا المكان حيث يُسمّى باطلَ الأباطيل كلّ ما يسمّى في غيره مجداً. قام في المدخل صليب ضخم من الحديد والتفّت الممرّات المبلّطة على حديقة غنّاء تروق العين دون أن تشغلها عن ربّها ولاح الرواق مهيباً يبعث الطمأنينة في النفوس.

أُدخِلَ ابن سراج وعزرا إلى حجرة الكاهن فأزكمت أنفيهما رائحة الشمع وبدت لهما الجدران المغطّاة بالخشب موحية بالزهد والخشوع. أشار عليهما الأب خوان بيريز بالجلوس فلفتت انتباههما على الجدار الخلفيّ أيقونة للقديس فرانسوا الأسيزيّ، ولعلّها كانت هناك لتذكير من هم في حاجة إلى التذكير بهويّة الرهبانيّة التي ينتمي إليها أهل الدير.

ـ إذنْ فأنتما تقصدان سانتياغو دي كمبوستيللا. . .

تكلّم فراي خوان بيريز بصوت ناعم خافت مناقض لمظهره. بدا لهما في حوالي الخمسين من العمر شاحب السحنة حادّ التقاطيع يغطّي ذقنه بلحية رماديّة صغيرة وتوحي هيئته بأنّه فريسة ألم دائم. كان يرتدي مسوحاً فرانسيسكانيّاً من القماش الرماديّ الخشن ويتحزّم بحبل من ليف القنّب وكان عاري القدمين في صندل قديم بينما لمعت الدائرة المحلوقة في قمّة رأسه. استأنف الحديث:

ـ ولكنّكما بعيدان عن الطريق التي اعتاد الحجّاج سلوكها للتأمّل والصلاة قرب ضريح القديس يعقوب. مئات الفراسخ تفصل بينكما وبين جسر الملكة وبرغش وليون والمراحل الأخرى. . .

ـ فراي بيريز، ليس مثلك في حاجة إلى التذكير بعدد الطرق المؤدّية إلى مخيّم النجمة.

ـ طبعاً.

استنشق مليّاً قبل أن يواصل:

ـ هل تسمحان لي بسؤالكما عن الدوافع التي حملتكما على حجّ مُضْنٍ مثل هذا؟ هل خرجتما رغبة في السياحة الروحيّة؟ أم طلباً للغفران؟ أم وفاءً بنذر؟ أم تفانياً في العبادة؟

حدج ابن سراج رفيقه بنظرة تائهة فهو لم يفهم شيئاً ممّا عدّده الأب بيريز. ولم يدر لماذا خطر له أن يتعلّل بالحجّ. تولّى اليهوديّ الردّ.

ـ لم يكن لنا من داعٍ غير الرغبة في الوقوف على الأرض التي ضمّت رفات راعينا، والاقترابِ منه أكثر ما يمكن. ثمّ ـ وأراه يديه ـ انظر إلى هذا البؤس. لعلّ الماتامور يخفّف من آلامي.

هتف الفرانسيسكانيّ:

ـ الماتامور؟ أنت تعرف طبعاً أنّ هذه الكلمة تعني قاتل الموريسكيّين.

ـ طبعاً. ومن منّا لا يعرف أنّ القديس يعقوب هو الذي هبّ أكثر من مرّة لنجدة المسيحيّين؟ أليس هو الذي أنقذ إخوتنا منذ سبعة قرون حين ظهر على حصانه الأبيض فأثار الرعب في الموريسكيّين وشتّت صفوفهم؟ أليس هو الذي وقف بعد ذلك إلى جانب الملك راميرو الأوّل في وجه الأمير عبد الرحمان الثاني؟

ـ عوفيت. أهنّئك على سعة اطّلاعك على تفاصيل حياة راعينا وحارس بلادنا.

وشّح عزرا شفتيه بابتسامة تواضع بينما واصل الكاهن الكلام.

ـ أمّا في ما يتعلّق بداء التهاب المفاصل فلا أعتقد أنّه يخفى على خبير مثلك أنّ الحجّ إلى القدّيس يعقوب لا يتمّ بغاية الشفاء من شوه أو علّة قد تصيب الجسد، بل لعلّ الحجّ إلى هذا القدّيس بالذات يتطلّب بنية قويّة

وجسداً معافى قادراً على تحمّل مغامرة بمثل هذه الصعوبة. إضافة إلى أنّ المعجزات الاثنتين والعشرين المنسوبة إلى القدّيس يعقوب والمذكورة في دستور الكاليكستينوس، وباستثناء ثلاثٍ منها، خاليةٌ من أيّ إشارة إلى تدخّل القدّيس لمعالجة أمراض.

لم يتراجع عزرا.

ـ ولكن هل ينقطع الأمل؟

ـ بالطبع لا، فالأمل من الإيمان.

ارتفع صوت قرع الجرس مرّات مخترقاً صمت الدير.

ـ أنا مضطرّ إلى مغادرتكما فقد حان موعد صلاة التبشير.

قال ابن سراج ناهضاً صحبة عزرا:

ـ وهو كذلك يا أب بيريز ولكن هل وسعنا قضاء الليلة في الدير؟

ـ ألا تعرف يا أخي أنّ حقّ المأوى مكفول في الرابطة مثلما هو الشأن في كلّ معبد. اذهبا باسمي إلى الأب أوريلاّنا وهو يأخذكما إل حجرتيكما.

ـ شكراً يا أب بيريز ونعدك بأنّنا لن نثقل عليكم.

كانا يهمّان باجتياز الباب حين التفت ابن سراج سائلاً بنبرة محايدة:

ـ لديّ سؤال أخير لو سمحت. هل صادف أن استضفتم أخاً لنا كان هو أيضاً في طريقه إلى سانتياغو دي كمبوستيللا؟ اسمه برول، ابن برول.

نطق ابنُ سراج باسم بن برول محدّاً البصر في الأب بيريز لالتقاط أيّ إشارة لكنّ ملامح الرجل لم تشِ بشيء.

ـ كلاّ. لا أذكر شخصاً بهذا الاسم.

ـ ابن برول. هل أنت واثق؟

ـ كلّ الثقة.

آثر العربيّ عدم الإلحاح.

خلا الأب بيريز إلى نفسه فظلّ للحظات يفكّر في ضيفيه. شعر بأنّ أمر هذين الحاجيّن لا يخلو من غرابة. ليس بسبب مظهرها فحسب وخاصّة السحنة الداكنة لأحدهما، بل بسبب آخر. لم يكن هندام أيّ منهما مطابقاً لهندام الحجّاج فلا ودَع مخيط على الثوب ولا حرملة ولا قبّعة ولا كتفيّة ولا عصا ملفوفة بمنديل. أمرهما غريب فعلاً...

ما أن صارا خارجاً وأخذا يسيران تحت أقواس الممرّ حتّى هتف عزرا محتجّاً:

- كدت تضعنا في مأزق. ألم تجد ما تتعلّل به غير الحجّ؟

هزّ العربيّ كتفيه.

- لا أدري ماذا دهاني. إنّها أوّل فكرة جالت في ذهني ولم أتخيّل أنّه سيحاصرنا بكلّ هذه الأسئلة. بالمناسبة، يبدو أنّك أكثر منّي اطّلاعاً على الأساطير المتعلّقة بسانتياغو.

- لديّ فعلاً بعض المعلومات عن الموضوع. وما الغرابة في ذلك؟ أليس هو القدّيس الأكثر تقديراً في إسبانيا؟

- لكنّ ما أعرفه أنّ هذا الحواريّ مات بالسيف في القدس في زمن هيرودوت فما علاقته بشبه الجزيرة؟

- لا أعرف. الأسطورة تقول إنّه أفلح في تنصير البلد ثمّ ظهرت نجمة عجيبة تدلّ الناس على مثواه الأخير وهناك أقيم مخيّم النجمة. ثمّ جاءت حكاية الودع. على أيّ حال أنا لا أعير أيّ اهتمام إلى هذه الترّهات وإذا أردت المزيد في هذا الشأن فعليك اللجوء إلى غيري.

أشار إلى المبنى الرئيسيّ.

- ليس النصاري أقليّة هنا أليس كذلك؟

غمغم العربيّ صارّاً على أسنانه:

ـ وماذا لو بحثنا عن الأخ أوريلّانا.

غابت الشمس واكتنفت رياحُ المساء أسوارَ الدير. أمّا البحر الذي كان يبهج العيون قبل ساعة فقد أصبح الآن مرآة سوداء تتردّد أنفاسها مع الأمواج. بينما ارتفعت من المُصَلّى أصداء صلاة النوم موحّدة الأصوات في خليطٍ من التقوى وربّما من الوحدة أيضاً. جلس عزرا وابن سراج جنباً إلى جنب في قاعة الطعام وتلهّيا بالنظر إلى ارتعاش اللهب في المدفأة. كانت قاعة مقفرة زينتها الوحيدة صليب كبير مثبت إلى الجدار وأثاثها الوحيد شمعة كبيرة قرب الباب ومائدتان مستطيلتا الشكل ترسمان خطّين متوازيين يمتدّان من طرف إلى آخر. سأل عزرا فجأة:

ـ لم تقل لي لماذا عنّ لك أن تسأل الأب عن ابن برول؟

ـ فكّرتُ للحظة في أنّه قد يكون الدليل الذي نبحث عنه وفقاً لما جاء في رسالة صديقنا. هل تظنّ أنّي أخطأت في ذلك؟

ـ بل أظنّ أنّ سؤالك كان بلا جدوى فليس في ملامحه ما ينطبق على الأوصاف المطلوبة، وخاصّة صغر السنّ.

أومأ العربيّ موافقاً.

ـ على أيّ حال سنعرف جليّة الأمر عمّا قريب. إذا كان في هذا الدير راهب شابّ فلن نلتقي به إلاّ عند العشاء.

ـ إلاّ إذا كان لسوء حظّنا قد قرّر الصوم هذه الليلة.

لم تكفّ ألسنة النار عن الرقص في الموقد وبدت حركتها أحياناً في تجاوبٍ تامّ مع الأصوات المرتفعة من المُصَلّى. قال الرِبّي:

ـ هل تعرف أنّ. . .

توقّف عن الكلام لمرأى رجل يدخل القاعة. بدا لهما طويل القامة

مستطيل الوجه لا تخلو ملامحه من سيماء النبل. وكان الأنف الأقنى يرسم ظلاً حاداً أسفل الجبين تخفّف من حدّته العينان الزرقاوان بنظراتهما النشطة. أمّا ما فاجأهما أكثر فهو بياض شعره على الرغم من ترجيحهما أنّه لم يتجاوز الثلاثين. تردّد الرجل للحظة وهو ينتبه إليهما ثمّ تقدّم منهما بخطى سريعة وحيّاهما بأدب قبل أن يقول مبتسماً:

ـ لعلّنا جئنا قبل الموعد.

ردّ عزرا وابن سراج التحيّة منتبهين إلى أنّه لا يرتدي قِنْبازَ الكهنوت. ثمّ قال العربيّ في نبرة مرحة:

ـ بل لعلّ عصافير بطوننا تفتقر إلى التقوى.

ضحك الرجل واتّخذ له مجلساً إلى جانبهما.

ـ هل أنتما مقيمان في الرابطة؟

ـ بل عابران وسنرحل غداً. وأنت؟

طرح السؤال بلهفة.

ـ نحن جئنا من لشبونة قبل يومين.

ـ نحن؟

ـ أنا وابني دييغو. لم يتحمّل المسكين تعب السفر. أنا أيضاً أرهقتني الرحلة.

خفتت أصوات المصلّين وسُمِعَ وَقْعُ خطى وحفيف قنابيز وكان من السهل تتبّع أصداء الحركة وتخيّل الرهبان وهم يتفرّقون في ممرّات الدير الباردة. قال الرجل وقد بدت عليه علامات الارتياح:

ـ أخيراً سيُتاح لنا أن نقتات.

ثمّ أضاف بمرارة:

ـ لم أتصوّر يوماً أن يمثّل القوت بالنسبة إليّ موضوع سؤال.

رنّت كلمة «سؤال» على شفتي الرجل شبيهةً بكلمة «تسوّل».

ـ هل صلّيتما أمام صورة العذراء ذات البركات؟ لقد ركعت أمامها منذ وصولي. ركعت بخشوع وتوسّلت إليها بكلّ كياني كي تجعل مستقبلي يشرق وكي تُزيح عن طريق أحلامي شياطينَ الجحيم.

شياطين؟ جحيم؟ كان ذلك كافياً كي يظنّ عزرا أنّه عثر أخيراً على الرجل الذي يبحث عنه. لكنّه فضّل التريّث.

ـ هل تعرف أحداً باسم ابن برول؟

ـ عذراً؟

ـ ابن برول.

فكّر الرجل قبل أن يجيب:

ـ هذا اسم يهوديّ...

أومأ الرِبّي موافقاً فقال الرجل مبتسماً:

ـ لا تثق باليهوديّ ذي الأنف الأفطس ولا بالفارس ذي الأنف الطويل.

صرّ عزرا على أسنانه وقد حدّثته نفسه بأنّ يتولّى خَنْقَ هذا الرجل حتّى لو كان هو «الفتى» الذي يبحثان عنه، بل حتّى لو كان هو ابن برول نفسه.

سأله الرجل:

ـ وما الذي جعلك تفترض أنّي أعرف هذا الشخص؟ هل هو بحّار؟ هل هو جغرافيّ؟

التفت عزرا محبطاً ناحية ابن سراج فقال هذا مستسلماً:

ـ لا بأس.

ثمّ أضاف محاولاً مجاملة الرجل:

ـ يبدو أنّك مهتمّ بالرحلات البحريّة.

ـ بل أنا بحّار يا سيّدي ومن مدرسة جنوة أكبر مدارس البحّارة.

ـ هذا مهمّ.

قال الشيخ ذلك على سبيل المجاملة شارد الذهن لكنّ الرجل واصل الكلام.

ـ لم أكد أبلغ السادسة من عمري حتّى أمسكت بأوّل مجداف ولم أتجاوز السابعة حتّى قدت مركباً شراعياً إلى مكسر الأمواج الكبير القائم في مرسى جنوة وكان ذلك إنجازاً كبيراً. ومنذئذ وأنا أجوب بحار الدنيا من جزر اليونان إلى سان بيدرو ومن سردينيا إلى صقلّية ومن تونس إلى قبرص ومن سواحل غينيا ومستعمرات البرتغال إلى ماديرا وجزر فيروي وحتّى تولة.

لم يتمالك ابن سراج عن الضحك قائلاً بسخرية:

ـ وعلى الرغم من ذلك... «تسأل» عن الطعام؟

ـ بل قل صراحةً إنّي أتسوّل طعامي فهذه الكلمة أصدق تعبيراً عن وضعي المزري. أجل. أنا أتسوّل لأنّي أريد أن أهبهم إمبراطوريّات فيضنّون عليّ بِالفُتَات.

فاجأتهما حماسته وجلبت انتباههما.

ـ ذات يوم سنكسر طوق البحار التي تحيط بنا وستمتدّ بنا الأرض إلى ما لا نهاية ولن تكون تولة آخر اليابسة.

ـ تمتدّ بنا الأرض إلى ما لا نهاية؟

ـ هو ذاك. في اتّجاه الغرب. أنا واثق من ذلك. يكفي أن نقرأ بلين وبلوتارك وديلي وماركو بولو للاقتناع بالأمر. هل تعرفان توسكانيللي؟

طرح سؤاله دون أن يتوقّف فأشار الرجلان بالنفي.

ـ لقد توفّي منذ ثلاث سنوات. كان أحد أكبر جغرافيّي زمنه دون شكّ

وكان طبيباً أيضاً. عاش في فلورنسة وكتب رسالة وقعت بين يديّ حين كنت في البرتغال. هذا الرسالة موجّهة إلى الكاردينال فرناندو مرتيناز. وتوسكانيللي نفسه هو الذي مدّني بنسخة منها. وأنا أحفظها عن ظهر قلب.

تنحنح قبل أن يستعرض مقتطفاً من الرسالة.

إلى فرناندو مارتيناز كاهن لشبونة القانوني.

من الطبيب بول أعطر التحيّات وأسمى آيات التقدير أمّا بعد فقد سرّني أن أعلم بأنك بخير وأنك تنعم بقرب الملك ورضاه وهو المعروف بكرمه وذاع صيت مزاياه. كنت حدّثتك من قبل عن طريق للتوابل عبر البحار أقصر من تلك التي تمرّ بسواحل غينيا وقد بلغني أنّ جلالة الملك يريد أخباراً في هذا الشأن بما يوضحّ هذه الطريق للعين حتّى يستطيع العالِمُ والجاهل أن يفهما السبيل إليها بكلّ يسر.

وأعرف أنّ هذا ممكن عن طريق الكرة الشبيهة بشكل الأرض لكنّي رأيت للمزيد من التيسير أن أضبط معالم هذه الطريق في خارطة بحريّة وها أنا أرسل إلى جلالته خارطة وضعتها بنفسي وصوّرت فيها سواحلكم مع الجزر التي يجب أن تنطلقوا منها دائماً في اتّجاه الغرب.

استردّ الجنويّ أنفاسه وأضاف بحماسة:

ـ في اتّجاه الغرب... هل سمعت يا سيّدي؟ في اتّجاه الغرب.

بذل عزرا جهده كي لا يتثاءب بينما اكتفى ابن سراج بتحريك جفونه. بدأ الرهبان يدخلون قاعة الطعام فهمس الربّي في أذن رفيقه:

ـ ها قد جاءنا الخلاص.

تقدّم أحد الرهبان من البحّار الجنويّ وسأله:

ـ مساء الخير. كيف حال الصغير دييغو؟

ـ إنّه أفضل حالاً يا فراي مارشينا. حمداً للربّ.

ـ حسناً. نلتقي بعد قليل في المكتبة.

أومأ البحّار بالموافقة ممتنّاً وما أن ابتعد الراهب حتّى التفت إلى الرجلين.

ـ إنّه الأب أنطونيو مارشينا فَلَكِيّ الدير. هو يعرف أنّي على حقّ وقد وعد بمساعدتي وأنا على ثقة أنّه سيفعل.

واصل الكلام دون أن ينتبه إلى أنّ الرجلين كفّا عن الاستماع إليه. كان انتباههما قد شُدَّ بحدّة إلى وافد جديد جلس إلى المائدة المقابلة. لم يكن ليختلف في شيء عن غيره من الرهبان الحاضرين لولا شقرة شعره وصغر سنّه. بدا لهما أصغر الحاضرين سنّاً دون شكّ. لا يتجاوز الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين. وكان له وجه ملاك.

*

طليطلة. الليلة نفسها.

قال توركيمادا موجزاً:

ـ هذا ما لديّ يا مولاتي. لقد أطلعتك على كلّ شيء.

استدار ناحية هرناندو دو تالافيرا منتظراً مساندته لكنّ هذا الأخير حافظ على سحنة محايدة. صرّ توركيمادا على أسنانه. بدا له تالافيرا ثقيل الظلّ منذ البداية. بدأ ذلك مع الإشاعات التي راجت في شأن أصوله فالبعض يقول إنّه الابن غير الشرعيّ للكونت دي أوروبيزا وثمرة علاقة مع امرأة يهوديّة من طليطلة. أي أنّه لقيط. ثمّ هناك ماضيه الأسود فقد ترهّب في الثلاثين من عمره منضمّاً إلى نسّاك القديس جيروم ثمّ أصبح رئيس دير المرج ثمّ لا يعرف أحد كيف أصبح معرّف الملكة إيزابيل. لكنّ الأكيد أنّه يتمتّع الآن بنفوذ كبير في مجالي السياسة والشؤون الماليّة. ولم تخف على توماس حقيقة الرجل منذ البداية. لقد دفعه الحدس منذ أوّل لقاء إلى

الاحتراز منه. ألم يعبّر تالافيرا علناً وبحدّة عن معارضته الشديدة لإنشاء ديوان التفتيش؟ ألم يقم بكلّ ما وسعه لإثناء الملكة عن قرارها؟ وقد فشل في ذلك بحمد الربّ وكان فشله غريباً بالنظر إلى حجم تأثيره على الملكة. فالجميع يعرف كيف تمّ اللقاء الأوّل بينه وبين إيزابيل. كانت الملكة معتادة في السابق على أن تجثو قرب مقعد أو أريكة بينما يستمع إليها المعرّف واقفاً وحين وصل فراي هرناندو يومها لم يحترم التقاليد بل جلس على أريكة للاستماع إلى اعترافات جلالتها. قالت إيزابيل «علينا إذن أن نجلس كلينا» فردّ عليها تالافيرا ببروده المعهود: «كلاّ سيّدتي بل أجلس أنا وتجثين أنت. فهذه محكمة الربّ وأنا هنا باسمه». ولم يكن أمام إيزابيل إلاّ الانصياع.

كان توركيمادا واثقاً من أنّ تالافيرا لا يعي شيئاً ممّا يتهدّد إسبانيا وإلاّ ما كان يحرص في كلّ شيء على المرونة وما كان يدعو بسذاجة إلى ترك التنصير بالقوّة والاعتماد على الإقناع دون إكراه. إنّه جاهل بطبيعة الروح اليهوديّة ولو توقّف الأمر عند هذا الحدّ لهان لكنّه يتعامل بنفس الشكل مع الإسلام ويبذل قصارى جهده كي يتعايش مع الفقهاء المسلمين في وئام وسلام موصياً بالاعتناء بالمساجد. بل بلغ به العبث حدّ الحثّ على أن يتعلّم بعض الرهبان العربيّة مثلما فعل هو نفسه كي يسهل عليهم التبشير في الأوساط التي تجهل الإسبانيّة. وكان توركيمادا يقبل بهذا كلّه لو تحقّقت من ورائه نتائج طيّبة لكنّ كلّ الدلائل حتّى اليوم تشير إلى أنّ سياسة تالافيرا لم تؤدّ إلى غير الفشل الذريع.

ـ فراي توركيمادا. هل أنت واثق من أنّ في الأمر مؤامرة؟

ـ نقلتُ لجلالتك ما دار حرفيّاً ولك وحدك الحكم. أمّا إذا سألتني عن رأيي فاسمحي لي بالقول إنّي لست واثقاً فحسب بل أنا على يقين من أنّ الأمر عاجل ويستدعي التصرّف بأقصى سرعة.

ارتفع صوت تالافيرا هادئاً رصيناً منغّماً.

ـ فراي دو توركيمادا، قد أبدو لك بطيء الفهم ولكن قل لي: أين ترى في هذا دليلاً على مؤامرة؟

أشار إلى الأوراق المنشورة على الطاولة أمام الملكة.

ـ نحن أمام عبارات بلا معنى ولا منطق وأمام كلمات منقولة على لسان خادم لا شكّ أنّك انتبهت إلى رغبته في الإساءة إلى سيّده. . . لقد تأمّلت في كلّ هذا وأعترف لك بأنّي لم أجد فيه ما يشير من بعيد أو من قريب إلى خطر يتهدّد أمن الدولة فضلاً عن أمن الكنيسة.

جاهد توركيمادا كي يحافظ على هدوئه.

ـ وعلى الرغم من ذلك أؤكّد لك أنّ الأمر متعلّق فعلاً بمؤامرة. فكّر معي. مؤلّف هذا الهذيان ليس أيّ شخص. إنّه بشهادة الأب مينينداز أحد أكبر علماء القبالة في هذا الزمن فلماذا ينخرط مثل هذا الرجل في كتابة مثل هذا النصّ؟

ـ ربّما كان ذلك بدافع اللعب أو بدافع المتعة العلميّة الخالصة.

ـ فلماذا يشرك في أمره رجلين أحدهما عربيّ؟

آثر تالافيرا عدم الردّ على هذا السؤال.

ـ ولو كان الأمر مجرّد لعبة فلماذا قرّر العربيّ وشريكه اليهوديّ مغادرة غرناطة فجأةً والتوجّه إلى إشبيلية؟ إنّهما وفق آخر معلوماتنا موجودان الآن على مقربة من ولبة وقد. . .

قاطعته الملكة:

ـ إذنْ فقد عثرتما على أثرهما؟

ـ أجل يا صاحبة الجلالة.

مطّ تالافيرا شفتيه متظاهراً بالإعجاب.

ـ يبدو أنكم محظوظون جداً.

ـ لا علاقة للحظّ بهذا الأمر فراي دو تالافيرا. هل نسيت أنّ ديوان التفتيش يملك أكبر شبكة مخبرين في البلد؟ وهي شبكة سريعة الحركة ومن شأن تكاتف أفرادها وحضورهم على امتداد البلاد أن يجعل منها سلاحاً شديد الفعاليّة.

غمغم معرّف الملكة:

ـ لا شكّ في ذلك. لا شكّ في ذلك.

قالت الملكة:

ـ ثمّة شيء لا أفهمه فراي دو توركيمادا. أنت مقتنع بأنّ هذين الرجلين يتآمران على الدولة وأنت تعرف مكان وجودهما فماذا تنتظر لإيقافهما؟

ـ أعتقد يا صاحبة الجلالة أنّ إيقافهما الآن سيكون خطأً جسيماً. قلت لك إنّ خطّتهما تنقسم إلى ثمانية أجزاء وأنّ كلّ جزء يؤدّي إلى مدينة للوصول في النهاية إلى هدفٍ رئيسيّ. ولو أوقفنا الرجلين الآن لما عرفنا سرّ الحكاية وسبب الرحلة.

ـ حسناً فما الذي تقترح؟

ـ أقترح أمرين إذا سمحت صاحبة الجلالة. الأمر الأوّل: متابعة اقتفاء أثرهما وعدم الغفلة عن أيّ حركة من حركاتهما والاستعداد في كلّ لحظة للانقضاض عليهما إذا تطلّب الأمر ذلك. أمّا الأمر الثاني فهو أكثر صعوبة.

ـ نحن في الاستماع إليك فراي دو توركيمادا.

ـ أقترح أن نخترقهما أي أن ندسّ عليهما شخصاً من ثقاتنا يكون عيناً لنا عليهما ويقوم باستدراجهما إلى البوح بأكثر ما يمكن من معلومات عن

هدفهما من وراء هذه الرحلة. وهكذا لن نخوض في رمال متحرّكة بل نتقدّم في مسلك واضح وأمين.

أومأت الملكة موافقة وقد بدا عليها الإعجاب بالخطّة.

ـ الفكرة جيّدة لكنّها معرّضة إلى عائق مهمّ: لأيّ سبب يقبل الرجلان بحضور شخص ثالث معهما؟ لو كانا يتآمران حقّاً على إسبانيا فلا يُعقل أن يسمحا بحضور غريب عن قضيّتهما.

ـ جلالتك على حقّ. لن يأمنا إلى أحد إلاّ إذا. . .

توقّف عمداً قبل أن يضيف:

ـ إلاّ إذا بدا لهما هذا الشخص ضرورياً لرحلتهما.

ـ وبأيّ حيلة ستجعل من هذا الشخص ضرورياً للرجلين؟

ـ لديّ الحيلة وأعتقد أنّها مضمونة إلى أقصى حدّ وأستطيع عرضها على مولاتي بأدقّ التفاصيل إذا. . .

قاطعه تالافيرا بحدّة:

ـ مهما كانت حيلتك فأين نعثر على شخص بهذه المواصفات؟ أين نعثر على شخص محلّ ثقة وقادر في الوقت نفسه على خداع الرجلين وعدم إثارة شكوكهما؟ الرجلان حسب تقريرك ليسا مجرّد صعلوكين. أنت قلت منذ لحظات إنّ كاتب هذا النصّ أحد أكبر علماء القبالة وهذا يعني أنّ الرجلين اللذين عهد إليهما بنصّه لن يكونا إلاّ من رجال العلم والفطنة والذكاء. فأين الرجل الذي يستطيع خداعهما؟

رمقه توركيمادا بنظرةٍ ساخرة تبطن الشفقة على هذا الساذج الذي لا يفهم مكر الماكرين، قبل أن يقول:

ـ فراي دو تالافيرا. لا أذكر أنّي تحدّثت عن رجل.

ثمّ أضاف:

ـ أنا لم أقصد رجلاً.

ـ فمن تقصد إذن؟

تجاهل المفتّش العامّ السؤال مكتفياً بالإشارة إلى أريكة قبالة الملكة.

ـ هل تسمح لي جلالة الملكة بالجلوس؟ قد يتطلّب حديثي بعض الوقت.

الفصل ٩

يجب أن تخضع اكتشافات الحدس إلى المنطق. فالحدس في الحياة العاديّة كما في العلم، من أقوى وسائل المعرفة، وهو من أخطر الوسائل أيضاً. ويصعب أحياناً التمييز بينه وبين الوهم.
(ألكسيس كاريل)

هبّت الرياح من جهة البحر وصعدت قفزة بعد أخرى إلى أعلى الهضبة مغلّفة الدير ببرودة في طعم الملح. أحاط ابن سراج وعزرا بالراهب الشابّ رافائيل فارغاس وأخذ ثلاثتهم يذرعون الممرّات ببطء. لم يكن يشبههما في شيء. بدت البقعة الشقراء الحليقة في قمّة رأسه بعيدة كلّ البعد عن شعر عزرا الأشيب وعن صلعة ابن سراج المتنامية. كما بدت زرقة عينيه مختلفة تماماً عن دكنة نظرات الرجلين. كان وجهه طلقاً في حين حفرت التجاعيد وجهيهما وكانت خطوته مرنة رشيقة لا علاقة لها بخطوات عزرا الخائرة ولا صلة لها بمشية ابن سراج المتداعية. قال الشيخ:

ـ غريب أمر هذا الجنويّ أليس كذلك يا أخ فارغاس؟

ـ هل تقصد كريستوبال كولون؟

ـ هل هذا هو اسمه؟

ـ أجل. وهو ثعلب ماكر. لقد حاول عبثاً أن يقنع بمشروعه ملوك البرتغال وفرنسا وإنكلترة ثمّ ها هو الآن يحاول عن طريق الأخ مارشينا إقناع دوق مدينا بتمويل رحلته.

ـ إنّه شديد الحماسة فمن يدري؟ لعلّه ينجح في تحقيق حلمه. ولكن أيّ مغامرة حقاً وأيّ رهان، أن تُجهّز سُفُنٌ للارتماء في المجهول وللإبحار في اتّجاه يرفضه أكبر الجغرافيّين ويقول أكبر البحّارة إنّه يقود إلى حيث ينتهي العالم ولا يبقى إلاّ الهاوية والقفز في الفراغ.

استوقف فارغاس الشيخ ابن سراج ضاحكاً.

ـ القفز في الفراغ؟ من قال هذا؟ كولون يعرف طريقه جيّداً وطريق الهند بالنسبة إليه واضحة المعالم وهو يحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب. قلت لكما إنّه ثعلب.

سأله عزرا:

ـ لعلّك تلمّح إلى الخارطة التي قال إنّه تسلّمها من توسكانيللي؟

ـ تسلّمها؟ بل قل إنّه سرقها في البرتغال من دار الكتب الملكيّة. وعلى أيّ حال فهي بلا أهميّة حقيقيّة.

ـ هلاّ تفضّلت بالمزيد من الشرح؟

ـ إنّها حكاية طويلة. قبل عشر سنوات كانت السفن البرتغاليّة تقوم برحلات بين لشبونة وسواحل غينيا سالكة طريقاً سريّة خوفاً من الوقوع في قبضة أسطولنا. كان عليها أن تبتعد عن جزر الرأس الأخضر وأن تعبر منطقة شديدة العواصف والأعاصير. ولم يكن أمام أيّ سفينة تعترضها هذه العواصف إلاّ الاتّجاه غرباً خافضةً أشرعتها مستسلمة إلى الرياح الخلفيّة مبتعدة في اتّجاه الغرب أكثر فأكثر حتّى نقطة اللاعودة.

توقّف للحظة قصيرة ثمّ استأنف حديثه.

ـ قبل ثلاث سنوات تعرضت إحدى هذه السفن إلى هذه المحنة ووجدت نفسها مثل سابقاتها مدفوعة إلى الغرب بقوى لا قِبَلَ لها بها. وبعد أيّام طويلة من التيه لاحت في الأفق جزرٌ مجهولة فلم يجد البحّارة بدّاً من الإرساء على شواطئها واكتشافها. لكنّ دود البحار الاستوائيّة شرع

في قضم هيكل السفينة الخشبيّ فاضطرّت إلى الإبحار من جديد في اتّجاه الشرق وغرقت قبالة سواحل جزيرة مادير بعد أن قفز عدد من بحّارتها في زورق صغير تمكّنوا بواسطته من الوصول إلى مرسى شنتو فهل تعرفان من كان يقيم في مادير؟

توقّف الراهب للحظات إثارة لانتباه الرجلين.

ـ إنّه كريستوبال كولون. كان صهره والياً على الجزيرة وكان كريستوبال يقيم عنده وينوب صهره على رأس الولاية أثناء غيابه وصادف يومها أن كان الوالي غائباً فتولّى كريستوبال استقبال الناجين وإعطاءهم المساعدة الواجبة. لكنّهم توفّوا كلّهم للأسف جرّاء الإرهاق والمرض. توفّوا كلّهم باستثناء رجل وحيد. ربّان برتغاليّ اسمه ألفونسو سانشيز ظلّ يحتضر طويلاً وروى أثناء احتضاره أنّه قايض بعض الحليّ الرخيصة مقابل الذهب مع رجال ذوي سحنة داكنة في جزيرة فردوسيّة مترعة بالخيرات والثروة في طرف أرخبيل قال إنّه من بلاد الهند. ما أن لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة حتّى استولى كريستوبال كولون على دفتر رحلاته المسوّد بالرسوم والخرائط المحدّدة للعلامات والأنهار والأرصفة والموانئ والعيون. وأؤكّد لكم أنّ هذه الخرائط موجودة الآن بين يدي كولون لذلك فهو واثق من اكتشاف ما يزعم اكتشافه وكأنّه يضعه في درج في حجرة من حجرات بيته.

بدت على وجه الشيخ علامات الشكّ.

ـ من أين لك هذه المعلومات؟

ـ من فراي أنطونيو مارشينا نفسه الذي حدّثني بأنّ كريستوبال كولون اضطرّ إلى مكاشفته بالأمر كي يقنعه بمساندته.

توقّف عن الكلام قبل أن يسأل:

ـ ولكن قل لي يا سيّد ابن سراج هل يظلّ حديثنا مقتصراً على البحث في شأن السينور كولون؟

أومأ الشيخ بالنفي واستنشق طويلاً قبل أن يتكلّم بلهجة من يبوح بسرّ خطير:

- ابن برول.

اعترت الراهب الشابّ قشعريرة لم تَخْفَ على الرجلين.

- ابن برول؟

هتف عزرا:

- إذَنْ فأنت تعرفه؟

لاذ رافائيل بالصمت.

- قل لنا هل تعرفه؟

أجاب بصوت محايد:

- وأنتما هل تعرفانه؟

ردّ الشيخ وهو يكاد يفقد زمام الصبر:

- بالطبع نعرفه ولولا ذلك ما كنّا هنا الآن.

- إذن فأنتما قادران على تقديم البرهان على ذلك.

هبّت الرياح قويّة من حولهم بينما قال رافائيل بصوت أعلى يغالب حفيف الأوراق:

- **مُبَارَكٌ مَجْدُ ي.ه.و.ه.**

فأجابه عزرا وابن سراج بصوت واحد وكأنّهما الصدى:

- **مُباركٌ مَجْدُ ي.ه.و.ه. في مسكنه.**

- **لَحْظَتَهَا سألتُ...؟**

- **أَمِيرَ الوَجْهِ.**

- **قلتُ لهُ ما اسْمُكَ؟**

ـ فأجابني: إِسْمِي فتًى.

تواصل تبادل المقاطع تحت هبّات الرياح المتصاعدة وكأنّ الطقس نفسه انزعج من رطانة هذا الثالوث المتكلّم بالألغاز وتداخلت الأصوات حتّى بات من الجائز السؤال من الذي يتكلّم؟ هؤلاء الرجال أم ذاك الظلّ الكثيف الملتفّ على الصليب في مدخل الرابطة؟ ولعلّه لا هذا ولا أولئك بل هو همس النجوم الساهرة في البعيد. ما أن أتوا على جميع عبارات القصر الأوّل حتّى هتف رافائيل:

ـ إذن فأنتما مبعوثا ابن برول. لقد أخبرني بذلك وكنت واثقاً من أنكما قادمان ذات يوم.

ـ أخبرك بذلك؟ تقصد أنّه التقى بك؟

قبل أن يجيب على السؤال اقترح الراهب الشابّ أن يتقّوا الريح.

ـ سنكون أفضل في الداخل.

انبعثت رائحة الشمع من جدران مكتبة الدير وتوزّع نور الشموع الخافت على جنباتها فلاحت في ضوئه محتوياتها النفيسة. نسخة يونانيّة نادرة من قانون الموراتوري مفتوحة على أحد المقارئ ومئات الأعمال النفيسة مصفوفة على الرفوف بعضها تهرّأت أطرافه وغطّته قشرة رقيقة من الغبار وبعضها في حالة جيّدة. كانت العناوين والمواضيع وأسماء المؤلّفين مرصوفةً جنباً إلى جنب في فوضى محكمة التنظيم من بروتاغوراس إلى فيجاد إلى تعاليم ابن رشد وشذرات سينيكة. بينما ظهرت بوضوح الفهارس التي أُدرجت فيها قوائم الأعمال التي هذّبتها ونقّحتها أو حظرتها محاكم التفتيش. جلس فارغاس إلى أحد المكاتب ودعا الرجلين إلى الجلوس معه. سأله ابن سراج ما أن استقرّ في مكانه:

ـ والآن هلاّ حدّثتنا عن صلتك بابن برول؟

ـ لتعلما أوّلاً أنّ كلّ ما أعرفه هو ما أفضى به إليّ ابن برول وأنّي أنتظر منكما شرح الكثير ممّا لم أفهمه بعد.

ـ هل التقيت به في دير الرابطة؟

ـ كان ذلك لقاءنا الثاني أمّا اللقاء الأوّل فيعود إلى الخريف الماضي. كنت في طليطلة وكنت أهمّ بالتوجه إلى الدير وما أن بلغت ساحة سوق الغبار حتّى اضطرّني الزحام الشديد إلى التوقّف. أجلت عينيّ في المكان فرأيت منصّة ومدارج وبلغ مسمعي صوت يخطب بما فهمت أنّه قسَم الإيمان. كانت تلك أوّل مرّة أحضر فيها محرقة فقرّرت أن أترجّل وأن أنضمّ إلى المتفرّجين. لن أطيل عليكما بذكر تفاصيل طقوس الحرق فلا شكّ أنّكما تعرفانها جيّداً.

توقّف الراهب للحظة وأخذ ينظر إليهما دون أن ينطق بحرف قبل أن يواصل الكلام.

ـ ما أن تمّ استعراض قائمة التهم والعقوبات حتّى جيء بالضحيّة الأولى. أذكر اسمها حتّى اليوم: ليونور ماريا أنريكاز. أبدت المرأة بعض علامات الندم فأُخِذت إلى المنصّة وسألها المفتّش عن طلبها فقالت: الرحمة. فسألها عن ذنبها لكنّها لسبب مجهول لاذت بالصمت. ألحّ عليها المفتّش وناشدها أن تعترف بخطاياها دون جدوى. ظلّت المرأة لائذة بصمت مطبق فقال المفتّش وقد يئس منها: «ليس أمام المحكمة المقدّسة إلاّ أن تسلّمك إلى النار دفاعاً عن قضيّة الربّ». في تلك اللحظة حدث ما لم يكن متوقّعاً. أشهر أحد الواقفين إلى جانبي قبضته في وجه المحكمة صارخاً: «عليكم اللعنة، اللعنة، اللعنة». ثمّ أضاف بالعبريّة: «ها شم يكوم دامو» وقد علمت فيما بعد أنّ هذه العبارة تعني «عسى أن يثأر الربّ لهذا الدم» أو شيئاً من هذا القبيل. وفي لمح البصر ارتفعت أصوات الحاضرين بالصراخ والشتائم وكأنّهم تحوّلوا فجأة إلى قطيع من الذئاب وامتدّت الأيدي من كلّ جانب وانهالت على الرجل تريد الفتك به فتمزّقت ثيابه وجرح وكاد يهلك.

ارتسمت على شفتي فارغاس ابتسامة حزينة.

ـ أصدقكما القول بأنّي لست فارساً مغواراً وقد أصدمكما بالاعتراف بأنّي أرى محاكم التفتيش لا تخلو من بعض المزايا. لكنّ هاتفاً مجهولاً أهاب بي لحظتها أن أساعد الرجل. بدا لي من الظلم أن يذهب ذاك الرجل مهما كان كافراً ضحيّةَ عدالة عمياء فهرعتُ إليه ودفعت عنه الحشد بمنكبيّ وكتفيّ ولا أدري بأيّ معجزة أفلحتُ في إبعاده عن غضب الجموع والانتحاء به جانباً خفيةً عن العيون. كان ذلك الرجل يُدعى...

قاطعه ابن سراج:

ـ ابن برول.

أومأ فارغاس موافقاً فحثّه عزرا على مواصلة الكلام:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ رافقتُه إلى بيته. لم تكن جراحه خطيرة إلاّ أنّه كان ينزف وخشيت أن يكون تقدّمه في السنّ سببا في ضعفه. لكلّ تلك الأسباب لم أنصت إلى احتجاجه وأصررت على ملازمة سريره حتّى أطمئنّ عليه. وكانت تلك مناسبة كي نتحدّث طويلاً.

ـ هلاّ حدّثتنا عمّا خضتما فيه إذا لم تر في ذلك فضولاً؟

ـ لم نترك موضوعاً لم نتطرّق إليه. تحدّثنا عنه وعنّي وعن معتقداته ومعتقداتي وعن مسائل الحياة والموت. ذاك الحديث الصريح الذي يدور أحياناً بين كائنين يفصل بينهما كلّ شيء وتجمع بينهما الصدفة. عند انتصاف الليل استقرّ وضعه فاستأذنتُ وغادرته مستأنفاً رحلتي وانقطعت عنّي أخباره حتّى رأيته للمرّة الثانية حين زارني في الدير. كان ذلك في منتصف يناير.

توقّف رافائيل عن الحديث وقد أخذ منه التأثّر كلّ مأخذ.

ـ أجل فراي رافائيل أعرف أنك لم تتوقع زيارتي.

ها هو فارغاس يستعيد الآن تفاصيل اللقاء فيخيّل إليه أنّ اليهوديّ يقف أمامه اليوم بعوده النحيل تحت أقواس الرواق العالية قبل أن يجلس على أحد المقاعد الحجريّة.

ـ لتعلَمْ أوّلاً بأنّ إنقاذك حياتي في طليطلة ذلك اليوم ليس السبب وراء قراري المجيء والإفضاء إليك بسرٍّ من أخطر أسرار الكون وأروعها. لو لم تنقذ أنت حياتي يومها لأنقذها غيرك. قد يدهشك هذا لكنه الحقيقة إذ كان مكتوباً أنّي غير ميت يومها مهما فعلت. كان مكتوباً أنّي لن أموت قبل أن أنجز مهمّتي.

توقّف اليهوديّ لاهثاً قبل أن يواصل كلامه:

ـ إلاّ أنّي ما أن أقفل راجعاً من هذا الدير بعد أن أفضي إليك بما جئت من أجله حتّى يسهل على الموت أن يلقي عليّ بشباكه في أيّ لحظة وسأستقبله بفرح بل إنّي سأكون في انتظاره بفارغ الصبر.

بذل رافائيل جهده في إخفاء دهشته أمام ما بدا له لحظتها تعبيراً عن حالة مرضيّة، مجيباً الرجل بعبارة جاهزة لمثل تلك الأحوال:

لا أحد يعلم يومه ولا ساعته والأعمار كلّها بمشيئة الربّ.

أشعّت ملامح اليهوديّ بابتسامة غامضة.

ـ فراي رافائيل، لقد حان موعد رحيلي عن هذا العالم بمشيئة الربّ وأنا ممتنّ له كلّ الامتنان. ولعلّ الآباء والقدّيسين وحدهم رحلوا عن هذه الأرض بمثل ما أرحل من قناعة وبهجة. ولكن دعنا نَخْلُصْ إلى جوهر الموضوع.

أنزل من على كتفه كيساً جلدياً كان يضمّه إلى جنبه طيلة الوقت ووضعه على فخذيه.

ـ قلت لك إنّي لم أجئك بسبب الامتنان بل بسبب آخر. ولتعلم قبل ذلك أنّي أكره التعبير عن العواطف أيّاً كانت. وقد عانت زوجتي رحمها الربّ الكثير جرّاء طبعي الغريب. أجل. أنا أكره تعرية القلوب. إنّ وَضْع اليد على جبينٍ أكلته الحمّى وكتمان شهقةٍ أمام حبيب يتعذّب هي عندي علامات أكثر تعبيراً عن حقيقة العواطف وأصدق من عهود المحبّة ومواثيق الصداقة. كلّنا قادرون على التشدّق بكلمات الوله والغرام ولكنّ الشرخ كبير بين المنشود والموجود. ولعلّك بهذا تفهم الآن كم يعزّ عليّ أن أعترف لك أنّ ملازمتك سريري تلك الليلة ظلّت ذكرى محفورة في روحي لن تمحى أبداً.

وقف ابن برول واتكأ على الجدار محدّاً البصر في نقطة في البعيد.

ـ نحتاج أحياناً إلى حياة كاملة للتعمّق في إحساس أو لفهم كلّ ما يزخر به قلب الآخر. ولعلّ عنادنا وعمانا أكبر من أن نضمن النجاح في ذلك. لكن يحدث في أحيان أخرى أن نختصر المراحل اختصاراً عجيباً. يحدث ذلك في لقاءات استثنائيّة في لحظات متفرّدة يُقال أثناءها كُلُّ شيء من خلال قلبين ينبضان ونظرتين تتقابلان. ذاك ما حدث بيني وبينك ليلتها وتلك هي الآصرة الوثيقة التي انعقدت بيننا على الرغم من كلينا.

ظلّ رافائيل صامتاً لا بسبب شكّه في كلام الرجل بل بسبب مقاسمته نفس الإحساس. كان صمته تعبيراً عن الموافقة. استأنف ابن برول الكلام.

ـ لديّ وَلدٌ في سنك وقد شعرتُ يومَها في طليطلة بأنّ لديّ ولداً ثانياً.

استنشق طويلاً ثمّ واصل بنبرة أقلّ حزناً:

ـ لقد حدث ما قلب حياتي رأساً على عقب. بل لعلّ الأمر أكبر بكثير

من مجرّد حدث. لقد جسستُ نبض الكون ورأيتُ اللامرئيّ وشاهدتُ بعينيّ شيئاً من نور السماء. إلاّ أنّي لا أستطيع مكاشفتك بكلّ شيء.

تناول الكيس الجلديّ وعرضه على رافائيل:

ـ خذ هذا. إنّي أعهد به إليك. ستجد فيه صحفاً سوّدتُها بيدي. لك أن تطّلع عليها ولكنّي أقول لك منذ الآن إنّها ستخيّب ظنّك مهما كان من ذكائك وسعة اطّلاعك وتبحّرك في علم اللاهوت، لأنّك لن تفهم منها شيئاً أو لعلّك تفهم القليل فيزيدك ذلك القليل إحساساً بالخيبة والإحباط.

ـ سيّدي. عليك أن تشرح لي الأمر.

ـ صبراً يا ولدي. بعد أسابيع معدودة يزورك رجلان.

أضاف هامساً:

ـ سترى كم هما نابغان. إنّهما ينبوعان لا ينضبان من العلم والمعرفة.

ـ ولماذا يأتيان في طلبي؟

ربت ابن برول على الكيس الجلديّ.

ـ من أجل هذا. من أجل المخطوط. وأحذّرك منذ الآن. سيحاولان أخذه منك فإيّاك أن تفعل. أطلب منك فقط أن تتقاسمه معهما مرحلة بعد أخرى، قصراً بعد قصر.

كرّر رافائيل مستغرباً:

ـ قصر؟

مرّ ابن برول بيده على الكيس متمتماً:

ـ ستفهم يا ولدي. كلّ شيء موجود هنا فصبراً. ستقرأ وتفهم.

قال رافائيل فارغاس محتجّاً:

ـ لا أريد أن أبدو في نظرك جاحداً أو غير أهل للمشاعر التي تحملها تجاهي لكنك تضعني في وضع صعب. لم تقل لي شيئاً عن هذا الحدث

الهائل ولم تكشف لي شيئاً عن مضمون المخطوط ولم تحدّثني بشيء عن دوافع الرجلين اللذين تقول إنّهما سيأتيان في طلبي. اِعترف بأنّ كلّ هذا يجعلني في موقع لا أحسد عليه.

ـ ألم أقل لك مرّتين صبراً؟

ـ قلت لي ذلك ولكن. . .

لم يدعه ابن برول يكمل الحديث.

ـ تذكّر يا فارغاس. تحدّثنا تلك الليلة عن أصول اسمك ولقبك، هل نسيت؟

كلاّ. لم يكن فرغاس قد نسي شيئاً ممّا دار بينهما تلك الليلة.

ـ إذن فأنا لا أنتظر منك طاعة عمياء باسم صداقتنا الجديدة بل أنتظر منك سلوكاً على غرار أسلافك الكبار، أولئك الفرسان الباسلين الذين لم يقدهم غير حبّهم في التفاني وبحثهم عن الكمال وإرادتهم في تجاوز الذات. وأؤكّد لك لو وثقت بي أنك ستتمكّن من فرصة ربّما هي الوحيدة في حياتك كلّها من أجل أن تعيش في تناغم تامّ مع هذه المبادئ الثلاثة.

كان في ابن برول شيء غامض ينفذ إلى أعماق فارغاس ويؤثّر فيه دون أن يدري كيف ولماذا. لم يكن لعاقل أن يقبل مثل هذا العرض لكنّ رافائيل عجز عن صدّه. بل إنّه لم يعد راغباً في شيء قدر رغبته في خوض المغامرة وفهم هذه الألغاز وتلبية النداء.

ـ حسناً. لك أن تثق فيّ. سأنفّذ كلّ ما توصيني به.

ـ أَقْسِم بذلك على الصليب الأعظم.

بدا على فارغاس التردّد للحظة قصيرة قبل أن يعلن:

ـ أُقْسِم.

خيّم الصمت على ثلاثتهم بعد فراغ فارغاس من سرد قصّته مع

اليهوديّ. كانت ملامح ابن سراج تشي بالامتعاض نفسه الذي بدا على وجه عزرا ولم يرغب أيّ منهما في مواصلة الحديث خشية أن يتأكّدا ممّا أخذا يحدسان به. دون أن يتّفقا أخرج كلّ منهما مخطوطه من خرجه في حركة تكاد تبدو معدّة مسبقاً. أخذ كلّ منها الصحيفة الموافقة للقصر الثاني وكان صوت عزرا يرتعش حين شرع في القراءة:

ـ القصر الأوّل الفرعيّ. مبارك مجد ي.ه.و.ه في مسكنه. الاسم في ٦. اذكر اسم ابن أرملة...

توقّف عزرا فقرأ ابن سراج بصوت لا يقل ارتعاشاً:

ـ يُقال إنّه على ضريحها وُضِع...

فقرأ عزرا:

ـ لم أعرف إلاّ ملاكاً وحيداً...

ـ ولكن قديماً...

ـ اختارها يهوه...

توقّف الربّي عن القراءة وهوى على الطاولة بقبضة يده صارخاً:

ـ كفى. لم يعد نصّك مكمّلاً لنصّي ولم يعد المعنى واضحاً بعد تجميع النصّين. اعطني صحيفتك.

ناوله ابن سراج الوثيقة دون تلكّأ.

ـ انظر إلى عبارة: اذكر ابن أرملة...الجملة ناقصة وهي لا تكتمل بالعبارة التالية: **يُقال إنّه على ضريحها وُضِع**. لا منطق لكلّ هذا الكلام. والأسوأ إذا صحّ ما أتوجّس منه أن ينطبق هذا على كلّ القصور الباقية. هل تريد أن نتأكّد من الأمر؟

ـ لا فائدة.

لاذا بالصمت وقد بدا عليهما الإحباط فسأل رافائيل:

ـ ألا تشرحان لي الأمر؟

كان ابن سراج أوّل من بادر إلى مواجهة الحقيقة.

ـ هل تستطيع إتياننا بالأوراق التي تركها لك ابن برول؟

ـ طبعاً. ولكن لا داعي إلى ذلك فأنا أحفظ ما جاء فيها عن ظهر قلب.

ـ كلّها؟

ـ كلّها.

ـ هذا مدهش لكنّنا نفضّل أن نراها.

ـ أريكما الأوراق لكن لا تطلبا منّي تسليمكما إيّاها. تذكّرا أنّي أقسمت...

قاطعه عزرا بنبرة امتعاض:

ـ بصليبكم الأعظم نعرف ذلك.

التفت إليه فارغاس وقد أشعّت عيناه بنظرة استنكار.

ـ كيف تجرؤ على ذكر الصليب بمثل هذا الازدراء.

ـ لأنّي لا أشعر بميل جارف إلى أدوات التعذيب.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ لأنّي يهوديّ.

استدار فارغاس ناحية ابن سراج سائلاً:

ـ أنت أيضاً يهوديّ؟

ـ معاذ الله، أنا ابن الإسلام.

ظلّ الراهب الشاب يحلق فيهما صامتاً مثبتاً النظر فيهما واحداً بعد الآخر. ثمّ بدا عليه أنّه يهمّ بقول شيء لكنّه أحجم واتّجه ناحية الباب.

ـ ألم أقل لك يا ربّي إنّك قد تقع على من هو أسوأ من مسلم مثلي؟

ـ ولكن لماذا؟ ما الذي يريده ابن برول؟ تفهّمت أن يجمع بيننا لكن أن يضيف إلينا شخصاً ثالثاً وأن يكون هذا الشخص راهباً نصرانياً فلا؟ بدأتُ أفكّر في التخلّي عن كلّ شيء والعودة إلى بيتي.

قال ابن سراج:

ـ لك ذلك.

وأضاف دون كبير اقتناع:

ـ شرطَ أن تترك لي وثائقك.

ـ لا شكّ أنّك تمزح.

ظهر فارغاس من جديد وفي يده مجموعة من الأوراق.

ـ ها هي الوثائق التي طلبتماها، والآن قولا لي ماذا تريدان؟

تولّى ابن سراج الشرح:

ـ يُفتَرضُ أن يكون لديك نصّ بعنوان **القصر الأوّل الفرعيّ** وهو موال لنصّ بعنوان **القصر الأوّل الرئيسيّ**. هل هذا صحيح؟

ـ بلى. ولا أخفيكما أنّي لا أفهم شيئاً ممّا تعنيه هذه العبارات.

ـ نحن أيضاً لا نفهم الكثير منها ولكن ليس هذا أوان الخوض في الأمر. الآن سأقرأ عليك بعض العبارات الناقصة وعليك أن تكملها بما لديك.

واصل الكلام دون انتظار:

ـ **مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه. الاسم في ٦. اذكر ابن أرملة...**

قال رافائيل مُتَمّماً الجملة:

ـ **نفتالي. ذاك الذي مات ثلاث ميتات ثمّ بُعث.**

ـ يُقال إنّه على ضريحها وُضِعَ. . .

ـ غصن من الشوك أزهاره من لبَنٍ ودم. . .

ـ لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً. . .

ـ ولكن قديماً. . .

أشار ابن سراج إلى فارغاس بالتوقّف والتفت ناحية عزرا.

ـ لا مجال للشكّ بعد هذا أليس كذلك؟

أغمض عزرا عينيه نصف إغماضٍ مغمغماً:

ـ ليغفر لي آدوناي. . .ها نحن على أبواب الجحيم.

ـ والآن ألا تشرحان لي الأمر؟

بدت على الراهب علامات نفاد الصبر فقال ابن سراج مهدّئاً من روعه:

ـ سنفعل ولكن ربّما كان من الأفضل أن. . .

توقّف عن الكلام فجأة واستدار ناحية عزرا:

ـ ما رأيك في أن تعطيه رسالة ابن برول فهي أفضل من كلّ شرح.

لبّى اليهوديّ طلب رفيقه فأكبّ رافائيل على الرسالة ومع تقدُّمه في الاطّلاع على ما جاء فيها أخذت ملامح وجهه تتغيّر من الريبة إلى الدهشة إلى الذهول. سأله اليهوديّ ما أن رآه كفّ عن القراءة:

ـ ما رأيك الآن؟

ـ هو حقّاً أمر غريب. لكنّ الأغرب أنّي آمنت دائماً بإمكانيّة وجود كتاب مثل هذا. كانت فكرة تخامرني أو لنقل إنّها مجرّد حدس يراودني بين الحين والآخر كلّما فكّرت في الأحداث الخارقة التي يحفل بها تاريخ البشريّة. أجل. أعتقد أنّ كتاباً مثل هذا موجود في مكانٍ ما.

تبادل الشيخ نظرة سريعة مع عزرا. بات واضحاً أنّهما ثلاثة منذ الآن ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن. نهض من مجلسه ووقف مواجهاً الراهب.

ـ اسمع فراي رافائيل. قلت إنّ وجود هذا الكتاب ليست فكرة جديدة عليك فما الذي يفيدك البحث عنه؟ ثمّ إنّك رجل مؤمن فهل الرجل المؤمن في حاجة إلى برهان؟

ـ ما الذي ترمي إليه بكلامك هذا أيّها السيّد؟

ـ لننظر إلى المسألة من زاوية أخرى. هل لديك أدنى شكّ في وجود الله؟

ـ لا شكّ لديّ البتّة.

ـ هل تتصوّر ولو للحظةٍ أنّ المسيح ليس ابن الربّ أو أنّه مجرّد نبيّ من أنبياء الله مثل موسى ومحمد؟

ـ هذه فرضيّة لا يمكن أن تخطر على بالي.

قال الشيخ وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة ارتياح:

ـ نحن إذن متّفقون. القِسْمُ الذي بين يديك من وثائق ابن برول لا يجديك في شيء والأولى أن تسلّمه لنا.

ـ لكنّك تنسى أمرين يا سينور ابن سراج. الأوّل أنّي قطعت عهداً على نفسي لابن برول ولست ممّن يخون العهود. والثاني أنّ إيماني ويقيني لا يستطيعان إطفاء رغبتي في اكتشاف مضمون كتاب السفير. بل بالعكس.

مدّ رافائيل يده.

ـ هل تسمح؟

تناول رسالة ابن برول من جديد وأخذ يقرأ بصوت عال:

ـ كم ظللت ألهث وراء المعرفة وكم جبت الصحارى والسهول الخصبة وكم سهرت الليالي محاولاً إحصاء النجوم. قادني أكثر من فجرٍ إلى حافة الجنون وأوصلني أكثر من غروب إلى عتبات الحكمة. ولكن لا شيء ـ هل تسمعني يا صموئيل؟ ـ لا شيء يشبه من بعيد ولا من قريب

معاني الرسالة التي عهد بها إليّ اللوح الأزرق.

وضع الرسالة على الطاولة وأضاف مقلّباً النظر بين الرجلين:

ـ هذا يعني أنّ الربّ أراد من خلالنا أن يخاطب البشريّة جمعاء فهل تتصوّران أنّي سأتهرّب من إرادته؟ أعرف أنّ هذه الوضعيّة لا ترضيكما ولكنّنا ملزمون بها يا سيّديّ أحببنا أم كرهنا. لقد جعلنا ابن برول متّحدين في هذه الرحلة بالرغم عنّا مثل أصابع اليد الواحدة.

الفصل ١٠

«من أين أنتم قادمون؟ هكذا كانوا يسألون السكّانَ الأصليّين، وكان هؤلاء يجيبون: نحن قادمون من الحلم».

(.........)

لا تختلف حجرة رافائيل فارغاس عن غيرها من حجرات رهبان الدير ولا تحتوي على أكثر من سرير وطاولة صغيرة وكرسيّ بلا ظهر وصليب مسمَّرٍ إلى الحائط ومركعٍ. أسفل كوّة يتسلّل منها ضوء النهار. تربّع شاهر بن سراج على الأرض وأسند ظهره إلى فردة الباب واختار رافائيل فارغاس الجلوس على الكرسيّ بينما كان صموئيل عزرا يتلوّى ألماً فريسة إحدى نوبات التهاب المفاصل ممّا اضطرّه إلى الاستلقاء على السرير. هنا وهناك تناثرت أوراق مخطوط ابن برول فإذا هي تبقّع أرضية الغرفة مثل مستطيلات ثلجيّة في ضوء الفجر. ورقة وحيدة من بين تلك الأوراق كانت محطّ أنظار الرجال الثلاثة وفي متناول أيديهم. الورقة التي تتضمّن النصّ الذي تمّ تجميعه بعد أن أملى كلّ منهم الجزء الذي في حوزته على الآخرين. نصّ القصر الثاني:

«القصر الأوّل الفرعيّ»

مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاسم في ٦.

تَذَكَّرْ ابْنَ أَرْمَلَةِ نَفتَالِي، ذاك الذي مات ثلاث ميتات، ثمّ بُعِث. قِيلَ على ضريحه وُضِع غصن من الشوك ذُو أزهارٍ من لبن ودم. لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً، ولكن قديماً على الجبل الذي اختاره يحيى، كانوا تسعة. هؤلاء التسعة هم الذين لاذوا بالمدينة المحاطة بالأبواب. للحصول على عدد الأبواب لابدّ لكم من العزيمة. وفي هذه العزيمة استعملوا الطيبة والصديق والمُطَهِّر. سنبدأ بإزاحة المُطهِّر عن الطيبة. سيتسبّب الصديق في الانقسام. عندئذ تحصلون على التوازن المتحقّق، رمز المذكّر والمؤنّث، الروح والمادّة. بعد ذلك تجمعون الصديق والمطهّر وتحذفون التوازن المتحقّق. لابدّ من استخراج جذر هذه النتيجة. وجذر هذا الجذر الذي ستضربونه في التوازن. سيتجلّى العدد أمام أعينكم. ولكن هل تملكون الحكمة لرؤيته. في طرف المدينة، في قلب سهل شِنْعَارَ يقوم المبنى الدامي، هناك تجدون العدد ٣.

قال الشيخ معلّقاً:

ـ يبدو النصّ الأوّل لعبة أطفال بالنسبة إلى هذا الذي بين أيدينا. وكأنّي بابن برول أراد فتح شهيّتنا قبل عرضِ طبقه الرئيسيّ.

تململ عزرا فوق السرير متبرّماً:

ـ منذ ساعتين وأنت تتذمّر يا ابن سراج. الأجدى أن تفصح لنا عن رأيك في العبارات المفاتيح التي أحصيناها. هل أنت موافق عليها؟

ـ موافق. لكنّي أتساءل لماذا اختلف عنوان هذا القصر عن سابقه؟ **القصر الثاني الفرعيّ**. لماذا هو فرعيّ؟

لاذ الآخران بالصمت وقد تملّكتهما الحيرة ثمّ قال عزرا مقترحاً:

ـ أرى أن ندع ذلك الآن فلعلّنا نجد الإجابة في ما بعد.

قال فارغاس:

ـ حسناً. لنستعرض العبارات الأساسيّة:

١ . ابْنُ أرْمَلَةِ نَفْتَالِي؟

٢ . الذي مات ثلاث ميتات ثمّ بُعِث.

٣ . غصن من الشوك ذُو أَزْهَارٍ من لبن ودم.

٤ . لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً ولكن قديماً على الجبل الذي اختاره يحيى كانوا تسعة.

٥ . العزيمة.

قال الراهب:

ـ أرى أن نكتفي بهذا الآن لأنّ فهم العبارات التالية يتوقّف على فهم دلالة كلمة «العزيمة». ويبدو لأوّل وهلة أنّنا أمام سلسلة عمليّات حسابيّة وأنّ هذه العمليّات مبنيّة على رموز وأنّ هذه الرموز لا تكشف عن دلالتها إلاّ إذا فهمنا معنى كلمة «العزيمة». فهل لأيٍّ منكما شرح لهذه الكلمة؟

أومأ عزرا بالنفي فقال ابن سراج:

ـ نعني بهذه الكلمة عادةً الرُّقَى ونحوها. وعزائم القرآن هي الآيات التي يُقرأ بها على ذوي الآفات لما يُرجى من البُرْءِ منها.

علّق الراهب:

ـ يبدو لي من العبث أن ننظر إلى هذه الكلمة وفقاً لدلالتها الحرفيّة أي باعتبارها تعني استخدام كلمات وقوالب سحريّة للنفع أو الإيذاء. وهذا يعني أنّ علينا البحث في اتّجاه آخر.

ـ ومن أدرانا؟ لقد أبدى صديقنا ابن برول من المكر بحيث لا أستغرب أن يقصد الكلمة في دلالتها البسيطة. على أنّي أرى أنّ هذا القصر على النقيض من القصر السابق واضح المقصد.

أومأ ابن سراج موافقاً فقال عزرا مواصلاً الحديث:

ـ يكفي أن نستخرج الكلمات ذات الدلالة المحسوسة والتي تشكّل في

الوقت نفسه تسلسلاً منطقياً: الباب، المدينة، طرف المدينة، سهل، مبنىً دام، ويكفي أن نقرأ هذه الكلمات قراءة مباشرة كي نحصل على ما يلي: علينا أن نجد مدينة لها عدد من الأبواب وفي طرفها سهل ووسط هذا السهل مبنى. أمّا كلمة «دامٍ» فلعلّها تعني أنّ هذا المبنى شهد حدثاً دامياً.

سأل ابن سراج:

ـ جريمة؟

ـ ربّما...

ـ ما رأيك فراي فارغاس؟

أجابه فارغاس شارد الذهن:

ـ هذا ممكن.

تبادل العربيّ واليهوديّ نظرة سريعة من خلف ظهر النصرانيّ. منذ البارحة وهما يتساءلان لماذا عنّ لابن برول أن يفرض عليهما «طفلاً» لم يتجاوز العشرين إلاّ بثماني أو تسع سنوات؟ صحيح أنّه ذو حافظة جيّدة وصحيح أنّه أثبت اطّلاعاً لا بأس به على النصوص المقدّسة لكن أين هو من علم عزرا وابن سراج؟

اقترح ابن سراج مواصلة البحث مستفسراً عزرا:

ـ هل لديك ما تفضي به إلينا في شأن العبارة الأولى، أقصد ابْنُ أَرْمَلَةٍ نَفْتَالِي؟

ـ العبارة مقتطفة من سفر الملوك الأوّل: *وأَرْسَلَ المَلِكُ سُلَيْمَانُ وأَخَذَ حِيرَامَ مِنْ صُور. وهو ابْنُ امرأةٍ أرْمَلَةٍ مِنْ سِبْطِ نَفْتَالِي.*

ـ الرجل إذَنْ صنائعيّ؟

قال عزرا مؤكّداً:

ـ بل هو رئيس في قومه ونحّاسٌ عبقريّ أنْجَز أهمّ ما ازدان به الهيكل وكانت له أسرار في فنّه لا يعرفها غيره.

ـ حسناً ثمّ ماذا؟

ـ أعتقد أنّ علينا إيجاد الصلة المشتركة بين سليمان والهيكل ومدينة صور والنحاس.

ـ لعلّك على حقّ ولكن ماذا يربط بين ملك ومعبد ومدينة ومعدنٍ باستثناء ما جاء في كتُب التاريخ؟

بدت على الرجلين الحيرة.

فجأة تناول فارغاس الورقة التي كُتِب فيها نصّ القصر الثاني.

ـ هل تسمحان لي باقتراح زاوية نظر مختلفة؟ أعتقد أنّكما تخطئان بالبحث عن صلة بين حيرام وسليمان والبقيّة. أعتقد أن حيرام مكتفٍ بذاته.

أبدى عزرا دهشته واستغرابه فقال الراهب مؤكّداً:

ـ في «حيرام» يكمن السرّ. تعرفان طبعاً أنّ الأوراق وقعت في حوزتي قبلكما بأسابيع وقد أتيح لي أن أقرأها وأن أدرسها وأن أقلّب فيها النظر على كلّ وجه. وقد توصّلت إلى بعض النتائج. في ذلك الوقت كنت أجهل كلّ شيء عن الهدف من هذا كلّه وبدت لي استنتاجاتي غير معقولة لكنّ الأمر مختلف الآن.

غادر الشابّ كرسيّه وتربّع بين الرجلين.

ـ لو واصلنا قراءة النصّ لوجدنا ما يلي.

تابع السطور بأصبعه وقرأ:

ـ **تَذَكَّرْ ابْنَ أَرْمَلَةِ نَفْتَالِي، ذاك الذي مات ثلاث ميتات، ثمّ بُعِث. قِيلَ على ضريحه وُضِع غصن من الشوك ذُو أَزْهَارٍ من لبن ودم.** في هذه العبارة نحن أمام معلومتين أساسيّتين. الأولى تتعلّق بالميتات الثلاث والبعث والثانية تتعلّق بغصن الشوك وأزهاره التي من لبن ودم. أرجوكما مسبقاً أن

تغفرا لي شيئاً من الإطالة في كلامي فأنا مكره على ذلك. لو تساءلنا عن المقصود بهذه الميتات الثلاث في علاقةٍ مع حيرام القادم من صُور لاسترجعنا بالذاكرة أسطورة من ذلك النوع الذي قد يكون واقعة تاريخيّة. وها أنا ألخّصها لكما للمزيد من التوضيح: أوشكت الأشغال في بناء معبد أورشليم على الانتهاء دون أن يتمكّن كلّ رفاق حيرام من اكتشاف أسرار الصنعة التي كان المُعَلّم الرئيس ضنيناً بها. فقرّر ثلاثةٌ منهم إجبار حيرام على مكاشفتهم بأسراره ووقف كلّ منهم على باب من أبواب المعبد لمحاصرته من كلّ جانب إلاّ أنّ حيرام كان يهرب كلّ مرّة من باب صارخاً بأنّ أحداً لن ينتزع منه شيئاً بالقوّة وأنّ على الجميع انتظار الوقت المناسب. ضربه الرجل الواقف عند الباب الأوّل بمسطرة على حلقه وضربه الرجل الواقف عند الباب الثاني بِكُوسِ المَسْح على صدره من جهة القلب وضربه الرجل الواقف عند الباب الثالث على جبينه بالبَيْزَر تلك المطرقة الخشبيّة ذات الرأسين، وكانت تلك الضربة القاتلة. ثمّ اجتمع ثلاثتهم لينظروا ماذا قال حيرام لكلٍّ منهم فاكتشفوا أنّهم ارتكبوا جريمتهم دون أن يعلموا منه شيئاً. عندئذ قرّروا دفنه ليلاً قرب إحدى الغابات وغرسوا على قبره غصناً من شجر السَنْطِ.

توقّف الراهب عن الكلام لاسترداد أنفاسه فتبادل العربيّ والنصرانيّ النظرات وقد أثار الحديث اهتمامهما وقال عزرا مشجّعاً:

ـ واصل رجاءً.

ـ أعتقد أنّ هذه الضربات الثلاث الواردة في هذه الأسطورة هي المقصودة بالميتات الثلاث. الضربة على الحلق ترمز إلى الميتة الجسديّة والضربة على الصدر من جهة القلب ترمز إلى الميتة العاطفيّة والضربة على الجبين ترمز إلى الميتة العقليّة. أمّا غصن السَنْطِ فلنتذكّر أنّ تابوت العهد كان مصنوعاً من خشب هذه الشجرة. والأغرب أنّ إكليل الشوك الذي وضع على رأس المسيح كان هو أيضاً من السنْطِ. ولا شكّ عندي أنّ

حكاية حيرام توحي لنا بأنه لابدّ من الموت من أجل الانبعاث إلى الخلود.

لاذ بالصمت فسأله عزرا متلهّفاً:

ـ ثم مَاذا؟

ـ للأسف هذا كلّ ما لديّ حتّى الآن. علينا أن نجد الصلة بين أسطورة حيرام والنقطة الموالية. أقصد هذه العبارة: **لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً ولكن قديماً على الجبل الذي اختاره يحيى كانوا تسعة**. أيّ ملائكة يقصد؟ ولماذا ملاك واحد ثمّ تسعة؟

ارتفعت أصوات في سماء الدير مؤذنة بحلول موعد التسبيح فنهض رافائيل مسرعاً:

ـ أنا مضطرّ إلى مغادرتكما الآن فلنرجئ حوارنا إلى حين.

اتّجه ناحية الباب ثمّ توقّف عن السير فجأة واستدار ناحية الرجلين.

ـ أفكّر في الميتات الثلاث. يبدو لي أنّها تشير مثل كلّ الميتات التعليميّة إلى مرحلة تمهدّ لبعث ثلاثيّ هو أيضاً، بعث جسديّ ونفسانيّ وعقليّ يقوم إثره حيرام جديد. ولو انتقلنا من الرمز إلى الاستعارة لأمكن لنا أن نرى في القتلة الثلاثة تجسيداً للجهل والتعصّب والحسد وهي الصفات التي تقابلها صفات حيرام: المعرفة والتسامح والكرَم. وأتساءل إن لم يكن ابن برول قد أراد أن يوجّه لنا رسالة من خلال هذه الأسطورة يتوقّف على فهمنا لها نجاحنا أو فشلنا في مغامرتنا.

أضاف وقد بدت على ملامحه تعابير غامضة:

ـ من يدري؟ لعلّ علينا نحن أيضاً أن نموت قبل أن نُبْعَث. . .

مرّت لحظات طويلة بعد أن غادر رافائيل الحجرة دون أن ينبس عزرا وابن سراج بكلمة. كان كلّ منهما غارقاً في تأمّلاته وقد بدا واضحاً أنّ كلام الراهب الشابّ أدخل عليهما اضطراباً كبيراً. ولعلّهما كانا يتساءلان

من من ثلاثتهما يمثّل الجهل والتعصّب والحسد. أخيراً همس الشيخ شارد الذهن:

ـ غريب أن يصدر هذا عن شابٍّ لم يتجاوز الثامنة والعشرين. ترى ماذا كانت حياته قبل أن يترهّب؟

ـ الأغرب أنّي كنت أطرح على نفسي السؤال نفسه. اعتدنا أن نقول إنّ الشباب هو زمن تعلُّم الحكمة وإنّ الشيخوخة هي زمن ممارستها لكن يبدو أنّ هذا الفتى عبر كلّ المراحل.

*

طليطلة. اللحظة نفسها.

ظلّت إيزابيل خاشعة في مُصَلاّها للحظات في انتظار الغفران فابتعد تالافيرا خطوة إلى الخلف وحرّك بيسراه الصليب المتدلّي على صدره ثمّ باركها بيمناه. اتّجهت الملكة إلى طرف القاعة وتهالكت على إحدى الأرائك قرب نافذة مقوّسة معقودة بأعمدة حجريّة. كانت ترتدي المنجيل الأبيض الفضفاض وتغطّيه بفستان أبيض هو أيضاً يهبط حتّى الكعبين بينما حوصرت رقبتها بطوق صلب في شكل مثلّث بارز يمرّ ضلعه الأفقيّ خلف العنق وتظهر زاويته الحادّة على الصدر. كان واضحاً أنّها لم ترضخ إلى الموضة المتفشّية في نساء الحاشية تلك الأيّام. تناولت منديلاً حريريّاً وكمشت عليه أصابعها في حركتها المألوفة متكلّمةً بصوت هادئ:

ـ إذنْ فأنتَ لا تشارك المفتّش العامّ مخاوفَه؟

ـ كلاّ يا صاحبة الجلالة فهذه المخاوف تبدو لي بلا أساس وأخشى أنّ فراي توماس قد استسلم كعادته إلى دواعي العاطفة.

ـ تقول العاطفة؟ ولماذا لا تقول إنّه ينطلق من حسٍّ وطنيٍّ وإيمان لا يتزعزع بالكنيسة المقدّسة؟

قال تالافيرا مصرّاً:

- بل هي العاطفة.

- ألا يساورك أدنى شكّ في وجود مؤامرة حقيقيّة تهدّد كلّ ما حاربنا ومازلنا نحارب من أجله؟

- قد يضايقك رأيي يا صاحبة الجلالة لكنّي أعتقد أنّ هذه المؤامرة لا وجود لها إلاّ في خيال فراي دو توركيمادا. كيف نصدّق بمؤامرة تقوم على أحجية مركّبة من اقتباسات من الكتب المقدّسة ألّفها قباليّ ميت؟ اسمحي لي بالقول إنّ الأمر يخلو من الجديّة.

أضاف محترزاً:

- طبعاً آملُ أن لا أكون مخطئاً.

انقبضت أصابع الملكة على المنديل.

- تأملُ يا فراي دو تالافيرا؟

أشعّت عينا الكاهن ببريق العزم.

- وماذا يعلّمنا الإيمان غير الأمل حين يحاول العالم كلّه أن يقودنا إلى اليأس؟ على أيّ حال الأمور انطلقت الآن ولا فائدة من محاولة إقناعك بالعكس. وحده المستقبل سيثبت من كان على حقّ أنا أم فراي دو توركيمادا.

واصل الحديث محاولاً تغيير الموضوع:

- وصلني أخيراً الخبر المفرح. جيوشنا تتأهّب لمحاصرة مالقة ويبدو أنّ المدينة لن تصمد طويلاً.

- تلك قناعة جلالة الملك. ولكن لنأمل أن يحترم أمير غرناطة معاهدة لوشة وأن لا يهبّ إلى نجدة إخوانه المسلمين.

- وما هي توقّعات جلالتك؟

- أتوقّع أن ينفّذ بوعبديل المعاهدة بحذافيرها. وممّا يؤكّد لي ذلك ما

بلغني من أنه أرسل إلى قشتالة عارضاً تدعيم معاهدة لوشة. فقد عبّر عن استعداده للتخلّي عن غرناطة مقابل التعهّد له بحريّة سكّان البيّازين والسماح لهم بالإقامة في المدينة والمحافظة على جوامعهم وإعفائهم من الضرائب طيلة عشر سنوات.

- قلت إنّه مستعدّ للتخلّي عن غرناطة؟

- هو ذاك.

- هل يستسلم دون قتال؟

- هذا ما عرضه علينا.

علّق الكاهن بصوت مرتعش:

- غرناطة جاثية... بعد سبعمائة عام من الاحتلال. سيكون ذلك أكبر حدث تاريخيّ في زماننا دون شكّ. سنرى إسبانيا وقد توحّدت أخيراً.

- أجل يا فراي دو تالافيرا. سيكون أكبر حدث تاريخيّ دون شكّ وسيكون من المؤسف أن لا نشهده.

- ولماذا لا نشهده؟ إنّ كلّ شيء يسير على ما يُرام.

انكمشت أصابعها من جديد على منديلها الحريري حتّى ابيضّت سُلاميّاتها.

- كلّ شيء على ما يُرام... حتّى الآن. لكن تكفي ذرّة رمل يا فراي دو تالافيرا. إنّ ذرّة رمل واحدة قد تقلب كلّ شيء رأساً على عقب.

*

هتف ابن سراج ناحية الراهب الشابّ دون أن يرفع عينيه عن الأوراق:

- لم نبق مكتوفي الأيدي أثناء غيابك فقد وجدنا أو لأقل إنّ عزرا وجد المعنى المقصود من وراء عبارة: **الجبل الذي اختاره يحيى**.

- وما هو هذا المعنى؟

ـ *لأنّ يحيى اختار جبل صهيون وأراد هذا المكان له.* صهيون أو الجبل الذي اختاره يحي ليس سوى مدينة القدس أو أورشليم كم تقولون. تحديداً يعني صهيون الصخرة الجنوبيّة من الهضبة الشرقيّة حيث أقيم المعبد.

هتف فارغاس:

ـ هنيئاً لك بهذه الذاكرة الرائعة حقّاً فما كنت لأجد الصلة بين هذا وذاك.

ـ شكراً لك على هذا الإطراء لكننا لم نحقّق تقدّماً كبيراً للأسف.

جلس فارغاس بين الرجلين وقال معترضاً وقد بدا صوته أكثر حماسة:

ـ بالعكس. هذه المعلومة شديدة الأهميّة فهي تكشف لنا بوضوح عن سلسلة من الحلقات المتّصلة. انظرا: أليس حيرام هو المعبد؟ أليس المعبد هو صهيون وأورشليم؟

قال عزرا:

ـ لم نغفل عن ذلك أنا وابن سراج. لكنّ هذه الصلة لم تكشف لنا شيئاً عن هؤلاء الملائكة المجهولين.

بدت المكتبة فجأة مترعة بالعتمة والصمت ومرّت لحظات طويلة ظلّ أثناءها الرجال الثلاثة صامتين مكبّين على أوراقهم وكأنّهم يصارعون عفاريت غير مرئيّة، وفجأة أطلق فارغاس صرخة ابتهاج:

ـ إنّهم فرسان الهيكل...

هتف عزرا وابن سراج بصوت واحد:

ـ رجال المعبد؟

ـ طبعاً... كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟

تدخّل الشيخ ابن سراج بنبرة لا تخلو من سخرية:

ـ كأنّي بك تتحدّث عن تلك الشرذمة من الفرسان الأشرار الذين عاثوا في رقاب المسلمين منذ قرون، ويُقال إنّهم خلّفوا أكثر من ألف قتيل...

ـ تلك وجهة نظرك ولا أريد أن أدخل معك في جدل. دعني أذكّر بالوقائع. في صيف ١٠٩٩ استولى الصليبيّون على أورشليم وبدأ الرجال والنساء والأطفال يتوافدون من كلّ أرجاء المعمورة لزيارة الأماكن المقدّسة. وقرّر أحد وجوه القوم تشكيل مجموعة من الفرسان يبقون بعد رحيل الصليبيّين لحراسة الأماكن المقدّسة وحماية الحجّاج. اختاروا أن يعيشوا مثل كهنة قانونيّين منظمّين إلى رهبانيّة القديس أوغسطين ثمّ غيّروا بعد ذلك تسميتهم من «فرسان المسيح المساكين» إلى «فرسان المعبد» ولعلّ الكثيرين يشيرون إليهم فيقولون: «الهيكليّون». هل فهمتما قصدي؟

قال عزرا:

ـ ليس بعد.

ـ غريب أن لا يفهمني متبحّر في علم القبالة مثلك. ألا تذكر أوّل مكان استقرّ فيه الهيكليّون؟

لم يجبه غير الصمت.

ـ في إسطبل معبد سليمان.

كرّر الكلمات محاولاً تقطيعها لجلب اهتمام الرجلين:

ـ إسطبل معبد سليمان. وبسبب ذلك تسمّوا بالهيكليّين. والآن هل فهمتما الصلة مع ملائكة ابن برول؟

ـ هذا إذا صحّ وجود علاقة بين ملائكة الجبل الذي اختاره يحيى وهؤلاء الهيكليّين؟

قال ابن سراج:

ـ عزرا على حقّ يا فراي رافائيل فقد أبدو لك بليد الذهن لكنّي لا أرى حتّى الآن محلّ فرسان الهيكل من موضوعنا.

حان دور فارغاس كي يبدي شيئاً من الضيق.

ـ عجباً. ألا تعيدان قراءة نصّ ابن برول؟

أخذ ورقة القصر الثاني وقرأ بصوت عال:

ـ لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً، ولكن قديماً على الجبل الذي اختاره يحيى، كانوا تسعة. هؤلاء التسعة هم الذين لاذوا بالمدينة المحاطة بالأبواب. ألم أقل لكما منذ لحظة إنّ فرسان المعبد الأوائل استقرّوا في إسطبل المعبد؟

أومأ ابن سراج برأسه موافقاً.

ـ هل تعلمان كم كان عدد هؤلاء الفرسان الأوائل؟

توقّف عن الحديث للتأكيد على أهميّة ما سيقوله.

ـ كانوا تسعة. تسعة فرسان. **على الجبل الذي اختاره يحي، كانوا تسعة. هؤلاء التسعة هم الذين لاذوا بالمدينة المحاطة بالأبواب.** ألا تبدو لكما الصلة الآن بين ملائكة ابن برول وفرسان الهيكل غير قابلة للشكّ؟

واصل دون أن ينتظر تعليقاً من رفيقيه:

ـ لنعد إلى نصّ ابن برول وإلى عبارته: **هؤلاء التسعة هم الذين لاذوا بالمدينة المحاطة بالأبواب.** أعتقد أنّنا هنا أمام معلومة أساسيّة. المعلومة التي تساعدنا على معرفة وجهتنا القادمة. وهذه الوجهة هي في نظري مدينة من المدن التي لاذ بها فرسان المعبد في وقت من الأوقات وتتميّز باحتضانها لمبنى معيّن وبتوفّرها على عدد كبير من الأبواب.

قال ابن سراج:

ـ أعترف بأنّ فكرتك مغرية ولكن. . .

أضاف مقطّباً جبينه وكأنّ أمراً أزعجه:

- لا أريد أن أشكّك يا فراي رفائيل في حدسك وقدرتك على الاستنتاج ولا شكّ أيضاً في أنّ نصّ ابن برول يشي بحقائقه لكلّ من يجيد النظر فيه. لكنّي على الرغم من ذلك أصارحك باستغرابي الشديد من سرعة ربطك بين حيرام وفرسان الهيكل والملائكة وكأنّك تملك الإجابة مسبقاً مثل ذلك البحّار الجنويّ كريستوبال كولون الذي حدّثتنا عنه.

لأوّل مرّة بدت على الراهب الشابّ علامات الحرج.

- قلت لكما إنّي تلقّيت هذه الوثائق قبلكما ووجدت الوقت كي أقلّب فيها النظر.

- دعك من هذا فراي رافائيل. لقد أفضت في ذكر تفاصيل فرسان الهيكل بشكلٍ يرجّح أنّ عالمهم...

_ مألوف لديّ؟

أومأ ابن سراج موافقاً فأشعتّ عينا الراهب ببريق غامض.

أنتظر منك سلوكاً على غرار أسلافك الكبار، أولئك الفرسان الباسلين الذين لم يقدهم غير حبّهم في التفاني وبحثهم عن الكمال وإرادتهم في تجاوز الذات. وأؤكّد لك لو وثقت بي أنك ستتمكّن من فرصة ربّما هي الوحيدة في حياتك كلّها من أجل أن تعيش في تناغم تامّ مع هذه المبادئ الثلاثة.

- حسناً سأبوح لكما بكلّ شيء. منذ ١١٢٨ بعد مجْمع طروادة قرّر فرسان الهيكل أن يجيئوا إلى هنا، إلى إسبانيا، لمساندة النصارى في حربهم على المُور. مع مرور القرون وامتناناً لهم منحهم الملوك المتتابعون على حكم شبه الجزيرة وسائر الأمراء والنبلاء من كلّ درجة الكثيرَ من القصور والحصون والضياع وأحياناً القرى الكاملة. في الوقت نفسه ظهرت

أخويّات عديدة على نموذج فرسان الهيكل منها أخويّة القنطرة وأخويّة قلعة رباح وخاصّة...

توقّف للحظة قبل أن يكمل:

ـ رهبانيّة «سانتياغو دي لا إسبادا» التي أنشِئت سنة ١١٧٠. أمّا في قصرش التي حرّرت مؤقّتاً فقد ظهر «إخوان قصرش». كان أعضاء هذه الأخويّة تحت الحماية الملكيّة وكانت مهمّتهم الدفاع عن المدينة إذا هاجمها الموحّدون وحماية الحجيج إلى كمبستيللا. سنة ١١٧١ وبطلب من ملك ليون فرناندو الثاني أذن أسقف سانتياغو للإخوان باتّخاذ اسم «رهبانيّة سانتياغو دي لا إسبادا». تسمية مفعمة بالإيحاءات باعتبار أنّ هذا القدّيس كان يُعتبر أكبر رعاة حروب الاسترداد. بعد أربع سنوات اعترف البابا رسميّاً بالرهبانيّة الجديدة. إلاّ أنّ هذه الرهبانيّة، وهنا ستفهمان أكثر، كانت تخضع لقانون مستوحى من قوانين الهيكليّين.

جاهد عزرا وابن سراج لكتمان قشعريرة هزّت جسديهما.

ـ كان شعارهم صليباً أحمر على خلفيّة بيضاء في شكل سيف. وهو شعار موروث مباشرة من الصليب الذي كان يزين صدور فرسان أورشليم. وكان أحد مؤسّسي هذه الرهبانيّة يدعى لوخان فارغاس وهو جدّي الأعلى. وقد صار جدّي الأقرب ميكائيل ثمّ أبي بيدرو فارغاس من بين أعضاء هذه الرهبانيّة كما انخرطت فيها أنا أيضاً لفترة قبل أن التحق بالفرانسيسكانيّين.

صمت للحظة قبل أن يضيف:

ـ كان ابن برول مطّلعاً على ماضيّ وقد تعرّض إليه في نصّه.

ـ في أيّ عبارة؟

ـ لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً.

لاذ عزرا وابن سراج بالصمت وقد بدا عليهما الارتياح. لم يعد لديهما أيّ شكّ في أنّهما أخذا يحبّان الفتى.

الفصل ١١

قسِّ قلبك، كن عربيّاً. . .

(بوالو)

عاد رافائيل مثقل اليدين بأسفار مجلّدة واتّخذ له مكاناً بين عزرا وابن سراج قائلاً بعد أن وضع ما في يديه من كُتُب على الطاولة:

ـ هذا أحد أكبر القواميس العربيّة وهذه رسالة في الرياضيّات أمّا هذا فكرّاس نادر يتتبّع خطى فرسان الهيكل في شبه الجزيرة، وهذه خريطة جغرافيّة من أكثر خرائط إسبانيا دقّة، أمّا هذا فكتاب فريد من نوعه ألّفه مجنون مجهول وجمع فيه عدداً كبيراً من الطقوس والرموز اللصيقة بها.

أضاف مشيراً إلى أرجاء المكتبة:

ـ باستثناء مكتبة سلمنقة لا أعتقد أنّ مكاناً آخر غير الرابطة يتوفّر على كتب بمثل هذه القيمة.

أشار ابن سراج إلى أحد الكتب:

ـ ناولني هذا القاموس فأنا في شوق إلى معرفة محتوياته.

أعطاه الراهب المجلّد الكبير مضيفاً:

ـ العقبة الرئيسيّة تتمثّل في كلمة «عزيمة». ابن برول يؤكّد أنّه للحصول على عدد الأبواب لابدّ لنا من «العزيمة». وأخشى أنّنا بدون هذا المفتاح لن ننجح في التقدّم.

مال رافائيل إلى ابن سراج.

- ما رأيك؟

قال هذا الأخير وقد أكبّ على القاموس:

- لم نعد أمام لغز بل نحن أمام متاهة أو برج بابل.

قال عزرا ضاحكاً:

- نحن فعلاً غير بعيدين عن برج بابل.

وأضاف مشيراً إلى السطر قبل الأخير من نصّ القصر الثاني:

- **في قلب سهل شِنْعَار**. *سفر التكوين الأصحاح الحادي عشر:* ***وكَانت الأرْضُ كُلُّهَا لِسَاناً واحِداً ولُغَةً واحِدة. وحَدثَ في ارْتِحالِهِمْ شَرْقاً أَنَهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً في أَرْضِ شِنعَارَ وَسكَنُوا هُنَاكَ.***

هتف ابن سراج:

- لا تقل لي إنّك تذكّرت هذه الفقرة الآن؟

- لم أدَّعِ ذلك.

- هذا يعني أنّك عرفت منذ البداية أنّ شِنْعار على صلة ببرج بابل؟

- طبْعاً.

قال العربيّ بصوت محتقن:

- فلماذا احتفظت بالمعلومة لنفسك؟

- اعتقدت أنّ الأمر بديهيّ بحيث لن يفوت أيّاً منكما.

حدجه الشيخ بنظرة ارتياب.

- قل لي صراحةً يا رِبّي هل تحاول الانفراد بالأمر؟

- أعرف أنّك أذكى من أن تنجح المحاولة معك يا ابن سراج.

رأى رافائيل أن يتدخّل قبل أن تتعكّر الأمور.

- ما رأيكما في أن نواصل البحث عوضاً عن إضاعة الوقت في الجدل.

ردّ عزرا متبرّماً:

- نواصل؟ وكيف تريد لنا أن نواصل؟ إذا لم نفكّ لغز «العزيمة» فلن نتحرّك قيد أنملة. أنا ذاهب إلى الخارج.

نهض واتّجه ناحية الباب فسأله فارغاس:

- إلى أين؟

- إلى حيث أتنفّس.

بدا على الراهب شيء من التردّد ثمّ نهض بدوره سائلاً ابن سراج:

- ألا تستريح قليلاً؟ قد يساعدنا هواء الخارج على إنعاش أفكارنا.

أومأ الشيخ برأسه يمنة ويسرة مغمغماً دون أن يرفع عينيه عن القاموس فقال رافائيل متّجهاً نحو الباب:

- أنت حرّ، وإن كنتُ أرى أنّ من الضروريّ اتّخاذ مسافة من كلّ هذا...

وجد الرِبِّي جالساً على أحد المقاعد الحجريّة في باحة الدير. كان يمسد أصابع يديه وقد انقبضت ملامح وجهه.

- هل تؤلمك؟

ندّت عن الرجل ابتسامة استسلام.

- أصبح الألم رفيقي الدائم منذ مدّة طويلة.

أضاف بنبرة لا تخلو من سخرية:

- ثمّ ألستُ يهودياً؟

أسند رافائيل ظهره إلى جذع شجرة.

- لا أرى الصلة بين هذا وذاك.

- لأنّها أصلاً غير موجودة. لكنّي أحبّ أحياناً أن أمارس إحدى العادات التي يتوارثها إخواني منذ القديم: أن أرثي لحالي.

لم يتمالك فارغاس عن الابتسام.

ـ ما كنت أعتقد أنك قادر على المزاح بهذا الشكل.

ـ أوه، لا تفرح بذلك كثيراً فهو ليس عندي بالحال الدائم. إنّه حسب الأيّام.

توقّف عن تمسيد أصابعه.

ـ قل لي يا فراي فارغاس. ماذا يفعل رجل في مقتبل العمر وفي مثل ذكائك وعلمك في هذا الدير بعيداً عن العالم؟

ـ يصلّي ويتأمّل ويحاول الاقتراب من خالقه.

لمعت عينا الرِبّي بشعاع من الشكّ.

ـ هل أنت واثق من أنّ هذا هو السبب الوحيد لوجودك هنا؟ هل أنت واثق من ذلك حقّاً؟ ألم تكن استجابتك لدعوة الربّ بدافع بعيد عن الروحانيّات؟

للحظة خاطفة بدا على فارغاس أنّه تذكّر خاطرة مؤلمة ثمّ سرعان ما تمالك نفسه.

ـ أنا صادق في ما صارحتك به.

ـ في هذا الوضع ألا ترى أنّ تصرّفك لا يخلو من أنانيّة؟ على بعد خطوات من ملجئك الأمين رجال يتحاربون ويعانون ويموتون بينما أنت مختفٍ وراء هذه الأسوار. ما الجدوى من ذلك؟

ـ وأنت يا رِبّي ما الجدوى من صلاتك؟

ـ أنا أصلّي حقّاً لكنّي أشارك في الحياة ولا أعيش معتكفاً مثلك ومثل إخوانك. ألا ترى أنّ هذا خسارة؟

ـ سؤال غريب حين يصدر عن قبالي وحبر. ألا تعرف يا رِبّي أنّ الربّ يستجيب إلى البعض مقابل ما يستحقّونه ويستجيب إلى البعض الآخر

مُقابِل ما يُكفّرون عنه؟ وحين يكون هؤلاء المعترفون النادمون بالآلاف على امتداد العالم فإنّ الطاقة التي تشعّ منهم على الكون أقوى من طاقة الشمس. وهي طاقة قادرة على تدفئة الأرواح المتجمّدة وإسكات الأوجاع ونجدة اليائسين.

ـ قل لي بربّك أيّ أرواح متجمّدة تدفئها وأنت جاثٍ قرب المحارق يا فارغاس؟ ألم تعترف لي بنفسك أوّل ما التقينا بأنّك حتّى *إن صدمتني، لا ترى محاكم التفتيش خالية من بعض الفائدة؟*

ـ أنا مصرٌّ على قولي ذاك.

ـ وأنا لا أرى ردّاً عليك أفضل من أن أرثي لحالك.

ـ جنّب نفسك عناء الرثاء كما أنّي لن أحاول إقناعك بشيء. فأنا أرى أنّك تنطلق من سوء نيّة مؤسف. أنسيت أنّكم أنتم اليهود مخترعو محاكم التفتيش إن لم نقل إنّكم روّادها؟

انفجر عزرا ضاحكاً فواصل فارغاس حديثه:

ـ اضحك إن شئت ولكن هذه هي الحقيقة. تذكّر ما جاء في نصوصكم المقدّسة: ***إِنْ سَمِعْتَ عَنْ إِحْدَى مُدُنِكَ التِي يُعْطِيكَ الرَبُّ إِلَهُكَ لِتَسْكُنَ فِيهَا قَوْلاً قَدْ خَرَجَ أُنَاسٌ بَنُو لَئِيمٍ مِنْ وَسطِكَ وطَوَّحُوا سُكَّانَ مدِينَتِهِمْ قَائِلِينَ نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا وَفَحَصْتَ وفَتَّشْتَ وَسَأَلْتَ جَيّداً وإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ وأكِيدٌ قَدْ عُمِلَ ذَلِكَ الرِجْسُ في وَسطِكَ فَضَرْباً تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ المدِينَةِ بِحَدِّ السَيفِ وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَع بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَيْفِ. تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسطِ سَاحَتِهَا وَتُحْرِقُ بِالنَارِ المدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَبِّ إِلَهِكَ فَتَكُونُ تَلاً إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ.*** سفر التثنية...

ـ الأصحاح الثالث عشر... أعرف ذلك... لكنّي لا أرى أيّ صلة لهذا الكلام بحديثنا. ثمّ إنّك تقوّل الكلمات ما تريد أنت لا ما تقوله هي.

عليك أن تضع هذه الكلمات في سياقها التاريخيّ وعليك أن لا تفهمها حرفياً.

ـ طبعاً مادام هذا يلائمك. لكنّ الحقيقة شيء آخر. أنتم دفعتم الأحداث في هذا الاتّجاه. أبديتم أكثر من مرّة وقاحة لا تُحتمل وتكالبتم على الوظائف العموميّة بروح طائفيّة عشائريّة وبلغ الاستفزاز ببعض المتنصّرين منكم حدّ تعليم اليهوديّة في الكنائس. بل أنّ غارثيا زاباتا رئيس دير نسّاك القدّيس جيروم لم يتورّع عن الاحتفال بعيدِ المَظَالّ اليهوديّ في الدير عامداً أثناء القدّاس إلى تعويض عبارات التقديس بعبارات تجديفيّة عديمة الاحترام. لا يمكنك إنكار ذلك فالوقائع ثابتة. لقد حاولتم جهدكم تحطيم الكاثوليكية إضافة إلى أنّ معظم المتنصّرين منكم كانوا يتظاهرون بالتنصّر بينما هم يسعون إلى خدمة قضيّتهم وتحقيق أغراضهم الشخصيّة مخترقين كافّة المجالات السياسيّة والكنسيّة مندّدين في السرّ والعلن بنهج الكنيسة مفسدين أكبر عدد من المؤمنين بما لهم من تأثير ومكر. حتّى أصبح وجود إسبانيا نفسه مهدّداً وظهرتم على حساب الجميع بشكل لم يعد ممكناً السكوت عنه والتسامح معه. لا أظنّك في غفلة عن كلّ ذلك يا عزرا.

الغريب أنّ عزرا ردّ بهدوء ورصانة غير متوقّعين:

ـ أنت جرو مصابٌ بداء الكَلَب يا رافائيل فارغاس، وأقول هذا بودّ ودون أيّ تهجّم. استمعت إليك فخيّل إليّ أنّي أستمع إلى خطاب قديم قِدَمَ العالم، كدت أقول إنّه خطاب متعفّن لولا أنّه يصدر من فم شابّ في مقتبل العمر وهو ما يجعله أكثر إيلاماً. أحفظُ هذه الحجج وهذا التعليل عن ظهر قلب يا صديقي الشابّ. ولك أن تخلص بعد هذا إلى التأكيد بأنّ إقامة ديوان التفتيش عاد على الجميع بالخير العميم ووضع حدّاً للمواجهات الطائفيّة بل تستطيع حتّى أن تدّعي أنّه أوقع من الضحايا أقلّ

بكثير ممّا حصدته تلك المجازر التي نشأت عن المواجهات بين النصارى واليهود. ألقي سلاحي أمامك يا فراي فارغاس فأنا لا أصارع الأطفال.

جرحت العبارة الراهب الشابّ وندّت عنه حركة انزعاج لكنّ عزرا واصل حديثه:

ـ وحتّى أثبت لك أنّي لا أحسّ بأيّ ضغينة دعني أكشف لك عن سرّ.

نهض الحبر واقترب من الراهب وقال له بصوت خافت:

ـ لا وجود لليهوديّ يا فراي فارغاس. إنّه مجرّد اختراع.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنّ كلّ إنسان قد يصبح يهوديَّ إنسانٍ آخر في أيّ لحظة. يهودُ اليوم هم أبناء عِرْقِي وقد يكون العربُ يهودَ الغد وقد يصبح الغجر يهودَ بعدَ غدٍ ومن يدري لعلّ يهود المستقبل يكونون المرضى والمعاقين والشيوخ العجّز... ثمّ دعني أنا أيضاً أذكّرك بالتاريخ... أيّام الإمبراطوريّة الرومانيّة حين كنتم في نظر الغالب مجرّد طائفة ذات طقوس غريبة تقدّم أضحيات بشريّة وتشرب دم الرُضّع وحين كانوا يجبرونكم على الاعتراف بألوهيّة الإمبراطور وينتزعونكم زرافات وجماعات ويلقون بكم إلى حلبات المصارعة، ألم تكونوا يومها مجرّد يهودٍ بؤساء؟

أحدّ بصره في عيني الشابّ قبل أن يضيف:

ـ لا تنس كلماتي هذه يا فراي فارغاس: قد يُصبح كلّ إنسان يهوديَّ إنسانٍ آخر في أيّ لحظة...

فجأة دوّت صيحة ابن سراج في أرجاء المكان وقد وقف يشير إليهما من على عتبة المكتبة.

ـ ارجعا. ارجعا بسرعة. لقد وجدتُ «العزيمة».

خفّ الرجلان إلى الداخل بأقصى ما يملكان من السرعة فاعترضهما الشيخ هاتفاً بلهفة:

ـ انظرا.

أشار إلى ورقة بُسِطت على الطاولة وقد بدا في وسطها جدول من الأرقام والكلمات.

الحروف وفق الترتيب الأبجدي	أ ١	ب ٢	ج ٣	د ٤	ه ٥	و ٦	ز ٧
صفات الله	الله	الباقي	الجامع	الديان	الهادي	الوليّ	الزكيّ
العدد الموافق للصفة	٦٦	١١٣	١١٤	٦٥	٢٠	٤٦	٣٧
معنى الصفة	الإله	السرمديّ	الذي يجمع	الذي يحاسب	الذي يهدي	الذي يصادق	الذي يطهّر
توصيف الصفة	الجبار	العطوف	الجبار والعطوف	الجبار	العطوف	العطوف	مركّب
صفة الحرف	صداقة	حبّ	حبّ	غضب	غضب	حبّ	حبّ
العنصر	نار	هواء	ماء	تراب	نار	هواء	ماء
البرج	الجدي	التوأمان	السرطان	الثور	الجدي	التوأمان	السرطان
الكوكب	زحل	المشتري	المريخ	الشمس	الزهرة	عطارد	القمر
الجنّي	قيوش	دانوش	نولوش	طوايوش	بويوش	كابوش	عيوش
الملاك الحارس	إسرافيل	جبريل	قلقائيل	دردائيل	دربائيل	رفائيل	تنكافيل

ـ هذه هي «العزيمة» التي قصدها ابن برول. لم أنقل هنا غير الكلمات السبع الأولى فالأمر متعلّق بطريقة سريّة جدّاً يرى البعض أنّها ليست من العرافة والتنجيم ومن ثمّ فهي غير محرّمة. ونحن نكاد نجهل كلّ شيء عنها باستثناء أنّ الجدول قائم على صلات مفترضة بين الصفات الإلهيّة والأعداد والعناصر الطبيعيّة الأربعة والكواكب السبع والاثني عشر صورة في دائرة البروج وحروف الأبجدية العربيّة طبعاً. وقد نقلتها على هذه

الورقة للمزيد من الإيضاح. ويُفتَرض أنّ طقس «العزيمة» بالمعنى المباشر للكلمة يبدأ بالتعبير عن جملة من الرموز حسب ترتيب معلوم: حروف فأعداد فكواكب إلخ. . . ولكنّ احتمالات تركيب هذه العناصر تعدّ بآلاف الآلاف. . . وحده تركيب معيّن من هذه التراكيب يمكّن الناطق به من القوّة العظمى. تركيب واحد من هذه التراكيب اللانهائيّة يقود إلى الحكمة المطلقة.

هتف رافائيل بنبرة غلب عليها الشكّ:

ـ القوّة العظمى؟

ـ أجل. كثيرون يؤكّدون أنّ المهتدي إلى هذا المفتاح بتركيب العناصر حسب التسلسل المطلوب يصبح قادراً على التحكّم في الكون بقدرةٍ شبه إلهيّة.

همس عزرا شارد الذهن:

ـ هذا أمر غريب حقّاً. ها نحن نعود إلى الكلمة المركّبة: ي.ه.و.ه.

نظر إليه رفيقاه باستغراب.

ـ ألم تسمعا بشخص يُدعى أبراهام أبو العافية؟

لم ينتظر ردّهما وواصل موضّحاً:

ـ لقد ولد في سرقسطة قبل نحو المائتي عام وكان من أكثر قباليّي عصره تأليفاً ونشاطاً. والرواة ينقلون عنه الكثير من النبوءات والبشائر لكنّ ما يهمّنا هنا أنّ أبا العافية خصّص معظم حياته لما يمكن تسميته «القبالة الانخطافيّة». وهي أيضاً طريقة للوصول إلى الحكمة الإلهيّة عن طريق الإيغال في العالم الباطنيّ شبيهة بما تؤدّي إليه العزائم. وهدف هذه الطريقة إيجاد صلة بين المخلوق وخالقه كي يتمكّن المخلوق من التأثير على الأشياء في العالم البرّانيّ. وقد أفلح أبو العافية مع مرور السنوات في تطوير طريقة قائمة على تسمية الربّ بإعادة تركيب الحروف وطرائق النطق

بها وهذا ما جعلني أشير إلى التيتراغرام. فلو أخذنا الكلمة ي.ه.و.ه. وأعدنا تركيب حروفها لوجدنا ١٠٨٠ تركيباً ممكناً باعتبار طرق النطق المختلفة ولحظات التنفّس وحركات اليدين والرأس، إضافة إلى...

قاطعه رافائيل بحركة من يده:

ـ لحظة يا ربّي. كيف يمكن لهذه التمارين أن تقرّبنا من الله أو أن تمكّننا من التأثير في العالم؟

تولّى ابن سراج الردّ:

ـ الصوفيّة يقولون إنّ السماع وذكر أسماء الله الحسنى في خشوع ووحدة كاملين ووفق إيقاع معيّن كان دائماً وسيلة لبلوغ درجة من النشوة يسمّونها الحال أو الانخطاف. وبعد فترة من هذا السماع ودون أن نعرف السبب يحدث اضطراب في الجسد يطلق الروح من عقالها فإذا هي في حلٍّ من الحواسّ وإذا هي تحلّق في سماوات الحكمة وتبلغ الكشف أيّ تسقط الحجب بينها وبين الخالق.

قال عزرا مؤكّداً:

ـ والحقّ أنّنا لو فكّرنا جيّداً للاحظنا على امتداد الزمن واختلاف العصور وجود حكماء وقدّيسين ينعزلون عن الناس ويكتسبون طاقة خارقة على التركيز والتحكّم في أفعالهم وأفكارهم. أحدهم موسى وربّما كان المسيح ومحمّد من هؤلاء أيضاً. أمّا بالنسبة إلى الناس العاديّين الذين لا يمتلكون بشكل غريزيّ موهبة الانفصال عن العالم المحسوس والاتّصال بما هو إلهيّ فإنّ «العزيمة» والذكر تكون وسيلتهما إلى ذلك.

لاذ رافائيل بالصمت وقد اضطرب لكلّ ما استمع إليه. خطر له أنّ هذه الصلة بين «العزيمة» وإعادة تركيب حروف التيتراغرام قد تخفي رسالة أخرى من رسائل ابن برول. صار يعرف تقريباً الرجلين اللذين يقفان أمامه الآن: ابن سراج ذو الذكاء والاندفاع الشرقيّين وعزرا الجامع بين حكمة

الشيوخ وسلاطة لسان الشباب الأرعن. ولكن هو، رافائيل، هل يعرف نفسه من يكون؟ هل هو الشباب؟ هل هو الاندفاع؟ هل هو الإيمان الأعمى؟ حين سأله عزرا عن الدافع الحقيقيّ لالتحاقه بخدمة الكنيسة لم يتمالك نفسه إلاّ بصعوبة كبيرة. هل يملك الحبر العجوز حاسّة سادسة؟ هل هو من أهل الباطن الذين كان يتحدّث عنهم قبل قليل. *ألم تكن استجابتك لدعوة الربّ بدافع بعيد عن الروحانيّات*؟ لماذا طرح عليه هذا السؤال؟

انهارت حواجز وانبثقت من شقوق ركامها فيوضٌ فوّارة من الذكريات ممزّقةً غلاف الذاكرة حيث أراد دفنها مع الماضي البعيد، معيدةً فتْقَ جراح لا تلتئم ولا تريد له أن ينعم أخيراً بالنسيان. ترى متى يتاح له أن يجرد حساب الكلمات فيتذكّر الوعود المغدورة دون أن يتعذّب؟ ترى متى يُتاح له أن ينظر بحياد إلى تلك الحركات المؤلمة التي ظنّ أنّها تحوّلت خلفه إلى عُقدٍ من لحم ودم غيّبتها الأيّام؟ أخرجه صوت ابن سراج من خواطره.

ـ الآن وقد وجدنا جدول «العزيمة» نستطيع فهم ما يريده منّا ابن برول. إنّه يعرض علينا مجموعة من الصفات يوافقُ كلٌ منها عددا من الأعداد. لو عدنا إلى الفقرة الأولى التي توقّفنا عندها لوجدنا الطيبة والصديق والمطهّر. ولو عدنا إلى جدول «العزيمة» لوجدنا الأعداد الموافقة لهذه الصفات: الطيبة يوافقها العدد ١٢٩. الصديق يوافقه العدد ٤٦. المطهّر يوافقه العدد ٣٧. نحن إذن أمام سلسلة من العمليّات الحسابيّة ومن ثمّ علينا أن نفهم كلمة «**إزاحة**» على أساس أنّها «**ناقص**» وعلينا أن نفهم كلمة «**تجمعون**» على أساس أنّها «زائد».

أسرع عزرا إلى القول:

ـ أكمل يا ابن سراج فقد نال منّي التعب.

ـ حسناً. لنتبع ابن برول خطوة بعد أخرى. لنبدأ بإزاحة المطهّر من

الطيبة وهذا يعني القيام بالعمليّة التالية: ١٢٩ ناقص ٣٧ = ٩٢. ثمّ يقول: الصديق سيبثّ الشقاق أي الانقسام. وهذا يعني: ٩٢ مقسوم على ٤٦ = ٢.

سأل رافائيل:

ـ هل يكون الرقم ٢ رمزاً لما سمّاه ابن برول **التوازن المتحقّق، رمز المذكّر والمؤنّث، الروح والمادّة؟**

اعترض عزرا:

ـ ربّما كان أيضاً رمزاً للقسمة. ولكن واصلا...

استأنف ابن سراج حديثه:

ـ بعد ذلك ستجمعون الصديق والمطهّر وتحذفون التوازن المتحقّق. هذا يعني القيام بالعمليّتين التاليتين: ٤٦ زائد ٣٧ = ٨٣. ثمّ ٨٣ ناقص ٢ = ٨١. هنا يطلب منّا ابن برول «**اقتلاع**» جذر هذه النتيجة وأعتقد أنّه يقصد «**استخراج**» الجذر. ما رأيك يا فراي رافائيل؟

ـ أعتقد أنّه استنتاج منطقيّ جدّاً.

أضاف بعد لحظة:

ـ ٩.

ـ حسناً. وما هو جذر هذا الجذر؟

ـ ٣.

ـ هنا يطلب منّا ابن برول أن نضرب هذا الجذر في ما أسماه التوازن. وبما أنّ العدد الموافق للتوازن هو ٢ فإنّ العمليّة هي: ٣ ضارب ٢ = ...

هتف رافائيل مستبقاً:

ـ يساوي ٦. عدد أبواب مدينة فرسان الهيكل.

فجأة انقضّ على الكرّاس الذي يؤرّخ لحضور الفرسان في شبه الجزيرة ففتحه بلهفة وأكبّ عليه يتفحّصه مقلّباً الأوراق بتوتّر شديد وما هي إلاّ لحظات حتّى صرخ بأعلى صوته:

ـ إنّها شريش... تبّاً لل...

عضّ على شفتيه واحتقنت وجنتاه فحرّك يده بعلامة الصليب متمالكاً نفسه مستأنفاً الحديث بصوت أكثر هدوءً:

ـ إنّها مدينة تقع عند أوّل سلسلة جبال مورينا ويعود اسمها إلى فرسان المعبد الذين استعادوها من الموريسكيّين عام ١٢٣٠. وهي ذات أسوار عالية ولها ستّة أبواب وقصر يسمّى معبد الفرسان. القصر موجود في طرف المدينة وفيه البرج الدامي حيث ذُبِح الفرسان الذين رفضوا تسليمها إلى النبلاء الذين أرادوا الاستيلاء عليها.

أشار بالورقة إلى عزرا وابن سراج.

ـ الأبواب الستّة والقصر في طرف المدينة والبرج الدامي... ابن برول عبقريّ حقّاً.

ـ هو عبقريّ لا شكّ في ذلك لكنّه عبقريّ مُتْعِب.

أكبّ الربّي على الورقة مضيفاً:

ـ قد أكون مخطئاً لكن الآن وقد تأكّدنا من وجود هذا البرج الدامي فأغلب الظنّ عندي أنّ العنصر المشار إليه بالرقم ٣ موجود أعلى هذا البرج.

سأله رافائيل:

ـ وماذا يكون هذا العنصر في نظرك؟

ـ سؤالك هذا صعب جدّاً يا صديقي. قد يكون شيئاً بعينه وقد يكون مجرّد علامة. ابن برول يتحدّث عن ثلاثة أشخاص وإذا أردنا فهم مقصده علينا أن نذهب إلى هناك، إلى شريش. أضف إلى ذلك أنّ...

فجأة جحظت عيناه كمن رأى شبحاً فسأله ابن سراج متوجّساً:

ـ ما بك يا عزرا؟

غمغم عزرا وقد بذا ذاهلاً:

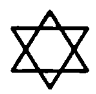
ـ ستّة أبواب. . . العدد ٦ . . . التوازن المتحقّق. . .

نظر إليه رفيقاه مستغربين بينما واصل هو كلامه المتقطّع:

ـ أجل. . . كلّ شيء يرجع بنا إلى الكلمة المركّبة. . . التيتراغرام. . . نجمة داوود. . .

ـ ألا تشرح لنا الأمر يا رِبّي؟

ـ قلت لكما منذ حين أنّ في اللاهوت اليهوديّ ما يقابل «العزيمة». حدّثتكما عن أبي العافية وعن إعادة تركيب حروف التيتراغرام. ي.ه.و.ه. لهذه الحروف أيضاً قيمة حسابيّة: ي تساوي ١٠، ه تساوي ٥، و تساوي ٦. ولو أجرينا العمليّة التالية: ١٠ + ٥ + ٥ + ٦ = ٢٦، ثمّ حذفنا من هذه النتيجة الرقم ٢ الذي هو رمز التوازن، لبقي لدينا الرقم ٦. ستّ مثلّثات متقابلة في دائرة غير مرئيّة.



قال ابن سراج متبرّماً:

ـ أنت حقّاً مهووس بنجمتك هذه ولعلّك قادر على تقويل الأرقام والأعداد أيّ شيء من أجل الوصول إلى هذه النجمة. لو لم يكن لهذه المدينة غير بابين أو ثلاثة لزعمت لك أنا أيضاً أنّها ترمز إلى الهلال ولو كانت ذات أربعة أبواب لاستطاع فراي رافائيل أن يدّعي أنّها ترمز إلى الصليب. لقد أتعبتني يا رِبّي ولا أرى الآن أفضل من الذهاب إلى النوم.

نهض مغمغماً:

ـ أجل. . .أنت قادر على تقويل الأرقام والأعداد أيّ شيء.

كان متجّها ناحية الباب حين لمح خيط دخان يتسلّل من الجهة اليمنى بين صفّتين من رفوف الكتب وصعدت إلى أنفه في الوقت نفسه رائحة النار اللاذعة فاستدار ناحية رفيقيه ليكتشف أنّهما فهما كلّ شيء.

غمغم عزرا:

ـ إنّه حريق.

فهتف رافائيل:

ـ هيّا لنجمع الأوراق والمخطوطات بسرعة.

اقترب ابن سراج من الباب وكان من خشب السنديان المصمت ووضع يده على المقبض يريد إدارته فلم تتزحزح فردة الباب قيد أنملة. أعاد المحاولة ثمّ صرخ بأعلى صوته:

ـ حبسونا وحقّ الله.

الفصل ١٢

أُحَلِّفُكُنَّ يا بَناتِ أُورشليم إنْ وَجَدتُنَّ حَبِيبِي أن
تُخْبِرْنَهُ بِأَنّي مَرِيضَةٌ حُبّاً.

(نشيد الإنشاد)

حاول ابن سراج معالجة المقبض دون جدوى. تراجع خطوات ثمّ ألقى بثقله على الباب محاولاً خلعه فسُمِع صوت ارتطام كتفه بالخشب. لا أكثر.

ـ هلكنا ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

رفع عينيه ناحية الطابق الأعلى من المكتبة. هناك كان الدخان قد تحوّل إلى لهب أحمر ينشر زئيره في أرجاء المكان. لملم فارغاس الوثائق المتناثرة ووقف يضمّها إلى صدره متلفّتاً مثل حيوان جريح ثمّ تذكّر شيئاً فهتف برفيقيه:

ـ اسمعا. أعرف أنّ للمكتبة باباً سريّاً يفضي إلى ممّر يفضي بدوره إلى المُصلّى. علينا أن نعثر عليه.

ـ أن نعثر عليه؟ تقصد أنّك لا تعرف أين يوجد؟

ـ لا أعرف أين يوجد لكنّي واثق من أنّه موجود فقد سمعت فراي مارشينا يتحدّث عنه مراراً. اتبعاني.

صرخ عزرا:

ـ لحظة. أريد استرجاع قصوري.

أشار إليه الراهب الشابّ بالأوراق في يديه:

ـ لا تخش شيئاً فكلّها معي.

اندفع الربّي ناحيته دون أن يكترث بكلامه.

ـ أريد الأوراق التي هي من نصيبي.

ـ الآن؟ وهنا؟ الأوراق اختلطت ويحتاج فرزها إلى وقت طويل. ألا ترى أنّ الحريق يتقدّم ويضيّق علينا الخناق؟

ـ لا شأن لي بالحريق. إذا كان لابدّ لي من الموت متفحّماً هنا والآن فلتتفحّم معي أوراق ابن برول.

ـ هل جننت؟

ـ قل ما شئت ولكن اعطني أوراقي.

تدخّل ابن سراج:

ـ إذا كان الأمر هكذا فأنا أيضاً يا فراي فارغاس أريد أوراقي.

وصلهم من بعيد صوت قرع جرس الكنيسة الذي ارتفع منذراً بالحريق. أخذت النار تتقدّم بسرعة مخيفة ملتهمة في طريقها كلّ شيء مرسلة ألسنة من لهب لوّنت كلّ شيء بالأحمر، الجدران والكتب والوجوه. قال الراهب مستسلماً:

ـ حسناً ها هي الأوراق. خذا ما تشاءان.

وضع الأوراق على الطاولة مضيفاً:

ـ تدبّرا أمركما. . . أمّا أنا فأحفظ ما في أوراقي عن ظهر قلب.

ـ أعلم ذلك وهو دليل آخر على فعل السنّ في الذاكرة. حفظتُ التوراة عن ظهر قلب وها أنا عاجز عن حفظ ما تضمّنته بضعة أوراق.

اقترب منهما ابن سراج وأكبّ على الأوراق بلهفة دافعاً عزرا بمنكبه.

ظلّ فارغاس يراقبهما مذهولا وهما يفرزان الوثائق مثل بخيلين يتنازعان قطعاً ذهبيّة في غفلة تامّة عن الخطر المحدق.

ـ إذا كنتما تريدان الموت حرقاً فهذا قراركما أمّا أنا فذاهب للبحث عن مخرج. الوداع أيّها السيّدان.

صرخ ابن سراج:

ـ ماذا؟ لا سبيل إلى ذلك. لن تتحرّك من مكانك بدوننا.

ابتعد الراهب دون أن ينبس بكلمة فهمس الشيخ متبرّماً في أذن عزرا:

ـ ألم أقل لك منذ البداية إنّك قد تقع على أسوأ من مسلم؟

لم يبد على عزرا أنّه انتبه إلى ملاحظة رفيقه فقد اكتفى بالنظر في إحدى الأوراق ثمّ أشار بها إلى الشيخ:

ـ أظنّ أنّ هذه الورقة لك فأنا...

اعترته نوبة من السعال الحادّ فلم يكمل عبارته.

ـ علينا أن نخرج من هنا بسرعة... بسرعة.

كان الشيخ أيضاً قد بدأ يشعر باختناق شديد نتيجة الدخان المتصاعد من كلّ مكان. انهار أحد الرفوف في الطابق العلويّ محدثاً صوتاً مرعباً ناشراً في الجوّ رذاذاً من الرماد الأحمر، ترك بعضه بقعاً صفراء على ثوب عزرا بينما وقع بعضه الآخر على لحيته وعلى الوثائق التي ضمّها إلى صدره. تملّكه الرعب فجأة فألقى بما في يديه أرضاً وأخذ ينتفض كالكلب المبلّل ضارباً على صدره وكمّيه في سلسلة من الحركات العشوائيّة. فسأله ابن سراج مذعوراً:

ـ ماذا دهاك؟

ارتمى على الأوراق يلملمها بلهفة تشبه الجنون فصرخ فيه عزرا وقد نسي ما به:

ـ أعدها إليّ بسرعة. هذه الأوراق مقدّسة كلّها ففيها مكتوب اسم الإله السرمديّ.

ـ سأعيدها إليك أيّها المجنون ولكن بعد أن نغادر هذا المكان.

أضاف وقد انتابته هو أيضاً نوبة من السعال:

ـ تعال معي الآن.

ترنّح الرِبّي ممتقعاً مشرفاً على الإغماء. أخفى الشيخ الوثائق تحت برنسه وأمسك بذراع عزرا وأخذ يسحبه إلى الأمام.

ـ إلى أين تأخذني؟

ـ ألم يتحدّث هذا النصرانيّ الكافر عن باب سريّ؟

واصل التقدّم بصاحبه بين الرفوف وكانت النار قد حجبت من حولهما كلّ شيء واختلط صوت احتراق الكتب والخشب برائحة خانقة ورماد متطاير حتّى خيّل إليهما أنّ سماء المكتبة تمطر رملاً. غمغم عزرا:

ـ هل نموت حرقاً يا ابن سراج؟

بلغا آخر القاعة فتلفّتا يمنة ويسرة ولم يريا غير ألسنة اللهب متصاعدة من كلّ شيء بينما ظهر ممرّ جديد تكاد النار تأتي عليه. لا أثر لأيّ باب. بدت الحيرة على ابن سراج.

ـ لعنة الله على المنافقين. لقد خدعنا هذا الراهب العقرب.

مادت الأرض بالرِبّي وكاد يقع أرضاً لو لم يسنده ابن سراج. اقترح العربيّ دون كبير اقتناع:

ـ لنتّجه يميناً.

تطاير الشرر من كلّ جانب في سحابة من النار والغبار. سار الشيخ لبضع خطوات ساحباً عزرا لكنّ الدموع كانت قد أعشت أعينهما فلم يعد أيّ منهما يتبيّن طريقه. شيئاً فشيئاً أخذت فكرة الاستسلام إلى القدر المحتوم تخامر الرجلين بقوّة. فجأة بلغهما صوت رافائيل فارغاس.

ـ من هنا. على يساركما. المدرج الصغير.

تلفّت الشيخ يمنةً ويسرة وقد عادت إليه الروح محاولاً تحديد موقع الصوت صارخاً:

ـ أين أنت أيّها الملعون؟ ألا تفهم أنّنا نكاد نفقد البصر؟

انهار عزرا بين يديه فأسنده من جديد وهزّه بعنف:

ـ عزرا، أيّها العجوز البائس، تمالك نفسك فليس هذا أوان الانهيار.

أحسّ هو أيضاً بالأرض تميد من تحت قدميه لكنّه تشاغل عن ضعفه بصوت فارغاس الذي عاوده من بعيد.

ـ لحظات وتنجوان. تمالكا نفسيكما. المدرج ناحية اليسار.

فكّر ابن سراج للحظة أنّ عزرا فقد كلّ قواه وأنّه تحوّل إلى عبء ثقيل قد يحول دونه ودون النجاة. همّ بأن يتركه إلى مصيره لكنّه نظر إليه لحظتها فرأى بصيصاً من الحياة يتسلّل من بين أجفانه وسمعه يغمغم:

ـ لن تتركني. . .لن تتركني أحترق يا ابن سراج أليس كذلك؟

ظلّ الشيخ فريسة مشاعر متناقضة للحظات بدت له في طول الدهر وقد أخذت النار تضيق عليهما الخناق من كلّ جانب. وفجأة أحسّ بأنّ يدين تنتزعان منه عزرا وتسحبانه بعيداً. كيف استطاع فارغاس أن يصل إليهما؟ كانت معجزة دون شكّ. صرخ الراهب لاهثاً:

ـ هيّا. . .اتبعني. . .بسرعة.

لم يحر ابن سراج ساكناً في البداية وكأنّه مخدّر أو غير مصدّق. ثمّ تململ مثل الخارج من حالة إغماء واندفع مترنّحاً في إثر الراهب الشابّ.

لفحتهم رطوبة المصلّى ببرودة بدت لهم مثل الصفعة بعد ما عانوه في المكتبة من ألسنة النار. لم يستعد الليل سكينته فقد ظلّت الصيحات تتعالى من هنا وهناك وبدت أشباح غامضة عند جناح المكتبة تروح وتغدو في كلّ

اتّجاه بينما لم ينقطع جرس الدير عن إطلاق إنذاره صوب النجوم. كان الربّي قد غاب عن الوعي فمدّده فارغاس على العشب وجثا قربه. التحق بهما ابن سراج وتهالك على الأرض مثل كيسٍ من رمل هاتفاً بين شهقة وأخرى:

ـ لم أر الموت عن قرب كما رأيته هذه المرّة.

لم يجبه الراهب بشيء فقد انشغل بعزرا وأكبّ يضربه على وجنتيه ضربات خفيفة.

ـ رِبّي عزرا. انتهى كلّ شيء بسلام. اصح يا رِبّي فقد نجوت.

مرّت لحظات قبل أن يعود الرِبّي إلى وعيه متمتماً بصعوبة:

ـ قصور ابن برول...

ـ اطمئنّ فهي معنا.

ـ والعربيّ؟

تولّى الشيخ الإجابة بنفسه:

ـ آسف إذا كان هذا الأمر يخيّب ظنّك ولكنّي بخير والحمد لله.

استند عزرا على مرفقه.

ـ لقد نجوت من نار البشر يا ابن سراج لكنّك لن تنجو من نار الربّ.

ـ هل هذه طريقتك في ردّ الجميل بعد أن أنقذتُ حياتك؟

هتف الرِبّي مُشْهِداً فارغاس:

ـ هل سمعت هذا الكلام؟ لولاك لتركني فريسة للنار.

ردّ العربيّ ساخطاً:

ـ أنت تهذي أيّها العجوز. ثمّ أين جريمتي المزعومة من جريمة صاحبنا هذا الذي كاد يسلمنا إلى الموت أنا وأنت؟

أشعّت عينا الرِبّي ببريق من الشكّ إلاّ أنّه اختفى بسرعة.

ـ كلاّ. أنت كاذب. فارغاس أنقذ حياتنا فليباركه آدوناي.

لم يبدُ على الراهب أنه يعير أيّ اهتمام لهذا كلّه بالمقارنة مع ما حدث للمكتبة التي كانت ألسنة اللهب تلتهم آخر محتوياتها.

ـ ألا تتساءلان عن سبب اندلاع الحريق وكيف تمّ ذلك ومن الذي أغلق علينا الباب بالمفتاح من الخارج؟

أجابه ابن سراج بنبرة حازمة:

ـ خامرتني هذه الأسئلة منذ اكتشفت أنّ الباب مغلق. لقدّ تمّ حبسُنا عمْداً.

سأل عزرا:

ـ ولكن من الذي يريد موتنا؟ ولماذا؟

أولاهما فارغاس ظهره ونظر إلى إخوانه وهم يجهدون بالوسائل القليلة المتاحة لمحاصرة الحريق.

ـ ضاعت المكتبة النفيسة...

هتف عزرا:

ـ طرحت علينا أسئلة دون أن تقترح علينا إجابات. أليس لديك رأي؟

أجاب فارغاس دون أن يستدير ناحية الرجلين:

ـ لا أملك أيّ رأي في الموضوع.

ـ وعلى الرغم من ذلك فإنّ من حاول قتلنا لا يمكن أن يكون إلاّ من دير الرابطة وأحد المعتكفين فيه.

ـ ليس بالضرورة. لستما العابرين الوحيدين وحقّ الملاذ مقدّس ومكفول كما تعرفان. وهذا يعني أنّ في وسع أيّ ضيف من ضيوف الرابطة أن يمرّ من أمام باب المكتبة وأن يدير المفتاح في القفل.

ـ وهل تركت المفتاح في القفل؟

ـ طبعاً. وما الذي يجعلني أسحبه؟ هل كنّا خائفين من أمر؟

ـ إذن فمن يكون هذا الذي أراد لنا الموت؟

قال ابن سراج مصحّحاً:

ـ بل قل من الذي «يريد» لنا الموت؟ أيّاً كان هذا الرجل فهو يعرف الآن أنّنا نجونا ولا شكّ أنّه ينتظر الفرصة المناسبة لإعادة الكرّة، كامناً لنا هنا...

أشار إلى أيكة قريبة بدت مثل كتلة سوداء في العتمة ثمّ طوّحت يده في الجوّ مشيرة إلى مجموعة من الأشجار في طرف الدير:

ـ أو هناك...

قال فارغاس:

ـ أرى أن ننتقل الآن إلى الداخل وإنّ غداً لناظره قريب.

قال ابن سراج وهو ينهض من على العشب:

ـ بل الرأي عندي أن نغادر هذا المكان فوراً وأن نقصد شريش فلا شيء يقعدنا في هذا الدير بعد...

ـ معك حقّ. إلاّ أنّي أخشى أنّكما ستضطرّان إلى الذهاب بدوني.

هتف الربّي:

ـ ماذا؟ هل أخافك هذا الحريق إلى درجة التخلّي عن رحلتنا؟

ـ لا علاقة لهذا بالخوف لكنّي مرتبط بعهود ومواثيق ولا يمكن لمن كان مثلي مغادرة ديره هكذا بين عشيّة وضحاها.

ـ تحدّث في الأمر مع فراي بيريز. استأذنه في التغيّب لعدّة أيّام.

ـ هبني فعلت. ماذا أقول له؟ كم يوماً تطول غيبتنا؟ هل عليّ أن أبوح له بدوافعي؟ هل أحدّثه عن كتاب السفير؟

ـ لا أعتقد أنّ هذا مستحسن.

ـ ها أنت ترى أنّ الأمر ليس بالسهولة التي تفترضها.

ـ قل له إنّ أحد أقربائك مريض أو إنّهم أرسلوا في طلبك على عجل. لا أدري. ابحث عن أيّ تعلّة.

ـ سأفكّر في الأمر ولعلّ الليل يسعفني بحلّ. ما رأيكما في أن نعود إل الداخل الآن؟

اتّجهوا ناحية حجرات النوم. لمعت النجوم من فوق بينما تململ شبح خلف إحدى الخمائل القريبة وحرّكت يدٌ الأوراق في عتمة الليل.

*

برغش. الليلة نفسها.

تململ الأب ألفاريز على كرسيّه كأنّه جالس على الجمر محدّثاً نفسه بأنّه لم يواجه طيلة حياته وضعاً بمثل هذه الصعوبة. رفع عينيه ناحية تالافيرا متوسّلاً.

ـ حاول أن تتفهّمني أيها الأب الموقّر فأنت تطلب منّي أمراً جللاً.

ـ خطأ. أنا لا أطلب منك بل آمرك.

ـ ولكن هذا يعني أن أخون المفتّش العامّ؟

ـ وهذا خطأ ثانٍ. من حدّثك عن خيانة؟ كلّ ما عليك فعله أن تمدّني بنفس المعلومات التي تفضي بها إلى فراي دو توركيمادا. يبدو لي أنّ من الشرعيّ بل من الطبيعيّ جدّاً بحكم وظيفتي أن أطّلع على الأحداث على الأقلّ مثل المفتّش العامّ. عليك أنت أن تفهم جيّداً أنّ من الخطورة بمكان في مسائل المؤامرات أن ينفرد شخص واحد بالمعلومات مهما كانت قيمة هذا الشخص. وأنت بإنجازك هذه المهمّة إنّما تؤدّي واجبك نحو بلدك لا أكثر ولا أقلّ.

أضاف تالافيرا بنبرة أكثر هدوءً:

ـ سيضمن لك ذلك طبعاً كلّ ما يعنيه امتنان صاحبة الجلالة وامتناني. أمّا إذا رفضت المهمّة. . .

لاذ بالصمت شاحناً صمته بتهديد أشدّ وقعاً من أيّ كلمات فاستنتج ألفاريز أن لا مفرّ له من الانصياع وقال بصوت خافت:

ـ حسناً. سأفعل كلّ ما طلبته منّي.

انفرجت أسارير تالافيرا وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة أشعّت على لحيته.

ـ أحسنت الاختيار يا فراي ألفاريز وهو ما كنت أتوقّعه منك.

أضاف وقد أصبحت ابتسامته أعرض:

ـ طبعاً حديثنا هذا سرٌّ بيني وبينك بل إنّه لم يدر بيننا أصلاً، أليس كذلك؟

*

من الغد. على مشارف ولبة.

أرسلت الشمس أشعّتها على السهل المقفر الذي كان يفرش أعشابه على امتداد الأفق دون أن يعترض البصر حاجز من بناء أو إنسان أو حيوان باستثناء الفرسان الثلاثة الذين كانوا يسلكون الطريق المغبرّة. انبسطت الأرض كاشفة عن لطف متوحّش تنفرد به منطقة الجوف في براءة عزلتها. الشمس وحدها اعتادت ارتياد هذا المكان منتشرة مثل عناقيد من الذهب على أجمات اللاذَن وبعض أشجار الصفصاف اللائذة بجنبات الهضاب التي تنبعث منها رائحة عيدان الصليب. تحت ذاك الإغبرار المذهب اضطجعت الأرض عند سفح جبال مورينا شبيهة بدابّة هانئة أُطلِقت في أقصى جهات الكون بعيداً عن كلّ شيء حرّة من كلّ شيء. استدار ابن سراج ناحية فارغاس الذي كان يتبعه بحصانه وسأل:

ـ كم يفصلنا عن شريش؟

ـ لعلّنا نبلغها عند انتصاف الليل. لكنّي أرى في ذلك خطورة دون فائدة. والأفضل عندي أن نترجّل مع غروب الشمس وأن نبيت ليلتنا في الطريق فندخل المدينة مع طلائع الفجر.

ـ يبدو أنّ الأمور لم تكن صعبة مع رئيسك في الدير فقد سمح لك بمصاحبتنا دون مشاكل.

ـ لقد اتّبعت نصائحك الثمينة، ممّا يعني أنّني كذبت.

ـ هل تعلّلت بأمر عائليّ؟

أومأ الراهب بالإيجاب فتدخّل عزرا هذه المرّة ملحّاً على الموضوع وكأنّ اقتضاب ردود فارغاس أثار في نفسه بعض الريبة.

ـ هل أنت واثق من أنّك لم تقل له شيئاً عن أهداف رحلتنا؟

ـ ليس من عادتي الإخلال بوعودي يا رِبّي عزرا. وفي رفضي تسليمك أوراق ابن برول دليل كافٍ على ذلك.

اقتنع عزرا بكلام الراهب الشابّ وحدّث نفسه بأنّه أصبح كثير الشكّ مع تقدّمه في السنّ. سأل فجأة:

ـ هل تعرفان أين نحن الآن؟

ـ وهل هذا سؤال؟

ـ لم تفهماني جيّداً. هل تعرفان بماذا يُرمز إلى هذه الناحية؟ إنّها الجناح الشرقيّ. لقد فرغت قبل أيّام من قراءة وصف دقيق لإسبانيا من تأليف أحد الجغرافيّين العرب. وهو يشبّه شبه الجزيرة بنسْرٍ رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح وبدنه جيان وجناحه الأيمن الغرب وجناحه الأيسر الشرق. نحن الآن نسير إذنْ على الجناح الشرقيّ.

قال الشيخ ممازحاً:

ـ لم أعهدك مغرماً بالشعر يا رِبّي.

ـ هذا دليل آخر على ضعف حدسك فأنا من أكبر المولعين بالشعر. بل ما رأيك لو قلت لك إنّي من بين كلّ أشعار الكون لا يؤثّر فيّ شيء أكثر من قصائد الشعراء العرب والمسلمين؟

زوى ابن سراج ما بين حاجبيه متسائلاً أيّ فخّ جديد يعدّه له الربّي ثمّ سأل بعد شيء من التردّد:

ـ وهل تعرف شيئاً عن شعرائنا؟

ـ قد لا أعرف الكثير لكنّ ما أعرفه كافٍ. يعجبني المتنبّي مثلاً وأبو نواس لكنّي أفضّل عليهما سعدي.

فجأة أخذ يلقي أبياتاً لسعدي عن ظهر قلب:

لو أنّ من أحبُّها في السرّ

جاءت يوماً وادفأت

أحلام قلبي المرتجف

لحمدتُ لها ظلّها إلى جانبي

ووهبتُها دون تردّد

سمرقند وأصفهان.

هزّ ابن سراج رأسه وقد تنازعته مشاعر الاهتمام والدهشة بينما واصل عزرا حديثه بصوت واثق.

ـ لا شكّ أن لا شعر يوازي الشعر العربيّ والفارسيّ ولا نقاش في أنّ شعراءكم يتقنون اللعب بالمجاز والاستعارة بشكل يثير الإعجاب.

قال فارغاس:

ـ قد يفاجئكما كلامي لكنّي لا أرى أيّ أهميّة لهذا اللعب بالكلمات

وتصفيف القوافي. ولو طُلِب منّي تحديد الشعر لقلت إنّه تمرين أدبيّ يتمثّل أساساً في العودة إلى أوّل السطر عند نهاية الجملة.

ـ أنت لا تفاجئنا يا فراي فارغاس. أنت تحزننا بهذا الكلام الأخرق.

قطعوا خمسة فراسخ تقريباً وخيّم عليهم الصمت واستسلم كلّ منهم إلى خواطره وفجأة لكز ابن سراج حصانه محاذياً عزرا:

ـ هل تعلم يا ربّي أنّ اليهود أيضاً لديهم قصيدة؟ قصيدة تختزل كلّ القصائد وتفوق كلّ ما باح به قلب الإنسان بما في ذلك أروع ما كتبه أكبر الشعراء العرب.

ثمّ أخذ هو أيضاً يلقي بصوت هادئ:

أَنَا نائِمَةٌ وقَلْبِي مُسْتَيقِظٌ

صَوْتُ حَبيبِي قَارِعاً

اِفتَحِي لِي يا أُخْتِي يا حَبِيبَتِي

يا حَمامَتِي يا كامِلَتِي

لِأَنَّ رأْسِي امتلأَ من الطَلّ

وقُصَصِي من ندى الليل

قَد خَلَعْتُ ثَوْبِي فكيفَ أَلْبَسُهُ

قد غَسَلْتُ رِجْلَيَّ فكيف أوسِّخُهُمَا

حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ من الكُوَّة

فأَنَّتْ عليه أحْشائِي

قُمْتُ لِأَفْتَحَ لِحَبِيبِي ويداي تَقْطُرَانِ مُرّاً

وأصابِعِي مُرٌّ قاطِرٌ على مقْبَضِ الباب...

حان الآن دور الربّي كي يندهش.

ـ عجباً. ها أنت تحفظ فقرات من نشيد الإنشاد. كنتُ واثقاً من سعة اطّلاعك لكن ليس إلى هذه الدرجة...

ـ أوه... لا تتعجّب كثيراً فهذا كلّ ما أحتفظ به في ذاكرتي من هذا النصّ.

علّق فارغاس مداعباً:

ـ الغريب أنّك لم تحفظ من التوراة إلاّ مقطعاً من النصّ الوحيد الذي لا ذكر فيه للربّ والذي لا يتحدّث إلاّ عن الحبّ.

ـ أليس الحبّ هبة من العليّ القدير؟ أليس الحبّ من أفضل نعمه تعالى؟

ـ أن يكون الحبّ هبة من هبات الله فهذا أكيد، أمّا أن يكون نعمة فهذا ما أشكّ فيه. الحبّ شعور شديد الخطورة. وقد نستطيع تشبيه الرجل المسكون بالحبّ بالمسافر الذي يواجه الشمس بعينيه. ماذا يستطيع أن يرى؟ هالة من النور وأشكالاً غير محدّدة ثمّ سرعان ما يفقد القدرة على تمييز الأشياء. أمّا إذا أصرّ على التحديق في الشمس وهو غالباً ما يفعل، فإنّ ذلك يأخذه إلى كلّ الأدواء. في الحقيقة أنا ضدّ المعارك غير المتوازنة. والحبّ من تلك المعارك.

ـ هل تعتبر الحبّ معركة غير متوازنة يا فراي فارغاس؟

ـ طبعاً. أنت تنظر إلى الشمس لكنّ الشمس لا تنظر إليك. الشمس تكتفي بحرقك وإعشاء بصرك.

ـ وماذا في ذلك؟ هبْ أنّ قلبك تمزّق قطعاً وتحوّل إلى ذرّات رماد، يكفيك أنّك عشت حقّاً عوضاً عن الاكتفاء بحياة الدوابّ. على أيّ حال يبدو لي أنّ رأيك هذا غير مناسب لشابّ في مثل سنّك. ولا أرى المرارة التي تتكلّم بها عن الحبّ إلاّ نتيجة واحد من أمرين: إمّا أنّك لم تعرف

الحبّ أصلاً وهذا مؤسف وإمّا أنّك مررت بتجربة مؤلمة أي أنّك أحببت أكثر ممّا ينبغي.

كان الراهب على وشك الردّ حين صرخ عزرا مشيراً إلى نقطة أمامهم:

ـ هناك. انظرا...

فجأة لاح لهم من بعيد فارس غامض الملامح أخذ يحثّ جواده في اتّجاههم وقد ارتفعت من حوله سحابة رقيقة من الغبار الذهبيّ.

الفصل ١٣

اشتعلت روحي شوقاً للقائك
وها هي الآن على شفتيّ.
فهل تعود على أعقابها؟ هل تطير إليك؟
قل لي بماذا تأمر؟

(حافظ)

أحكمت مانويلا فيفيرو لفّ عباءتها السوداء حولها ورفعت ذقنها لاكزةً فرسها بضربة حادّة. لم تعد تفصلها عن الرجال الذين خرجت في طلبهم سوى خطوات معدودة وأصبح في وسعها الآن أن تتبيّن ملامحهم. لاشكّ أنّ العربيّ هو هذا الرجل الضخم المتلفّع ببرنس أسود والذي يقود الكوكبة. أمّا راكب الجواد الأوسط فهو الأكبر سناً ولا شكّ أنه اليهوديّ. ولن يكون الفارس الثالث سوى الفرانسيسكانيّ الشابّ الذي حُدّثت بأنّه أنضمّ إلى المؤامرة في آخر لحظة وبسببه كادت الخطّة أن تُلغى أو على الأقلّ أن تُرجأ بعد أن أعِدّت بكلّ دقّة. مانويلا نفسها لم يتمّ إخطارها بالمهمّة إلاّ في آخر لحظة. وكان لابدّ لميننداز هذا العالم القباليّ مساعد توركيمادا أن يعيد النظر في كلّ شيء من جديد بما يشبه الأعجوبة.

أثبتت مانويلا بصرها في الراهب الشابّ فبدا لها التناقض واضحاً بينه وبين رفيقيه. لولا شعره الأشقر وزرقة عينيه لسهل الظنّ بأنّه ابن أحدهما. استنشقت طويلاً محاولةً التحكّم في دقّات قلبها المتسارعة ثمّ كبحت جماح فرسها متوقّفة عن الركض معترضةً طريق الفرسان الثلاثة. هتف ابن سراج وقد جمح به حصانه:

ـ هل تحتاجين إلى شيء يا سيّدة؟ ماذا حدث لك؟

لزمت مانويلا الصمت ثابتةَ النظرات مستقيمة في جلستها على السرج. سأل ابن سراج مندهشاً:

ـ سيّدتي هل أنت بخير؟ هل تريدين المساعدة؟

التحق بهما عزرا وفارغاس وبدا هذا الأخير متعجّلاً.

ـ سيّدتي، إذا لم يكن لديك ما تسألين فلتتنحّي جانباً رجاءً. هدفنا بعيد ونحن على عجلةٍ من أمرنا.

لم تردّ عليه فوراً. أجالت بصرها في ثلاثتهم ثمّ قالت بنبرة هادئة:

ـ خفت أن لا أعثر عليكم.

نظرت إلى عزرا مضيفة:

ـ صموئيل عزرا. . .شالوم.

ذُهِل الرِبّي وحدج رفيقيه بنظرات حائرة.

ـ هل تعرفين اسمي؟

تجاهلت السؤال وخاطبت العربيّ.

ـ السلام عليك يا شيخ ابن سراج.

ثمّ أحدّت بصرها في الراهب الشابّ. ظلاّ يتبادلان النظرات وكأنّهما يتبارزان. كان فارغاس قد استقام في جلسته على سرجه في هيئة ترفّع تكاد تنضح بالازدراء.

ـ نعم يا سيّدة أنا رافائيل فارغاس. فهلاّ قدّمت لنا نفسك؟

ـ لن يضيف لكم اسمي شيئاً. أنا مانويلا فيفيرو. لكنْ لديَّ اسم آخر لاشكّ أنّه سيثير اهتمامكم أكثر: ابن برول. . .

كانت الشمس تجرّ أذيالها على هضاب جبال مورينا ملوّنة المشهد بخليط من الخُبّازِي والورديّ الفاتح. هتف عزرا بصوت أبحّ وقد عقدت لسانه الدهشة:

ـ ابن برول؟

أضافت مانويلا بنبرة شبه محايدة:

ـ **مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه...**

برد الجوّ فجأة وأحسّ عزرا بقشعريرة تهزّ جسده.

ـ من أنتِ بحقّ الربّ؟

ـ ألم أقل لكم؟ اسمي مانويلا فيفيرو.

ـ تعرفين جيّداً أيّتها السيّدة أنّي لم أقصد هذا.

ـ إذا صحّ كلام صديقكم ابن برول فأنا **«العنصر الرابع»**.

أضافت مقترحة:

ـ ما رأيكم في أن نترجّل؟ سيكون ذلك أفضل لمواصلة هذا الحديث.

كان الشيخ أوّل من استجاب هاتفاً بالآخرين:

ـ لنبتعد عن الطريق.

ترجلّت مانويلا وتبعها عزرا وفارغاس فهتف ابن سراج مشيراً إلى أيكة على جانب الطريق:

ـ هنا مكان جيّد.

ما أن تربّع على الأرض حتّى بادر المرأة:

ـ ها نحن مصغون إليك. ماذا تعنين بـ «العنصر الرابع»؟

ـ لستُ سوى ما أراد لي ابن برول أن أكون. فأنت يا ابن سراج تمثّل في نظره «النار» وأنت يا عزرا تمثّل «الهواء» أمّا فراي فارغاس فهو يمثّل «التراب».

هزّت كتفيها مضيفة:

ـ هذا يعني أنّي أمثّل «الماء».

ما أن نطقت بالكلمة الأخيرة حتّى انفجر عزرا وابن سراج ضحكاً وهما يتبادلان النظرات.

ـ دعك من هذا يا سيّدتي فأنت امرأة وليس من الصعب إيجاد صلةٍ بينك وبين الماء. ولكن حدّثينا عن ابن برول. كيف تعرّفت إليه؟

ـ قبل ذلك أفضّل أن. . .

ـ كفى أيّتها السيّدة.

نهض فارغاس من مكانه وقد استشاط غضباً.

ـ قلنا لك كفى لفّاً ودوراناً واكشفي عن أوراقك.

ـ تريد حقّاً أن أكشف عن أوراقي؟

اقتربت من فرسها وتناولت خرجاً صغيراً ثمّ عادت إلى مكانها بين الرجال الثلاثة.

ـ طلبت منّي أن أكشف عن أوراقي أيّها الأب. . .وها أنا أفعل. . .

ـ أخرجت رزمة من ورق اللعب وتناولت من بينها خمس ورقات فصفّفتها على العشب.

ـ الناسك ودولاب الحظّ والعاشق والبهلوان. . .

كان الرجال الثلاثة يرقبونها مشدوهين حين أشهرت في وجوههم الورقة الأولى.

ـ الناسك. البيت التاسع الرئيسيّ في التاروت. انظروا إلى ما يمثّله هذا الرسم. انظروا إلى هذا الحكيم الشيخ الذي انحنى ظهره واستند على عصاه. العصا ترمز هنا إلى الحجّ الأبديّ وما يعترض طريق الحاجّ في رحلته من عناء وعثرات. وقد يكون رمزاً للشعب اليهوديّ. أنت هو الناسك يا رِبّي عزرا.

وضعت الورقة الأولى وتناولت الثانية.

ـ دولاب الحظّ. البيت العاشر الرئيسيّ. إنّه يرمز إلى تقلّبات الدهر وما يتعاقب فيه من نحس وسعْد. الغالب في إسبانيا والمغلوب فيها. إنّه رمز شمسيّ مثل النار لكنّه يمثّل أيضاً عدم الاستقرار على حال. ولعلّ هذه إحدى صفات شعبك يا شيخ ابن سراج.

تناولت الورقة الثالثة.

ـ العاشق. فراي فارغاس. البيت السادس الرئيسيّ. إنّه يصوّر محنة الاختيار الحاسم الذي ينتظر المراهق على عتبة البلوغ. كانت طريقه حتّى الآن واحدة لكنّها تتحوّل في هذه اللحظة إلى طريقين وعليه أن يختار إحداهما.

توقّفت لحظة ورمشت بعينيها كأنّها تخرج من حلم ثمّ حوّلت نظرها إلى فارغاس فرأته ينظر إلى البعيد. قلبت الورقة الأخيرة:

ـ البهلوان. هو الذي يفتتح سلسلة البيوت الرئيسيّة في التاروت. والمفارقةُ الغريبة أنّه مشعوذ ولاعب خفّة وصانع عالم وهميّ بحركاته وكلماته. فهل هو صانع أوهام يكتفي بخداعنا أم أنّه يخفي حكمة الحكماء العميقة وأسرار الكون الجوهريّة تحت شعره الأبيض ذي التجاعيد المذهبة، وكأنّه خارج الزمن؟ إنّه الرقم ١. نقطة الانطلاق. إنّه بإيجاز: ابن برول...

خيّم الصمت على الجميع لكنّ فارغاس سرعان ما قطعه ساخراً:

ـ حقّاً أنت سيّدة ليس لها ماء وجه تخشى عليه. ما رأيك الآن في وضع حدّ لهذا التخريف ومصارحتنا بحقيقة صلتك بابن برول.

لم تكترث لنبرة السخرية الواضحة في صوت الراهب وأظهرت من خرجها ورقة مخطوطة وقالت محافظة على كامل هدوئها:

ـ أظنّ أنّ في هذه الوثيقة ما يجيب على كلّ أسئلتكم. هل تريدون الاطّلاع عليها بأنفسكم أم تفضّلون أن أقرأها عليكم بصوت عالٍ؟

- إقرئي . . .

استقامت مانويلا في جلستها وشرعت في القراءة.

- طليطلة. ٨ فبراير ١٤٨٧ . شالوم. . .أكاد أرى من هنا علامات الدهشة والتبرّم تعلو وجوهكم. ولو صحّ حدسي فلا شكّ أنّ رسالتي هذه تقع بين أيديكم وأنتم على بعد فراسخ من الرابطة وقد أصبحتم ثلاثة بعد أن التحق الفتى بالرحلة. أتمنّى على الرغم من سوء مزاجكم أنكم استقبلتم دونا فيفيرو بما يليق بها من الحفاوة. لتعلموا يا أصدقائي أنها مقدّسة لديّ مثلكم تماماً. وهي مقدّسة لسببين: أوّلاً لأنّها امرأة. وثانياً لأنّها ترمز إلى العدد ٤ . بلى يا صموئيل. أعرف أنّ عقلك الذي برع منذ زمن في الاستدلال بالقياس قد انتبه إلى الدلالة الخفيّة للعدد ٤ . أليس كذلك؟

توقّفت مانويلا عن القراءة وأثبتت عينيها في الربّي منتظرة إشارة موافقة أو تأكيد. لكنّ هذا اكتفى بالغمغمة:

- ربّما قصد ابن برول الكلمة الرباعيّة: ي.ه.و.ه.

فأضاف ابن سراج بسرعة:

- ولعلّه قصد كلمة الله فهي أيضاً رباعيّة إذا لم نعتبر الحرف المدغم.

أشار إلى مانويلا بمواصلة القراءة.

- طبعاً لا شكّ أنّ أخي سليل نبلاء بني سراج قد أشار إلى كلمة الله ولا شكّ أنّ عزرا قد أشار إلى الكلمة الرباعيّة.

تمالكت المرأة عن الابتسام محدّثة نفسها بأنّ ميننداز نابغة حقّاً فقد تنبّأ حتّى بردود أفعال الرجلين، ثمّ واصلت القراءة.

- قد يكون هذا التفصيل قد فاتكما لكنّ الكلمة الرباعيّة تتكوّن في الحقيقة من ثلاثة حروف. فالحرف ه يعاد مرتين وهذا يعني أنّه في المرتين يرمز إلى العنصر نفسه. ولكما الحريّة في تخيّل هذا العنصر. هل هو

النار؟ هل هو الماء؟ هل هو الهواء أم التراب؟ ثلاثة أحرف. . .ألا يعني ذلك أنّه لابدّ من رابع حتّى يتمّ التوحّد حول وحدة تامّة؟

ما مصير الجهات الأصليّة الثلاث لولا الجهة الرابعة؟ وماذا لو فُقِد أحد أعمدة الكون الأربعة؟ وأوجه القمر الأربعة؟ والفصول الأربعة؟ أستطيع أن أذكر لكم المزيد والمزيد من الأمثلة. لكنّي أفضّل أن أختم في هذا السياق بالمثال الذي أراه الأكثر دلالة. انتبهوا إليّ جيّداً. جاء في كتابات الصوفيّة أنّ العدد ٤ يرمز إلى عدد الأبواب التي على المريد أن يعبرها في طريقه إلى الحكمة. ولكلّ باب من هذه الأبواب صلةٌ بعنصر من العناصر الأساسيّة وفقاً للترتيب التالي: الهواء فالنار فالماء فالتراب. يعبر المريد الباب الأوّل ولا زاد له إلاّ معرفته بظاهر العلم أي بما جاء في الكتاب الكريم، فهو كالسابح في الهواء أي في الفراغ. فإذا عبر الباب الثاني احترق بنار الشوق إلى الانخراط في الطريقة، فإذا عبر الباب الثالث أصبح من العارفين وأهل الباطن، وتلك صلته بالماء، فإذا عبر الباب الرابع والأخير ذاب في الجوهر الحقّ واتّحد بخالقه ومن ثمّ صلة هذا الباب بالعنصر الأكثر كثافة: التراب.

تأمّلوا في كلامي جيّداً أيّها الأصدقاء.

قبل أن تلتحق بكم دونا فيفيرو كنتم تملكون ثلاثة مفاتيح فحسب. المفاتيح الثلاثة الأولى. والسبب أنّي عهدت إليها هي بالمفتاح الرابع.

إذا كنتم الحدس والفكر والإيمان فهي الجسد.

اصطحبوها معكم وستكشف لكم في الوقت المناسب عن الحروف التي بها كانت السماء والأرض وكانت البحار والأنهار.

غمغمت مانويلا بالكلمات الأخيرة:

- هاشام إيماخام. . .الإمضاء: ابن برول.

ما أن فرغت من القراءة حتّى صرخ في وجهها عزرا:

ـ أريني الرسالة.

انتزع من يدها الورقة وتفحّصها مطوّلاً قبل أن يسلّمها إلى الشيخ.

ـ لا أستطيع الجزم بذلك لكنه يبدو لي خطّ ابن برول حقّاً.

تأمّل ابن سراج في الرسالة بدوره ثمّ أراد إحالتها إلى فارغاس لكنّ هذا الأخير رفض النظر فيها بحركة جافّة. حدج ابن سراج المرأة بنظرة غامضة قبل أن يسألها:

ـ سيدة فيفيرو. ما الذي تعرفين تحديداً عن الموضوع الذي نحن بصدده؟

ـ لا أعرف إلاّ القليل. فهمت أنّ الأمر يتعلّق برحلة غايتها الوصول إلى مكان أو الحصول على شيء معيّن وأنّ مسار الرحلة مرتبط بخارطة ملغزة لابدّ من فكّ شفرتها وأنّ هذه الخارطة مقسّمة إلى ثمانية أجزاء أو قصور. ولأسباب لا أعرفها قسّم ابن برول شذرات هذه القصور بين ثلاثتكم كي يجعل كلاً منكم ضرورياً للآخَرَيْن. أمّا فيما يخصّني فقد عهد إليّ ابن برول ببعض الوثائق ومن بينها هذا المفتاح الذي حدّثكم عنه في رسالته. وهو عبارة عن نصّ موجز لا يتجاوز العشرة أسطر...

سألها عزرا بلهفة:

ـ عشرة أسطر؟ وأين هو هذا النصّ؟

ـ أحرقته.

ـ ماذا؟

ـ لا داعي للخوف فأنا أحتفظ به في ذاكرتي وهي أكثر الأماكن أمناً.

ـ وما مضمون هذا النصّ؟

ـ طلب منّي ابنَ برول أن لا أكشف لكم عن مضمونه إلاّ بعد بلوغكم المرحلة الأخيرة.

صرخ ابن سراج ناهضاً من مكانه:

ـ هذا أكثر ممّا يحتمل. امرأة بعدُ النصرانيّ؟ هل كان ينقصنا امرأة؟

تقدّم ناحية مانويلا وقد تطاير الشرر من عينيه.

ـ تحدّثت عن الصوفيّة قبل قليل وأجزم أنك لا تفقهين من هذا الأمر شيئاً.

ـ أنت على خطأ يا شيخ ابن سراج. قد لا يكون علمي في حجم علمك لكنّي لست جاهلة. التصوّف فلسفة تعطي الأولويّة للوجدان والتأمّل وتعتمد رياضة الجسد لإطلاق الروح من عقال الحواسّ والتحليق في عالم الحقائق. وقد اعتُبِرت الخرقة الصوفيّة التي يرتديها المتصوّف موقفاً مناقضاً لأبّهة النبلاء والأمراء وتمسّكهم بالمظاهر. وقد يجوز القول إنّ التصوّف طريقة للمعرفة ومنهج للارتقاء الروحيّ يقومان على فكرة العشق بعيداً عن الإسلام التقليديّ الذي لا يخلو من فكرة العنف.

ـ العنف؟ من أين لك هذه الفكرة الخاطئة؟ إمّا أنّك سطحيّة في تحليلك وإمّا أنّك لم تحفظي درسك جيّداً.

أضاف مشهداً رفيقيه:

ـ ثمّ ماذا يثبت لنا أنّ هذه الرسالة غير مزيّفة؟

قال عزرا متردّداً:

ـ لكنّنا تعرّفنا إلى خطّ ابن برول...

هتف ناحية فارغاس:

ـ وأنت يا صديقي. لم نسمع صوتك فما رأيك في كلّ هذا؟

أجاب فارغاس بنبرة محايدة وكأنّه يتكلّم منشغلاً بأمر آخر:

ـ ليس تشابه الخطوط وحده الغريب ولكن هناك أيضاً هذه العبارة: *الحروف التي بها كانت السماء والأرض وكانت البحار والأنهار.* إنّها فقرة

من كتاب أخنوخ بالعبريّة. أخنوخ الذي مثّل كما تعلمان نقطة بداية هذه الرحلة. أليس الأمر مربِكاً؟

ـ هل يعني هذا أنّك تصدّق مزاعم هذه المرأة.

ـ بل لا أصدّق شيئاً ممّا قالت. وأضيف أنّي لم أسمع في حياتي حكاية أكثر تلفيقاً وضعفاً من هذه. وأنا لا أصدقّ أيّ حرفٍ منها ولا أيّ فاصلة.

ثمّ توجّه بالحديث إلى مانويلا:

ـ نسيتِ أن تخبرينا بالأهمّ أيّتها السيّدة. في أيّ ظروف عرفتِ ابن برول؟

ـ لم أعرفه يا فراي فارغاس. لقد لمحته من بعيد. هذا كلّ ما في الأمر. كان ذلك في طليلطلة في شهر أبريل وفي الثامن والعشرين منه تحديداً.

أغمضت مانويلا عينيها وقد تسارعت نبضات قلبها ودوّت في أذنيها تلك الكلمات الرهيبة: *انهض أيّها الربّ ودافع عن قضيّتك*. ثمّ عادت إلى ذاكرتها أصداء صوت الراهب وهو يقرأ لائحة العقوبات. لماذا أثار ابن برول انتباهها ذاك اليوم؟ لم تجد لذلك تفسيراً حتّى الآن. كلاّ. لم تنتبه إليه بسبب هدوئه كما ظنّت لحظَتها ولا بسبب السكينة المثيرة التي غلبت على ملامحه وهو يواجه الموت. كما لم يكن انتباهها إليه بسبب ما ظنّت أنّه تمتم به من كلمات. لقد جذبها إليه شيء آخر. ما هو؟ الصدفة؟ ذاك الجسر الذي يمتدّ فجأة على النهر الفاصل بين كائنين ما كان لشيء أن يجمع بينهما أبداً؟ حين وقعت عينا الشيخ عليها وأحدثت في نفسها ذلك الأثر البالغ لم تتصوّر أنّها هنا هذا المساء تحت غروب منطقة الجوف المرهق، ستعيش من جديد ذكرى شيخ طليطلة وقد أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من حاضرها. *ابن برول. من مواليد برغش. بائع لوحات زيتيّة. من سكّان طليطلة. تنصّر سنة ١٤٧٨ . . .*

فوجئت بأنها دون وعي قد فكّرت بصوت عالٍ وأعادت رواية أحداث ذلك اليوم البائس. جاهدت كي تكتم رعدتها وقد خشيت للحظة أن تكون قد فضحت نفسها أو ابتعدت عن تعليمات ميننداز وتوركيمادا. تنهّد صموئيل وسألها:

- لم أفهم يا سيّدة فيفيرو متى عهد إليك ابن برول برسالته؟

- بعد يوم من وفاته. طرق أحدهم باب بيتي وسلّمني علبة جلديّة تتضمّن النصوص التي ذكرتها لكم مع رسالة أستطيع أن أذكر لكم أهمّ ما جاء فيها، إذا أردتم.

- تفضّلي.

- تقول الرسالة بإيجاز: *سيّدة مانويلا. لن تصلك رسالتي هذه إلاّ وأنا في عالم غير عالم الأحياء. لقد تابعتك وراقبتك منذ أسابيع طويلة وأزعم أنّي أعرف الآن كلّ ما يعتمل في عقلك وكلّ ما ينتابك من مشاعر وأحاسيس. أعرف كيف تتكلّمين وكيف تتحرّكين. أعرف ضحكاتك على الرغم من ندرتها وأحزانك على الرغم من كثرتها. وقد حدث أن تقاطعت سبلنا وأنت تجوبين مدينتنا الحبيبة طليلطلة وتذرعين دروبها الملتوية أو وأنت تعبرين القنطرة في طريقك إلى جولاتك المعتادة على حصانك الجميل. أكرّر دون غرور أنّي أعرف كلّ خيط في نسيج عقلك لكنّي أزعم أيضاً أنّي لا أجهل عن روحك شيئاً. لقد حدّثتني صديقتنا المشتركة السيّدة آلبا عن عطشك للمعرفة وعن شغفك بالأدب عربيّا كان أو إسبانيّاً أو عبريّاً. لستِ مجبرة على قبول ما سأطلبه منك وليس في وسعي ولا في وسع أحد إجبارك عليه لكنّي ذكرت روحك منذ قليل. وكلّ ما أرجوه أن تجعلي روحك هي التي تقرأ كلماتي هذه.*

وإذا كنت قد توجّهت إليك أنت تحديداً فلأنّي قد وقعت عرضاً على رسالة من الرسائل التي دبّجها يراعك والتي كان عنوانها «في الاحتجاج

الكاثوليكي». لا أجد الكلمات لوصف إعجابي بجرأتك وجرأة أفكارك. أعرف أنّ هذه الرسالة هي الآن من النصوص المعدمة أو الممنوعة من طرف ديوان التفتيش. ولكنّي أعلم أيضاً ولاشكّ أنك تعلمين أنّه سيجيء يوم وتخرج إلى النور من جديد بعيدا عن الظلمات التي وارتها فيها قسوة البشر وعدم تسامحهم.

توقّفت مانويلا لحظةً فسألها فارغاس:

ـ وفيم تبحث هذه الرسالة؟

ـ لقد دافعت فيها عن نظرتي الخاصّة إلى التبشير. حاولت طرح السؤال: مهما كانت قضيّتنا سامية في نظرنا ومهما كان هدفنا نبيلاً وإيماننا قويّاً، فهل نملك الحقّ في إجبار الآخرين على اعتناق معتقداتنا؟

علّق عزرا ساخراً:

ـ يا له من سؤال مناسب لهذا السياق. وماذا عن بقيّة رسالة ابن برول؟

ـ ليس فيها غير معلومات عنكم وبعض الأفكار عن رحلتكم. كما حدّثني عن الدور الذي يطلب منّي أن ألعبه إذا قبلت المغامرة. كما وصفكم لي وصفاً دقيقاً خشية أن لا أتعرّف عليكم. مشيراً إلى المكان الذي يُفترض أن أجدكم فيه: دير الرابطة. أمّا عن التاريخ فقد كان تقريبيّاً إذ ترك لنفسه هامشاً للخطأ يتراوح بين يومين وأربعة أيّام. وذاك سبب موعدنا الخاطئ.

ـ أيّ موعد؟

ـ حين وصلتُ دير الرابطة أخبرني الأب خوان بيريز أنّكم غادرتموها فأرسلت العنان للفرس محاولة اللحاق بكم. ورأيت أن أقطع عليكم الطريق من ناحية الشمال آخذة طريق أراثينا لكنّي بعد عدّة فراسخ رجّحتُ أنّي لن أعثر عليكم وقرّرت التخلّي عن الرحلة. وكنت في طريقي إلى ولبة حين لمحتكم من بعيد.

لم يؤثر أحد من الثلاثة الكلام. خيّل إلى مانويلا أنّ صمتهم نذير سوء وأنّهم كانوا يرسمون في هواء الغروب ميزاناً خياليّاً. كانت تتابع تفكيرهم وتتخيّل أيّ كفّة ترجح من كفّتي الميزان وفقاً لميلانها ضدّها أو لصالحها. إلاّ أنّها كانت تشعر بالاطمئنان في قرارة نفسها فهي لم تكشف بعد عن ورقتها الأخيرة. الورقة الأكثر وقعاً. تولّى فارغاس المبادرة بالكلام بنبرة واثقة حاسمة.

ـ سيّدة فيفيرو. يؤسفني أن أقول لك إنّك فشلت في المحاولة. حكايتك مجرّد خرافة ملفّقة لا أثر فيها للصحّة. الشيء الوحيد الذي يدهشني فيها أنّي لا أعرف دوافعها. من الذي يختفي وراءك؟ من الذي يحرّكك؟ ولأجل أيّ غاية؟

صمت في انتظار سماع رأي رفيقيه فتكلّم ابن سراج.

ـ أخشى أنّ كلّ هذا خرافة حقّاً.

أضاف عزرا:

ـ كلّنا متّفقون. ما قلته يا سيّدة فيفيرو يفتقر إلى المنطق والانسجام.

قال فارغاس شارحاً الأمر لمانويلا:

ـ مشكلتك أيّتها السيّدة أنّك تتعاملين مع ثلاثة عقول أكثر مكراً بكثير من العقل المدبّر الذي يختفي وراءك. أعترف أنّ في ما ذكرته الكثير من العناصر المثيرة وأعترف أنّي كنت، بل لعلّنا كنّا ثلاثتنا، قاب قوسين من تصديقك. إلاّ أنّ من سوء حظّك أنّ الخطّة التي رُسِمَتْ ملامحها بكلّ هذه الدقّة والعناية لم تأخذ بعين الاعتبار عنصراً أساسيّاً: شخصيّة ابن برول نفسه، وأزعم أنّ هذا الرجل منقطع النظير في زماننا هذا من حيث الدقّة والعقلانيّة والصرامة.

أطلق ضحكة ساخرة قبل أن يضيف:

ـ فكيف يمكن لرجل مثل هذا، يرسلنا ـ تردّد كمن يبحث عن تدقيق

الكلمات ـ يرسلنا لإنجاز مهمّة شديدة الأهميّة ويزرع طريقنا بالإشارات والرموز والألغاز والمفاتيح بتفصيل وتدقيق وضبط يشبه الإعجاز، متوقّعاً كلّ خطوة من خطواتنا بل متنبّئاً بكلّ ردّ فعل من أفعالنا. . . كيف يمكن لرجل مثل هذا أن يعمد فجأة إلى وضع ما سمّيته بالمفتاح الأخير بين يدي طرف آخر، والحال أنّ هذا المفتاح لو ضاع لضاعت معه الرحلة كلّها ولفشلت المهمّة فشلاً لا قيام بعده؟ كيف يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يحدّد مسبقاً وبالضبط والصرامة والدقّة التي عُرِفَ بها، اليوم والساعة واللحظة التي سيلتقي فيها جميع الأطراف؟ ألا ترين أيّتها السيّدة كم أنّ هذا غير منطقيّ؟ مهما كانت عبقريّة ابن برول فإنّ هناك عنصراً لم يكن في وسعه تحديده: عنصر الزمن الذي يستغرقه فكّ شفرة القصر الأوّل من طرف عزرا وابن سراج. القصر الذي يمكّنهما من الوصول إليّ. كان في وسعهما أن يفعلا ذلك في أربع وعشرين ساعة وهو ما فعلاه، كما كان في وسعهما أن يقضيا في ذلك أربعة وعشرين يوماً. وفي هذه الحال ما كنت لتعثري علينا لا في الرابطة ولا في أيّ مكان. فهل يُعقل أن يرهن ابن برول مسألة بهذه الأهميّة على موعد افتراضيّ قد ينهار بسببه كلّ شيء؟ هل تتصوّرين أنّ صديقنا يقوم بمخاطرة غير مأمونة العواقب مثل هذه؟

وضع الفرانسيسكانيّ وجهه بين يديه في هيئة أسف.

ـ هذا مستحيل أيّتها السيّدة. لكنّي أعترف بأنّك موهوبة فعلاً وأنّك وفقاً لحديثك تملكين ثقافة غريبة عن بنات جنسك. وبالمناسبة. . . تزعمين أنّك مؤلّفة رسالة أثارت غضب ديوان التفتيش فهل تشرحين لنا بأيّ معجزة أنت خارج القضبان حتّى الآن؟

ـ ليس في الأمر معجزة فقد تمّ القبض عليّ فعلاً وتمّ التحقيق معي لكنّي نجوت من الحرق. هذا كلّ ما في الأمر.

بدت على ملامح فارغاس علامات الريبة والاستخفاف. كان واضحاً

أنه لم يقتنع بشيء ممّا ذكرته. كانت الشمس قد اختفت خلف قمم الجبال ولن يلبث الليل أن يرخي سدوله على السهل. قال عزرا:

ـ خطر لي الآن سؤال هامّ. البارحة حاول بعضهم قتلنا بإضرام النار في مكتبة الدير بعد حبْسِنا داخلها. هل يكون لك أو لمن يقف وراءك ضلع في هذه الجريمة؟

لأوّل مرّة بدا الانزعاج على ملامح المرأة.

ـ معاذ الربّ. أنتم تزعمون أنّي مكلّفة بمهمّة لا أدري من أين طلعتم بها فهل يعقل أن أبذل كلّ هذا الجهد من تزوير وثائق وتأليف قصّة مثل هذه كي أحاول في الوقت نفسه أن أتخلّص منكم؟ هذا غير معقول.

بدا أنّ الملاحظة أصابت هدفها لكنّ عزرا واصل قائلاً:

ـ ومع ذلك هناك أمر آخر يثير التساؤل. قبل فترة تمّت سرقة نسخة من القصور من طرف خادم الشيخ ونحن لا نعرف إن كانت هذه النسخة قد وقعت بين يدي طرف ثالث.

أثبت عينيه في عيني المرأة وكأنّه يريد سبر أغوارها:

ـ ألا يكون هذا الطرف الثالث هو الذي يقف وراء الخطّة التي كُلِّفتِ بتنفيذها؟

بدأت العتمة تخفي ملامح الوجوه وتحوّلت الأجسام إلى مجرّد أطياف مخفية التعابير والمعالم. بدا العربيّ بجسمه الضخم وعنقه المحشور بين كتفيه ورأسه المغطّى بقلنسوة برنسه أشبه بالثور الخدِر. أمّا الرِبّي بظهره المنحني فكان يدلك أصابعه شبيهاً بوعل جريح. وأمّا الراهب فقد ظلّ متصلّباً منغلقاً على نفسه داخل مسوحه وكأنّه داخل صومعة. كانت كلماته قد صبّت الثلج في أعماق مانويلا ولم يعد لها بدّ من اللعب بورقتها الأخيرة. قالت محاولة التكلّم بصوت هادئ:

ـ حسناً. لم يبق لي إلاّ أن أثبت لكم بالدليل القاطع كم أنّ شكوككم بلا أساس وكم أنكم على خطأ في حقّي.

أظهرت من خرجها ورقة أخرى.

ـ لا شكّ أنّ ابن برول يعرفكم جيّداً فقد توقّع ريبتكم لذلك أعطاني القصر الثالث لإثبات صدقي. إنّه القصر الثالث كاملاً. أكرّر: إنّه كامل. أي أنّه مصحوب بحلّه وكلّه بخطّ ابن برول. تستطيعون التثبّت من ذلك.

أشهرت الورقة في وجوههم فأخذوا ينظرون إليها بذهول شديد وقد واجهتهم بالصفحة المكتوبة. انتزع فارغاس الورقة من يدها بحركة متوتّرة وأخذ ينظر فيها والتحق به عزرا وابن سراج وأخذوا يتفحّصونها من على كتفه. ما أن فرغوا من قراءتها حتّى حلّت ملامح الأسف محلّ ملامح الارتياب. هتف بها ابن سراج:

ـ تحدّثتِ عن الحلّ فأين هو؟ لا أرى إلاّ كلمة مشطوبة أسفل الصفحة لا يمكن قراءتها.

ـ إنّها الكلمة التي تتضمّن اسم المدينة المقصودة وقد شطبتها بنفسي.

ـ شطبتِها؟ لماذا؟

ـ كي أترك لكم الخيار. أنا أعرف هذه الكلمة. ابن برول ذكر ثمانية قصور وأنا أملك حلّ القصر الثالث وعليكم اصطحابي إلى هناك كي تتأكّدوا من صحّة كلامي. بعد ذلك ـ هزّت كتفيها في حركة لا مبالاة ـ أنتم أحرار في قبولي معكم حتّى نهاية الرحلة أو ردّي على عقبيّ.

خيّل إلى الرجال الثلاثة أنّ السماء وقعت على رؤوسهم ومرّت لحظات طويلة من الصمت قبل أن يهمس عزرا:

ـ تأخّر الوقت ولعلّ الليل يسعفنا بنصيحة. ابقي هذه الليلة أيّتها السيّدة وغداً ننظر في الأمر.

ـ كما تريدون. سأبحث عن شيء أفترشه.

أضافت بنبرة واثقة:

ـ لو تلطّف أحدكم بإيقاد نار لكنت له شاكرة. أشعر بالبرد.

الفصل ١٤

يتميّز الذكاء بالقدرة اللامحدودة على التفكيك
وفق كلّ قانون، وعلى التركيب وفق كلّ نظام.
(برغسون)

لاشكّ أنّها مجنونة هكذا حدّثت مانويلا نفسها. في أيّ مغامرة دخلت وفي أيّ متاهة قبلت أن تخاطر بنفسها؟ ولماذ فعلت ذلك؟ بدافع الصداقة وتعبيراً للملكة عن امتنانها لما فعلته من أجل أخيها أم بدافع الواجب؟ أم رغبة في رفع التحدّي وعشقاً لأرضها الإسبانيّة؟ أم أنّها لم تخض هذه المغامرة إلاّ هرباً من حياتها الباهتة المفتوحة على العقم؟ لعلّ لكلّ هذه الأسباب مجتمعةً نصيباً في دفعها إلى قبول ما عرضته عليها إيزابيل باقتراح من المفتّش العامّ.

أحكمت الالتفاف بغطائها الصوفيّ وأبقت عينيها مفتوحتين للإحساس أكثر بوحدتها المطلقة. حدست من حولها بآخر محاولات الليل لمقاومة طلائع النهار وأيقنت أنّ الشمس ستسترجع قريباً سيادتها على جبال مورينا. الغريب أنّها لم تشعر بالخوف ولا بالشكّ لا الآن وهي غير واثقة من قرار الرجال الثلاثة، ولا البارحة وهي تحاول جاهدةً إقناعهم بحكايتها. والأغرب أنّ تحسّب اللحظات الأولى ترك مكانه في نفسها لإحساس بالسكينة شبيه بذاك الذي يعرفه الممثّلون بعد كلماتهم الأولى. كيف تفسّر ذلك؟ لم يهيّئها شيء في حياتها حتّى اليوم لمواجهة امتحان مثل هذا. عاشت طفولة هادئة محميّة من كلّ شيء ونشأت في طمأنينة بيوت لا

يحدث بين جدرانها شيء غير مُتوقّع. لم تر من العالم حتّى اليوم إلاّ وجهاً واحداً باستثناء الوجوه الأخرى التي كانت تحدس بها من خلال قراءاتها. فمن أين جاءتها هذه الحماسة أمام وضع خطر مثل هذا الذي وضعت نفسها فيه؟ لعلّها تشعر لأوّل مرّة بأنّها حيّة حقّاً.

بلغتها أصداء حركة على مقربة منها وفهمت أنّ الرجال يتهامسون. لقد لعبت كلّ أوراقها وعليها الآن أن ترضى بالنتيجة. إمّا أنّها أفلحت في زرع الشكّ في نفوسهم وعندئذ سيضطرّون إلى منحها فرصة وإمّا أنّها لم تفلح وعندئذ سيصرّون على موقفهم. وعليها آنذاك أن تخبر بفشلها مراقبي ديوان التفتيش السبعة الذين كلّفهم توركيمادا باقتفاء أثرها وحمايتها وملازمتها مثل ظلّها. كانوا سبعةً مدجّجين بالسلاح يقودهم شخص ذو ملامح طير جارح يُدعى غارثيا ميندوزا، لا شكّ أنّه الآن قابع في مكان غير بعيد في انتظار أيّ إشارة منها للانقضاض على المغامرين الثلاثة.

البارحة حاول بعضهم قتلنا بإضرام النار في مكتبة الدير بعد حبْسِنا داخلها. هل يكون لك أو لمن يقف وراءك ضلع في هذه الجريمة؟

لقد شهدت هي وحرّاسها السبعة اشتعال الحريق في المكتبة دون أن يمكنهم فعل شيء. هم أيضاً تساءلوا إن كان الحريق بسبب حادث عارض أم بفعل فاعل؟ وإذا صحّ أنّ وراءه يداً مجهولة فقد يكون لذلك عواقب وخيمة. وإذا كان هناك آخرون يقتفون أثر الرجال الثلاثة فقد يطاح في أيّ لحظة بخطّة المفتّش العامّ.

وجدت نفسها تستعرض الانطباعات التي رسخت في نفسها تجاه الرجال الثلاثة. الربّي. شخصيّة غريبة. . .ربّما بسبب كبره في السنّ وربّما بسبب مرضه أو بسبب هيئته التي توحي بأنّه معذّب دائم. ولكنّها تعترف بأنّ شيئاً وديّاً ينبعث منه. أمّا العربيّ. . .فهو مجبول من كتلة واحدة ولا شكّ أنّه ينتمي إلى ذلك النوع من البشر الذين لا يعرفون اللفّ ولا

الدوران. لكنّ الفرانسيسكانيّ هو الذي يثير فضولها أكثر. ما دوره في هذه القضيّة؟ أليس ابن الكنيسة؟ أليس إسبانيّاً خالصاً ومن المحظوظين مثلها بشرف الانتماء إلى الكاثوليكيّة؟ وعلى الرغم من ذلك فهو الذي بدا أكثر الثلاثة رفضاً لمانويلا وهو أوّل من تصدّى لتفنيد روايتها وبكلّ سخرية. لو كان يعمل مثلها من أجل الهدف نفسه ولو كان يرمي إلى كشف القناع عن هذه المؤامرة لظلّ صامتاً أو لبدا أقلّ حدّة في مواجهتها. كلاّ. التفسير الوحيد لتصرّفه أنّه أخطر الثلاثة وأشدّهم إصراراً على إنجاز ما عزموا عليه.

فجأةً انتبهت إلى أنّ أصداء الهمس لم تعد تصلها وأنّ الصمت خيّم على المكان من جديد. غامرت بالنهوض ببطء وأرسلت النظر في اتّجاه الجماعة. كان العربيّ راكعاً على سجّادة حافي القدمين ووجهه إلى القبلة بينما وقف الربّي على يمينه ملتفتا ناحية أورشليم وقد غطّى رأسه بطاقيّة ووضع على كتفيه شالاً من الحرير الأبيض وأحاط جبينه وذراعيه بحليّ غريبة من مربّعات الجلد الأسود مربوطة بسيور سوداء هي أيضاً. أمّا فراي فارغاس فكان جاثياً بين الرجلين يفرك حبّات مسبحته متمتماً بصوت خافت.

هل جنّ هؤلاء الرجال الثلاثة؟

تمطّى الأفق في البعيد منفّضاً عنه بقايا الليل مرتعشاً تحت دفعات النهار الوليد بينما جرحت الذرى الخطّ الأحمر الذي ارتسم على صفحة السماء باعثاً نوره الخافت على جبين الجبل. طالت صلاة الرجال الثلاثة حتّى تلاشت آخر الظلال وأطلّت الشمس بوجهها كاملا. كان ابن سراج أوّل المقتربين من مانويلا.

ـ هيّا نحن راحلون.

ارتجفت ودمدم قلبها في صدرها.

ـ وحدكم؟

ـ قلتُ نحن. هيّا اجمعي أغراضك.

أشاحت بوجهها.

ـ اسمع يا شيخ ابن سراج، عليك أن تحتفظ بهذه النبرة الآمرة لزوجاتك.

لم تسمح له بفرصة للردّ وهتفت ناحية الراهب الذي كان قد اقترب من الجياد.

ـ فراي فارغاس ألا تشرح لي الأمر؟

ـ ألم تفهمي كلام الشيخ؟ سنأخذك معنا.

ـ هذه نتيجة وليست شرحاً.

ندّت عن الراهب حركة تبرّم.

ـ ألا تكفّين عن التظاهر بالبلاهة؟ أنت تعرفين جيّداً أنّنا مضطرّون إلى اصطحابك معنا. لو كانت النسبة واحدا من ألف ألف أنّك قلت الحقيقة وأنّ ابن برول عهد إليك حقّاً بمفتاح الباب الأخير فهذا يعني أنّه حكم علينا بتحمّلك في هذه الرحلة.

أثبت فيها عينيه بمرارة.

ـ إذا كان لديك بعض العلم بلعبة الشطرنج فإنّ هذه الوضعيّة تسمّى الشوط النهائيّ.

ـ وماذا تعني؟

ـ تعني أنّ الملك لا يستطيع التحرّك على الرقعة دون أن يُؤخذ. هل يكفيك هذا الشرح؟

ـ سأكتفي به يا فراي فارغاس.

كانت تهمّ بالاستدارة حين أضاف مهدّداً:

ـ لكنّي أحذّرك على الرغم من ذلك. في مثل حالتنا هذه قد تكونين أنت الملك. لقد زعمت أنّ ابن برول أسرّ إليك بحلّ القصر الثالث والأفضل لك أنّ يكون زعمك صحيحاً.

لم تُبدِ أيّ اكتراث للأمر.

ـ سنرى ذلك يا فراي فارغاس. أليس الغيب في علم الربّ؟

فيما هي تتكلّم رفعت يدها بحركة طبيعيّة وحلّت شعرها الفاحم فجأة فانهال متموّجاً على رقبتها وكتفيها. قطّب الراهب جبينه وقد أربكه هذا التصرّف الغريب وحدجها بنظرة فاحصة ثمّ تركها واتّجه ناحية جواده. ألقت مانويلا نظرة على الأنحاء مجاهدة كي لا يبدو عليها أيّ اضطراب. لم تر شيئاً لكنّها كانت واثقة من أنّ حرّاسها هناك. كان حلّ الشعر العلامة المتّفق عليها لإخبارهم بأنّ الأمور تجري وفق الخطّة التي رسمها ميننداز. انتظرت لحظات واقفة في مكانها كي لا تخطئها العين ثمّ اتّجهت بدورها ناحية حصانها. الآن عليها هي أن تلعب دورها بإتقان فالمهمّة في بدايتها وكلّما أسرعت بالاطّلاع على ما يخطّط له هؤلاء الأشخاص كلّما أمكن الإلقاء بهم في المكان المناسب لمثلهم: غياهب السجون.

*

لم تسطع الشمس بمثل هذا التوهّج قبل اليوم. امتدّ السهل الشاسع أمام أعينهم إلى ما لانهاية مجعّداً ببعض النباتات الشوكيّة والحرجيّات المتناثرة هناك وهناك بينما ظهرت على اليمين ملامح تكاد لا تراها العين لإحدى الطواحين مثل لطخة تائهة في ضوء الشمس. تناول عزرا القربة المصنوعة من جلد الماعز التي كانت متدليّة على يمين سرجه وعرضها على المرأة التي كانت تقود حصانها إلى جانبه. أخذتها بلهفة وعبّت منها طويلاً ثمّ أرجعتها إليه.

ـ أشكرك جزيل الشكر. تبدو لي الأكثر كياسة بالمقارنة مع هذين.

ـ أوه. . . لا فضل لي في ذلك. إنّه العمر يا سيّدة. في مثل عمري نتعلّم تدوير الزوايا. وما يبدو للبعض حكمة هو في الحقيقة تعب وإرهاق.

ابتسمت وقالت بأكثر ما استطاعت إسباغه على نبرتها من عفويّة:

ـ هذا الصباح سمحتم لي باصطحابكم دون أن تقولوا لي شيئاً عن وجهتكم. هل أستطيع معرفتها؟

ـ لا أرى مانعاً في ذلك. نحن نقصد شريش.

ـ أفترض أنّكم لم تختاروا هذه الوجهة إلاّ بعد أن فككتم شفرة ما سمّاه ابن برول القصر الأوّل الفرعيّ.

ـ هو ذاك.

صمتت لحظات ثمّ قالت بصوت محايد:

ـ كلّ هذه الألغاز والطلاسم للإشارة إلى اسم مدينة. . .

رماها عزرا بابتسامة ملغزة ثمّ تشاغل بالطريق. كان واضحاً أنّها لن تنتزع منه شيئاً آخر لذلك رأت أنّ من حسن الحيطة تغيير الموضوع.

ـ رأيتك أثناء الصلاة. إلى ماذا ترمز تلك المربّعات الجلديّة السوداء المربوطة حول جبينك وذراعيك؟

ـ هل يهمّك هذا حقّاً؟

ـ طبعاً.

ـ إنّها التفيلِلين. ***وستلصق كلمات الربّ كالعلامات على يدك وستضعها كالحلية بين عينيك***. كلّ مربّع من تلك المربّعات يتضمّن الفقرات الأربع من التوراة التي تتحدّث عنه.

ـ وهل عليك أن تضعها كلّما أردت الصلاة؟

ـ هو ذاك. ما أن نصل سنّ البلوغ كما ضبطها الدين حتّى يتوجّب علينا أن نضع التيفللين بانتظام كلّ الأيّام باستثناء السبت، قبل صلاة

الصبح. والمفروض أن نضعه طيلة اليوم لكنّنا نعيش أيّاماً صعبة والحيطة تتطلّب شيئاً آخر.

- أعترف أنّي لا أفهم الرمز.

ابتسم مشفقاً:

- وكيف لك ذلك؟ ألست مسيحيّة؟

- أنا إسبانيّة قبل كلّ شيء يا ربّي.

أطلقت ردّها بنبرة كبرياء مقصودة وكأنّها تطلق تحدّياً.

- إذن فاعلمي أنّ التيفلّين علامة على أنّ الإنسان يتوجّه بقلبه وأفكاره وإرادته نحو الإله راغباً في الخضوع المطلق. ومن ثمّ حملها على الذراع اليسرى، جهة القلب، وعلى الجبين. ثمّ أنّ المدراش...

- المدراش؟

ندّت عن الربّي ضحكة خفيفة.

- نسيت جهل النصارى المطبق. المدراش هو الشرح الربّاني للتوراة وهدفه توضيح بعض الأمور التشريعيّة أو تقديم بعض المواعظ عن طريق حكايات أو استعارات أو أساطير.

- هل هو تأويل للشريعة؟

- تستطيعين قول ذلك فالشريعة مكثّفة ومجازيّة في الغالب. وقد حرص الأسلاف على الذهاب إلى أبعد من المعاني المباشرة للنصوص كي يستخرجوا جوهرها ومعانيها الخفيّة الضمنيّة. والحقّ أنّ المدراش ليس واحداً بل ثلاثة القديم والأوسط والجديد. لكن لا تطلبي منّي أن أشرح لك ذلك بتعمّق فالأمر يطول ويثير السأم. بالإضافة إلى أنّ المدراش انضاف إليه المشناه أو الشريعة الشفويّة إذا أردت عبارة أكثر بساطة.

سألت مانويلا وقد بدا عليها الاستغراب:

ـ الشريعة الشفويّة؟ هل تعني أنّها شريعة تمّ تلقّيها من الربّ شفويّاً؟

ـ جاء في سفرِ لاويّين: ***هذه هيَ الفَرائِضُ والأحكَامُ والشَرائِعُ التي وَضَعَهَا الرَبُّ بَيْنَهُ وبَيْنَ بَنِي إسْرَائِيلَ في جَبَلِ سِيناءَ بِيَدِ مُوسَى.*** هذا يعني أنّ الربّ أعطى عباده توراتين إحداهما مكتوبة والأخرى شفويّة. فلا ننسى أنّ موسى كليم الله وأنّ التوراة الشفويّة كانت شرحاً للتوراة المكتوبة. وهذا يعني أنّ التوراة المكتوبة لا تكتفي بنفسها. أعطيك مثالاً. لنأخذ مثلاً هذه العبارة التي كثيراً ما استعملت ضدّنا: ***كَسْرٌ بِكَسْرٍ وعَيْنٌ بِعَيْنٍ وسِنٌّ بِسِنٍّ. كما أَحْدَثَ عَيباً في الإنسَانِ كَذلِكَ يُحْدَثُ فِيه.*** هذه هي الشريعة المكتوبة أمّا الشريعة الشفويّة فهي تعلّمنا أنّ هذه الكلمات يجب أن لا تُفهم وفق دلالتها السطحيّة. فنحن لا نملك وسائل لنعرف إن كانت نتائج فقدان عين بالنسبة إلى إنسان معيّن توافق نتائج فقدان تلك العين بالنسبة إلى إنسان آخر. لذلك فعلينا أن نؤوّل النصّ على أساس أنّه يلمّح إلى تعويض ماليّ: قيمة عين مقابل فقدان عين. على المتسبّب في الضرر أن يدفع تعويضاً مقابل الضرر الذي تسبّب فيه. الحالة الوحيدة التي يُطبَّقُ فيها قانون العين بالعين هي جريمة القتل لأنّها الوحيدة التي لا يمكن فيها القصاص إلاّ بعمل من نفس النوع. هل فهمت كلامي يا سيّدة؟

همّت بالردّ لكنّ فارغاس سبقها.

ـ لا أظنّك تفاجئين لو قلت لك أنّي أفضّل تعاليم المسيح في هذا المجال.

أرخى لجام جواده بحركة خفيفة حتّى التحق بهما ثمّ أضاف:

ـ هو على الأقلّ كان واضحاً تماماً حين قال: ***سَمِعْتُمْ أنَّهُ قِيلَ عَيْنٌ بِعَيْنٍ وسِنٌّ بِسِنٍّ. وأمَّا أنا فأقولُ لَكُمْ لا تُقَاوِمُوا الشرَّ. بَلْ مَنْ لَطَمَكَ على خَدِّكَ الأيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أيْضاً. ومَنْ أرَادَ أنْ يُخَاصِمَكَ ويأخُذَ ثَوْبَكَ فاتْرُكْ لَهُ الرِداءَ أيْضاً. ومَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً واحِداً فاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. مَنْ***

سَأَلَكَ فاعْطِهِ. ومَنْ أرادَ أنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فلا تَرُدَّهُ. أليس هذا هو كلام الحبّ والكرم؟ لا أظنّ أنّ في وسع أحد إنكار تفوّق المسيحيّة على اليهوديّة في هذا: الحبّ والكرم والتسامح أيضاً.

قاد الرِبّي جواده حتّى سبق الراهب ثمّ اعترض طريقه لمنعه من التقدّم.

ـ الحبّ والكرم؟

ـ طبعاً. إنّ في حياة المسيح نفسها دليلا على ذلك وعليك الاعتراف بأنّ تعاليمه أكثر سخاء من تلك التي يحفل بها العهد القديم.

قالت مانويلا:

ـ أنت على حقّ يا فراي فارغاس ولعلّك نسيت ذكر الكثير. خذ مثلاً قوله: ***أَنْتُمْ نُورُ العَالَم. لاَ يُمْكِنُ أنْ تَخفَى مدِينَةٌ موْضُوعَةٌ على جَبَلٍ. ولاَ يُوقِدُونَ سِرَاجاً ويَضعُونَهُ تَحْتَ المِكْيَالِ بَلْ عَلَى المَنَارَةِ فيُضِيءُ لِجَمِيعِ مَنْ في البَيْتِ. فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكذا قُدَّامَ الناسِ لِكَيْ يَرَوْا أعْمَالَكُمْ الحَسَنَةَ ويُمَجِّدُوا أبَاكُمُ الذي في السَمَاواتِ.*** أو قوله: ***أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إلى مُبْغِضِيكُمْ. وصَلُّوا لأجْلِ الذينَ يُسيئونَ إليكم ويَطْرُدونَكُمْ. لِكَيْ تكونُوا أبناءَ أبِيكُم الذي في السَماوات. فإنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ على الأشْرَارِ والصَالِحِينَ ويَمْطُرُ على الأبْرَارِ والظالِمِينَ. لأنَّهُ إنْ أحْبَبْتُم الذين يُحِبّونَكُمْ فأيُّ أجْرٍ لَكُمْ.*** أو قوله: ***مَنْ كانَ مِنكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أوّلاً بِحَجَرٍ.***

اربدّ وجه عزرا بشكل مخيف وامتقع لونه وارتفعت يده فجأة في هيئة مسرحيّة مقصودة موجّهاً قبضته في اتّجاه السماء صارخاً بأعلى صوته:

ـ هل تسمع يا أخ توركيمادا؟ وأنتم أيّها الإخوة المفتّشون؟ أنتم نور العالم. أنتم الحبّ والكرم. الموت لقانون العين بالعين والمجد لكم يا فراي توركيمادا ولأتباعكم. المجد والحياة لكم.

أضاف لاهثاً تكاد أنفاسه تنقطع:

- لقد اقترفتم أبشع خيانة وأكثرها كفراً في تاريخ البشريّة. كان لديكم نبيّ، كان لديكم مسيح... فماذا فعلتم بتعاليمه؟ لقد غفر للبغيّ فرجمتموها وأفضى لمومس ببشارة قيامه الذي هو أساس معتقدكم فلم تُظهروا غير الاستخفاف بالمرأة هذا إذا لم تطعموها للمخارق. لقد دخل أورشليم على جحش وأتان بكلّ تواضع فانظروا إلى هذا الذهب وإلى هذه الكنوز والأبّهة التي يتبجّح بها ورثاؤه.

أصبح صوته متهدّجاً يكاد لا يبين.

- لنفترض جدلاً أنّك على حقّ يا فراي فارغاس. لنفترض جدلاً أنّنا ننتمي نحن اليهود إلى دين همجيّ متزمّت وغير متسامح. حسناً. لدينا على الأقلّ عذر في ذلك: نحن مازلنا في انتظار مَسِيّاً، مسيحنا المخلّص... أمّا أنتم فقد رأيتموه لحماً وعظماً. بل إنّ قدّيسكم توما لمسه بعد عودته. وقد مات من أجل مسح آثام البشريّة فقل لي ماذا فعلتم به؟ ماذا فعلتم به يا فراي فارغاس؟

لوى عنق حصانه بحركة جافّة ولكزه مطلقاً له العنان متجاوزاً ابن سراج متقدّماً إلى الأمام لا يلوي على شيء.

- جنّ الربّي لا شكّ.

نطق فارغاس بهذه الكلمات وقد أذهله ردّ فعل الربّي لكنّ مانويلا حدجته بنظرة قاسية قائلة بجفاف:

- كان عليك أن تعرف أنّ في وسع التواضع أن يفتح أبواب الفردوس لكنّ في وسع الإهانة أن تفتح أبواب الجحيم.

ثمّ أرخت العنان لجوادها ملتحقة بالربّي. قال ابن سراج مستديرا فوق حصانه ناحية الراهب:

- أقلّ ما يمكن أن يقال إنّ صديقنا اليهوديّ شديد الحساسيّة.

ذهب الاضطراب بفارغاس كلّ مذهب ولم يدر بماذا يجيب فلاذ بالصمت محدّقاً في الأفق البعيد، إلاّ أنّ ابن سراج أعاد الكرّة مكشّراً عن بسمة مفتعلة:

ـ أتخيّل أنّ الإسلام أيضاً لا يساوي في عينيك السير الذي تربط به نعليك.

ـ ما أبعدني عن مثل هذا التفكير، وإذا صدر منّي ما جعلك تفهم هذا فاعلم أنّي آسف كلّ الأسف.

ـ على أيّ حال ومهما كان رأينا في هؤلاء اليهود وعلى الرغم من أنّي لست من مريديهم، فلابدّ من الاعتراف لهم بأمر على الأقلّ: أنّهم لم يحملوا السيف باسم أبراهام أو أدوناي لإجبار أيّ كان على التهوّد أو من أجل إدخال الآخرين في دينهم، الأمر الذي لا أظنّ الصليبيّين أو فرسان الربّ قادرين على ادّعائه.

ظلّ الفرانسيسكانيّ لائذاً بالصمت وقد تاهت أفكاره على امتداد الطريق المتأرجحة على الهضبة المخدوشة خلف طيف مانويلا التي كانت تقود جوادها بمحاذاة عزرا. لم ينطق بكلمة إلاّ بعد مسافة طويلة حين لاحت عن بعد لطخة بيضاء مثل ندفة ثلج موضوعة على أولى مرتفعات جبال مورينا. حينئذ قال بصوت خافت:

ـ شريش.

*

طليطلة، اللحظة نفسها.

قال تالافيرا بلهجة آمرة:

ـ تفضّل بالدخول سينور دياز.

دار الباب على محوره محدثاً صريراً ملأ الحجرة وأطلّ على العتبة رجل في الأربعين متوتّر الهيئة.

- اقترب واجلس.

لبّى الزائر الأمر. كان شيء غريب ينبعث منه وخاصّة من عينيه. كانتا في زرقة الجليد وكانت زرقتهما تعطي انطباعاً بأنّه أعمى. قال بصوت يكاد لا يبين:

- كلّ شيء يسير على ما يرام. عثر عليهم رجالنا وأعتقد أنّهم الآن على مقربة من شريش.

بدت على وجه معرّف الملكة ملامح الارتياح.

- إذن فقد كان الأب ألفاريز صادقاً في كلامه.

قطّب الرجل حاجبيه وكأنّه يوتّر قوسين.

- وهل كان لدى حضرتك شكّ في ذلك؟

- طبعاً. المكر طبعٌ لدى البعض وأعتقد أنّ فراي ألفاريز من هؤلاء. إنّه كالحرباء شأنه في ذلك شأن السيّد المفتّش العامّ. أعرف أنّه قادر على خدمة الربّ والدولة ثمّ الدولة ومصالحه الخاصّة ثمّ الربّ من جديد. لذلك حرصت على إرسالك في إثر هؤلاء الرجال وها أنت تقوم بالمهمّة أحسن قيام. عليك الآن أن لا تغفل عنهم لحظة.

- تستطيع الاعتماد عليّ فراي تالافيرا وإن كانت المهمّة صعبة فأعوان المفتّش العامّ يراقبونهم أيضاً ويتابعونهم متابعة الظلّ وأخشى لو أنّنا اقتربنا أكثر أن يتفطّن إلينا أولئك أو هؤلاء.

- أنا على ثقة من نجاحكم.

استغرق في أفكاره للحظة ثمّ سأل من جديد:

- والمرأة... هل هي معهم حتّى الآن؟

أومأ دياز بالإيجاب فاستعاد تالافيرا في ذهنه صورة مانويلا فيفيرو وهي جالسة إلى جانبه يوم المحرقة في ساحة سوق الغبار. لم يتخيّل قطّ بالنظر إلى أصولها ووسطها العائليّ وكونها امرأة أن تفلح في فرض نفسها على هؤلاء الرجال الثلاثة. حقّاً إنّه إنجاز جدير بالإعجاب. تنحنح دياز فخرج تالافيرا من تأمّلاته وقال محدّقاً في مخاطبه:

ـ يبدو أنّ عليّ الذهاب إلى سلمنقة في مهمّة بتكليف من جلالة الملكة. سأعلمك في الإبّان بالعنوان الذي يمكنك الاتّصال بي فيه لمدّي بالأخبار أوّلاً بأوّل. هل اتفقنا؟

ـ تماماً. عليّ أن أرحل الآن فالطريق طويلة حتّى شريش.

أذن تالافيرا للرجل بالانسحاب وما أن خلا إلى نفسه حتّى نهض من مكانه وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً وقد مال ظهره إلى الانحناء واكتسى وجهه مع ضوء الصباح الوليد مسحة من الشمع ضاعفت من نحافة تقاطيعه. مرّ وجه توركيمادا كالشهاب في مخيّلته ودون قصد انكمشت أصابع قبضتيه. توركيمادا وجنونه. توركيمادا وبلاغته الفارغة. توركيمادا ومبالغاته في كلّ شيء. رجل افترسه الطموح والنهم وأصبحت الرغبة في تخليد اسمه في كتاب إسبانيا الذهبي أيّا كان الثمن تجثم عليه كالهلواس. ولو اقتصر الأمر على هذا لهان لكنّ أكثر ما يزعج تالافيرا وما لم يعد قادرا على تحمّله التأثير المتزايد الذي أصبح للمفتّش العامّ على الملكة. بات من المستعجل وضع حدّ لهذا الأمر ولعلّ هذه المؤامرة المزعومة أفضل فرصة لذلك. لو اتّضح أنّ هؤلاء الرجال أبرياء وهو ما يرجّحه تالافيرا في قرارة نفسه لتحوّل المفتّش العامّ إلى أضحوكة أمام الجميع. إمّا إذا اتّضح أنّهم مذنبون ففي نيّة تالافيرا أن يسبق المفتّش العامّ وأن يغنم المكسب قبله. وفي الحالين فإنّ معرّف الملكة يلعب من أجل الربح. إنّها مسألة وقت ليس إلاّ.

*

لاح قصر الهيكليّين في طرف القرية ملوّحاً بظلال أبراجه الرماديّة في اتّجاه كنيسة شنتمريّة المقامة شرق الهضاب. هنا وهناك بدا رجال مسلّحون يذرعون مسلك الحراسة وخلفهم رفرفت في الهواء راية ذات ألوان صارخة بينما ظهر إلى تحت بمسافة قصيرة مضيق صغير مثل جسر يربط بين هضبتين مخضرّتين. وعلى قمّة إحداهما بدت المدينة ذات الأبواب الستّة باسطة إلى الشمس مرآة بيوتها البيضاء وأجراسها التي كانت تحاول خدش السماء بحافاتها المثلّمة. سأل ابن سراج ملتفتاً فوق السرج ناحية رفاقه:

- ما رأيكم؟ لم يتحدّث ابن برول عن قصر بل عن برج. تذكّروا قوله: **في طرف المدينة، في قلب سهل شِنْعَارَ يقوم المبنى الدامي**. وهذا لا يعني في نظري إلاّ أحد هذه الأبراج الستّة، فأيّها في نظركم **المبنى الدامي**؟

أجابه فارغاس:

- لا أرى وسيلة لمعرفة ذلك غير السؤال. انتظروني هنا.

أطلق العنان لحصانه في اتّجاه مدخل القصر وهناك دنا من أحد أفراد دوريّة الحراسة وانخرط معه في حوار سرعان ما شاركهما فيه حارس آخر كان واقفاً تحت قبّة البوّابة. أخيراً شكر الراهب الرجلين بانحناءة من رأسه ثمّ أدار جواده ناحية رفاقه وأشار إليهم بالتحرّك. كان ابن سراج أوّل من التحق به فسأله متلهّفاً:

- والآن؟

- لم يكن الأمر سهلاً فالقصر يشرف عليه قضاة الناحية هذه الأيّام وهو وضع استثنائيّ في انتظار انتقال ملكيّته إلى كونت الجهة الذي يتوقّعون وصوله الليلة. إلاّ أنّي استطعتُ إقناعهم بالتكرّم علينا والسماح لنا بزيارة الأبراج، وأحدها تحديداً: البرج الدامي.

هتف ابن سراج مندهشاً:

ـ البرج الدامي؟ اشرح لنا الأمر يا فارغاس.

ـ هل تعرفون ما اسم هذا القصر؟

مرّ بيده على الصليب المتدلّي من عنقه قبل أن يضيف:

ـ إنّه معبد الفرسان. وكنتُ إذنْ على حقّ حين أكّدت على وجود علاقة بين حيرام وفرسان الهيكل.

صوّب عينيه ناحية منويلا وقال وقد غلب على ملامحه ما يشبه السخرية:

ـ لقد سمحت لنفسي بأن أزعم لقائد الحرس أنّ أسلاف السينورة فيفيرو كانوا من الفرسان الذين سقطوا هنا وهم يحاربون المور وأنّ لهذا المكان في نظرها قيمة معنويّة كبيرة وأن كلّ ما تتمنّاه أن تقوم بجولة فيه ولو بشكل خاطف.

أضاف متظاهراً بالاعتذار:

ـ أرجو أن لا تؤاخذيني على هذه الكذبة البيضاء يا سينورة فمن الطبيعيّ على أيّ حال وقد انضممت إلينا أن تساهمي ببعض الأمور، أليس كذلك؟

فضّلت مانويلا الصمت مبيّتة العزم عل أن تكون أوّل من يصفّق حين يُلقى القبض على هذا الزنديق. قال فارغاس:

ـ أطرف ما في الأمر أنّ قائد الحرس أعلمني بنبرة حاسمة أنّ دخول الأبراج ممنوع منعاً باتّاً لكنّه بشكل استثنائيّ يسمح لنا بزيارة برج وحيد، هو في نظره البرج الذي تغني رمزيّته عن زيارة الأبراج الأخرى: البرج الدامي.

وأضاف مشيراً ناحية البرج الثاني المشرف على الجناح الشماليّ للقصر:

ـ ذاك هو هدفنا. ألم يقل ابن برول: **في طرف المدينة، في قلب سهل شِنْعَارَ يقوم المبنى الدامي**؟ إنّه هو دون شكّ. وكنّا على حقّ حين فكّرنا في أنّه يقصد مبنًى شهد واقعة دمويّة. تذكّر كلماتك يا ربّي عزرا وأنت تتحدّث عن مبنى شهد مأساة. إنّه برج الدم.

ـ هل أخبرك قائد الحرس من أين جاءت هذه التسمية؟

ـ أجل. هنا تمّت إبادة الفرسان الذين كانوا يرفضون تسليم القصر إلى نبلاء الجهة. حدث ذلك في أحد أيّام سنة ١٣١٢.

سأل العربيّ مشكّكاً:

ـ النبلاء يبيدون فرسان الهيكل؟ لماذا؟ ظننتُ دائماً أنّ الفرسان كانوا يحاربون إلى جانبكم أي إلى جانب ملوك المسيحيّة الإسبان، وضدّنا نحن المور.

ـ هذا صحيح لكنّ الأمر لم يخلُ من بعض الأخطاء، فبعد إلغاء رهبانيّة الفرسان على إثر مجمع فيانا سنة ١٣١٢ تقرّر أن يتمّ نقل كلّ ممتلكات الفرسان إلى ممرّضي رهبانيّة القديس يوحنا من أورشليم. إلاّ أن الفوضى التي عمّت بعد موت فرناندو الرابع أغرت بعض النبلاء من فاقدي الشرف بالاستيلاء على تلك الممتلكات وكان هذا القصر من بينها. وقد أبيد الفرسان وهم يدافعون عنه من أجل أن ينتقل إلى ملكيّة رهبانيّة يوحنّا ولجأت آخر مجموعة منهم إلى أعلى ذاك البرج حيث أُفنوا على آخرهم. من ثمّ التسمية.

علّق عزرا ساخراً:

ـ ها نحن أمام مثل آخر على جور البشر. ولكن دعونا من هذا الآن ولنحاول أن نكتشف ماذا يختفي وراء العدد ٣.

تحرّك الجميع وقد شغلهم موضوع بحثهم فلم ينتبهوا إلى أنّهم لم يدعوا مانويلا إلى مصاحبتهم. بصق عزرا مراراً وسعل حتّى كاد يلفظ رئتيه

وأطلق وابلاً من اللعَنات ثمّ لم يجد بدّاً من أن يتهالك على الأرض مثل دمية متفكّكة الأطراف، مسنداً ظهره إلى الحائط القصير أعلى البرج هاتفاً بصوت متهدّج:

ـ أبداً... أبداً لن أعود إلى مثل هذا... هل أحصيتموها؟.. أنا فعلت... إنّها مائتان وستّون درجة...

قال فارغاس:

ـ لم يجبرك أحدٌ على مصاحبتنا.

علّق العربيّ موافقاً:

ـ فارغاس عل حقّ. كان في وسعك انتظارنا في الأسفل. ممّ كنت خائفاً؟

وأضاف مشيراً إلى الفراغ المحيط بهم من كلّ جانب:

ـ لا وجود لباب سريّ ولا خيار لنا إلاّ النزول من حيث صعدنا.

تقدّم ناحية الحائط القصير الملتفّ بقمّة البرج ومال بظهره ناظراً إلى الأسفل:

ـ أخمّن أنّنا على ارتفاع مائة ذراع على الأقلّ.

سأل الراهب:

ـ عمّ علينا أن نبحث في رأيك؟ هل نبحث عن شيء ماديّ أم عن رسالة أم عن علامة؟

ـ لا جدوى من السؤال. لنكتفِ بالبحث.

قرفص ابن سراج وأخذ يتفحّص الأرضيّة مارّا براحته على البلاط المتكوّن من حجارة مصمتة باحثاً عن أيّ فجوة بين حجرين محاولاً الانتباه إلى أيّ تقعّر أو نتوء. وكان الراهب قد تكفّل بتفحّص الحائط الدائريّ القصير انطلاقاً من العَتبة في اتّجاه اليمين في حين تكفّل عزرا بالجهة

اليسرى. كانت مانويلا قد التحقت بهم منذ فترة إلاّ أنّ أحداً منهم لم ينتبه إلى حضورها والأرجح أنّهم لم يعتبروا حضورها ذا أهميّة فأسندت كتفها إلى دعامة الباب وأخذت تراقبهم بفضول. مرّ الوقت بسرعة وبلغهم من البلدة صوت الأجراس وهي تُقْرع فجأة كأنّها فُكّت من عقالها دفعة واحدة فارتفعت موجاتها المعدنيّة إلى السماء وتوقّفت للحظات ثمّ انهمرت على الأرض وتفرّقت بين الطرقات الملتوية. هتف العربيّ ساخطاً:

ـ لا شيء. أنا لا أجد شيئاً.

قال عزرا:

ـ والمصيبة أنّنا لا نعرف عمّ يجب أن نبحث.

ثمّ أضاف متمتماً:

ـ في طرف المدينة، في قلب سهل شِنْعَارَ يقوم المبنى الدامي، هناك تجدون العدد ٣. لابدّ أنّ وراء هذه الكلمات إشارةً ما ولكن ماذا؟

اختارت مانويلا تلك اللحظة كي تذكّرهم بوجودها:

ـ المعذرة ولكن أظنّني سمعتكم تتحدّثون عن سهل شنعار.

ـ هو ذاك.

ـ أليست أرض شنعار هي التي أقيم فيها برج بابل؟

حملق فيها ثلاثتهم وقد علت ملامحهم الدهشة.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لقد قرأت الكتاب المقدّس مثل كلّ مسيحيّ صادق وأعتقد أن بابل مذكورة في سفر التكوين إذا لم تخنّي الذاكرة، لكنّي نسيت الأصحاح...

هتف عزرا:

ـ إنّه الأصحاح الحادي عشر.

ـ في هذه الأصحاح إشارة إلى نوع من الالتباس.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ كان قصد الربّ أن يرجع البشر عن غيّهم وطوحهم المفرط حين قال: ***هو ذا شعبٌ واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه. هلمّ ننزل ونُبلبل هناك لسانهم حتّى لا يسمع بعضهم لسان بعض.*** فما المقصود بعبارة ***لا يسمع بعضهم لسان بعض؟*** أغلب الظنّ عندي أنّها تعني عدم الفهم أو الالتباس أو الامتناع، أي أنّ بعضهم سيمتنع عليه لسان البعض الآخر. هل أنتم معي؟

ـ نحن معك ولكنّنا لسنا واثقين ممّا تريدين قوله.

ـ الحقّ أنّي أنا أيضاً لست واثقة ممّا أريد قوله. ولكنّي تذكّرت حديثكم عن ابن برول وعن شغفه بالتفاصيل حدّ الهلوسة بل إنّ أحدكم وصفه بالبراعة حدّ الإعجاز، لذلك خطر لي أنّنا قد...

كان فارغاس قد أولاها اهتمامه في البداية ثمّ أخذ وجهه يربدّ مع تقدّمها في الحديث حتّى صرخ منفجراً:

ـ نحن نهدر وقتاً ثميناً فلنعد إلى البحث.

هتف ابن سراج:

ـ مهلاً يا جماعة فقد تكون السينورة على حقّ. فكّروا مليّاً. نحن نبحث عن شيء ممتنع وقد يكون ممتنعاً لأنّه ليس متاحاً في هذا المكان.

صرخ رافائيل معترضاً:

ـ هذا هراء. لقد أكّد ابن برول أنّ ما نبحث عنه موجود أعلى البرج الدامي وأنا...

ـ وأنا لم أقل العكس لكنّي أكرّر: قد يكون الشيء الذي نبحث عنه موجوداً في هذا المكان إلاّ أنّه ممتنع كما قالت السينورة، أي مخفيّ أو غير ظاهر...

ـ انظرا أيّها السيّدان.

فرقع صوت عزرا في المكان كأنّه السوط فالتفت الرجلان ناحيته. كان شبيهاً بمراهق نجح في لعبة سحريّة وقد رفع يده إلى أعلى كمن يرفع راية نصر ملوّحاً بمثلّث، مثلّث صغير من البرونز. تمتم الشيخ:

ـ ولكن. . . أين. . . أين وجدته؟

أشار عزرا ناحية الوجه الخفيّ من الحائط.

ـ في الجهة الأخرى. الجهة الممتنعة. الجهة غير المتاحة وغير الظاهرة. كان مثبتاً في فجوة بين حجرين وكان يكفي أن ننحني قليلاً كي نراه.

نظر إلى مانويلا مبتسماً وأضاف:

ـ ها قد زال الالتباس يا سينورة.

الفصل ١٥

نسجت الريح الكون، رابطةً بخيط واحد هذا
العالم، بالعالم الآخر، بكلّ العوالم الأخرى.
(الأوبانيشاد)

جلس عازف القيثار في العتمة وأخذ يطلق أنغامه بعنف. كانت يده اليمنى تهبط وتصعد على طول الأوتار بينما كانت أصابع اليسرى تضغط على رقبة قيثاره في حركات مفردة حيناً متتالية حيناً آخر منتزعة من الآلة وابلاً من الصرخات والهمسات. إلى الطاولة المجاورة جلس رجل يصعب تحديد سنّه وأخذ ينقر على كفّه مصاحباً العازف وقد غمر وجهه حنين غامض. خلف الجميع لمح ابن سراج شخصاً شارد الذهن مكبّاً على إبريق خمر. كان ذا وجه غريب حقّاً بعينين غائرتين وجبين متناهي الصغر يخترقه أثر جرح عميق فخطر لابن سراج أنّه أمام وجه عُقابٍ آدميّ.

لم يصادفهم في طريقهم فندق أكثر بؤساً من هذا. كانت القاعة الرئيسيّة عبارةً عن مساحة غير مبلّطة مضاءة بنور ذابل محصورة بين جدران مطليّة بالجير تؤثّثها مساند خشبيّة ومقاعد بلا ظهر تُستعمل كطاولات إضافةً إلى مِغلف دائريّ تساقط الحشيش من على جنباته فاكبّت عليه ثلاثة بغال عريضة الأرداف، بينما تدلّت من السقف أشياء لا أحد يدري كيف اجتمعت في مكان واحد إلى جانب قِرَبٍ وجرار طويلة الأعناق، كلّ ذلك في غلالة من رائحة العفونة والخمر الفاسد. مطّ ابن سراج شفتيه متقزّزاً أمام العجّة التي قدّمت إليه سابحة في زيت داكن اللون.

ـ يبدو أنّ حرب الاسترداد لم تغيّر من أمر الفنادق شيئاً. إنّها كما كانت دائماً: أماكن لا مناص فيها للمعدة من سوء الهضم إذا لم يجلب المرء طعامه معه. آه. . .أين أنا من الأطباق اللذيذة التي تعدّها لي زوجاتي بحبّ.

علّق عزرا ممازحاً:

ـ على الأقلّ لن نفترش الأرض الليلة بل سننام على أسرّة.

اعترض ابن سراج ساخطاً:

ـ وهل تسمّي هذه الفُرُشَ من القشّ أسرّة؟ وهل هذه بيوت ضيافة بأرضيّتها المتهالكة على قنّ الدجاج وشبابيكها المصفّقة التي لا يمكن إغلاقها والرياح التي تنفخ فيها من كلّ جهة وأصوات الحيوانات التي تخترقها من كلّ جانب؟

ـ كفى تبرّماً يا ابن سراج واحمد الربّ على أنّنا وجدنا غرفتين شاغرتين وإلاّ، وأضاف مشيراً إلى القاعة الكبرى، لكان علينا أن ننام هناك على الحصى متوسّدين أيدينا.

ثمّ أومأ ناحية مانويلا:

ـ لا أظنّ أنّ الأمر كان يروق للسينورة.

قالت المرأة في نبرة محايدة:

ـ لو شرعتُ في إحصاء مساوئ هذه الرحلة لعدتُ إلى بيتي فوراً.

ثمّ أضافت بعد لحظة صمت مشيرة بتردّد ناحية المثلّث المعدنيّ الموضوع على أحد المقاعد:

ـ لا أريد أن. . .

توقّفت عن الكلام. وقع نظرها للحظة خاطفة على الرجل ذي وجه العُقاب فكاد قلبها يقفز من صدرها. هل يريد تخريب الخطّة بتهوّره

الأخرق. أشاحت بوجهها مناشدة الربّ أن لا يكون أحد رفاقها قد انتبه إلى ما اعتراها من اضطراب. سألها ابن سراج وقد أثار صمتها فضوله:

ـ ما الأمر يا سينورة؟

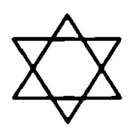
قالت متمالكة نفسها:

ـ لا أريد أن أقحم نفسي في شؤونكم ولكن هل وجدتم تفسيراً لهذا المثلّث الذي عدنا به من البرج؟

قطّب عزرا جبينه وقال مشكّكاً:

ـ لا أرى فيه حتّى الآن سوى مثلّث متساوي الأضلاع لا يختلف عن غيره في شيء. أي أنّه ذو ثلاثة أضلاع وثلاث زوايا. وقد لا تعرفين أنّ التقاليد اليهوديّة ترى في المثلّث رمزاً عن السرمديّ. تذكّري خاتم سليمان.

انحنى الحبر على الأرض وباعد بين الحصى حافراً بسبّابته في الرمل راسماً شكلاً يمثّل نجمة داوود.



ـ ها أنت تعود إلى الأمر مرّة أخرى.

كانت نبرة الشيخ أقرب إلى التأنيب منها إلى الغضب.

ـ ما أن التقينا حتّى سددت أذنيّ بحديثك عن الرقم ٦ الذي يمثّل في نظرك الرمز الخطّي لستّة مثلّثات متوازية الأضلاع مرسومة داخل دائرة غير مرئيّة. ثمّ أعدت الكرّة قبل أيّام في الرابطة ونحن ننظر في مسألة «العزيمة» فصدّعت رؤوسنا بحديثك عن أبي العافية وعن حساب الجمّل مكرّراً نفس الكلمات.

أضاف محاولاً تقليد صوت الحبر:

ـ *ستّة مثلّثات متوازية الأضلاع داخل دائرة غير مرئيّة . . .*

قال فارغاس وهو يقلّب المثلّث:

ـ أمّا أنا فلا أرى في هذا المثلّث إلاّ رمزاً عن ميتات حيرام الثلاث.

أعمل ابن سراج أسنانه في قطعة من الخبز الأسود وقال وقد وقع نظرُه صدفة على الرجل ذي وجه العُقاب:

ـ لا أرى في هذه التأويلات كلّها ما يشرح لنا لماذا رأى ابن برول أن يجبرنا على عبور كلّ هذه المسافة من أجل الوصول إلى هذا المثلّث.

خيّم الصمت على الجميع فاغتنمت مانويلا الفرصة كي تبحث بعينيها عن ميندوزا لكنّ الرجل كان قد غادر المكان. تنفّست الصعداء مقرّة العزم على تقريعه في أوّل فرصة. ظلّ حوار رفاقها الثلاثة يتردّد في مخيّلتها دون أن تجد خيطاً ناظماً لمفرداته الغامضة. فرسان الهيكل، البرج الدامي، خاتم سليمان، المثلّث البرونزيّ، ترى أيّ معنى لهذا الركام من الكلمات؟ قلّبت الأمر على جميع وجوهه دون أن تجد أثراً للمؤامرة المزعومة. ترى ماذا تخفي هذه الرحلة؟

بلغتها أصداء حركة من جهة المصرف فأبعدتها عن هواجسها. كانت زوجة صاحب الفندق قد اقتربت من عازف القيثار بجسمها المكتنز وردفيها العريضين. بدت جميلة بعينين سوداوين تجمعان بين نعومة المخمل وبريق اللؤلؤ ولم تستطع مانويلا إلاّ الإعجاب ببشرتها القريبة من لون السيدج والتي لا يملكها إلاّ الغجر. كانت قد أحاطت جبينها بشريط من الأحمر القاني لسحب شعرها المتموّج إلى الخلف بينما التصق فستانها بتضاريس جسدها مبرزاً صدرها السخيّ متحوّلاً شيئاً فشيئاً إلى شلاّل من التنانير عند الكعبين. بدا التفاهم واضحاً بينها وبين العازف فما أن نظرت ناحيته حتى ضرب على أوتاره بحركة أعنف من السابق معطياً إشارة الانطلاق.

لم يتعدّ الأمر في البداية نوعاً من الترنّح الرتيب وبضع ضربات بالقدم على الأرض واهتزازاً خفيفاً للحزام. ثمّ بدا أنّ الجسد الخمسينيّ لم يعد يعترف بالزمن فقد امتدّت القامة ونفرت الخاصرة وتقوّست اليدان فوق الشعر وأخذت المرأة تدور حول نفسها بإيقاع متسارع. فجأة نهض رجل ذو وجه لوّحته الرياح وحفرته التجاعيد فاقترب منها نافخاً صدره شبيهاً بالقنطور وكأنّه لم يعش إلاّ في انتظار تلك اللحظة، وأخذ يهمس في أذنها بكلمات غير مفهومة تداعت لها بحركات من خاصرتها قبل أن تطلق العنان للإعصار. شرع الرجل يصفّق وكأنّ كفيّه قلب ينبض، قلب يخفق بانتظام وعنفوان، ومع كلّ خفقة كانت المرأة تستمدّ حيويّة جديدة حتّى بات جسدها منبعاً عجيباً يتدفّق منه فيضٌ من العنف والفتنة والشهوة. كانت قدماها تضربان الأرض وتضربانها من جديد بينما الجسد يقترب شيئاً فشيئاً من هيئة فرسٍ جموح، تقدّم جذعها إلى الأمام، وانسحب عنقها ورأسها إلى الخلف ونفر كفلها مانحاً نفسه للعيون، مثل حيزوم سفينة تمخر عباب البحر. لم تعد الراقصة سوى رقص محض ولم يعد المشهد سوى دوّامة من الأوتار المتوّجعة والأرداف النافرة والحركات المهيّجة والاهتزازات المتوتّرة، ولم يعد الحاضرون سوى حريق يحتدم ويتصاعد في رحلة مشاعر ملتهبة لا أحد يبدو راغباً في إيقافها عند حدّ.

ظلّت مانويلا تلتهم المشهد بعينيها وقد فتنتها حمّى اللحظة واحتقنت وجنتاها بفعل التوتّر وأصبح وجهها مرآة عاكسة لكلّ أحاسيس الكون: الرغبة والألم والحياة والموت والحقد والحبّ. أمعن فارغاس فيها النظر وهو جالس إلى جانبها وانتبه بالرغم عنه إلى أنّ الاضطراب الذي غيّر مظهر الفتاة أيقظ فيه إحساساً غامض المعالم وأحيى ذكريات قديمة وعواطف كان يظنّ أنّه تخلّص منها إلى الأبد فإذا هي تستبدّ به من جديد، حتّى أنّه وجد صعوبة بالغة في إزاحة عينيه عن جارته.

في الأثناء كان ابن سراج قد وضع راحة يده اليمنى على أذُنه ورفع

عقيرته بالغناء. بدا صوته همساً في البداية ثمّ تحوّل الهمس إلى أنين ثمّ سرعان ما تحوّل الأنين إلى موّال مترع بالصور والأحاسيس والحكايات، بدايةً من حديث المنفى مروراً بنعي أحد السلاطين وصولاً إلى لواعج الحبّ والغرام. كلّ ذلك في تناغم تامّ مع إيقاعات العازف وحركات الراقصين حتّى لم يعد أحد يميّز من منهم يمدّ الآخرين بالطاقة والعنفوان.

حين خيّم الصمت كان في وسع الجميع أن يقسموا صادقين بأنّ رائحة الياسمين والريحان والعنبر قد حلّت محلّ الرائحة العطنة التي ملأت المكان حتّى تلك اللحظة. بل لعلّ بعضهم كان في وسعه ودون أن يغمض عينيه أن يلمح ساحة الأسود في الحمراء وحنفيّاتها وأقواسها وأن يرى في المعلف الذي أكبّت عليه البغال حديقة عين دار عائشة الصغيرة بورودها وأشجار ليمونها وخضرتها النضرة.

هتف عزرا مندهشاً:

ـ ما هذا يا شيخ؟ لم أعرف أنّك تجمع موهبة الغناء إلى مواهبك العديدة. لمن هذا الشعر؟

ـ إنّها رباعيّات منسوبة إلى المقدّم بن معافى المُكَنّى بأعمى قبرة.

ـ يا للروعة. كثيراً ما سألت نفسي إن لم تكن الموسيقى، باستثناء اللغة، هي المجال الوحيد الذي يتيح أن تتخاطب الأرواح.

أضاف ملتفتاً ناحية فارغاس:

ـ ألست معي في ذلك؟

أجاب الفتى بنبرة خافتة وكان لم يسترجع بعد سحنته الطبيعيّة:

ـ بلى، بلى.

عاد عزرا إلى تقليب المثلّث بين يديه.

ـ هل لاحظتم أنّه مصنوع من البرونز؟

قاطعه الشيخ ساخراً:

ـ أعرف ما ستقوله. البرونز هو خليط من القصدير والنحاس والفضّة.

ـ بل هو أكثر من خليط. ولمّا كان حصيلة زواج بين متناقضات فلعلّه يرمز إلينا ثلاثتنا. ثلاثة معادن وثلاثة رجال يختلف كلّ منهم عن الآخر. قد تكون هذه واحدة من غمزات ابن برول. دون أن أنسى ما جاء في سفر العدد: ***فصنع موسى حيّةً من نحاسٍ ووضعها على الراية فكان متى لدغت حيّةٌ إنساناً ونظر إلى حيّة النحاس يحيا...***

ـ أرجوك يا ربّي... كُفَّ عن تعداد مزايا هذا المعدن ودعنا نحاول أن نفهم فيم سنستعمله الآن أو في المستقبل.

قال فارغاس:

ـ لا أرى جدوى من ذلك. والأفضل في نظري أن نحلّ بقيّة اللغز كي نعرف وجهتنا القادمة، وعندها قد نعثر على إشارة إلى هذا المثلّث الذي أعتقد أنّه مرتبط بكتاب الـ...

أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة وألقى نظرة خاطفة على مانويلا التي بدت شاردة الذهن، فأضاف بسرعة:

ـ أقترح أن نذهب إلى غرفتنا فهذا المكان لا يصلح للتباحث في شأن القصر الموالي.

سأله عزرا مندهشاً:

ـ ولم لا نفعل ذلك هنا؟

حدجه فارغاس بنظرة حادّة مشيراً ناحية مانويلا.

ـ هل جننت؟ نحن لا نعرف عن هذه المرأة شيئاً. وإذا كنّا مجبرين على إبقائها إلى جانبنا لفترة فلا شيء يجبرنا على مكاشفتها بعملنا.

همّ الحبر بالردّ لكنّ مانويلا سبقته.

ـ اطمئنّ أيّها الراهب فلا رغبة لي في سرقة أسراركم. إلى الغد أيّها السادة.

اتّجهت ناحية الدرج الخشبيّ المسوّس المفضي إلى الغرف مشيحةً بوجهها عن فارغاس فقال الحبر بصوت مسموع:

ـ أمر عجيب... يهوديّ ومسلم ومسيحيّان... وعوض أن يتحالف المسيحيّان ضدّ الآخرَيْنِ ها هما يتناهشان بلا هوادة... حقّاً إنّه لأمرٌ عجيب.

*

ألقت الظلمة على الفندق غلالة سوداء وأخذت الشموع الأولى ترقص بذؤاباتها على الشمعدانات. كان الشيخ شبه مضطجع على لحاف من الصوف القذر وهو يتأمّل مرّة أخرى الورقة التي كاد يسودّ لونها لفرط التشطيب وكثرة الهوامش.

ـ مدينة قصرش. لأوّل مرّة يحنّ علينا آبن برول ويكشف لنا منذ البداية عن وجهتنا الموالية.

أضاف رافعاً يديه إلى أعلى:

ـ ليحفظك الله يا ابن برول.

ثمّ أعاد وضع الورقة على الأرض وتأمّل من جديد في النصّ النهائيّ للقصر.

«القصر الثاني الفرعيّ»

مبارك مجد ي.ه.و.ه في مسكنه.

الاسم في ٦.

لماذا إضاعة الجهد في تكرار ما يعرفه الفتى؟ كان أبناء البشر ينتظرون

الساعة هناك. ولن يخلف الله وعده. وراء الأسوار تمتدّ الطريق المفضية إلى جبل النور. هناك في الحجارة ترون الذين يسجدون، الذين يقيمون في السماء والذين يمكثون في الأرض، الشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والحيوانات. حين تصلون اقطعوا يدي السارق والسارقة. كلّ يدٍ تُقطع تُكسى بحمرة الأرجوان. وما أن تُكسى بحمرة الأرجوان حتى تتحوّل إلى صوف. فليرافقكم الهدهد.

التفت ناحية الراهب وانحنى شاكراً:

ـ لك كلّ امتناننا فراي فارغاس فلولاك ما فهمنا جليّة الأمر.

ـ لا مزيّة لي في ذلك فكلّ شيء متضمّن في العبارة «لماذا إضاعة الجهد في تكرار ما يعرفه الفتى». وكان السؤال ماذا أعرف؟ اذكروا عبارة «لم أعرف إلاّ ملاكاً واحداً». كان ابن برول على عِلْم بعلاقتي وعلاقة أسرتي بفرسان الهيكل وبرهبانيّة سانتياغو دي لا إسبادا. وحين التقينا قلت لكم في أيّ مدينة شهدت هذه الرهبانيّة النور. وكان ابن برول واثقاً من أنّي لن أجد صعوبة في اكتشاف الصلة بين كلماته وذاك المكان.

قال الربّي مرتاحاً:

ـ يبدو على أيّ حال أنّنا قطعنا شوطاً لا بأس به.

أضاف متفحّصاً الورقة من جديد:

ـ لقد ذهبنا بالبحث في كلّ عنصر إلى أقصى ما يمكن ونعرف الآن ما ترمز إليه كلّ كلمة. ولا شكّ عندي أنّ مفتاح هذا نصّ يتمثّل في عبارة «جبل النور». ويُسمّى أيضاً الجبل المضيء أو جبل حراء كما أخبرنا صديقنا ابن سراج حيث الغار القريب من مكّة والذي كان يقصده النبيّ طلباً للعزلة والتأمّل. وهذا يعني أنّ علينا البحث في نواحي المدينة، أو على

رأي ابن برول، علينا أن نبحث وراء الأسوار عن هضبة أو مرتفع ذي صلة بجبل النور. هل لأحدكم اعتراض على هذا الاستنتاج؟

أومأ الرجلان بالنفي فقال عزرا وهو يتثاءب:

ـ إذن فلتسمحا لي بنَيْلِ قسط من الراحة.

أضاف وهو يضطجع على فراش القشّ:

ـ هل تسمح لي بملاحظةٍ يا فراي فارغاس؟

ـ تفضّل.

ـ أراك شديد القسوة على السينورة فيفيرو.

ثمّ مال على جنبه وأغمض عينيه.

*

قاطعت مانويلا الرجل ذا وجه العُقاب بنبرة لا تخلو من قسوة:

ـ قلت لك وأكرّر إنّ الراهب هو أكثرهم احترازاً منّي.

ـ رجل كنيسة مسيحيّ يحترز من مسيحيّة؟ هذا غير معقول.

مرّ بيده الخشنة على التجاعيد التي تحفر جبينه وقال حائراً:

ـ لعلّ لديه ما يخشاه.

أضاف مغيّراً الموضوع:

ـ وأنت لا تعرفين حتّى الآن ما يخطّط له هؤلاء الأشخاص؟

قالت مانويلا معترفة:

ـ الأمر شديد الغموض. لقد فاجأتهم يقولون بعض الأشياء لكنّي لم أعرف بعد الخيط الناظم بينها.

ـ حسناً. ليس أمامنا إذن إلاّ الاستمرار في مراقبتهم. ولكن لا تنسي دونا مانويلا. ما أن تحصلي على أيّ معلومة. . .

ـ أعرف يا ميندوزا، ستكون أوّل من يعلم. ولكن كفّ عن الظهور علناً فإنّهم غير عميان.

لزم الرجل الصمت وقد بدا عليه أنّه يكره اللهجة الآمرة التي خاطبته بها المرأة، ولو كان الأمر بيده لأعلمها فوراً بأنّها ليست سوى عبد في خدمة الكنيسة والإيمان ولا شيء أكثر. لكن المكان والزمان ليسا مناسبين. سيذكّرها بذلك في ما بعد. أجل. ليس عليه سوى قليل من الصبر والانتظار.

الفصل ١٦

سانتياغو انقذ إسبانيا. . .
(ثيربانتيس)

تحت شمس الظهيرة بدت مدينة الفرسان وكأنّها خارجة من أحد كتب الزخرفة والتزويق. كان الضوء يصطدم مباشرة بالأسوار فتزداد الحجارة اقتراباً من لون المغرة ويزداد البلاط اقتراباً من لون الرماد بينما تبدو زرقة السماء من تحت باب المنارة وصولاً إلى باب يسوع وهي تنصهر في شبكة من الشوارع الصغيرة الملتوية التي تقطعها المدارج. امتدّ ظلّ أحد الأبراج المحصّنة على طول الرصيف حتّى ارتمى على أعتاب قصر من قصور الأعيان ولاحت كنيسة صغيرة تغالب النوم قرب حنفيّة من المرمر تتوسّط الساحة بخرير مياهها الرقراقة. هناك اختار فرساننا الأربعة أن يحطّوا الرحال.

تهالك العربيّ واليهودي على إحدى الدرجات المحيطة بالحنفيّة بينما أسند الراهب كتفه إلى جدار قريب وأخذ يتفحّص المكان أمّا مانويلا فقد انحنت على حوض الحنفيّة وأخذت تغترف الماء بملء يديها غامرةً عنقها وذراعيها بسعادة لا توصف، ولم تتوقّف إلاّ بعد أن تناثرت قطرات الماء على بشرتها وكأنّها شذرات من الضوء. كانت قد عقصت شعرها مانحة تقاسيم وجهها للفح الهواء الحارّ وكان الدم يقفز إلى عنقها المكشوف في نبض متوتّر فاتن وقد انزلقت قطرات من الماء على طول القميص إلى فتحة الصدر عند أسفل الرقبة. بدت لحظتها أجمل من أيّ وقتٍ مضى. بدت

في جمال الحنان أو في جمال الحبّ الواثق من نفسه. فكّر فارغاس أنّ هذه المقارنة لا تخلو من تعسّف لكنّها الوحيدة التي خطرت له في تلك اللحظة. ظلّ يراقبها وهي تمسح عينيها بمنديل ثمّ اتّجه ناحية العربيّ حانقاً على نفسه. لقد أطال النظر إلى هذه المرأة.

ـ والآن؟ بماذا أوحى لكما هذا المكان؟

ـ لم أر حتّى الآن شيئاً ممّا حدّثنا به ابن برول. لا جبل النور ولا أبناء البشر الذين ينتظرون قيام الساعة ولا الساجدين ولا السارق والسارقة ولا حتّى الهدهد.

كان يغمس يديه في الماء ويتبرّد أثناء الحديث. قال فارغاس:

ـ أقترح أن نذهب في جولة بحثاً عن دليل.

سأله الربّي:

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث تقودنا خطانا لعلّ الصدفة تهدينا إلى علامة تضعنا على الطريق.

ـ افعلا ما تريدان أمّا أنا فأكاد أختنق بحرارة الجوّ.

أضاف مشيراً إلى الكنيسة:

ـ سأنتظركما في الداخل فأنا في حاجة إلى شيء من البرودة.

نهض ابن سراج من على الحوض مبلّل الوجه وسأل مندهشاً:

ـ هل أنت جادّ؟

ـ طبعاً.

ـ أنت؟ في كنيسة؟

كرّر عزرا:

ـ أنا في كنيسة. وفي يوم سبت أيضاً. إلاّ إذا كان بيت الربّ يرفض لحبرٍ هارب من الحرّ الملاذ الذي يمنحه لقاطع طريق هارب من القضاء.

ما أن فرغ من كلامه حتّى غادر المكان بخطىً سريعة. نظر ابن سراج إلى فارغاس وقال ممازحاً:

ـ يبدو لي أنّ هذا اليهوديّ لن يرتاح إلاّ بعد أن يهوّدكم.

هزّ فارغاس كتفيه وقال غير مكترث:

ـ هل نذهب؟

أومأ العربيّ بالإيجاب وهتف ناحية مانويلا:

ـ هل ترافقيننا يا سينورة؟

ـ أنا مرهقة وأفضّل أن أبقى هنا في حراسة الجياد.

ـ كما تشائين.

ثمّ التحق بالراهب.

جلست الفتاة في الظلّ مسندة ظهرها إلى باب الكنيسة ضامّةً ركبتيها إلى صدرها مغمضةً عينيها وقد غلب عليها الإنهاك والإحباط. هجرتها حماسة الأيّام الأولى وأخلت المكان إلى تعب نال من الجسد بقدر ما نال من الروح. لم تجلب معها غير ثلاثة فساتين متواضعة إضافة إلى خمارٍ ونعلين، هي الحريصة على مظهرها أيّاً كانت الظروف ها هي تغرق في القذارة التي طالما أنكرتها على الأخريات.

أفلت منها زمام الحكاية ولم تعد واثقة من شيء فلا أحد من هؤلاء الرجال الثلاثة يحمل ملامح متآمر يطلب دمار إسبانيا والكنيسة ولم تسمع أحداً منهم يتفوّه بكلمة تهديد ولو خفيّ. فهل هم بارعون إلى هذه الدرجة؟ الإشارة الوحيدة اللافتة وإن كانت تبدو غير مهمّة هي تلك التي صدرت عن فارغاس حين جاء على ذكر الكتاب. لم تفتها ملاحظته كما لم يفتها الحرج الذي غلب عليه حين أفلت لسانه بتلك الكلمة. ترى أيّ كتاب يقصد؟ ولماذا بدا عليه الحرج وكأنّه كشف خطأً عن معلومة هامّة؟ عليها أن تعرف جليّة الأمر.

جلب انتباهها فجأة وقع حوافر ففتحت عينيها ورأت كوكبة من الفرسان تقتحم الساحة. خطر لها في البداية أنّهم مغاوير يتعقّبون أحد الأشرار ثمّ رأتهم يترجّلون ويتحدّثون في ما بينهم قبل أن يتّجه أحدهم ناحية الكنيسة بخطوات متمهّلة. تملّكها الفضول فنهضت من مكانها والتصقت بالحائط تسترق إليهم النظر وقد انقبض صدرها دون أن تعرف السبب. تقهقر الرجال بضع خطوات فتململت سيوفهم في أغمادها وأحاط بهم بعض الفضوليّين دون أن يجرؤوا على الاقتراب. صهل أحد الجياد وندّت عن بعض الحاضرين ضحكة مكتومة وما هي إلاّ لحظات حتّى خرج الفارس الذي كان قد دخل الكنيسة فوضعت مانويلا يدها على فمها مجاهدةً أن تكتم صرخة. كان عزرا يمشي إلى جانب الفارس. همّت بالركض ناحيتهما إلاّ أن حدساً ألزمها مكانها في اللحظة الأخيرة. لم تر على ملامح عزرا ما يشير إلى القلق أو الخوف. أخذ يتحدّث مع أحد الفرسان بشكل عاديّ وخيّل إليها أنّها تلمح على شفتيه ظلّ ابتسامة لكنّها عرفت فيما بعد أنّ ما تصوّرته ابتسامة لم يكن سوى تعبير عن الاستسلام للقدر. بسرعة أُوثقت يدا اليهوديّ إلى ظهره وامتطى الفرسان صهوات جيادهم باستثناء ثلاثة منهم مشى أحدهم عن يمين عزرا ومشى الثاني عن شماله بينما سار الثالث في المقدّمة مخترقاً الفضوليّين الذين كان عددهم قد كبر بسرعة وتصاعدت أصواتهم بعبارات ساخطة تبيّنت منها مانويلا كلمة مرّانو.

مادت الأرض بالفتاة. ألقي القبض على عزرا وأغلب الظنّ أنّه وقع في أيدي فرسان ديوان التفتيش. ولكن ما الذي جعل الكنيسة تتدخّل؟ هل تصرّف مبعوث توركيمادا من تلقاء نفسه؟ هذا مستحيل. ظلّ الفارسان يمسكان بذراعي عزرا ويجرّانه في اتّجاه غير معلوم بينما لم تجد مانويلا بدّاً من أن تتبعهم من بعيد على أمل أن ترى فارغاس أو ابن سراج. انفضّ عنهم الفضوليّون ولم يبق غيرها في إثر الحبر وسجّانيه. كانت المدارج

تقطع المسالك المبلّطة وكانت الشوارع تلتوي وتتشابك وتضيق حتّى أنّ الشمس تجد صعوبة أحياناً في في التسلّل من بين الأسقف المتلاصقة كي تحطّ على الأرض.

ساروا بمحاذاة البيوت ذات الحجارة الرماديّة مصطدمين بين الحين والآخر بنظرات السكّان المترعة بالخوف أو الاستنكار حتّى بلغوا ساحة كبيرة يقوم في طرفها أحد القصور. انعطفت الكوكبة مع الزاوية الموالية للقصر فحثّت مانويلا الخطى كي لا يغيبوا طويلاً عن نظرها ولم يفتها وهي تمرّ أمام البوّابة الكبيرة أن تقرأ الكلمات المحفورة أعلاها: **هنا ينتظر آل غولفينو حساب الربّ**. كبحت رعدتها وهي تطلّ برأسها في حذر من خلف الزاوية فشاهدت مبنًى مخيفاً عليه حراسة مشدّدة ومن خلف سياجه لاح فناء صغير مقفر. توقّف الفرسان أمام المبنى وأخرج أحدهم من جيبه قناعاً ثمّ تقدّم من عزرا وألبسه القناع عنوة مغطّياً رأسه حتّى العنق. عندئذ أيقنت مانويلا من الأمر. كان عزرا يُساق إلى السجن وكان إخفاء الوجه عن العيون إحدى القواعد المقدّسة لمثل هذه الحالات حيثُ لابدّ من كتمان هويّة المتّهمين لا لأسباب إنسانيّة بل كي لا يتعرّف أحد من المساجين على الآخر. كانت السريّة حجر الزاوية في منظومة ديوان التفتيش.

رُفع الحاجز المشبّك واختفى شبح الحبر وابتلعه الظلام. ماذا حدث؟ هل يكون عزرا قد جدّف وهو في حرم الكنيسة؟ كلاّ. ليس هو من يرتكب مثل هذه الأخطاء الساذجة. سمعت مانويلا الكثير من الأخبار عن يهود متنصّرين تعمّدوا التصرّف بشكل تجديفيّ داخل الكنائس مثل الربّي خوان دال ريو الذي كان يعلّم القانون قرب المذابح، أو الناسك الآخر الذي كان يستعمل خلوة الاعتراف لنفس الغرض، أو رئيس الدير المدعوّ غارثيا زاباتا الذي كان يستغلّ القدّاس كي يعوّض الكلمات المقدّسة بأخرى تجديفيّة. كلاّ. ليس عزرا من هذا الصنف. إنّها واثقة من ذلك.

ـ سيّدة فيفيرو.

حطّت يد على كتفها فالتفتت مفزوعة لتجد نفسها وجه لوجه مع الرجل ذي وجه العُقاب. وضع المُقَرّب أصبعاً على شفتيه وأومأ إليها بأن تتبعه. انعطف مع أوّل زاوية واختار مكاناً ظليلاً فوقف تحته هامساً:

ـ لنقفْ هنا فقد يراك أحدهم.

سألته مانويلا متلهّفة:

ـ هل علمت بأن الربّي...

ـ بلى. شاهدنا كلّ شيء وليس لنا علاقة بالأمر. يبدو أنّ مفتّشي ناحية قصرش تصرّفوا من تلقاء أنفسهم.

ـ لكنّ هذا غير معقول. إيقاف في وضح النهار؟ وبأيّ تهمة؟

ـ لا أعلم أكثر ممّا تعلمين. ثمّ إنّي لست واثقاً من أنّهم أوقفوه بعد التحرّي اللازم. فأنت تعلمين كم نحن حريصون على التحقيق والبحث قبل إيقاف الناس. نحن لا نوقف الناس بشكل عشوائيّ. ما من إيقاف إلاّ وهو مسبوق بتحقيق دقيق وإلاّ كيف نضمن تطبيق العدالة؟

تكلّم ميندوزا بنبرة حفّار قبور ساءه أن يرى قبراً غير متقن. أضاف مؤكّداً:

ـ سنعرف جليّة الأمر على أيّ حال فلديّ رسالة بخطّ المفتّش العامّ نفسه وعليها توقيعه وختمه. ولا شكّ أنّها ستمكّنني من الاطّلاع على الملفّ. أمّا الآن فعليك أن تعودي إلى رفيقيك وسأتّصل بك في الإبّان.

ـ لا أعرف بأيّ طريقة ستتصرّف ولكن لا تنس أنّ فقدان أيّ رجل من الثلاثة معناه الإطاحة بخطّة فراي توركيمادا كلّها.

زمّ ميندوزا شفتيه متوتّراً فقد فهم من نبرة الفتاة أنّ خطّة توركيمادا ليست وحدها المهدّدة وأنّ الخطر يتهدّد مستقبله في الكنيسة هو أيضاً. أضاف مغمغماً:

ـ لنفترق فوجودنا معاً خطر علينا.

ما أن لمحاها في طرف الساحة حتّى ركض ابن سراج وفارغاس ناحيتها صارخين:

ـ أين كنت؟

ـ ماذا كنت تفعلين طيلة هذا الوقت؟

لم تهمّ بالردّ حتى بادرها الراهب من جديد وقد تبيّنت في صوته نبرة ارتياب:

ـ وقع عزرا في قبضة ديوان التفتيش.

ـ علمتُ بالأمر فقد حدث أمامي.

ـ هل بلغت بهم الجرأة أن يقبضوا عليه داخل الكنيسة؟

ـ كلاّ فقد دخل أحدهم في طلبه وأظنّ أنّهم اختلقوا حجّة كافية كي يستدرجوه فيتبعهم إلى الخارج بكلّ ثقة. عندئذ أوثقوه وقادوه إلى السجن.

سأل ابن سراج مندهشاً:

ـ وبأيّ تهمة؟ هل قال أو فعل شيئاً يستوجب العقاب؟

ـ خامرتني هذه الفكرة لكن هل تظنّ عزرا قادراً على خطأ مثل هذا؟

ندّت عن العربيّ إشارة مفادها أنّ كلّ شيء جائز. أمّا فارغاس فقد أحدّ بصره في الفتاة ثمّ قال مشدّداً على الكلمات:

ـ هل أنت واثقة من أنْ ليس لك يد في الأمر يا سينورة؟

ـ هل تلمّح إلى أنّي وشيتُ بعزرا؟

ـ أنا لا ألمّح إلى شيء ولكنّي أتساءل.

أوجعتها نبرته الجافّة مثل طعنة في القلب.

ـ تتساءل يا فراي فارغاس؟ ولكن باسم ماذا؟ ما الذي يسمح لك بالظنّ أنّي قادرة على مثل هذا؟

ـ كلّ شيء يسمح لي بذلك. ظهورك المفاجئ واقتحامك رحلتنا بمبرّرات محفوفة بالغموض. وحدك تعرفين الحقيقة يا سينورة.

انفجرت فجأة في وجهه:

ـ لا أعرف ماذا تخفي في قرارة روحك لكنّ ما يوجد فيها يبدو شديد القتامة. منذ التقينا وأنت تحاول تلويثي ولا أتحدّث عن علاقتي برحلتكم بل أتحدّث عن شخصي. أنت تحاول تلويث المرأة فيّ فهل المرأة هي ما يضايقك يا فراي فارغاس؟

ندّت عن الراهب ضحكة لم يعرف رفيقاه إن كانت ثمرة سخرية أم طريقة للتهرّب من مواجهة الحقيقة. أضافت مانويلا مضيّقة عليه الخناق:

ـ هل تعذّبت كثيراً في الماضي حتى لم تعد قادراً على الاطمئنان إلى امرأة؟ هل أثّرت إحداهنّ إلى هذه الدرجة في قلبك وذاكرتك؟

كان واضحاً أنّها أصابت الهدف فقد امتقع وجه رافائيل وغلبت عليه فجأة ملامح ألم شديد أحسّت مانويلا معه بالندم على كلماتها. لزم الصمت وكأنّه يذعن للهزيمة فرأى ابن سراج أن يضع حدّاً لمواجهتهما وقال بنبرة حزينة:

ـ إن رفيقنا يواجه خطر الموت ولو حدث له مكروه لوضع ذلك حدّاً لرحلتنا.

هتف فارغاس بلهجة واثقة:

ـ لن يسمح الربّ بأن نفشل.

فأجابه ابن سراج:

ـ إن شاء الله. ولكن ما العمل؟ هل نهجم على السجن؟ هل

نستعطف أحدهم لإطلاق سراحه؟ ولكن من؟ كلّنا نعرف أنّ نزلاء الزنزانات التفتيشيّة يُسدل عليهم ستار يفصل بينهم وبين العالم الخارجيّ.

أضاف بنبرة ارتعد لها رفيقاه:

ـ على الحبر أن يرضى...

سألته مانويلا:

ـ أن يرضى بماذا؟

ـ أن يرضى بإعطائنا نصيبه من القصور التي نحتاج إليها في رحلتنا، وفاءً لروح ابن برول.

ردّ الراهب:

ـ لا أظنّه يرضى بذلك ولكن هَبْهُ فعَلَ، كيف يمدّنا بالأوراق؟ ألم تقل قبل قليل إنّ السجناء معزولون تماماً عن الخارج؟

ـ علينا أن نجد حلاً.

اقترحت مانويلا بصوت خافت:

ـ وماذا لو طرقتُ باب السجن غداً فجراً مدّعيةً أنّي ابنةُ السجين، ألا يمكن أن...

صرخ فارغاس:

ـ هراء. لا تفكّري في ذلك. إنّه شبيه بالحفر في الصخر بالأصابع.

تهالك الشيخ إلى جانب الحنفيّة:

ـ يا لها من كارثة. هكذا إذن حُكم علينا أن لا نعرف. منذ آلاف السنين والإنسان يبحث عن البرهان الأكبر، عن الحجّة الدامغة، عن الدليل على...

قاطعه فارغاس:

ـ كفى.

بحلق فيه ابن سراج وقد فاجأته حدّة الراهب.

ـ لماذا تصرخ؟

ـ ليس هذا أوان الحديث ولا مكانه. قد يسمعك أحدهم.

تقدّمت منهما مانويلا وقد انتفخت أوداجها:

ـ إنّه يقصدني أنا يا شيخ ابن سراج. والأفضل لك أن تصمت وإلاّ قدتُك إلى السجن مثلما فعلتُ مع عزرا.

لزم الرجلان الصمت وخيّم السكون على المكان بينما حوّم فوقهما نسر ملكيّ للحظات قبل أن يغيب بين الأبراج. قال ابن سراج أخيراً:

ـ اقترحتِ أن تلعبي دور ابنة عزرا يا سينورة، وأعتقد أنّ من الصعب جدّا أن يسمحوا لك بالدخول كما أعتقد أنّك لن تفلحي في تغيير شيء من الأمر لو دخلت. وإذ صحّت توقّعاتي فلن يبقى أمامنا إلاّ أن نضع حدّاً لرحلتنا وأن نعود على أعقابنا خاسرين. لكنّي لا أرى حلاًّ آخر، فحاولي وليوفّقك الله.

أومأت مانويلا بالإيجاب وقد رسخ في ذهنها فجأة أنّ مصيرهم الآن بين يدي الرجل ذي وجه العُقاب.

الفصل ١٧

إلى الثأر. إلى الموت. صرخ روستابات العملاق. نحن مائة ضدّ واحد، فلنقتل هذا الكافر...

(فيكتور هوغو)

تربّع الشيخ على الحصير الأغبر ومسد أجفانه ببطء ثمّ طوى الورقة التي سوّدها بالهوامش ووضعها بقربه. عن يمينه كان فارغاس قد أسند ظهره إلى الحائط وشبك يديه خلف رأسه ناظراً إلى السقف شارد الذهن. سأل ابنُ سراج:

- هلى ترى للسينورة أيّ حظّ في النجاح؟

بدت على وجه الراهب ملامح الشكّ.

- أعتقد أنّ الأمر مرتبط بنوع التهمة ونوع السجن الذي وُضع فيه الحبر. اعتاد قضاة ديوان التفتيش أن يوزّعوا السجناء على ثلاثة سجون، الأوّل يضعون فيه مرتكبي الجنح والثاني يضعون فيه مرتكبي الجرائم الأكثر خطورة، أمّا الثالث ويسمّونه السجن السرّي فهو مخصّص للهراطقة. وإذا كان عزرا قد أودع هذا السجن الثالث، وهو الأرجح، فلا أظنّهم يمكّنونه من أيّ اتّصال بالخارج.

- وهل تراه يتعرّض إلى التعذيب؟

- تلك أيضاً مسألة فيها نظر وترتبط بتفاصيل التهمة. ثمّ إنّنا لا نعرف

إن كان الأمر متعلّقاً بمجرّد شكّ قويّ أم بتهمة ثابتة. وإذا لم يعترف عزرا بجرمه أيّاً كان هذا الجرم فلا شكّ أنّه سيتعرّض إلى التحقيق والسؤال، وهذا يعني التعذيب الذي هو في نظر القضاة فرصةٌ أخيرة تُمنح للهرطوقيّ المؤمن بخطاياه كي يطلب الرحمة والمغفرة.

ـ لكن المسكين تجاوز السبعين من عمره. ألا يرحمون شيخوخته؟

ـ قد يلعب التقدّم في السنّ دوراً لصالحه فهو إلى جانب المرض والجنون والحمل أحد العناصر التي يُستثنى بموجبها من التعذيب. إلاّ أن البتّ في ذلكِ راجع بالنظر إلى المفتّشين.

ـ هل تقصد أنّ أمله الوحيد في تجنّب الألم يكمن في الاعتراف بأيّ تهمة تُوجّه إليه؟

مرّ ابن سراج بيده على لحيته بتوتّر قبل أن يضيف:

ـ لو كنت مكانه لاعترفت بأيّ شيء. بالسرقة أو بالقتل أو بالتجديف. لقد سمعت عن فنون التعذيب ما يقشعرّ له بدن أكبر العتاة. أحد أطبّاء غرناطة أسرّ لي ذات يوم ببعض التفاصيل ومن بينها ما يتعلّق بطريقة يسمّونها «**الحلم الإيطاليّ**»، هل تعرف أي شيء يختفي وراء هذه العبارة الشاعريّة؟

ـ لعلّه غير بعيد عن «**الحلم الإسبانيّ**».

ـ إنّهم يضعون المتّهم داخل صندوق فُرِشت جنباته بمسامير حادّة وعليه أن يبقى ساكناً داخل الصندوق طيلة ساعات وأيّام وما أن يتحرّك حتّى تنغرس في لحمه المسامير. على أيّ حال هذه الطريقة أفضل من السفافيد المحماة التي تُكوى بها الأعضاء التناسليّة. يا له من حلم.

قال فارغاس مصحّحاً:

ـ أجدني مضطرّاً إلى الاختلاف مع معلوماتك يا شيخ فلا النار ولا الحديد مسموح بهما في تحقيقات ديوان التفتيش. إنّهم لا يستعملون إلاّ

الماء والحبال وبشكل استثنائيّ التعليق ثمّ الإسقاط على الأرض. وقد اطّلعت منذ أيّام في مكتبة الرابطة على رسالة في ثلاث عشرة صفحة أفاض كاتبها في تحديد طرق التعذيب الشرعيّة.

علّق الشيخ ساخراً:

- هل كان عنوان الرسالة دليل الجلاّد المحترف؟

- لا أدري ولكنّي قرأت فيها أنّ التعذيب لا يُمارس إلاّ على أطراف المُتّهم، فهو يوثق إلى جدار بواسطة حبال في شكل صدريّة تطبق على صدره وخاصّة على أضلاعه الجانبيّة التي يبدو أنّها أقلّ تحمّلاً للألم، ثمّ...

- كفى تفصيلاً رجاءً. ما أن أتخيّل عزرا في مثل هذا الوضع حتى أشعر بالرغبة في التقيّؤ. ألم تحدّثني قبل قليل عن إمكانيّة طلب المتّهم الرحمة؟ ماذا يحدث عندئذ؟

- إذا اقتنع المفتّشون باعترافه نظروا في إمكانيّة ردّه إلى الكنيسة الكاثوليكيّة. وهذا يُعتبر تليينا كبيراً في المواقف بالمقارنة مع القوانين القديمة التي كانت ترى في الاعتراف تحت التعذيب أمراً لا يخلّص من العقاب. أيّاً كان الأمر وكما قلت لك سابقاً نحن لن نصل إلى يقين طالما لم نعرف بالضبط بأيّ تُهمة أُلقي القبض على عزرا.

نهض الشيخ من مكانه. كان لا يرتدي سوى قميص من الكتّان يُظهر بطنه الكبير وتحته سروال ضيّق يهبط حتّى الركبتين. تناول من خرجه الجلديّ ثوباً مطويّا وارتداه بسرعة. كانت تلك أوّل مرّة منذ بداية الرحلة يستبدل فيها برنسه بجبّة. ثمّ أخرج لحافاً أبيض فوضعه على كتفه قبل أن يعتمر طاقيّة من الصوف القرمزيّ. قال فارغاس مبتسماً:

- كم أغبطك على أنّ في وسعك تغيير هندامك أمّا أنا فقد أبدل مسوحاً بمسوح دون أن يتغيّر في مظهري شيء.

ـ ومن الذي يمنعك من تغيير زيّك فراي فارغاس؟

ـ وهل تريدني أن أخرج من رهبانيّتي؟ إنّه ثمن غالٍ مقابل أناقة رخيصة.

همس الشيخ بنبرة غامضة:

ـ كلّ شيء يهون في سبيل الفوز بقلب حسناء.

ـ ماذا تقصد؟

ـ هيّا لا تتصنّع السذاجة. هل تتصوّر أنّي لم أنتبه إلي تصرّفاتك؟ لقد رأيتك بالأمس قرب الحنفيّة وأنت تلتهم السينورة بعينيك.

انقلبت سحنة فارغاس فقال وهو ينطّ من مكانه ساخطاً:

ـ أنت تهرف بما لا تعرف ويبدو أنّك في غفلة عن خطورة هذه المرأة.

شرع في ارتداء ثيابه هو أيضاً فقد كان لا يرتدي سوى قميص وسروال لكن المقارنة بينه وبين الشيخ لا تتعدّى ذلك. كان ذا جسد فتيّ متناسق مفتول العضلات لا علاقة له بترهّل الشيخ وسمنته الظاهرة. ويبدو أنّ الأمر لم يفت رفيقه الذي أضاف ساخراً:

ـ انظر إلى نفسك وانظر إليّ. آه لو كنت في عمرك ولو كان لي مظهرك. يا للخسارة. فتى في حسن صورتك يحكم على نفسه بالبقاء طيلة حياته سجين العفّة.

ـ ليس لدينا الأولويّات نفسها ذاك كلّ ما في الأمر.

ـ عن أيّ أولويّات تتحدّث؟ وهل من الطبيعيّ حرمان الجسد من لذائذ الحياة الدنيا؟ أنت مجنون. لو أراد الله أن يخلق منّا نباتاً أو كائنات بلا رغبة لما جَبَلَنا من لحم ودم ولما وهَبَنا حواسّ اللمس والسمع والنظر. معاذ الله أن أتعمّد الإساءة إليك ولكنّكم تبدون لي أنت وأمثالك كافرين

بنعمة الله. وهو كفر مضاعف فأنتم تكبحون فيكم جماح رغبات طبيعيّة زرعها فينا الله، إضافة إلى كونكم تحرمون النساء من متعة هي حقّ من حقوقهنّ.

صمت برهة ثمّ سأل بإلحاح:

- هل جرّبت مرّة واحدة، ولو مرّة واحدة، أن تتذوّق طعم المتعة الجسديّة؟

- ما رأيك لو قلت لك أي نعم؟

- إذن فأمرك ليس ميئوساً منه بعد. وهل حدث ذلك منذ زمن بعيد؟ هل كنت عاشقاً؟

- اسمع يا شيخ. أنت تجرّنا إلى حديث صبيانيّ لا محلّ له. لديك أفكارك ولديّ أفكاري. وما دمت تحدّثت عن السينورة أرى أن نذهب لانتظارها في الساحة.

- لك ذلك. ولكنّي أريدك أن تفكّر في الأمر. المرأة مخلوق من مخلوقات الله ومن الذنب أن نهملها.

- ولماذا لا تذكر كذلك أنّها مصدر كلّ شرّ؟ وإن كنت أعرف لماذا تدافع عنها.

أضاف ساخراً:

- أليست هي السبب في وقوع إسبانيا في حوزتكم كما تقع الثمرة الناضجة في اليد؟

- عمّ تتحدّث؟

- لا أظنّك تجهل أحد أهمّ الأسباب التي دفعت أسلافكم إلى دخول شبه الجزيرة. اِعْتَرِفْ بأنّكم ما كنتم تفكّرون في الأمر آنذاك. ولولا المرأة لكنتَ الآن تسرح وتمرح تحت شمس إفريقيّة.

ـ لم أفهم قصدك بعد.

ـ أقصد ما حدث قبل نحو سبعمائة عام أيّام كان القوط يحكمون شبه الجزيرة. كان للكونت جوليان أو يليان كما تسمّونه والي سبتة آنذاك ابنة اسمها فلورندا وكانت عادة النبلاء أيّامها أن يرسلوا بأبنائهم وبناتهم إلى بلاط الملك القوطيّ كي يتدرّبوا على التقاليد الملكيّة. وكذلك فعل الكونت جوليان الذي أرسل ابنته إلى طليطلة حيث دخلت في خدمة القصر. هناك وقع لذريق الملك في غرامها. أطلّ ذات يوم من أحد الأبراج التي تشرف على نهر تاجة فشاهدها تلعب مع رفيقاتها. كنّ يكشفن عن سيقانهنّ ليرين أيهنّ أجمل ساقاً من الأخرى ويبدو أن فلورندا كانت فائقة الجمال. أغرم بها الملك وأخذها عنوة فوجدت المسكينة طريقة كي ترفع خبر عارها إلى أبيها الذي أقسم على الثأر. ثمّ نسي لذريق الأمر وطلب من جوليان ذات يوم أن يرسل إليه مجموعة من طير الباز والصقور المدرّبة على صيد الأيل فأجابه جوليان: إنّي مرسل إليك بصقور لم تر مثلها في حياتك. وكان يلمّح إلى الغزاة البربر الذين قرّر إغراءهم بالزحف على مملكة سيّده.

أحكم فارغاس لفّ حبل القنّب الذي كان يتّخذه كحزام وأضاف:

ـ لا شكّ أنّك تعرف بقيّة الحكاية.

ـ كلّ ما أعرفه أنّ كوكبة من خمسمائة فارس عبرت المضيق بقيادة مولًى بربريّ لموسى بن نصير اسمه طريف بن مالك. فما صلتهم بهذه الفتاة المدعوّة فلورندا؟

ـ قبل عبور طريف ومن بعده طارق كان جوليان قد أرسل بريداً إلى موسى بن نصير يزيّن له غزو إسبانيا ويعده بأنّه لن يجد مقاومة تُذكر وأنّه هو وجنده سيكونون أدلاّء له ولفرسانه. وهكذا استولى طارق على

قرطاجنة ثمّ تقدّم بجنده حتى لقي لذريق وهزمه منتقماً لشرف فلورندا دون أن يدري.

فرغ من وضع قدميه في نعليه وأكمل بنصف ابتسامة:

ـ هل رأيت أيّ شرّ يمكن لهؤلاء المخلوقات إتيانه؟ ومع ذلك تدافع عنهن؟

هزّ ابن سراج رأسه صامتاً ثمّ قال:

ـ الآن فهمت قصد السينورة فيفيرو.

بدت على فارغاس ملامح الدهشة فقال الشيخ موضّحاً:

ـ أغلب الظنّ أنك صادفت في طريقك واحدة من أسلاف فلورندا التي تحدّثت عنها، إلاّ أنّها لم تتسبّب في غزو إسبانيا هذه المرّة بل غزت كلّ ما في روحك وجسدك. والحقّ أنّ هذا الأمر يفرحني ويطمئنني فهو يعني أنك بشر من لحم ودم.

حول الحنفيّة العموميّة انتصب سوق في الهواء الطلق للباعة المتجوّلين وأصبح المكان حديقة من الألوان والأصوات والروائح ينتشر على أطرافها مربّو حيوانات وفلاّحون وحرفيّون وتجّار صوف وباعة ملح ونبيذ وزيت وحرير خام وأقمشة معطّرة وأخرى مطرّزة بالعقيق والعنبر. سار ابن سراج وفارغاس بين المنصبات الخشبيّة واختارا مكاناً منزوياً فجلسا على حائط متوسّط الارتفاع يسيّج أحد الأبراج حيث يمكنهما الإشراف على كامل الساحة. لزما الصمت برهة وظلاّ يتأمّلان الجموع في غدوّها ورواحها بين البضائع والتجّار قبل أن يهمس ابن سراج:

ـ جبل النور. لا أدري لماذا لم تفارق هذه العبارة ذهني. **وراء الأسوار تمتدّ الطريق المفضية إلى جبل النور.** لاشكّ أنّ هذه العبارة هي مفتاح القصر الثالث ولاشكّ أنّ ابن برول أراد من ورائها لفت انتباهنا إلى جبل أو هضبة معيّنة.

ـ ولكنّك لاحظت مثلي أنّ أحداً ممّن سألناهم لم يشر إلى جبل أو مرتفع يحمل هذا الاسم من قريب أو من بعيد. حتّى صاحب الفندق وهو من مواليد الناحية أكّد لنا أنّه لم يسمع بشيء من هذا القبيل.

ـ قد تكون هذه العبارة على صلة بما يليها من كلام أراه مُستوحَى من سورة الحجّ: ***ألم تر أنّ الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجوم والجبال والشجر والدوابّ وكثير من الناس***. . .

ـ قد تكون على حقّ فالصلة واضحة. ولكن ما مغزى ذلك؟ لا أرى دلالة واضحة إلاّ لعنوان السورة: الحجّ. فما رحلتنا إلاّ نوع من الحجّ. ولكن ما فائدة حديثنا الآن بعد أن أصبح الربّي سجيناً؟ ما فائدة أن نعثر الآن على جبل النور؟

توقّف فجأة عن الكلام وأضاف وقد انقبضت أساريره:

ـ لماذا أبطأت السينورة كلّ هذا الوقت؟ أرجو أن لا يكون حدث لها مكروه هي أيضاً.

ندّت عن الشيخ ابتسامة جانبيّة لكنّه أحجم عن التعليق. كانت الجموع من حولهم تمور مثل أمواج البحر. هنا تاجر حرير يرفع منديلاً وهناك بائع جلود يحاول إقناع زبون بجودة جلوده ومن كلّ مكان ترتفع الأصوات بالتحيّات والشتائم وضحكات الأطفال وهم يتسلّلون من بين سيقان الكبار. فجأة أحدّ الشيخ بصره ناحية شخص معيّن. كان الرجل يساوم أحد باعة الغلال متفحّصاً برتقالة. بدا في الثلاثين من عمره وتبيّن الشيخ بوضوح أثر الجرح الذي شوّه جبينه.

ـ عجباً. هل تؤمن بالصدف فراي فارغاس؟

أشار ناحية الرجل متخفّياً.

ـ انظر إلى ذاك الرجل الواقف هناك بين تينك الفلاّحتين اللتين ترتديان

تنورتين. إنّي أراه للمرّة الثانية. كانت الأولى في شريش في خمّارة عازف القيثار والراقصة.

- قلت بين الفلاّحتين؟ لكنّي لا أرى أحداً.

- انظر جيّداً. إنّه هناك.

قال تلك الكلمات واقفاً مشيراً بيده إلا أنّه سرعان ما اكتشف أنّ الرجل لم يعد هناك.

- عجباً. أنا واثق من أنّي رأيته.

جلس مغمغماً:

- هل يكون أحدهم في إثرنا؟

- وهل تشكّ في ذلك؟

- أتعني أنك...

- غريب أمرك يا شيخ ابن سراج. كيف لم يخامرك ذلك إلاّ الآن؟ ألم يثر حريق مكتبة دير الرابطة شكوكك؟

- ربّما فضّلت أن لا أرى فيه أمراً مبيّتاً. أمّا الآن فإنّي لا أشكّ لحظةً في أنّ أحدهم يقتفي أثرنا. وأعتقد أنّ هذا الرجل هو أكبر دليل على ذلك.

حكّ وجنته الخشنة ثمّ أضاف متوتّراً:

- هل نحن في حاجة إلى تعقيدات إضافيّة؟ من الذي يريد لنا الشرّ؟ من هو؟ ولماذا؟

غيّر الموضوع فجأة وقد غلب على نبرته الفرح والاندهاش:

- عزرا؟ حمداً لك يا ربّ. لقد أطلقوا سراحه.

التفت فارغاس مدهوشاً فلمح الحبر وحذوه مانويلا يدخلان الساحة وكان واضحاً أنّهما يبحثان عنهما.

ـ أكاد لا أصدّق. كيف نجحت في ذلك؟

أضاف محاولاً إخفاء اضطرابه:

ـ على أيّ حال يبدو صديقنا في حالة جيّدة بالنسبة إلى من جرّب **«الحلم الإيطاليّ»**.

بعد لحظات كان الجميع جالسين إلى إحدى طاولات الفندق وقد انبعث البخار من طاسة مليئة بالحساء وضعت أمام عزرا الذي حملها إلى شفتيه وأخذ يكرع ما فيها بنهم مغمغماً:

ـ لا علاقة لهذا الشيء بالعصيدة الأندلسيّة اللذيذة ولكنّ ليلة في السجن تجعل العلقم مع الحريّة يبدو ألذّ من العسل.

قال رافائيل:

ـ هكذا إذن لم يكتفوا بإطلاق سراحك بل طلبوا المعذرة؟ ليس هذا من شِيَم رجال ديوان التفتيش.

أضاف ملتفتاً ناحية مانويلا:

ـ ممّا يعني أنّك لم تجدي الفرصة للتدخّل.

ـ ما أن وصلت السجن وطلبت مقابلة أحد القضاة حتّى جوبهتُ برفضٍ شديد. وقد أثرتُ غضبهم لفرط إلحاحي ممّا جعلني أخشى أن أُطرد بعنف. وكنت أهمّ بالعودة على عقبيّ حين رأيت عزرا يظهر في فناء السجن رفقة مُقَرّبين.

هتف ابن سراج:

ـ الله اكبر.

أضاف بسرعة:

ـ ولكن قل لي يا ربّي عزرا، أخبرتنا بأنّك لم تعرف سبب إلقائهم القبض عليك فهل عرفت سبب إطلاقهم سراحك؟

حرّك الحبر رأسه يمنةً ويسرة.

ـ لم أعرف شيئاً من ذلك. كلّ ما أستطيع قوله وقد يفاجئك الأمر إنّي لم أجد الزنزانات بالبشاعة التي توقّعتُها. لا أثر فيها للدهاليز ولا للحفر الرطبة. كما لم أر ما سمعت عنه من سلاسل وأكبال وأطواق حديديّة. لقد وضعوني في زنزانة فرديّة مضاءة طليت جدرانها بالجير يتمثّل أثاثها في بساط نظيف ومكنسة وثلاث صحاف من الفخار. والغريب أنّهم ما أن حلّ المساء حتّى أتوني بطبق من الرزّ ولحمة الخروف...

علّق الشيخ ساخراً:

ـ لعلّه كان من اللحم الكاشير.

لم يعقّب الحبر على التعليق وواصل حديثه:

ـ هذا لا يعني أنّ الخوف لا يعرف طريقه إلى المرء وأنّ المكان لا يغلب عليه جوّ كريه مرعب. خاصّة وقد اجتزتُ رواقاً ضيّقاً تصطفّ على جنباته الزنزانات فلمحت طفلين لم يبلغا العاشرة ربّما كانا مصحوبين بأبويهما، لكنّي لم أجد في ذلك أيّ عزاء.

بينما كان عزرا يروي حكايته كانت مانويلا تسترجع في مخيّلتها مشهداً آخر. فقد اتّجهت ناحية السجن على أمل أن ترى ميندوزا. وقد اعترضها فعلاً بالقرب من القصر الذي قرأت على بوّابته: **هنا ينتظر آل غولفينو حساب الربّ**. وجدته يغلي كالمرجل وقد خرج عن طوره وجحظت عيناه لفرط الغضب. قال لها إنّ عزرا وقع ضحيّة وشاية. أحدهم أعلم المُقرّبين بأنّ يهوديّاً دخل الكنيسة وأخذ يقوم بأعمال تجديف. لم يكن غضب ميندوزا بسبب الوشاية بقدر ما كان بسبب التهاون الذي تمّ به إلقاء القبض على الحبر. ليس من عادات الكنيسة أن توقف أحداً قبل القيام بالتحرّيات اللازمة. استغربت مانويلا أن يكون الشخص عرضة لإيقاف عند أوّل وشاية فشرح لها ميندوزا أنّ منشوراً كنسيّاً يتضمّن جرداً بكلّ الأفعال

والكلمات التي يمكن لأيّ كان التقاطها من شبّاكه أو من على عتبة داره أو أمام قصّاب أو بائع خضار، متجسّساً على جاره من خصاص الباب أو حين يفاجئه بالزيارة، ويكفي أن يذكر الواشي إحدى تلك الكلمات أو أحد تلك الأفعال كي تتحرّك منظومة التحقيق.

سألته مانويلا كيف لم يستطع معرفة اسم الواشي على الرغم من الوثيقة التي في يده والتي عليها ختم توركيمادا، فإجابها إنّها السريّة، دائماً السريّة التي على كلّ من يعمل في ديوان التفتيش أن يحافظ عليها باعتبارها قاعدة مقدّسة.

ـ سينورة.

أعادها صوت فارغاس إلى الحاضر.

ـ قد لا يكون لك يد مباشرة في إطلاق سراح رفيقنا. . .ولكن اعلمي أنّنا كلّنا ممتنّون لك لمحاولتك. فالشكر كلّ الشكر.

تكلّم بصوت خافت غلبت عليه لأوّل مرّة نبرة شبيهة بنبرة طفل خجول.

طرفت بعينيها وهمّت بقول شيء لكنّ الكلمات لم تسعفها. هتف عزرا:

ـ حسناً. يبدو أن سجني قد صلح لشيء.

دون أن يشرح كلامه أضاف في شبه ابتسامة:

ـ لا أدري إن كان أحدكم قد تقدّم في فكّ ألغازنا أمّا أنا فقد اغتنمت فرصة ليلة من السجن والأرق كي أقلّب الأمر على وجوهه كافّة، وها أنا أعلمكم بأنّي. . .

ألقى نظرة على الجميع قبل أن يضيف:

ـ لم أتقدّم خطوة واحدة عمّا تحدّثنا فيه بالأمس.

قال فارغاس متنهّداً:

ـ نحن للأسف في الوضع نفسه. لقد سألنا أهل الناحية عن جبل النور فلم نعثر على إجابة. ويبدو أنّ أحدا ممّن سألناهم لا يعرف تلاّ أو جبلاً بهذا الاسم. والحال أنّ علينا العثور على جبل أليس كذلك؟

ـ كرّر فارغاس النصّ على مسامع رفاقه:

مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاسم في ٦.

لماذا إضاعة الجهد في تكرار ما يعرفه الفتى؟

كان أبناء البشر ينتظرون الساعة هناك. ولن يخلف الله وعده. وراء الأسوار تمتدّ الطريق المفضية إلى جبل النور. هناك في الحجارة ترون الذين يسجدون، الذين يقيمون في السماء والذين يمكثون في الأرض، الشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والحيوانات. حين تصلون اقطعوا يدي السارق والسارقة. كلّ يدٍ تُقطع تُكسى بحمرة الأرجوان. وما أن تُكسى بحمرة الأرجوان حتى تتحوّل إلى صوف. فليرافقكم الهدهد.

فرغ من قراءة النصّ وأخذ يعدّ على أصابعه:

ـ لدينا أوّلاً أبناء البشر. وهي عبارة لا تختلف في دلالتها التوراتيّة عن دلالتها في الكتب الأخرى أو في الاستعمال اليوميّ، وتعني عادةً الإنسان بشكل عامّ والإنسان العاديّ أو المتواضع بشكل خاصّ، هل أنتم معي في هذا؟

قال عزرا مؤكّداً:

ـ وهو كذلك.

ـ لدينا ثانياً كلمة *الساعة*. وهي في رأي الشيخ ابن سراج كلمة ترد بكثرة في القرآن وتشير إلى القيامة أو يوم الحساب. أليس كذلك يا شيخ؟

أسرع الشيخ إلى تلاوة آية من سورة الأعراف.

ـ يسألونك عن الساعة أيّان مُرساها قل إنّما علمها عند ربّي لا يُجلّيها لوقتها إلاّ هُو ثقُلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتةً يسألونك كأنك حفيٌ عنها قل إنّما علمُها عند الله ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون. صدق الله مولانا العظيم.

ثمّ أضاف مسرعاً:

ـ ومّما يُروى عن أبي هريرة ***أنّ أحدهم قال للنبيّ أخبرني يا محمد عن الساعة متى هي؟ فنكس رسول الله صلى الله عليه وسلّم فلم يجبه، ثم أعاد فلم يجبه، ثم رفع رأسه فحلف بالله وبالذي بعث محمداً بالحق ودين الحقّ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن لها علامات: إذا رأيت رُعاةَ البهم يتطاولون في البنيان ورأيت الحفاة العُراةَ ملوكَ الأرض ورأيت المرأة تلد ربّتها.***

عند تلك النقطة عنّ لمانويلا أن تتدخّل في حديث الجماعة.

ـ قد أبدو لكم متطفّلة ولكن هل في وسع الشيخ أن يشرح لي معنى عبارة أن تلد المرأة ربّتها؟

ـ لعلّ النبيّ كان ينذر بزمن يتفشّى فيه العقوق حتّى تلد المرأة ابنة لا تبرّ بها، ولعلّه كان يشير أيضاً إلى خراب العمران وانتشار الفساد وانهيار القيم وقطع الرحم وإنهاء الحكاية التي بدأت بمقتل هابيل على يد قابيل.

هنا تدخّل فارغاس:

ـ ليس لديّ أيّ اعتراض على كلام الشيخ لكنّ المسيح أيضاً لم يبخل بذكر العلامات التي تسبق نهاية العالم. مثل...

قاطعه ابن سراج فوراً:

ـ فراي فارغاس، أرجوك أن تكفّ عن المقارنة والتفضيل بين نبيّنا ونبيّكم أو بين كتابنا وكتابكم. هل تعرف ماذا رُوِيَ عن رسول الله حين سُئل عن علامات الساعة وعمّن يقف في وجه الدجّال؟ لقد قال صلّى الله عليه وسلّم: *في تلك الأيّام يقوم عيسى بن مريم في أمتي حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير، وتُرفع الشحناء والتباغض، وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في في الحية فلا تضره، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتُملأ الأرض من السلم كما يُملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبد إلا الله.*

صمت رافائيل مفحماً فواصل ابن سراج:

ـ لنعد إلى موضوعنا. يبدو أنّنا ركّزنا اهتمامنا على عبارة جبل النور دون أن نربطها بما سبقها أي بعبارة كان أبناء البشر ينتظرون الساعة هناك. وقد خطر لي أنّ. . .

قاطعته مانويلا فجأة:

ـ لحظةً من فضلكم. قلتم لي قبل قليل إنَّ الساعة تعني في القرآن يوم القيامة؟

ـ هذا صحيح.

بدا عليها أنّها تجاهد ذاكرتها.

ـ أمسِ صباحاً وأنا أتّجه ناحية السجن مررت أمام دار فخمة لعلّها قصر من قصور الأعيان فرأيت عبارة محفورة أعلى البوّابة. لم أعرها اهتماماً حتّى الآن، لكنّي سمعتكم تتحدّثون عن الساعة و. . .

سأل فارغاس متعجّلاً:

ـ ما هي تلك العبارة؟

ـ هنا ينتظر آل غولفينو حساب الربّ.

قال عزرا:

ـ لا يخلو الأمر من أهميّة. ولكن من يكون آل غولفينو؟

سارع فارغاس بالإجابة:

ـ إنّها أسرة فرنسيّة استقرّت بقصرش قبل مدّة قليلة من انقلاب فيليب الفارس على رهبانيّة الفرسان.

ـ هل تعني أنّها...

ـ أجل هي أسرة من أُسَر فرسان الهيكل. ولعلّ غولفينو هي تحريف لكلمة غولفاند أو هولفاند. ولعلّها أيضاً تحريف لكلمة غولفو التي تعني الوغد أو السافل. وقد يكون سكّان قصرش أطلقوا على أبناء الأسرة هذه التسمية لأسباب أجهلها.

نهض ابن سراج دفعةً واحدة.

ـ ماذا تنتظرون؟ علينا أن لا نضيع دقيقة واحدة.

أضاف ملتفتاً ناحية مانويلا:

ـ هل تذكرين المكان؟

ـ أعتقد ذلك.

هتف الراهب:

ـ مهلاً. إذا كان في تلك الدار بعض أسلاف الفرسان فعليّ أنا أن أقابلهم. عليّ أن أذهب إليهم بمفردي.

سأله عزرا مندهشاً:

ـ ولماذا؟

ـ لا تنسوا أنّي انتميت إلى فرسان سانتياغو دو لا إسبادا وفي هذا المكان عرفت تلك الرهبانيّة النور. ثمّة روابط أخويّة متينة بين الفرسان أيّاً كانت رهبانيّتهم. روابط مقدّسة. وأظنّ أنّي لو عرّفتهم بنفسي لوجدت لديهم العون المرجوّ.

ـ هذا لا يبرّر إصرارك على الذهاب منفرداً.

قال فارغاس محاولاً إخفاء نفاد صبره:

ـ أردت أن لا أحرجكم ولكن لا بأس. إذا كانوا قريبين من كنيتهم، أي سفلاء، فهذا يعني أنّنا ربّما نلتقي بأشخاص فقدوا ما كان لهم في السابق من نبل وشرف. أي أنّهم قد يبدون محترزين وقد يتعاملون بفظاظة وعنف مع أحد أحفاد المور الذين كان أسلافهم يحاربونهم أو مع يهوديّ يعتبرون أسلافه قد تعاونوا مع الغزاة قبل سبعمائة عام.

أضاف متّجها ناحية عزرا تحديداً:

ـ لا شكّ أنّك تعلم أنّ أسلافك استقبلوا العرب والمور بكامل الحفاوة وأنّهم ساعدوهم على الاستيلاء على مدننا.

لم تنل الملاحظة من رباطة جأش الحبر الذي أجاب بهدوء:

ـ اسمح لي أوّلاً بلفت نظرك إلى أنني لا أحمل هويّتي اليهوديّة محفورة على جبيني، وإذا كان الشيخ لا يستطيع أن يخفي عروبته الظاهرة على سحنته فالأمر مختلف معي. أمّا في ما يخصّ مزاعمك فليس الأمر موثوقاً منه وإن كان ذائعاً على كلّ لسان. وثق أنّ هذا لو ثبت يوماً لكنت أوّل من يأسف له. إنّ وجود اليهود في إسبانيا يعود إلى غابر الدهور وكان عليهم أن يتصرّفوا كأصحاب الأرض وليس كطيور مهاجرة. كان عليهم أن يدافعوا عن هذه الأرض بدمهم وأرواحهم. ولكن ما دمت تستشهد بالتاريخ، اسمح لي بدوري أن أقول لك إنّ لأولئك الرجال عذرهم في ما قاموا به لو صحّ أنّهم قاموا به حقّاً. هل أذكّرك بما تعرّضوا إليه قبل

عشرات السنين من غزو العرب؟ هل أذكّرك بأنّهم مُنعوا من ممارسة طقوسهم وأنّهم أُعطوا مهلة عام كي يرتدّوا عن دينهم قبل ثلاثين سنة من قدوم العرب؟ وكلّ من رفض الارتداد خُيّر بين ضياع أملاكه والمنفى؟ إضافة إلى العقوبات البدنيّة التي كانت تُسَلّط على كلّ من يواصل ممارسة يهُوديّته. دون أن ننسى ما عاناه السيفرديم من عبوديّة واختطاف أطفال بتهمة التآمر مع عدوّ أجنبيّ. أيّ عدوّ؟ كان المور في ذلك الوقت في إفريقيا ولم يكن أحد منهم يفكّر في غزو إسبانيا. إذا أصبح أخوك جلاّدك أليس طبيعيّاً أن تتمنّى نجدة جارك؟ أنا لا أؤكّد شيئاً فراي فارغاس. أنا أطرح السؤال.

تنهّد مرهقاً ثمّ أضاف:

ـ على أيّ حال، ربّما كان من الأفضل حقّاً أن تذهب بمفردك إلى هؤلاء الأوغاد، وستجدنا في انتظارك عند منعطف الشارع.

الفصل ١٨

من بين الأشياء التي لا علم لنا بها، ثمّة ما نعتقده بناءً على شهادة غيرنا وهو ما نسمّيه إيماناً. وثمّة ما نؤجّل حكمنا عليه بعد التحقيق وقبله، وهو ما نسمّيه شكّاً. وحين نميل إلى هذه الجهة أو تلك دون أن نحدّد شيئاً بشكل مطلق، فإنّنا نسمّي ذلك رأياً...

(بوسويه)

أرخوا الأعنّة لجيادهم دون توقّف حتى صاروا على مشارف طرموشة على بعد فرسخ من الأسوار. انتصب أمامهم سفح الجبل مثل جدار نحتته في الصخر يد أحد العمالقة. وفوق رؤوسهم بقامات عديدة لاح لهم المدخل محفوراً في الحجارة في آخر مسلك وعر مليء بالالتواءات يكاد يصبح عمودياً كلّما اقترب من القمّة، وتبدو نهايته محفوفةً بالصخور والنتوءات الحادّة. هتف فارغاس:

- لا سبيل لسلوك هذه الطريق إلاّ سيراً على الأقدام.

ترجّل الجميع إعلاناً عن الموافقة.

- علينا أن نسرع فعمّا قريب يداهمنا الليل ولن يفيدنا لا المصباح الزيتيّ ولا المشاعل.

حدّق عزرا في المسلك اللولبيّ الذي يتسلّق الجبل وقال محبطاً:

- من المستحيل أن أصحبكم إلى هناك. ولو تحاملت على نفسي

وحاولت الصعود معكم لما أفلحت إلاّ في تعطيلكم. الأفضل أن أنتظركم هنا.

هتف ابن سراج:

ـ ها أنت تثوب إلى رشدك أخيراً. ألم نحذّرك من مشقّة الطريق؟

أضاف مشيراً إلى مانويلا:

ـ لو كنت مكانك يا سينورة لظللت في رفقة الربّي. فنحن أمام مغامرة غير مأمونة العواقب.

ـ أنت على حقّ ولكن ليست الخطورة هي التي تمنعني من الذهاب معكم.

أضافت مشيرة إلى حذائها وفستانها بامتعاض واضح:

ـ بل هذا الهندام غير المناسب لمثل هذه الرحلات.

ـ من كان يتصوّر أنّ عبارة ابن برول **هناك في بطن الحجارة** تشير إلى مغارة. فراي فارغاس، أيّ اسمٍ قيل لك إنّهم يطلقونه على هذا المكان؟

ـ مغارة مالترافييزو.

ـ مغارة مالترافييزو. . . لولا قريبك فارس المعبد لكنّا نبحث عن **بطن الحجارة** حتّى الآن.

قال فارغاس معلّقاً:

ـ ومع ذلك يخيّل إليّ الآن أنّه كان علينا التفكير في ذلك منذ قرأنا إشارة ابن برول إلى **جبل النور**. لا أدري لماذا تعنّتنا في البحث عن الجبل ناسين المغارة والحال أنّنا لم نغفل عن صلة الجبل بالغار الذي كان يذهب إليه النبيّ للتأمّل. إضافة إلى نومى الرقيم الذين ورد ذكرهم في القصر الأوّل وهم أهل الكهف.

ـ ماذا أقول لك؟ كلّ شيء يبدو واضحاً الآن بعد تفكيك اللغز

واكتمال المشهد لكنّ الأمر مختلف حين نكون أمام مجموعة من التفاصيل.

قطعت مانويلا حديثهما بنبرة متردّدة:

ـ على ذكر التفاصيل، أرجو يا فراي فارغاس أن يكون حفيد الغولفينو واثقاً من معلوماته، خاصّة ما يتعلّق منها بالصور المنحوتة على جدران المغارة.

ـ لم يترك السينور هورتادو أيّ مجال للشكّ. إنّه واحد من القلائل الذين يعرفون هذا المكان كلّ المعرفة ونحن محظوظون لاهتدائنا إليه.

قال عزرا ساخراً:

ـ محظوظون؟ وهل ترك ابن برول مكاناً للحظّ في هذه الرحلة؟ صحيح أنّ السينورة لاحظت العبارة المحفورة أعلى البوّابة عن طريق الصدفة لكنّنا كنّا ننتبه إليها لا محالة. وباستثناء ذلك فإنّ كلّ شيء كان مخطّطاً له بكامل الدقّة. ولا أظنّ ابن برول ذكر الساعة ويوم الحساب إلاّ وهو واثق من أنّ السينور هورتادو سيدلّنا على مغارة مالترافييزو.

عقّب فارغاس موافقاً:

ـ أنت على حقّ. لاشكّ أنّ ابن برول عرف بالصداقة التي جمعت بين الرجل ووالدي. ما أن ذكرت له اسم بيدرو فارغاس حتّى انفرجت أساريره هو الذي قابلني في البداية ببرود شديد. فجأة أصبح مستعداً لخدمتي بكلّ طريقة. أخذ يستفسرني عن الموضوع إلى أن أتيت على ذكر **الذين يسجدون والشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والدوابّ**. عندئذ تذكّر هذه المغارة التي تزدان جدرانها بمحفورات لا أحد يعرف مصدرها.

قال الشيخ:

ـ هكذا لم يبق علينا الآن إلاّ أن نتأكّد من صحّة معلومات هذا الـ. . .سافل. فلنسرع.

ما أن ابتعدا حتّى تهالك عزرا على الأرض قائلاً:

ـ حقّاً إنّ الشيخوخة لأشدّ العقاب. إنّها تأخذ قوانا ومعها زهونا وغرورنا وإعجابنا بأنفسنا. أنت محظوظة بشبابك يا سينورة فتمتّعي به، تمتّعي به جيّداً ولا تنسي أنّ الزمن يمرّ. إنّه كالنهر يا سينورة يجري دون أن يتوقّف ودون أن تعود مياهه إلى النبع.

ابتسمت وهمّت أن تردّ بأنّها توافقه الرأي تماماً. ترى هل يعلم أنّ الخوف من مرور الزمن دون جدوى كان أحد أسباب اندفاعها وراء هذه المغامرة؟

أضاف عزرا وكأنّه يقرأ خواطرها:

ـ اسمعي يا سينورة... قبل أيّام حين قطعت علينا طريقنا ودافعت عن نفسك بحماسة لإقناعنا باصطحابك معنا طرحنا عليك الكثير من الأسئلة المحرجة، إلاّ انّ ثمّة سؤالاً أعترف بأنّه ما انفكّ يخامرني منذ ذلك الوقت.

أحدّ فيها النظر طويلاً.

ـ لنفترض جدلاً أنّك لم تقولي غير الحقيقة المطلقة وأنّ ابن برول اختارك لأسباب لا يعرف تفاصيلها سواه. أنت إذن هنا نزولاً عند رغبة رجل غريب عنك عرض عليك أن تعثري على ثلاثة أشخاص هم أيضاً غرباء عنك، في طريق من طرق إسبانيا، كي تعطيهم حلاً للغز لا يهمّك في شيء. ألا ترين أنّ هذا الأمر أغرب من الغرابة وأنّه يفرض السؤال التالي: لماذا قبلت؟

أحسّت مانويلا بقشعريرة تهزّ جسدها كلّه. كانت تتوقّع هذا السؤال لكنّها لم تكن تعرف متى يُطرح ومن يطرحه. لم يفتها طبعاً أن تستعدّ له مع ميننداز وأن تخفي في سرّها إجابة جاهزة تتعلّق بعداوتها لديوان التفتيش التي استحكمت مع مصادرة رسالتها وإدخالها السجن وتحوّلت إلى رغبة

في الثأر وحرص على مساعدة كلّ ضحايا المحاكم. إلاّ أنّها تركت تلك الإجابة جانباً.

ـ لو قلت لك إنّي قبلت بسبب الضجر؟ ولو قلت لك إنّي قبلت بسبب الرغبة العارمة في عمل شيء ذي جدوى؟ هل تصدّقني؟

ـ ذاك ما توقّعته تماماً. لا تسأليني عن السبب فلعلّه الحدس أو لعلّه ثمرة الشيخوخة.

أضاف بنبرة معلّم يشجّع تلميذه:

ـ حسناً يا سينورة. . . أعجبتني صراحتك.

ثمّ زاد بنبرة لا تخلو من مكر:

ـ وإن كنت لا تتوخّينها في كلّ حين.

خيّم الصمت من جديد وبلغتهما من بعيد أصوات فارغاس وابن سراج وهما يتسلّقان الجبل. همست مانويلا:

ـ ترى ما الذي سيجدانه فوق؟

ـ لن يجدا إلاّ ما أراد لهما ابن برول.

ـ هل تعرف بماذا يذكّرني كلّ هذا وأنا الجاهلة بحقيقة ما تبحثون عنه؟ إنّه يذكّرني بحكايات البحث عن الكنوز.

أجاب عزرا ضاحكاً:

ـ لقد أصبت المرمى يا سينورة. إنّها فعلاً رحلة بحث عن كنز. لكنّه الكنز الأثمن والأعجب والأعظم من كلّ الكنوز.

نظرت إليه كأنّها تسأل إن كان عليها أن تصدّقه أم لا.

ـ هل أنت جادّ في هذا الكلام؟

ـ كلّ الجدّ يا سينورة. . . لا تشكّي في ذلك.

أضاف مشيراً إليها بسبّابة لواها المرض:

ـ وحين يحينَ الموعد ستسلّميننا المفتاح الذي يمكّننا من الحصول على هذا الكنز. فالمفتاح معك أليس كذلك؟

استأنف حديثه قبل أن تجد الوقت للردّ.

ـ طبعاً هو معك وإلاّ لما كنت صريحة معي قبل قليل. لا شكّ أنّ المفتاح معك.

رفع وجهه ناحية قمّة الجبل وأصاخ السمع.

ـ خفتت أصواتهما. يبدو أنّهما وصلا.

وجدا الطريق أوعر ممّا كانا يتوقّعان، وكان لفح الريح يطوّح بفتيل المصباح فيكادان لا يبصران موقع أقدامهما، وبين هذا وذاك كانت أصناف من البعوض والأرفيّات تحوّم حول نار المصباح فتعوق سيرهما.

هتف ابن سراج لاهثاً وقد كساه العرق:

ـ تمهّل أرجوك. رفقاً بشيخوختي يا فراي فارغاس.

ـ دعك من هذا يا شيخ فأنا أعلم أنّها ليست الشيخوخة بل أطباق الغرناطيّات. كيف تحافظ على حيويّة الشباب وأنت من الفطائر إلى الحلويّات إلى الكعك المحشوّ بالتمر إلى اللوز المعجون المقليّ في الزيت؟

ـ لك يا عزيزي أن تقول ما تشاء في الطبخ العربيّ شرط أن تعترف بأنّه أطيب من بيضكم المقليّ في شحم الخنزير وأفضل من العيش على سمك السردين مع البطاطس.

ـ المهمّ أنّ أطباقي أنا تسمح لي بالتقدّم.

لم يبلغا مدخل المغارة إلاّ والشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة. التقط الشيخ أنفاسه وهمس بنبرة توجّس:

ـ لا أملك إلاّ أن أفكّر في الآثار الموجودة داخل هذه المغارة وفي ما

أراد ابن برول أن نسترجعه من خلالها: الذكريات المبهمة التي يحملها كلّ منا عن الكهوف والعتمة التي تسكن جانباً من وعي كلّ منّا. أفكّر أيضاً في أهل الكهف أولئك الذين دخلوا مغارة قد لا تختلف عن هذه.

صمت لحظة ثمّ أضاف:

ـ أرجو أن لا يحدث لنا ما حدث لهم فقد استيقظوا ليكتشفوا أنّهم ناموا طيلة تسع وثلاثمائة سنة.

كان الراهب أوّل الداخلين إلى تحت القبّة الصخريّة. تحسّس تحت قدميه عظاماً متفحّمة ولاحظ هنا وهناك بقايا حراب خشبيّة بدت رؤوسها مُصَلَّدةً في النار. إلى اليمين رأى كرات من الطين مرميّة في حفرة أسفل عمود صخريّ يكاد يُخيّل إلى الناظر أنّه منحوتة تمثّل أحد الحيوانات. ماذا كانت تصلح له تلك الكرات؟ رجّح الراهب بسبب وجودها قرب شبه التمثال أنّها كانت نوعاً من القذائف لتدريب الصيّادين القدامى على إصابة المرمى. هذا إذا لم تكن جزءاً من طقس مجهول. رفع فارغاس المصباح الزيتي إلى أعلى لإنارة الجدران فلم يستطع كبح صرخة دهشة.

ـ انظر. انظر يا شيخ.

كان مشهداً يأخذ بالألباب حقّاً. على طول الجدران حفرت أيدٍ غابرة تخطيطات غلب عليها اللونان الأبيض والأحمر الطينيّ تمثّل أشخاصاً مقرفصين وصيّادين يشهرون أسلحتهم الصوّانيّة المسنّنة ورؤوس حيوانات وشموساً زعفرانيّة وأقماراً في هيئة عين الهرّ وزخارف غامضة. لكنّ ما استأثر باهتمام الرجلين وأثار دهشتهما رسم يمثّل يدين ملوّنتين بالأحمر.

صرخ ابن سراج:

ـ إنّهما يدا السارق والسارقة. هل تذكر كلمات ابن برول يا فارغاس؟ **اقطعوا يدي السارق والسارقة. كلّ يدٍ تُقطع تُكسى بحمرة الأرجوان. وما**

أن تُكسى بحمرة الأرجوان حتى تتحوّل إلى صوف. وهناك. انظر إلى ذلك الطائر وتلك القنزعة على رأسه. إنّه الهدهد.

ردّد كمن يطلق صيحة انتصار:

ـ **فليرافقكم الهدهد.**

اقترب فارغاس إلى حيث أشار رفيقه وأدنى المصباح من الجدار. لم يلحظ شيئاً في البداية ثم ما أن ألفت عيناه رقصة الضوء والظلّ حتّى تبيّن ورقة طويلة في هيئة ريشة أو سعفة نخيل مثبتةً في شقٍّ صغير بين يدين مفتوحتي الأصابع. هتف ناحية رفيقه:

ـ اقطع اليد يا شيخ ابن سراج. أعني اِسحب الورقة.

لم يتردّ ابن سراج لحظة. كانت الورقة تخفي شيئاً معدنياً يكاد لا يبين من خارج الشقّ، وقبل أن يظهره ابن سراج من مكانه كان فارغاس قد عرف ما هو.

ـ مثلّث. إنّه مثلّث ثانٍ من البرونز.

*

سلمنقة.

فرغ تالافيرا من قراءة التقرير وأعاد التأمّل في عنوانه شارد الذهن: في مشروع طريق بحريّة. قضيّة كريستوبال كولون. ألا تكفيه مشاغله حتّى تكلّفه الملكة برئاسة لجنة للبحث في أمر هذا البحّار الجنويّ؟ ولكن هل يمكن حقّاً بلوغ الهند عن طريق الغرب كما يزعم هذا البحّار؟ لو صحّ ذلك لبطل كلّ ما قامت عليه علوم العصر من فرضيّات. ثمّ هل هو من جنوة حقّاً؟ التحريّات تفيد بأنّه يراسل مواطنيه الإيطاليّين باللغة القشتاليّة. وفي الرسائل الثلاث الملحقة بالتقرير دليل على ذلك. الأولى موجّهة إلى نيقولو أودريغو سفير جنوة في قشتالة والثانية موجّهة إلى مصرف القديس جورج في جنوة والثالثة موجّهة إلى أحد أصدقائه الإيطاليّين، الأب

غوريشيو. والرسائل كلّها مكتوبة بالقشتاليّة. أمر آخر حيّر الجميع. تحوّلُ اللقب من كولومبو إلى كولون. ترى ما الذي دفع الرجل إلى تغيير اسمه؟ ليس كولون الترجمة الصوتيّة لكولومبو بالإسبانيّة. لماذا اختار إذن هذا اللقب. أعاد تالافيرا قراءة الصفحة التاسعة من التقرير: يبدو أن البحّار كان يُلقّب في الأصل بكولون أو كولوم ثمّ تحوّل إلى كولومب أو كولومبو وحين انتقل إلى إسبانيا استعاد لقبه لأصليّ. الغريب أنّ عائلات يهوديّة قطلانيّة كثيرة تحمل هذا اللقب. وفي التقرير إشارة إلى بعضها مثل أندرو كولوم الذي أُعدم حرقاً قبل ثمانية أعوام بتهمة الهرطقة، وتومي كولوم وزوجته ليونور وابنهما خوان وصهرهما ألدونزا وجميعهم من المتنصّرين الذين أثبت ديوان التفتيش أنّهم قاموا بدفن إحدى قريباتهم على الطريقة اليهوديّة. وممّا يدلّ على أنّ الرجل كان قشتاليّ الهوى حسب المعلومات الواردة في التقرير، أنّه اظهر مرّتين تصرّفات معادية لجنوة. المرّة الأولى حين حارب إلى جانب الملك رينيه الذي تعتبره جنوة عدوّا لها والثانية قبل أحد عشر عاماً حين قام بمهاجمة سفن جنويّة. كلّ هذا يفضي إلى تفسير وحيد: أنّ أسرة كولومبو كانت من يهود إسبانيا الذين استوطنوا جنوة وظلّوا على عادة إخوانهم أوفياء إلى لغتهم الأمّ.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ رئيس دير الرابطة واثق من انتماء الرجل إلى مملكة أخرى وأنّه يتكلّم بلسان أجنبيّ. وهو ما يتوافق مع ما لاحظه الراهب الدومينيكاني بارتولوميو لاس كازاس الذي تحدّث طويلاً مع البحّار وأعلن أكثر من مرّة أنّ القشتاليّة لم تكن لغته الطبيعيّة، فقد أظهر في أحيان كثيرة جهلاً بمعاني الكثير من الكلمات وبطريقة نطقها. أين الحقيقة في كلّ ذلك؟

الحقّ أنّ ما يزعج تالافيرا ليس متعلّقاً بهذا الجدل في الأصول بقدر ما هو متعلّق بصفات الرجل الذي بدا له متعالياً شديد الزهو بنفسه. ولا دليل على ذلك أفضل ممّا تحفل به رسائله. خاصّة إشاراته الدائمة إلى تلك

الفقرة من المسرحيّة التي تحمل عنوان ميديا والتي يقول فيها مؤلّفها سينكة: *يأتي زمن من عمر الزمان الطويل تحلّ فيه أمّ المحيطات كلّ العرى التي تربط بين الأشياء، عندئذ ينفتح جانب من الأرض ويأتي بحّار جديد مثل ذاك الذي كان دليل جازون والذي كان اسمه تيفيس. يومها يكتشف هذا البحّار عالماً جديداً ومن يومها لن تظلّ توليس الأرض الأخيرة*. كان واضحاً في ذهن تالافيرا أنّ كولون يرى نفسه في تيفيس، وهو طبعاً منتهى الغرور. على أيّ حال لن تلبث اللجنة أن تعرب عن رأيها في الأمر. طُرق الباب فوضع تالافيرا التقرير في درج وأذن للطارق بالدخول. عبر دياز المسافة بخطى سريعة وشرع في الكلام قبل أن يقف أمام الكاهن.

ـ تأكّدت من الأمر الآن. لقد غادروا شريش إلاّ انّنا للأسف لا نعرف إلى أين اتّجهوا بعد ذلك.

بدا على تالافيرا الامتعاض.

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ يبدو أنهم غادروا البلدة مع مغيب الشمس واتّجهوا ناحية طرموشة وعندها انقطع أثرهم.

ـ هذا مزعج. هذا مزعج جدّاً. هل أنت واثق من كفاءة رجالك؟

ـ ثقتي بنفسي يا سيّدي. لكنّهم للأسف فوجئوا بما لم يكن يتوقّعه أحد.

ـ تقصد إيقاف الرِبّي؟

ـ وإطلاق سراحه أيضاً. لقد أخذ الأمر رجالنا على حين غرّة. خاصّةً أنّهم في وضع لا يُحسدون عليه إذ عليهم أن يتخفّوا عن أعين الجماعة وعن أعين رجال توركيمادا أيضاً الذين يقتفون أثر الجماعة.

ـ عليكم بالعثور عليهم.

كرّر مشدّداً:

- لابدّ من ذلك.

أومأ دياز بالإيجاب وقد جمد البريق في عينيه. فقال تالافيرا:

- سأمكث أسبوعين في سلمنقة فلا تتوانَ عن إخباري بكلّ جديد.

ردّ الرجل بلهجة تصميم:

- لن يفلتوا منّا يا سيّدي.

- حسناً. تستطيع أن تنصرف.

ظلّ شارد الذهن للحظات ثمّ عاد إلى الطاولة وأخرج التقرير من جديد. عليه الآن أن يهتمّ بمسألة الجنويّ.

*

أحواز قصرش.

كتم عزرا قشعريرة وشدّ ذيول اللحاف إلى صدره.

- ليتك تذكي هذه النار يا ابن سراج فأنا أكاد أتجمّد.

نهض الشيخ على مضض وألقى في النار ببعض العيدان الجافّة فسُمعت لها فرقعة وارتفع لسان من اللهب انكشفت في ضوئه وجوه الرفاق الأربعة. قال فارغاس متأمّلاً المثلّثين الموضوعين على الأرض:

- يبدو أن ابن برول يريد منّا العثور على مثلّثات بعدد القصور التي وردت في رسائله.

- كم من مثلّث يريدنا أن نجد؟ ستّة أم ثمانية؟ وما المغزى من وراء تقسيم القصور إلى مجموعة فرعيّة وأخرى رئيسيّة؟ ثمّ لماذا يريدنا أن نعثر على هذه المثلّثات تحديداً؟

- أغلب الظنّ عندي أنّه خشي أن نعمد إلى حلّ شفرة القصر الأخير وخاف أن نهمل البقيّة فلا نجوب البلاد قاطعين كلّ هذه المسافات. وهذا

يعني أنه يريدنا أن نقوم بهذه الرحلة ولا يريدنا أن نذهب مباشرة إلى حيث الـ. . .

مرّة أخرى انتبه فارغاس إلى وجود مانويلا فأمسك لسانه في اللحظة الأخيرة. إلاّ أنّه لم يغيّر الموضوع هذه المرّة بل التفت إليها وقال متبرّماً:

ـ يبدو أن وجودك معنا يمثّل مشكلة يا سينورة.

رفعت يديها مسلّمةً

ـ أشعر بالحرج ولكن. . .

أضافت وهي تشير إلى العتمة المحيطة بهم:

ـ إلى أين تريدني أن أذهب؟

تدخّل عزرا:

ـ قل لي فراي فاراس. لماذا لا نكاشفها بالحقيقة؟

أضاف بسرعة:

ـ على الأقلّ بجزء من الحقيقة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لنكشف للسينورة عن هدف رحلتنا.

ـ يبدو أنّ التعب عرف طريقه إلى عقلك يا ربّي.

ـ ليس الأمر كما تظنّ. أنت لم تفهم قصدي.

هتف الشيخ:

ـ أنا فهمتك. وأتّفق معك في ذلك.

دون أن ينتظر موافقة فارغاس التفت ناحية مانويلا قائلاً:

ـ نحن نبحث عن كتاب.

لم تستطع إخفاء دهشتها.

- كتاب؟

- أجل يا سينورة إنّه كتاب. صحيح أنّه نادر بل فريد من نوعه لكنّه ليس أكثر من كتاب. هل تصدّقينني؟

الغريب أنّها كانت واثقة من صدقه، ليس فقط لأنّ فارغاس سبق أن أشار إلى الأمر بل لأنّ فراستها كانت تؤكّد لها أنّ كلّ ما ينبعث من الشيخ يدلّ على أنّه غير قادر على الكذب أو التصنّع. التفتت ناحية الحبر وعلى شفتيها نصف ابتسامة.

- هل هذا هو كنزك يا ربّي عزرا؟ هل هذا هو أعجب وأغلى وأعظم الكنوز؟ والغريب أنّي لم أشكّ في كلامك لحظةً.

اكتفى اليهودي بهزّ كتفيه وقال لفارغاس:

- أليس الأمر أفضل هكذا؟ على الأقلّ لن تضطرّ إلى عضّ لسانك عند كلّ عبارة. ونحن كذلك. ما رأيك الآن في أن نعود إلى مثلّثاتنا؟

هتف الشيخ:

- أصبت يا رِبّي. ما فهمته حتّى الآن أن ابن برول زرع هذه المثلّثات في أكثر من مكان كي يمنعنا من محاولة حلّ اللغز الأخير مباشرة ودون المرور بالمراحل الأخرى.

- تماماً.

قالت مانويلا بصوت خافت:

- هل تسمحون لي بسؤال؟ وما الذي يمنعكم من أن تقوموا بذلك فعلاً؟ ما الذي يمنعكم من أن تحاولوا فكّ شفرة القصر الأخير؟ ألا يُفترض أنه يتضمّن المرحلة الأخيرة؟

ندّت عن عزرا ضحكة متعبة.

- لأنّ ابن برول أذكى من ذلك بكثير. ومن أدرانا في حال أهملنا

المراحل الأخرى بأنّنا لن نغفل عن علامات وإشارات يتّضح لنا في ما بعد أنّها كانت ضروريّة لحلّ الشفرة الأخيرة؟ كلاّ. إذا كان ابن برول قد أراد لنا أن نمرّ بهذه المراحل فلاشكّ أنّ لديه غاية محدّدة من وراء ذلك. وأغلب الظنّ عندي أنّنا دون العثور على المثلّثات كلّها لن نستطيع أبداً العثور على الكتاب. فالرجل لم يترك شيئاً للصدفة. ونحن نرى دليلاً على ذلك مع كلّ خطوة. لكأنّنا أمام فسيفساء نحتاج فيها إلى كلّ قطعة وإلاّ تحوّل كلّ أفق إلى أفق مسدود.

مرّ بيده على لحيته مضيفاً:

ـ لأمر مَا قرّر ابن برول أنّ علينا المرور بكلّ هذه المراحل ومن العبث أن نحاول التقصّي من ذلك.

خيّم الصمت فجأة ولم يقطعه إلاّ فرقعة الحطب في النار بينما بدت السماء البعيدة وكأنّها ترتجف مثقلة بنجومها. قالت مانويلا بعد برهة:

ـ أريد أن أفهم شيئاً آخر يتعلّق بالتصاوير التي رأيتماها على جدران مغارة مالترافييزو. ما معنى عبارة **وما أن تُكسى بحمرة الأرجوان حتى تتحوّل إلى صوف**. ولماذا تحدّث ابن برول عن **الهدهد** دون أيّ طير آخر؟

سبق ابن سراج إلى الردّ:

ـ المفروض أنّك تملكين الجواب يا سينورة فقد حدّثتنا في هذا الأمر عند أوّل لقاء لنا.

زوّت المرأة بين حاجبيها.

ـ أنا؟ متى كان ذلك؟ حين حدّثتكم عن لعبة الورق؟

أومأ الشيخ بالنفي.

ـ حين دافعتُ عن نظريّة العناصر الأربعة؟

ـ كلاّ يا سينورة.

استغرقت في التفكير مارّة بإصبعها على خالها دون أن تنتبه فقال ابن سراج:

ـ قلت لنا يومها: إنّ التصوّف فلسفة تمنح الأولويّة لدين القلب. قلت أيضاً إنّ التصوّف كان ردّ فعل على الترف والفساد الذي استشرى بعد الفتوحات. و...

ـ وقلت إنّ ارتداء خرقة الصوف تمّ في ذلك السياق.

قال الشيخ فاتحاً ذراعيه:

ـ أرأيتِ؟ كان ابن برول يشير إلى معنيين من وراء ذكر الصوف. المعنى الأوّل ذكّرنا به عزرا وهو موجود في التوراة: ***هلمّ نتحاجج يقول الربّ. إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضّ كالثلج. إن كانت حمراء كالدوديّ تصير كالصوف.***

عقّب عزرا من داخل لحافه:

ـ وقد مزج ابن برول هذه الآية بآية من القرآن.

التفت ناحية الشيخ سائلاً:

ـ هلاّ ذكّرتنا بها يا ابن سراج؟

ـ ***والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكلاً من الله والله عزيز حكيم***. إلاّ أنّ ابن برول لم يكتف بهذا المعنى بل ذهب إلى الصوفيّين وأخذ من رؤيتهم ما يتعلّق بنور الباطن أو السرّ. وهو ما يرمز إليه الصوف تماماً كما يرمز اللون الأحمر إلى الدم وإلى الحياة. هكذا تكتمل العناصر الرمزيّة لرحلتنا فنجد الغفران والعقاب والسرّ وربّما، عن طريق الإشارة إلى الصوفيّة، زاوية نظر أخرى إلى ما هو ربّانيّ. كلّ هذا في علاقة مع يوم الحساب أو يوم القيامة. ولا شكّ أنّ صاحبنا لم يذكر كلمة الصوف إلاّ وهو يستحضر الآيتين الرابعة والخامسة من سورة

القارعة: *يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش.*

ـ والهدهد؟

قال ابن سراج مذكّراً:

ـ جاء في سورة النمل أنّ سليمان حُشر له جنودٌ من الإنس والجنّ والطير. *وتفقّد الطيرَ فقال مالي لا أرى الهدهُدَ أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليَأتينّي بسلطانٍ مُبين.* وكما نعلم من باقي السورة فإنّ الهدهد جاءَه بخبر ملكة سبأ. ممّا يعني أنّ هذا الطائر قد يكون رمزاً عن الصلة بين المعلوم والمجهول أو جسراً إلى ما هو غير مرئيّ. ولعلّ ابن برول أراد بذلك الإشارة إلى عتمة المغارة وعالمها الخفيّ. وهي إشارة كدنا نغفل عنها ولولا فراي فارغاس وصديقه فارس المعبد لكنّا حتّى الآن تائهين وراء سراب.

ارتفع صوت عزرا من تحت اللحاف:

ـ هل فهمت الآن يا سينورة لماذا يكون من العبث أن نحرق المراحل أو أن نحاول الغشّ مع ابن برول؟ إنّ لديه عقلاً من نوع خاصّ. وما من كلمة يخطّها ونظنّ أنّها وردت صدفة إلاّ ويتّضح أنّها محسوبة وذات دلالة أعمق من كلّ توقّع. وأنا واثق من أنّ الثمن سيكون باهظا لو أنّنا حاولنا الالتفاف على المراحل التي رسمها لنا.

أضاف وقد تغيّرت نبرته:

ـ بل لا أستغرب أن يكون الثمن حياتنا.

سألت مانويلا بعد لحظة صمت:

ـ أخشى أن أكون قد بالغت بعض الشيء في استغلال لطفكم. ولكن هل لديكم فكرة عن وجهتنا المقبلة؟

فاجأ فارغاس الجميع بتولّي الإجابة.

ـ كلاّ. فأمامنا الكثير من النقاط التي تحتاج إلى فحص وتمحيص. اليقين الوحيد وإن كان غير ذي أهميّة، أنّ علينا البحث عن كاتدرائيّة داخل مدينة. ولكنّك تعرفين مثلنا جميعاً أنّ هذا الوصف ينطبق على أغلب مُدن هذه البلاد.

غمغمت مانويلا بصوت غلب عليه فجأة الإعياء:

ـ هكذا إذن. عود على بدء إلى ما لا نهاية.

الفصل ١٩

إذا كان الحَجَرُ تحتك فهو طوع أمرك. وإذا كان فوقك فهو سلطان عليك. إذن فهو منك. أمّا إذا كان إلى جانبك فهو ندّ لك...

(..........)

تحوّلت النار إلى رماد وأرسل القمر أشعّته على ذرى السييرا. تدثّرت مانويلا بلحاف ثقيل من الصوف وسارت بضع خطوات قبل أن تتهالك على كثيب صغير. استيقظت منذ ساعة دون أن تفلح في العودة إلى النوم وأخذت الأفكار تتزاحم في ذهنها طاردة كلّ إمكانيّة للراحة. كانوا إذن في طلب كتاب. ثلاثة رجال لا يجمع بينهم شيء سوى سعة علمهم خرجوا في طلب كتاب مخفيّ في مكان ما من شبه الجزيرة.

أين المؤامرة التي تحدّث عنها توركيمادا؟ مهما كانت قيمة هذا الكتاب فهو لا يمكن أن يهدّد الدولة أو الكنيسة. ولكن لماذا لجأ هذا المرّانو ابن برول إلى هذه الطريقة؟ لماذا أجهد عقله في تصوّر لغز بهذا التعقيد حيث يحضر القرآن جنباً إلى جنب مع العهد القديم والعهد الجديد. هل هو مجرّد لهو علماء؟ إنّها لا تستطيع تصديق ذلك. تنهّدت فجأة وهي تتذكّر أنّ الرجل الوحيد الذي كان يستطيع مدّها بكلّ الأجوبة تحوّل إلى رماد في محرقة. كانت تهمّ بالعودة إلى حيث خيّموا حين فاجأها صوت فارغاس:

ـ أنت أيضاً هجرك النوم؟

التفتت إليه متسائلة منذ متى وهو يراقبها.

قال معتذراً:

ـ أرجو أن لا أكون قد أخفتك.

انتبهت إلى أنّه كان يتحاشى النظر إليها على الرغم من العتمة.

ـ هل أرّقك البحث عن حلّ لكلّ تلك الألغاز.

ـ ليت الأمر كان مقتصراً على ذلك.

ـ أعترف بأنّ عملكم ليس سهلاً.

ـ إنّ الأمور نسبيّة يا سينورة. فقد تهون الصعاب إذا كانت الدوافع قويّة.

بذلت جهدا كبيراً كي تطرح سؤالها بأكثر ما يمكن من حياد.

ـ وأنت فراي فارغاس؟ ما هي دوافعك؟ هل كنت صديقاً لابن برول؟

ـ إذا كانت الكثافة أهمّ من المسافة فالجواب هو نعم. كنت صديقاً لابن برول.

بدت لها الإجابة غامضة لكنّها خمّنت أنّ للراهب أسبابه في عدم الإفصاح ففضّلت تغيير وجهة الحديث.

ـ ولكنّك راهب فرانسيسكانيّ بينما رفيقاك يهوديّ ومسلم.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ هل تريد الصراحة؟ يبدو لي ذلك أمراً شديد الغرابة.

أضافت بسرعة:

ـ لا أعني أنّي أنكر عليكم شيئاً. ولكنّي أرى اجتماعكم مخالفاً لطبيعة الأمور.

فكّر لحظة قبل أن يقول مشيراً إلى النجوم:

ـ انظري إلى هذه الكواكب؟ إنّها لا تحصى. وهي تسير كلّها في سماء

واحدة وعلى الرغم من ذلك فلا أحد منها يشبه الآخر ولكلٍّ منها عالمه الخاصّ. وهكذا هم البشر. هل أرضاك جوابي؟

أعقب سؤاله فوراً بسؤال آخر أكثر جديّة:

ـ من أنت يا سينورة؟ أقصد من أنت حقيقةً؟

لم تكن نبرته عدائيّة، وبدا واضحاً أنّه لا يريد سوى التخلّص نهائيّاً من شكوكه لوضع حدّ للتوتّر الذي ساد علاقتهما. أجابت محاولة رسم بسمة على شفتيها:

ـ لنقل إنّي أحد تلك الكواكب يا فراي فارغاس.

أضافت وكأنّها تسجّل نقطة لصالحها:

ـ هل أرضاك جوابي؟

همّ بالردّ لكنّها لم تمنحه الفرصة.

ـ سأحاول العودة إلى النوم فأمامنا غداً رحلة صعبة. تصبح على خير.

ظلّ صامتاً فاتّجهت ناحية الخيام لكنّها تعثّرت في حجر فلم تجد بدّاً من التشبّث بذراع الفرانسيسكانيّ، ودون أن تقصد، التصق جسداهما للحظة خاطفة. فما كان من الراهب إلاّ ان ردّ الفعل بشكل غير منتظر دافعاً بها بعنف متراجعاً إلى الخلف.

ـ ما هذا يا فراي فارغاس؟ أتلك طريقتك في نجدة الآخرين؟

غمغم مرتبكاً:

ـ أنا. . . أنا آسف.

قالت ساخرة:

ـ أنا أيضاً آسفة فعثرتي لم تكن مقصودة.

بعد قليل حين أغمضت عينيها بحثاً عن النوم، انتابها إحساس غريب بأنّ جسد فارغاس مازال ملتصقاً بجسدها.

طلع النهار منذراً بحرارة خانقة. كان عزرا آخر المستيقظين. بدا شاحباً مربدّ التقاطيع متعب العينين يتحرّك بخطى واهنة. اقترب من رفاقه حول النار المطفأة فوجد فارغاس وابن سراج يحاولان تفكيك شفرة القصر الجديد وقد انشغلا عن كلّ شيء حتّى كادا لا يردّان على تحيّته الصباحيّة. وحدها مانويلا التي كانت جالسة على حدة انتبهت إلى سحنة الربّي.

ـ هل أنت بخير؟

غمغم العجوز بكلمات غير مفهومة وتهالك على الأرض بين الراهب والشيخ.

ـ إلى أين وصلتما؟

ردّ فارغاس:

ـ يبدو أنّنا قطعنا شوطاً لا بأس به.

مدّ يده بورقة قائلاً:

ـ انظر بنفسك.

فتح عزرا عينين لم يغادرهما النوم تماماً وشرع في قراءة القصر الذي أعادوا تركيبه البارحة.

«القصر الثاني الرئيسيّ»

مبارك مجد ي.ه.و.ه في مسكنه.

الاسم في ه.

في ב كان يمكن للشخيناه أن تبقى لولا خيانة البشر. وقد أُبلغتُ بأبعادها وعلمتُ أنّ طولها ٣٠ ذراعاً وعرضها ١٠ أذرع وارتفاعها ١٥ ذراعاً. ثمّ قيل لي إنّ ارتفاعها قد يكون أيضاً ٣٠ ذراعاً وأنّ عرضها قد يكون ٢٠ ذراعاً.

قرب   ليست البناية خماسيّة على الرغم من أنّها حصيلة وحدة اللامتساويات. تتضمّن جدرانها المادّة البكر أو المخصّبة ويمتدّ ظلّها الوارف على سيحان وجيحان والنيل والفرات. هناك وفي هذا العدد يمكن العثور على زوج ثيانو. عسى أن تستمدّوا من روحه الإلهام.

أشار الراهب إلى الهوامش المثبتة أسفل الورقة.

ـ لاشكّ أنّك لاحظت أنّنا أمام قصر رئيسيّ هذه المرّة وأنّ العدد المشير إلى حضور الاسم قد تغيّر إلى ٥ . إضافة إلى أنّ الحرف العبريّ ב ورد مقلوباً وفقاً لتأكيدك يا ربّي عزرا.

ـ وأنا واثق من ذلك.

مال على الأرض وأخذ يرسم بسبّابته على الرمل.

ـ لو رسمت الحرف B مقلوباً أي بتوجيه جانبه ذي القوسين إلى اليسار لانتبهت إلى الأمر فوراً يا فارغاس. لذلك أرى أنّ ابن برول بارتكابه هذا الخطأ عن قصد قد أراد لفت انتباهنا إلى وجه آخر للدلالة. الحرف ב يُنطق «بيت» بمعنى المسكن كما في «بيت لحم» أي بيت الحياة. وهذا غير بعيد عن اللغة العربيّة أليس كذلك يا ابن سراج؟

أومأ الشيخ موافقاً.

ـ وإذا كان «بيت» يعني في الاستعمال العام مكان السكنى والإقامة العابرة فإنّ له معنًى مقابلاً يشير إلى مقام الأبديّ السرمديّ، أي الكنيسة أو الجامع أو البيعة. وبإيراد الحرف مقلوباً أعتقد أنّ ابن برول أراد توجيهنا إلى المعنى الثاني. والدليل على ذلك كلمة «الشخيناه».

عاد إلى الورقة:

ـ **في ב كان يمكن للشخيناه أن تبقى لولا خيانة البشر.** إنّ الشخيناه أو السكينة هي أحد ظهورات الربّ في العالم. وهي في الآداب التلموديّة تعني ظهور الربّ في مكان معيّن.

أضاف عزرا مشدّداً على العبارة:

ـ في البيت.

أومأ فارغاس موافقاً وقال:

ـ وقد استنتجنا أنّ المقصود بالبيت هنا هو الكنيسة.

قاطعته مانويلا:

ـ ولماذا استبعدتم المكانين الآخرين، أعني المسجد والكنيس أو البيعة؟

همّ فارغاس بالردّ إلاّ أنّ الشيخ سبقه.

ـ لو كان كاتب هذا النصّ شخصاً آخر غير ابن برول لجاز الشكّ، أمّا هنا فالأمر واضح وأكيد. إنّه يتحدّث عن خيانة، عن خيانة الله طبعاً. فمن الذي يمثّل خيانة التعاليم الإلهيّة في نظر يهوديّ إن لم يكونوا المسؤولين عن ديوان التفتيش، أي سادة الكنيسة الحاليّين؟

قالت مانويلا معترضة:

ـ يبدو لي أنّكم تخلطون بين الخائن والعدوّ. أنا معكم في أنّ الكنيسة تعادي اليوم المتنصّرين الذين تعتبرهم يبطنون التمسّك بديانتهم الأصليّة. ولكن أين الخيانة في ذلك؟ ومن يخونون؟

تولّى عزرا الردّ هذه المرّة:

ـ إنّهم يخونون الربّ يا سينورة. وأيّاً كان الاسم الذي يحمله هذا الربّ فإنّه لم يأمر يوماً بالقتل والحرق والعنف. وأن نخالف تعاليمه ألا يعني أنّنا نخونه؟

لم تجد ثغرة في منطق الحبر. قال ابن سراج:

ـ قبل لحظات تحدّث فارغاس عن المعنى المقابل مشيراً إلى ورود الحرف مقلوباً. وقد قلب ابن برول عن قصد الحرف بيت. وهو يعني أنّ

البيت المقصود هو ما يقابل مكان العبادة اليهودي. ولمّا استبعد المسجد لأسباب سأعود إليها لاحقاً فإنّنا لا نملك إلاّ مقابلاً وحيداً للكنيس اليهوديّ، هو الكنيسة المسيحيّة.

التفتت مانويلا ناحية فارغاس:

ـ ولكنّك قلت البارحة إنّ المدينة موضوع البحث يجب أن تكون فيها كاتدرائيّة. لماذا كاتدرائيّة لا كنيسة؟

توقّعت أن يجيبها فارغاس بإحدى عباراته اللاذعة التي تعوّدت عليها. إلاّ أنّه فاجأها بنبرته الهادئة.

ـ بنيتُ هذا الرأي على ما جاء في النصّ. انظري.

ناولها الورقة.

ـ اقرئي هذه الفقرة. **وقد أُبلغتُ بأبعادها وعلمتُ أنّ طولها ٣٠ ذراعاً وعرضها ١٠ أذرع وارتفاعها ١٥ ذراعاً. ثمّ قيل لي إنّ ارتفاعها قد يكون أيضاً ٣٠ ذراعاً وأنّ عرضها قد يكون ٢٠ ذراعاً.** نحن هنا أمام أعداد قد تبدو للوهلة الأولى غير ذات قيمة. والحال أنّها ذات دلالة مهمّة. وقد كشف لنا عنها صديقنا عزرا. فهذه الأعداد سبنيّة هي أيضاً على تقابلٍ شبيه بتقابل الكنيس والكنيسة. إذ يكفي أن أن نضرب هذه الأعداد في اثنين كي نحصل على أبعاد مبنى آخر.

ـ أيّ مبنًى؟

طرحت مانويلا السؤال بلهفة طفل فتنته اللعبة. والحقيقة أنّها أصبحت مفتونة فعلاً بهذا النشاط الذهنيّ الآسر وبهذا التشويق الغامض الذي يحفّ بفكّ شفرات هذه النصوص الغريبة. وقد زادها ارتياحاً إحساسها بأنّ الرجال الثلاثة أصبحوا لا ينظرون إلى وجودها أو إلى تدخّلاتها بعين الريبة. أجابها فارغاس:

ـ هيكل سليمان.

ـ ماذا؟

لم تخرج المرأة من دهشتها حتّى كان عزرا ينشد:

ـ ***والبيت الذي بناه الملك سليمانُ للربّ طوله ستّون ذراعاً وعرضُهُ عشرون ذراعاً وسَمْكُهُ ثلاثون ذراعاً.*** سفر الملوك الأوّل. ستّون وثلاثون وعشرون، أي ضعف الأعداد التي أوردها ابن برول.

ـ لهذا السبب استنتجنا أنّ البيت الذي نبحث عنه كاتدرائيّة وليس كنيسة فالكاتدرائيّة وحدها يمكن أن تُقارن بمبنًى بهذه العظمة.

أحسّت مانويلا بالدوار أمام وابل المعلومات التي هبطت عليها فجأة. إلاّ أنّها لم تكتف بما سمعته.

ـ وماذا عن تكملة الفقرة: **ثمّ قيل لي إنّ ارتفاعها قد يكون أيضاً ٣٠ ذراعاً وأنّ عرضها قد يكون ٢٠ ذراعاً**؟ ماذا تعني هذه الأعداد المختلفة؟

هنا حان دور ابن سراج كي يتدخّل:

ـ قلت لك قبل قليل إنّي سأعود إلى سبب استبعادنا المسجد. وهذه الأعداد هي الدليل.

ـ لا أفهم.

ـ هل تعلمين ما هي الكعبة؟

أومأت بالنفي فقال الشيخ:

ـ إنّ مكانة الكعبة لدى المسلمين توازي مكانة هيكل سليمان لدى اليهود ومكانة ضريح السيّد المسيح بالنسبة إلى المسيحيّين. وهي مبنى أزليّ قائم وسط الحرم الشريف في مكّةَ المُكَرّمة ويوجد في ركنه الشرقيّ الحجر الأسود. وقد هُدمت الكعبة وأعيد بناؤها أكثر من مرّة لذلك اختلف الرواة في تحديد أطوالها إلاّ أنّها في إحدى الروايات غير بعيدة عمّا ألمح إليه ابن برول إذا قمنا بعمليّة حسابيّة معيّنة.

ـ هل هي. . .

ـ تماماً. إلاّ أنّ علينا هذه المرّة أن نقسم أعداد ابن برول لا أن نضاعفها كي نحصل على النتيجة. وقد تحدّث ابن برول عن الكعبة دون أن يضع في مقابلها هيكل سليمان، لذلك قلت لك إنّ المسجد لا يمكن أن يكون مقابل الكنيس.

هتفت مانويلا وقد أثار الشيخ دهشتها بسعة معارفه:

ـ قلتم لي إنّ ابن برول عبقريّ وها أنا اكتشف أنّكم لا تقلّون عنه عبقريّةً. ولكن ما حكاية الحجر الأسود في ركن الكعبة؟ من أين جاء؟

ـ يُقال إنّ الكعبة بنيت أكثر من مرّة واختلف الرواة في أوّل من بناها هل هو آدم أم بعض ذريّته. وفي ما يُروى عن ابن إسحاق انّه قال إنّ قريشاً وجدوا في ركنها كتاباً بالسريانيّة فلم يدروا ما هو حتّى قرأه لهم رجل من اليهود فإذا فيه أنا الله ذو بكّة خلقتُها يوم خلقتُ السماوات والأرض وصوّرتُ الشمس والقمر وحففتُها بسبعة أملاك حنفاءَ لا تزول حتّى يزول أَخْشَبَاهَا مُبَارَكٌ لأهلِها في الماء واللبن. قال ابن هشام أخشباها جبلاها. وفي روايةٍ أخرى أنّ إبراهيم وابنه إسماعيل وهو كما تعرفين جدّ العرب، أعادا بناءها بعد الطوفان وختماها بهذا الحجر الأسود الذي جاءهما به جبريل.

قالت مانويلا وقد جحظت عيناها:

ـ هل تعني أنّ أقدس مكان لدى المسلمين قد بناه أبو اليهود وأبو العرب بمساعدة ملاك؟

ـ هو ذاك.

بدا على المرأة الاضطراب فتدخّل عزرا وكأنه لا يريد لها أن تذهب بالاستنتاج بعيداً:

ـ لا يغرنّك ذلك يا سينورة فالمهمّ أنّ الأصل في كلّ هذا دين واحد

والبقيّة فروع، وأنّ شيئاً من كلّ هذا ما كان ليحدث لولا أبراهام. إنّه الشجرة التي...

قاطعه فارغاس بلهجة حادّة:

ـ ألا يجوز أن تكون هذه الشجرة قد أثمرت؟

ـ تقصد أنّها أثمرت المسيحيّة؟

ـ ولِمَ لاَ؟ الحديث عن شجرة يفضي بالضرورة إلى الحديث عن ثمارها. ثمّ إنّ المسيح لم ينكر البتّة تعاليم أبراهام بل كثيراً ما ردّد صداها. ***لا تظنّوا أنّي جئتُ لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقُضَ بل لأكَمّلَ. فإنّي الحقّ أقول لكم إلى أن تزول السماءُ والأرض لا يزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدةٌ من الناموس حتى يكون الكُلُّ***. إنجيل متّى. الأصحاح الخامس.

لم يبد على عزرا أنّه اقتنع بكلام الراهب.

ـ اسمع يا عزيزي. الأمر الوحيد الذي أتّفق فيه معك هو أنّ مسيحك لم يجئ بشيء إلاّ وهو موجود في التوراة.

هنا تدخّل ابن سراج بنفس الحدّة:

ـ لا تقل لي إنّك ترى الشيء نفسه بالنسبة إلى الإسلام؟

تظاهر عزرا بالأسف:

ـ لا تجبرني على الردّ يا شيخ فأنت أعلم منّي بالحقيقة.

احتقن وجه ابن سراج لكنّ الربّي واصل دون اكتراث:

ـ في وسع أيّ طفل يقرأ كتابكم أن يعيد أغلب ما جاء فيه إلى موسى وهارون وأبراهام وداوود ونوح وجالوت وإسحاق وإيلياء ويعقوب إضافة إلى نتف من أخبار المسيح ومريم العذراء والملاك جبرائيل.

قال ابن سراج كابحاً جماح غضبه:

ـ أمر مفزعٌ حقاً. يبدو أنْ لا شيء ينال من غروركم وعجرفتكم.

تكلّم دون أن يرفع صوته لكنّ غضبه كان محتدماً تحت هدوئه الظاهر، من ثمّ كان مؤثّراً أكثر ممّا لو أطلق عقيرته بالصياح. اقترب من الحبر وكأنّه يهمّ بأن يمسك بتلابيبه وقال بنفس النبرة المكتومة:

ـ هل تعرف بماذا جاء النبيّ الكريم؟ *قولوا آمنا بالله وما أُنزِل إلينا وما أنزِل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيّون من ربّهم لا نُفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون*. هل سمعت يا صموئيل عزرا؟ *لا نفرّق بين أحد منهم*. هل سمعت؟

في تلك اللحظة سُمع صفير مكتوم تحرّك له الهواء وانشقّت السماء فجأة عن خنجر استقرّ في الذراع الأيسر لابن سراج. ندّت عن مانويلا صرخة رعب وانبثقت قطرات الدم الأولى من الجرح، فظلّ الشيخ يراوح النظر بين الخنجر المرشوق في ذراعه والربّي الذي عقدت لسانه الدهشة فأخذ يبحلق في رفيقه وقد عجز عن فهم ما جرى. فجأة صرخ فارغاس:

ـ هناك. إنّه رجل يحاول الفرار.

الفصل ٢٠

يمكن أن نعقد حبلاً مقطوعاً.
لكنّ العقدة تظلّ ظاهرة في وسطه.

(مثل فارسي)

اندفع فارغاس وراء الهارب الذي كان يجري كالمجنون مراوغاً منتقلاً من دغل إلى آخر. التفت الرجل لإلقاء نظرة خاطفة على مطارده وما أن تعرّف على مسوح الراهب حتّى عاود الجري بسرعة أكبر وكأنّه رأى خلفه شيطاناً لا راهباً. كانت الخواطر تزدحم في ذهن فارغاس وهو يجري خلف الرجل فقد بدا له من الحمق أن يقوم أحدهم بعمل كهذا في واضحة النهار ودون أيّ إمكانيّة للتخفّي. بلغ الرجل تلّة صغيرة، لعلّها الوحيدة في محيط عشرة فراسخ، فتسلّقها وألقى بنفسه إلى الجهة الأخرى. بعد لحظات جاء دور فارغاس كي يتسلّق التلّة وحين وقف على قمّتها انتابه إحساس بالحيرة. كان الرجل قد اختفى كأنّ الأرض ابتلعته. ثمّ ظهر فجأة وهو يلوذ بأيكة بهشيّة. انحدر الفرانسيسكانيّ في إثره وتعثّر وكاد يسقط لكنّه تماسك في آخر لحظة واندفع بكلّ قواه ناحية الأيكة. عندها اكتشف أنّه أستخفّ بفريسته أكثر ممّا ينبغي. لم يكد يقتحم الأغصان المتشابكة حتّى رأى عملاقاً أسود يقف في وجهه. ويبدو أنّه لم يكن وحيداً فقد أحسّ فارغاس بالرجل الثاني يأتيه من خلفٍ دون أن يراه. كلّ ما تذكّره في ما بعد أنّه سمع ما يشبه الحفيف ثمّ اصطدم شيء صلب بقفا عُنُقه. ثمّ لا شيء بعد ذلك سوى حفرة بلا قرار.

استعاد وعيه فوجد نفسه وحيداً وقد تبخّر مهاجماه. أصاخ السمع فلم يسمع سوى صدى صوت مانويلا وهي تهتف باسمه. تلوّى وجهه من الألم وهو يحسّ بصداع يكاد يشطر رأسه. عجباً. كيف تمكّن هذان الملعونان من الظهور والاختفاء بهذه السرعة؟ التحقت به مانويلا أخيراً فسألته لاهثة مفزوعة:

- هل أنت بخير؟

- لا بأس. والشيخ؟

- حمداً للربّ. الجرح أقلّ خطورةً ممّا توقّعنا. يبدو أن الخُنجر أُرسل من مسافة بعيدة.

- تعالي. لنعد إلى المخيّم.

همس وهما يمشيان:

- لعلّك فهمت أنّه كان وحده المقصود.

- ابن سراج واثق من ذلك أيضاً. بل هو يؤكّد أنّه تعرّف على مهاجمه. يقول إنّه عبد كان في خدمته اسمه أبو طالب.

- ربّما كان ذلك صحيحاً. فقد رأى بالأمس ونحن في انتظارك رجلاً في السوق بدا له وجهاً مألوفاً.

- لو كان عبده لتعرّف عليه فوراً.

قال متحسّساً قفا عنقه:

- قد يكون الرجل الذي رآه ابن سراج في السوق أحد شركاء عبده. فهو مصحوب على الأقلّ برجلين. وقد تعرّفت للأسف على أحدهما، وهو زنجيّ.

- عندما التحقت بكم أوّل مرّة تحدّث عزرا عن حريق في دير الرابطة. هل يكون أبو طالب وراء ذاك الحريق؟

ـ يبدو لي الأمر بديهياً.

ـ ولكن أيّ حقد يدفع هذا العبد إلى محاولة قتل سيّده السابق؟

ردّ فارغاس ساخراً:

ـ لعلّه لم يدفع له أجرته.

أضاف جادّاً هذه المرّة:

ـ على أيّ حال، هذا ما يجب أن يوضّحه لنا الشيخ.

كرّر الشيخ بحماسة:

ـ قلت لكم إنّي لا أخفي عنكم شيئاً. طيلة مكوثه عندي لم ير منّي هذا الثعبان إلاّ كلّ خير فليس من شيمي الإساءة إلى من هم في خدمتي.

سأل فارغاس ملحّاً:

ـ ولكن لابدّ من سبب لهذا كلّه. فكّر جيّداً يا شيخ. حاول على الأقلّ أن تفسّر لنا لماذا سرق قصور ابن برول من مكتبتك؟

نظر الشيخ إلى الضمادة السريعة التي تدبّروا أمرها كيفما اتّفق وهتف بنبرة استسلام:

ـ كم يجب عليّ أن أكرّر على مسامعكم الكلام نفسه؟ لا أملك أيّ فكرة عن الأمر. ولا أيّ بصيص لفكرة.

عقّبت مانويلا:

ـ في الأثناء ها نحن نجرّ خلفنا مجرماً حقوداً لا شكّ أنّه سيعيد الكرّة ما لم يثأر من غريمه ابن سراج.

في اللحظة نفسها مرّ بخاطرها الرجل ذو وجه العُقاب. عليها أن تعلمه بالأمر في أقرب فرصة فهذا الخادم قد يطيح بالخطّة كلّها. فجأة وصلها صوت الربّي:

ـ اسمحي لي بتصحيح صغير يا سينورة فليس ابن سراج وحده المعنيّ. نحن جميعاً مستهدفون.

قال فارغاس معترضاً:

ـ أرى في كلامك شيئاً من المبالغة فقد كان في وسعهم قتلي قبل قليل، لكنّهم اكتفوا بضربي.

ـ أغلب الظنّ أنّك كنت محظوظاً لا أكثر ولا أقلّ. فهم لم يتردّدوا في الوشاية بي لأدخل السجن وأُلقى في المحرقة.

ـ هل تقصد أنهم...

ـ طبعاً. فأنا لم أُتهم صُدفةً عن طريق متعصّب قرأ على جبيني عبارة شعب الله المختار. ولا شكّ عندي أنّ أبا طالب هذا لن يتورّع عن التضحية بنا كلّنا بهدف الثأر من سيّده السابق. ثمّ لا تنسوا حريق الرابطة.

خيّم على الجميع صمت ثقيل. بات عليهم منذ الآن أن يتوقّعوا الخطر في كلّ لحظة، في كلّ مكان، من كلّ جهة. كان ابن سراج أوّل من استعاد رباطة جأشه ليقول بنبرة واثقة:

ـ لا أرى غير حلّ وحيد: في محطّتنا القادمة نشتري سلاحاً وننصب لهذا الشرّير فخّاً لا ينجو منه.

هتف عزرا:

ـ نشتري سلاحاً؟ أنا عاجز عن قتل ذبابة.

ـ لا بأس. هذه فرصة كي تتعلّم.

قال فارغاس:

ـ لن تقتل. أنا على رأي الربّي ولكنّك حرّ في ما تريد يا ابن سراج.

ـ هل تفضّلون أن تُقتلوا دون أن تدافعوا عن أنفسكم؟

ـ سندافع بأيدينا.

ـ الأيدي في مواجهة الخناجر؟ أنا في شوق للفرجة على هذا المشهد. وأنت يا سينورة؟ ما رأيك؟

لم تجبه بشيء فقد كانت مشغولة الذهن بأسئلة أخرى. لم تفهم لماذا أصرّ أبو طالب على مطاردة الشيخ والحال أنّ توركيمادا كافأه بسخاء على معلوماته. ثمّ أين ميندوزا؟ لماذا لم يفعل شيئاً لمنع الهجوم؟

*

سلمنقة

انفجر تالافيرا غاضباً:

ـ أنت تحاول خداعي فراي ألفاريز. هل تريد أن أذكّرك باتّفاقنا وبما ينتظرك من عواقب وخيمة في حال الخروج عليه؟

ردّ كاتب توركيمادا بنبرة خافتة:

ـ أقسم لك أيّها الأب الموقّر أنّي لم أُخْفِ عنك شيئاً وأنّي أرسلت إليك بكلّ ما أعرف أوّلاً بأوّل.

ـ كاذب. والدليل على ذلك أنّك لم تمدّني بأيّ خبر منذ كتابك الأخير.

قال ألفاريز وهو يزدرد ريقه بصعوبة:

ـ لم يكن في وسعي أن أمدّك بأخبار غير موجودة أيّها الأب الموقّر. نحن لم نعرف شيئاً جديداً حتّى الآن لا عن وجهة الجماعة ولا عن حقيقة ما يبحثون عنه.

ـ عجباً. وماذا تفعل دونا فيفيرو؟

جفّف ألفاريز ما تصبّب على صدغيه من عرق.

ـ بصراحة لا أعرف. وإن كنت أرجّح أنّها لا تدّخر جهداً على الرغم من صعوبة المهمّة.

أحدّ تالافيرا النظر في مخاطبه صامتاً ثمّ سأله:

ـ وأين هم الآن؟

ـ آخر عهدنا بهم في أحواز قصرش.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ لاشيء بعد ذلك. أقسم لك.

تنفّس تالافيرا الصعداء ثمّ شرد بذهنه بعيداً. كان محقّاً في إخافة هذا الرعديد المتخاذل. وعليه الآن أن يُطَيِّر خبراً إلى دياز.

*

أحواز قصرش.

وقع عزرا فريسةً للحمّى وأخذ يرتجف بقوّة ولم يَكْفِ اللحافان الثقيلان اللذان دثّروه بهما للتخفيف من التشنّجات التي كانت تهزّ جسمه هزّاً. مالت عليه مانويلا محاولة تجفيف العرق المتصبّب من جبينه فابتعد ابن سراج مدمدماً مشيراً إلى يده الجريحة:

ـ هذا ما كان ينقصنا. ما كدنا نُبتلى بعربيّ معوّق حتى انضاف إليه يهوديّ مريض. اسمعوا يا جماعة. العقل يقول إنّ علينا العودة على أعقابنا إلى فندق قصرش.

هتف عزرا بصوت أنهكته الحمّى:

ـ لا سبيل إلى ذلك. علينا أن نواصل رحلتنا.

ـ ومن قال إنّنا نتخلّى عن الرحلة؟ كلّ ما في الأمر أنّك تحتاج إلى علاج وإلى قسط من الراحة تحت سقف وبين أربعة جدران.

ـ عمّا قريب تحمى الشمسُ ويتحوّل السهل كلّه إلى مرجل لا قبل لمحموم بحرارته القاتلة.

ـ خطأ. سيساعدني الحَرّ على التعرّق ويُذهب عنّي الحُمّى. ثمّ إنّ الجسد جسدي فما علاقتكم أنتم بالأمر؟ لنواصل.

قال ابن سراج:

ـ الأدهى أنّي لا أرى أثراً لأيّ من الأعشاب الطبيّة. لكأنّ الأرض ابتلعتها. لا وجود حتّى للورود التي تُخلط بورق الحنّاء فتزيل الحمّى في لمح البصر.

غمغم الربّي:

ـ لسنا في حاجة إلى الورود الآن. نحن في حاجة إلى اسم وجهتنا القادمة. وكلّما أسرعنا في العثور عليه كان الأمر أفضل للجميع.

قال العربيّ موافقاً:

ـ أنت على حقّ. فلنكمل حلّ هذا اللغز اللعين.

ردّد عن ظهر قلب:

ـ قرب ليست البناية خماسيَّة على الرغم من أنها حصيلة وحدة اللامتساويات. ألم تقل يا فراي فارغاس إنّ الشكل الخماسيّ رمز المعرفة؟

ـ هو ذاك. كان القدامى يرمزون إلى المعرفة بهذا الشكل وكانوا يعتبرونه مفتاح العلوم الكبرى. بل إنّ بعض السحرة كانوا ومازالوا يستعملونه لممارسة طقوسهم.

استند ابن سراج على مرفقه.

ـ نحن أمام وجهتين: وجهة تقود إلى فكرة القوّة والمعرفة اللتين يمثّلهما هذا الشكل الهندسيّ ووجهة تقود إلى فكرة الجمع بين عناصر ذات قوى مختلفة: وتلك **وحدة اللامتساويات.**

أغرق الرجال الثلاثة في صمت عميق بينما أخذت مانويلا تتلفّت ملقية على الأنحاء نظرات توجّس. كانت تتوقّع أن يظهر الخادم أو شركاؤه في أيّ لحظة كي يمزّقوهم إرباً. بل إنّها استغربت عدم ظهورهم حتّى الآن. ومن الذي يستطيع مقاومتهم باستثناء فارغاس؟ ابن سراج بيده الوحيدة أم عزرا المسنّ المريض؟ هتف فارغاس فجأة:

- أظنّ أنّ الحلّ موجود في العبارة الموالية.

سأله الشيخ متلهّفاً:

- أيّ عبارة تعني؟

- العبارة التالية: **تتضمّن جدرانها المادّة البكر أو المخصّبة ويمتدّ ظلّها الوارف على سيحان وجيحان والنيل والفرات**. لو نجحنا في تأويل كلمة **المادّة** لحصلنا على مفتاح إضافيّ.

تساءل ابن سراج بصوت عالٍ:

- **البكر أو المخصّبة**... هل تكون امرأة؟

لم تتمالك مانويلا عن الضحك.

- وهل المرأة مادّة يا شيخ؟

- الأمر متعلّق بزاوية نظر ابن برول إلى الكلمة. ما المادّة إن لم تكن عنصراً صلباً مقاوماً قابلاً للقسمة ومتحرّكاً؟

- وهل الكائن الحيّ عنصر قابل للقسمة؟

- لم لا؟ لولا أنّه ما أن يُقسم حتّى يرحل عن هذا العالم.

لزم فارغاس الصمت للحظات قبل أن يتدخّل.

- في سياقنا هذا لا أعتقد أنّ كلمة مادّة تتعلّق بشيء غير طبيعيّ أو من صنع البشر. ولكن لنترك هذا التفصيل إلى ما بعد ولننظر في بقيّة الفقرة: **ويمتدّ ظلّها الوارف على سيحان وجيحان والنيل والفرات**. هنا لا مكان للشكّ. نحن أمام أسماء أنهار أربعة. النهران الأوّلان من أنهار الجنّة والثالث والرابع يقول الكثيرون إنّهما ينبعان أيضاً من الجنّة.

- أين الصلة بين هذه الأنهار والشكل الخماسيّ والمادّة البكر أو المخصّبة؟

- الصلة موجودة دون ريب وعلينا نحن أن نجدها. إلاّ أنّي أسأل إن

لم يكن ابن برول يريدنا أن نهتدي إلى الصورة الضمنيّة التي تتخلّل كلّ هذه العناصر؟

سأل ابنُ سراج:

ـ أيّ صورة؟

ـ صورة الفردوس أو جنّة عدن.

ـ هذا جائز فعلاً.

قال عزرا:

ـ ثمّة عبارة لا أدري لماذا تجاهلتماها على الرغم من صلتها الوثيقة بجنّة عدن: **ويمتدّ ظلّها الوارف**... أغلب الظنّ عندي أنّ الظلّ هنا منسوب إلى الشجرة، أقصد شجرة الحياة.

ـ شجرة الحياة؟

بدا فارغاس متشكّكاً فأعاد الربّي التأكيد.

ـ أنا واثق من ذلك. أليست شجرة الحياة هي أيضاً شجرة المعرفة؟

ـ قد تكون على حقّ. بقي أن نفهم لماذا يدفعنا ابن برول في هذا الاتّجاه؟

صمت الجميع للحظات مصيخين إلى صفير الرياح التي كانت تتخلّل الخمائل المحيطة بهم من كلّ جانب. فجأة هتفت مانويلا:

ـ أظنّني وجدت الحلّ. لا إخال البناية المجاورة للكاتدرائيّة إلاّ محلاً للتعليم.

عقدت ألسنتهم الدهشة فواصلت الكلام:

ـ الدليل على ذلك عبارة المادّة البكر والمخصّبة. أنا قارئة نهمة وهذه العبارة تأخذني مباشرة إلى الكتب والأوراق. الأوراق البيضاء هي المادة البكر والأوراق المكتوبة هي المادة المخصّبة.

ثمّ أضافت:

ـ المعرفة، العلوم الكبرى، الكتب. . . ألا ترون أنّ ابن برول يلحّ على عناصر تشير كلّها إلى العلم؟ وانطلاقاً من ذلك أليس من المنطقيّ أن يكون هذا المبنى غير الخماسيّ والمجاور للكاتدرائيّة مدرسة أو. . .

ـ أو داراً للعلوم.

قاطعها فارغاس وقد أخذته الحماسة بدوره:

ـ أمّا وحدة اللامتساويات فيمكن تطبيقها على الطلبة باختلافهم بين نجباء وأقلّ نجابة.

رفع ذراعه وكأنّها شارة النصر وهتف:

ـ سلمنقة. إنها مدينة سلمنقة ودار علومها، أكبر دور العلم في إسبانيا.

قال ابن سراج وهو ينظر إلى مانويلا بإعجاب:

ـ حمداً وشكراً لله على ما حباك به من مواهب يا سينورة فيفيرو.

ثمّ هتف ناحية عزرا:

ـ ها نحن ذاهبون إلى سلمنقة يا ربّي، مدينة الأطبّاء والعلم. هناك نجد لك الدواء الشافي إن شاء الله.

لم يردّ أحد على هتافه فقد كان عزرا يغطّ في نوم عميق.

الفصل ٢١

من يبدأ بالحلم أو الجنون يعرف إلى أين يسير:
إلى الجنون أو إلى الحلم.
أمّا التفكير فهو يلقي بنا في مجاهل المغامرة.
(ج. بولهان)

احتاجوا إلى ستّة أيّام لقطع المسافة الفاصلة بين قصرش وسلمنقة، ممّا يعني ثلاث مراحل فوق ما تتطلّبه الرحلة. ما أنّ مرّت ساعة على انطلاقهم حتّى أغمي على الربّي ووقع من على حصانه. وحين استعاد وعيه بدا خائر القوى وأضعف من أن يجلس على السرج من جديد. أرقدوه أسفل إحدى الأشجار وانتظروا بصبر أن يستعيد قواه. وما هي إلاّ لحظات حتّى سمعوه يتمتم بكلمات مضطربة وكأنّه في نصف غيبوبة.

- أُسَلّمُ أمامك يا ربّ الكون يا ربّي وربّ أسلافي بأنّ شفائي وموتي رهن مشيئتك وبين يديك.

سأل ابن سراج:

- بماذا يهرف؟

لم يملك فارغاس ولا مانويلا جواباً. واصل عزرا ما خيّل إليهم أنّه صلاة:

- لتكن مشيئتك شفائي التامّ وإذا قضيتُ فليكن موتي تكفيراً عن كلّ ذنوبي.

تمتم الشيخ:
ـ إنّه يهذي.
قال ذلك بنبرة ساخرة لم تفلح في إخفاء قلقه على رفيق رحلته.
ـ اسمع يا إسرائيل... السرمديّ ربّنا السرمديّ واحد.
جثا ابن سراج إلى جانب الحبر وقال محاولاً المزاح:
ـ هل هذا وقت التراتيل يا عزرا صموئيل؟
فتح الربّي إحدى عينيه وهمس بصوت أشبه بالحشرجة:
ـ اسم آخر... ناديني باسم آخر...
اقترب منه فارغاس بدوره.
ـ تريد اسماً آخر؟
مال على العربيّ ووشوش في أذنه:
ـ إنّها الحُمّى.
ارتفع أنين عزرا:
ـ أرجوكم... اسماً آخر.
تبادل الرجلان نظرات حائرة فتدخّلت مانويلا:
ـ الأمر واضح. إنّه يريد منكما أن تنادياه باسم آخر.
ـ يا له من طلبٍ مُضحك. وما الفائدة من ذلك؟
ـ لا أدري ولكن ماذا تخسران إذا لبّيتما طلبه؟
مال الفرانسيسكانيّ على العجوز وسأله:
ـ هل هذا ما تريده حقّاً؟
طرف عزرا بعينيه موافقاً.
بدا فارغاس محتاراً فقال ابن سراج وقد نفد صبره:

ـ ليست الأسماء هي ما ينقصنا. عبد الله، محمد، طارق...

أوقفه الراهب وجثا بدوره قرب المريض قائلاً بنبرة جادّة:

ـ فليكن اسمك منذ الآن رافائيل فارغاس.

بدا على عزرا الارتياح.

قال ابن سراج مندهشاً:

ـ لكنّك منحته اسمك.

ـ وما الفرق؟ إنّه أوّل اسم خطر على بالي.

مرّ الوقت بطيئاً وظلّ الراهب ساكناً حتّى بلغت الشمس كبد السماء. عندئذ تململ الحبر وفتح عينيه. سألته مانويلا:

ـ هل أنت أفضل حالاً؟

استطاع أن يبتسم قبل أن يجيب:

ـ أفضل حالاً بكثير.

هتف الشيخ مبتهجاً:

ـ أخيراً...لقد أفزعتني أيّها العجوز. خفتُ أن نضطرّ إلى حفر قبر لك في هذا الحرّ القاتل. حمداً لله على سلامتك.

ـ هل يساعدني أحدكم عل الجلوس؟

أمسك العربيّ بكتفيه وأسنده إلى جذع الشجرة.

ـ أنت تتعافى بسرعة. أكاد أصدّق أنّ تغيير اسمك كان كافياً لشفائك. بالمناسبة...ما هذه الحكاية؟

أجابه عزرا بنبرة جادّة:

ـ قد يبدو لك الأمر صبيانيّاً أو منافياً للعقل، لكن جاء في التلمود أنّ من يغيّر اسمه يغيّر مصيره أيضاً.

نظر إلى فارغاس وقال مبتسماً بامتنان:

ـ لم تكن لتختار أفضل من اسمك ولقبك. هل تعرف ما معنى رافائيل؟

اعترف الراهب بجهله.

ـ السرمديّ يشفي.

ـ حقّاً إنّها صدفة سعيدة. فهل يمنحك هذا الاسم الجديد القدرة الكافية على امتطاء صهوة جوادك؟

أجاب عزرا بالنفي.

ـ ولكنّنا لا نستطيع المكوث هنا إلى ما لا نهاية. علينا أن نصل القرية القريبة قبل هبوط الليل.

قال الشيخ:

ـ سأردفه خلفي على حصاني، هذا هو الحلّ الوحيد.

مدّ يده ناحية الربّي:

ـ هيّا. سنساعدك.

ـ لو تعلّق الأمر بي...

ـ أعرف... لكنّنا نحن من يقرّر الآن. تعال.

انطلقوا من جديد لكنّهم سرعان ما اكتشفوا أنّ تغيير اسم الحبر من عزرا إلى السرمديّ يشفي لم يكن كافياً لطرد الحمّى. كانوا قد توسّطوا سهل التاج حين عاودت الرجفة عزرا وأغمي عليه فاضطرّوا إلى الترجّل من جديد. مدّدوه حذو النهر هذه المرّة. نزع الشيخ الغطاء الصوفي الذي كان على كتفه وغمسه في الماء البارد ثمّ لفّ به عزرا وتركوه في الشمس. قال ابن سراج إنّ التبخّر سينزل حرارة الجسم ويزيل الحمّى. وكان على حقّ. فما هي إلاّ ساعتان حتّى استعاد عزرا عافيته واستطاع الركوب من جديد.

اختفت المظاهر القفراء المجدبة وحلّت محلّها خضرة الفيرا وخصوبتها وتناثرت عند سفح جبل كريدوس بساتين البرتقال والكرم وغابات السنديان التي تعبرها قطعان الخنزير. هل تأثّر عزرا لمرأى تلك الحيوانات المنبوذة؟ لا أحد يدري، ولكنّه انتكس فجأة وعاودته الحمّى، ومن حسن الحظّ أنّهم كانوا على مقربة من مكان تنبت فيه شجيرة ذات ثمار عنبيّة سمراء إلى حمرة أكّد الشيخ أنّها ذات فوائد طبيّة وأجبر الحبر على ازدراد عصيرها مقطّراً منه على جرحه أيضاً. وما هي إلاّ ساعات حتّى خفّت رعدة عزرا واستعاد وجهه لونه الطبيعيّ. استراحوا طيلة الليل ثمّ استأنفوا السير عند الصباح وما أن مالت الشمس إلى المغيب حتّى بلغوا ثغر بيجار والبلدة التي تحمل نفس الاسم، المحشورة بين تحصيناتها الموريّة وكأنّها شذرة من الجنّة مغروسة في الجحيم. توقّفوا هناك ريثما يستعيد عزرا بعض الأنفاس. وبعد ثلاثة أيّام، عند الزوال، حين أخذت الشمس تحرق السهل وأخذت أجراس الكاتدرائيّة تقرع ملء الفضاء كانوا هم يجتازون أسوار سلمنقة.

لم يعثروا على فندق إلاّ بصعوبة شديدة فقد اكتظّ أغلبها بالطلبة القادمين من جميع أنحاء إسبانيا. وجدوا أخيراً أماكن شاغرة في أحد الفنادق الصغيرة بجوار دير لاس دويناس للراهبات. ما أن حلّوا أمتعتهم حتّى خرج فارغاس في طلب الطبيب ميغويل فالات أحد أفضل أطبّاء المدينة حسب رواية صاحب الفندق. جاء الطبيب بسرعة فجسّ وفحص ونظر في بول المريض ثمّ اقترح وصفة علاجيّة اتّفق الجميع على أنّها مضحكة وتدلّ على أنّ صاحبها يجب أن يقصى من لائحة الأطبّاء. والدليل على ذلك أنّ ابن سراج وفارغاس باتّفاق مع عزرا لم يستعملا شيئاً من الأدوية التي اقترحها السلمنقيّ. وبعد ثمانية وأربعين ساعة كان الحبر العجوز يتماثل إلى الشفاء. في تلك الليلة، الليلة الرابعة بعد وصولهم إلى سلمنقة، رفع فارغاس كأسه ناحية عزرا قائلاً:

ـ لي حاييم يا رِبّي. نخب الحياة. لا أعرف من العبريّة إلاّ هذه العبارة ولكنّي لا أحتاج إلى غيرها في هذا الموقف.

ـ لي حاييم يا صديقي. لم أتصوّر يوماً أنّي متعلّق إلى هذه الدرجة بالحياة. وكم أشعر بالخجل حين أذكر أنّي زعمت للشيخ قبل أيّام أنّي أنتظر الموت بكامل الشوق.

كان وجهه لا يزال شاحباً وقد بدا عليه أنّه فقد من وزنه الكثير إلاّ أنّه استعاد بريق عينيه. استند على مرفقه ملتفتاً ناحية مانويلا:

ـ هل رأيت كيف يقع الرجال عند هبوب أوّل عاصفة بينما أنت المنسوبة إلى الجنس الضعيف، تظلّين واقفة لا تُقهر؟

ـ لا تُقهر؟ ليت كلامك يصدقُ يا ربّي. قد نكون صامدات على الصعيد الجسديّ بينما القلب يتفطّر في الداخل. نحن من تلك الناحية أكثر هشاشة من الرجال.

همّ عزرا بالردّ حين اندفع الباب بقوّة وظهر ابن سراج. كان واضحاً من هيئته أنّه اكتشف شيئاً مهمّا أو أنّه يحمل خبراً سارّاً. تقدّم سريعاً من سرير المريض وهناك وقف واضعاً يديه على خاصرته.

ـ أنصحك بالنهوض بسرعة من فراشك يا ربّي عزرا إذا كنت تريد أن تذهب إلى آخر الشوط.

ـ ماذا وجدت؟

ـ فيثاغورس.

ألقى عليه الآخرون نظرات حائرة فأضاف شارحاً:

ـ تشير الدلائل كلّها إلى أنّ الشكل الخماسيّ هو جوهر لغز ابن برول حتّى الآن. فهو الذي قادنا إلى هنا وهو الذي سيأخذنا إلى المثلّث الثالث. وقد أكّد لنا فراي فارغاس أنّ الشكل الخماسيّ يمثّل المعرفة والعلوم

الكبرى وكان على حقّ في ذلك. لكنّي أضيف أنّنا هنا لسنا أمام مجرّد شكل هندسيّ بل نحن أمام شكل على صلة وثيقة بالفيلسوف والرياضيّ الإغريقيّ الذي ذكرته مذ حين.

تربّع على الأرض وواصل حديثه.

ـ لا أظنّ أن أحدكم يجهل شيئاً عن حياة فيثاغورس وعلى الرغم من ذلك أستسمحكم في التذكير ببعض المحطّات المهمّة. لنبدأ باسمه الذي يتكوّن من كلمتين تعنيان في السنسيكريتيّة بيت الغورو أو بيت المُعلّم والأب الروحيّ. إذن نحن أمام إحالة واضحة على الاجتماع والتعليم والمدرسة. أمّا سيرة الرجل فنحن لا نعلم عنها الكثير باستثناء أنّه ولد في جزيرة ساموس قبل أكثر من ألفي عام وأنّه بدأ بالنحت نزولاً عند رغبة أبيه ثمّ شُغف بالفلسفة إلى أن اضطرّ إلى مغادرة جزيرته فقصد مصر وبابل والهند وطاب له المقام في كروتوني بجنوب إيطاليا حيث أنشأ مدرسته الشهيرة. والحقّ أنّ روّاد هذه المدرسة كانوا أقرب إلى الطائفة منهم إلى التجمّع الطلاّبي فقد استلهم فيثاغورس قوانين مدرسته من مبادئ الزهد والديانة الأُورفيّة وألزم التلاميذ أو المريدين الراغبين في الالتحاق به بالمرور بمرحلة تدريب قاسية تتطلّب الصمت لمدّة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات حسب شخصيّة الطالب. أمّا الدروس التي كان تُقدّمها المدرسة فهي ذات طبيعة توجيهيّة. وقد اعتنى فيثاغورس بالرياضيّات والفلك وبالموسيقى أيضاً. والأرجح أن الاكتشافات التي نُسبت إليه كانت ثمرة عمل كلّ المجموعة التي كان فيثاغورس معلّمها وملهمها. ونحن مدينون إليه بالجدول الشهير الذي يحمل اسمه، جدول فيثاغورس، وبالنظام العَشْريّ، وبنظريّة مربّع وتر المثلّث القائم الزاوية التي استعادها إقليدس. قد تقولون لي إنّكم لا ترون حتّى الآن صلة هذا الشخص بابن برول ولغزه. ولكنّي أؤكّد لكم أنّ هذه الصلة موجودة. هل تعرفون ماذا كانت شارة التعارف بين الفيثاغوريّين؟

استنشق طويلاً قبل أن يضيف:

- إنّها الشكل الخماسيّ.

هتف فارغاس:

- هذا مهمّ فعلاً لكن. . .

قاطعه ابن سراج قائلاً بنبرة قويّة:

- انتظر. العدد أصل كلّ شيء. ذاك كان شعار فيثاغورس وتلك كانت فكرته الأساسيّة. كان يرى في الرياضيّات مبدأ كلّ شيء بل قانون الكون كلّه. حتّى أنّه أنشأ ما يمكن تسميته لاهوتاً رياضيّاً ناسباً للأعداد خصائص باطنيّة. وهو الهوس نفسه الذي نجده لدى ابن برول. ما من جزء في لغزه المتشابك هذا إلاّ وهو مستلهم من الأفكار الفيثاغوريّة. لنتذكّر إشاراته إلى الحياة والموت والأبعاد والأطوال والرقم ٣. أمّا في القصر الحاليّ فيكفي أن نعود إلى الفقرة التالية: **هناك وفي هذا العدد يمكن العثور على زوج ثيانو.**

أضاف وقد لمعت عيناه وتهدّج صوته من شدّة الفرح:

- ألم تفهموا بعد؟ ثيانو؟ ثيانو اسم المدرسة التي أنشأها فيثاغورس في كروتوني وأطلق عليها اسم زوجته وأولى تلاميذه تكريماً لها وتخليداً.

قال عزرا ناهضاً من مكانه بعد أن تبادل النظرات مع فارغاس.

- أحسنت يا شيخ. يبدو أن مناخ سلمنقة يوافقك تماماً. هل كانت جولتك في المدينة هي التي فتحت عليك ما استغلق علينا؟

- بل هو تبادل أطراف الحديث مع طلبة دار العلوم. فقد رأيت أن ابن برول لم يلحّ على المدرسة عبثاً وأنّها المكان الأنسب للحصول على المعلومات التي نحتاج إليها. ويبدو أنّي كنت على حقّ.

ظلّت مانويلا صامتة حتّى تلك اللحظة تكاد تدوّخها سعة معرفة رفاقها. إلاّ أنّها لم تتمالك عن السؤال.

ـ حسناً، إلى أين يأخذنا فيثاغورس وأعداده؟

انفجر ابن سراج ضاحكاً.

ـ كم أنت بارعة يا سينورة في طرح الأسئلة التي تعرفين أجوبتها. ألست أنت من قارن بين الكتب والمادّة البكر والمخصّبة؟

ـ هذا صحيح.

ـ إذن ليس علينا إلاّ أن نعتمد على فكرتك. **هناك وفي هذا العدد يمكن العثور على زوج ثيانو.** هل فهمت إلى أين تشير العبارة؟

ردّت تائهة:

ـ لم أفهم شيئاً.

ـ حسناً، تعالي معي وأنت تفهمين.

وضع يده على كتف فارغاس:

ـ وأنت فراي رافائيل؟

ـ أظنّني فهمت، لذلك فأنا ذاهب إلى زوج ثيانو.

قال ذلك بحماسة واندفع ناحية الباب. وكان ابن سراج ومانويلا يهمّان باللحاق به حين جاءهما صوت عزرا غاضباً:

ـ إلى أين تذهبان؟ أنتما تنسيان الأهمّ.

كان الربّي قد نهض من فراشه وارتدى ملابسه.

ـ وما هو هذا الأهمّ يا ربّي؟

ـ أنا.

في الطابق الأوّل من دار العلوم وخلف أحد الأبواب الحديديّة الثقيلة

استقبلتهم المكتبة بكنوزها الجاثمة في نصف العتمة وبمساحتها الشاسعة الشبيهة ببطن أحد الحيتان الخرافيّة. كان المكان عبقاً بروائح الجلد والصمغ والورق المنبعثة من الرفوف الخشبيّة المتينة. فجأة شعروا بأنّهم داخل خزّان العبقريّة البشريّة أو في ذاكرة العلوم والآداب والفنون. هناك خارطة للمعمورة وهنا جداول فلكيّة وبين هذه وتلك أكثر من ستّين ألف مصنّف وأكثر من ثلاثة آلاف مخطوط. كلّ ما وصلت إليه عقول البشر حتّى ذلك الوقت كان محفوظاً بين تلك الجدران الطينيّة. ندّت عن مانويلا شهقة دهشة وإعجاب.

همس ابن سراج:

ـ المادّة البكر أو المخصّبة يا سينورة... هل فهمت الآن؟

توغّلوا بين الرفوف المتراصّة خاشعين محاذرين وكأنّهم يزورون معبداً.

سأل عزرا موشوشاً:

ـ إلى أين تأخذنا؟

وضع الشيخ سبّابته على شفتيه وقال:

ـ صمتاً. ثقوا بي.

هنا وهناك تبيّنوا في نصف العتمة أطياف الطلبة وهم عاكفون على الدرس أو القراءة شبيهين بتماثيل رخاميّة. كانوا إسبانيّين في أغلبهم إلاّ أنّ ملامح الكثيرين تدلّ على أنّهم قدموا من جميع أنحاء العالم المعمور للتبحّر في الفنّ أو القانون أو الطبّ أو اللاهوت. كم كان عددهم؟ عشرة آلاف؟ خمسة عشر ألف طالب؟ كانوا على أيّ حال أكثر عدداً من طلاّب أيٍّ من دور العلوم الثلاث المنافسة لسلمنقة: أوكسفورد وبولوني وباريس. أشار ابن سراج إلى مجموعة من الرفوف المتراصّة حتّى ارتفاع مخيف وهتف بنبرة من يكشف عن سرّ ثمين:

ـ ها قد وصلنا. لو سمحت فراي فارغاس، ناولني ذاك السلّم.

نقل الراهب السُلّم وأسنده إلى مجموعة الرفوف التي عناها الشيخ فصعد هذا الأخير إلى أن بلغ مجموعة من الكتب تختلف عن الأخرى بتجليدها الذهبيّ. سمعه الآخرون يطلق صيحة فرح مكتومة وهو يسحب أحد الكتب ثمّ نزل من على السلّم بسرعة وأخذ يقلّب صفحات الكتاب بلهفة. لاحظ الجميع ورقة مشبوكة بين الصفحات بَرَزَ جزءٌ منها بشكل لافت. فتح ابن سراج الكتاب عند تلك الورقة.

هتف عزرا وقد نفد صبره:

ـ والآن؟ ألا تشرح لنا الأمر؟

دون أن ينبس بكلمة ترك ابن سراج الكتاب لعزرا ثمّ فتح الورقة التي كانت مطويّة ومثبتة بين الصفحات وفجأة بدا على ملامحه الانقباض.
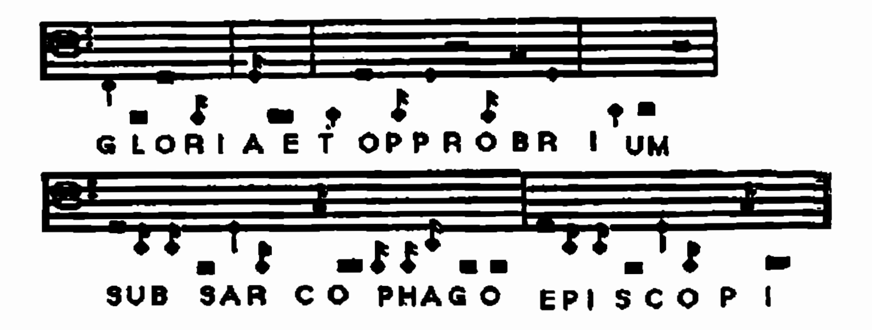
كرّر الربّي:

ـ ماذا هناك.

كان صوته قد ارتفع بالرغم عنه ممّا دفع بعض الطلاّب إلى أن يحدجهم بنظرات لوم.

تكلّم الشيخ أخيراً:

ـ انظروا معي.



هتف عزرا مذهولاً:

ـ قولوا لي إني أحلم. ما هذا؟

غمغم فارغاس:

ـ يبدو أنّنا أمام ترقيم موسيقيّ لكلمات ملحّنة: **مجد وعار تحت تابوت الأسقف.**

ـ رأيت ذلك لكنّي أريد أن أفهم كيف عرف ابن سراج أنّ الورقة موجودة هنا؟ ثم ما معنى كلّ ذلك؟

ـ سأشرح لكم ما أعرف لكن دعونا نضع الكتاب في مكانه أوّلاً ثمّ نخرج قبل أن نلفت الانتباه أكثر ممّا فعلنا.

غادروا المكتبة وساروا خطوات على العشب الأخضر المفروش على طول الحديقة في فناء دار العلوم. ثمّ جلسوا إلى ظلّ خطميّة تفتّحت أزهارها في مشهد يسحر الألباب.

ـ نحن مصغون إليك. حدّثنا أوّلاً عن هذا الكتاب. هو لفيثاغورس أليس كذلك؟

ـ بلى. إنّه كتاب موسيقى الكواكب. وهو الكتاب الوحيد الذي تركه فيثاغورس فنحن لا نعرف له كتاباً آخر. ولولا كتابات تلاميذه وأعمال إقليدس لشككنا في نسبة كلّ ما نُسِبَ إليه. وقد تحدّثت طويلاً مع أحد الأساتذة فأخبرني بوجود هذا الكتاب وبمكانه في المكتبة. من ثمّ كنت واثقاً أنّه إذا كان ثمّة من إشارة تركها ابن برول فهي لا تكون إلاّ في هذا الكتاب.

سألته مانويلا:

ـ فلماذا لم تتركنا نطالع هذا الكتاب؟

ـ لأنّنا وجدنا كلّ ما علينا أن نجد.

أضاف مذكّراً بنصّ ابن برول:

ـ **هناك وفي هذا العدد يمكن العثور على زوج ثيانو**. كان صديقنا يقصد المكتبة بقوله **هناك**، وكان يقصد الصفحة بقوله **في هذا العدد**.

ـ عن أيّ عدد تتحدّث؟

ـ العدد ٤ الذي ألمح إليه بحديثه عن الأنهار الأربعة. من ثمّ وجدنا الورقة في الصفحة الرابعة.

هتف عزرا:

ـ أجدني مضطرّاً للأسف، للاعتراف بما أبديتَهُ من قدرة على الاستنتاج يا شيخ ابن سراج.

سأله الشيخ مدهوشاً:

ـ ولمَ الأسف؟

تظاهر الحبر بالضيق:

ـ لأنّي أكره أن لا أكون ضروريّاً لشيء.

ظلّ فارغاس أثناء حوار الرجلين يتفحّص الورقة التي عليها الترقيم الموسيقيّ وبدا واضحاً من ملامحه أنّه لم يهتد إلى شيء يُذكر. سأل بصوت يائس:

ـ هل يستطيع أحدكم أن يقرأ الترقيم الموسيقيّ؟

قالت مانويلا بنبرة خافتة:

ـ أعرف بعض المبادئ.

ناولها الفرانسيسكانيّ الورقة.

ـ هل تلاحظين شيئاً معيّناً؟

تأمّلت المرأة في العلامات الموسيقيّة قبل أن تقول:

ـ للأسف لا شيء يُذكر، باستثناء أنّ النغم المكتوب يبدو لي بسيطاً، بل بدائياً.

نغّمت النوطة بصوت خافت. كانت عبارة عن متتالية بطيئة الإيقاع كئيبة تتدرّج إلى القرار. لاحظ عزرا:

ـ كان ابن برول قباليّاً فريداً وعالماً بالموسيقى. ولكنّي لا أرى كيف يمكن لهذه العلامات الموسيقيّة أن تدلّنا على مكان المثلّث الثالث. ثمّ ماذا يعني النصّ المنغّم؟ **مجد وعار تحت تابوت الأسقف**. أيّ أسقف؟ صحيح أنّ بعض القباليّين مثل أبي العافية قد حاولوا استعمال الموسيقى كوسيلة لبلوغ النشوة النبوئيّة. لكنّي أشكّ في أنّ ابن برول يريد دفعنا إلى هذا الاتّجاه. فهذا جنون.

تساءل فارغاس:

ـ الموسيقى كوسيلة لبلوغ النشوة النبوئيّة؟

ـ الأمر أكثر تعقيداً من أن أشرحه لك في كلمات معدودة. أنا نفسي أجد صعوبة كبيرة في فهمه. يتحدّث أبو العافية وأمثاله من القباليّين عن صلة بين النبوءة وعلم موسيقيّ أصبح منسيّاً الآن. حسب هؤلاء كانت الموسيقى علماً يملك قوانينه كبار الأحبار. وهي تفضي إلى التوحّد مع قوى الباطن ولها علاقة مباشرة مع طريقة النطق بالتيتراغرام أو الاسم الخفيّ. ويبدو أنّ هذا العلم السريّ ظلّ محفوظاً ضمن حلقة أبي العافية بما أنّه استطاع أن يصف بوضوح التقنيات التي تتمثّل في التأليف بين الحروف وتنغيمها. وهو يقارن بين جسم البشر والآلة الموسيقيّة لأن الجسم في نظره يحتوى على فجوات وفراغات تعطي صوتاً حين يمرّ بها النفس. والكلمات المنغّمة التي يقولها أو يكتبها البشر تشير إلى الحضور الإلهيّ وإلى حركة الروح القدس التي تدخل الجسد ثمّ تغادره، فيتمكّن المتحكّم فيها من السيطرة على طرق كشف الغيب.

دلك أصابعه دون انتباه وأضاف:

ـ أعرف أنّ كلّ هذا شديد الغموض. لكن دعوني أكمل بعبارة للربّي عيسى بن يوسف: *اعلموا أنّ على النبيّ الذي يريد أن يتنبأ أن ينعزل لفترة ويتوضأ، ثمّ يقصد المكان الذي اختاره ويدعو موسيقيّين ماهرين في آلات مختلفة، يعزفون له وينشدون أناشيد روحانيّة. عندئذ يفتح الكتاب على الفقرات التي استعصى عليه فهمها.*

صمت عزرا ثمّ بدت على شفتيه ملامح ابتسامة ماكرة.

ـ ليس أمامنا الآن إلاّ أن ندعو الموسيقيّين.

ظلّ الطلبة يواصلون غدوّهم ورواحهم بوجوههم الضاحكة أو الشاردة وقد انشغلوا بأنفسهم عن كلّ شيء. بينما أخذت الشمس تتوهّج فوق البيوت الصغيرة ذات الحجارة الطينيّة ملقية لهبها على الشرفات وفوق غابة الأجراس. ولم يبدُ العالم من حولهم حافلاً بما أقضّ مضاجعهم من ألغاز.

ـ كيف حالكم أيّها السادة؟

انتزعتهم التحيّة من هواجسهم فالتفتوا ناحية الصوت ليروا أمامهم رجلاً طويل القامة أشيب الشعر ذا أنف أقنى.

ـ ألا تذكرونني؟

كان فارغاس أوّل المتكلّمين:

ـ بلى. أنت البحّار الجنوي الذي التقيناه في الرابطة. ماذا تفعل هنا؟

ـ بعد قليل تجتمع لجنة من الخبراء هناك.

أشار إلى مبنى على اليمين.

ـ للنظر في خطّتي البحريّة التي حدّثتكم عنها.

قدّم فارغاس مانويلا للبحّار.

ـ سينورة فيفيرو. السينور كريستوبال كولون. إنّه يريد الاتّجاه غرباً حيث بلاد التوابل وهو يأمل في أن تقوم جلالتها بتمويل الرحلة.

داعبت مانويلا خالها دون انتباه.

ـ تتّجه غرباً سينور؟ وهل تأمل حقّاً في وجود يابسة هناك؟

ـ طبعاً. وسأثبت ذلك.

قال فارغاس بنصف ابتسامة:

ـ أراك شديد الثقة بنفسك.

ـ ولم لا أكون واثقاً. أليست الأرض كرويّة؟

ـ هي كذلك. ولكنّك تعلم أنها قناعة لا يشترك فيها إلاّ حفنة من العلماء. وحتّى هؤلاء لا يعرفون ما هي مساحتها بالضبط بما أنّ أحداً لم يَطُفْ بالأرض حتّى الآن. ومن ثمّ فإنّ الخرائط المعروفة لا تضبط إلاّ الجزء المعروف من العالم. وحتّى الجهة الغربيّة من السواحل الغينيّة لا خرائط كافية لها. أمّا آسيا فهي تمتدّ شرقاً إلى مسافات مجهولة وسواحلها لغزٌ حتّى الآن. و...

قاطعه ابن سراج:

ـ اسمح لي بتصحيح يا فراي فارغاس. قد يكون ذلك مجهولاً لدى البحّارة الأوروبيّين لكنّ الأمر مختلف بالنسبة إلى البحّارة والرحّالة العرب. ثمّ إنّ أرسطو نفسه ذكر قبل ألف عام أنّ المبحر غرباً لابدّ أن يبلغ الشرق بالضرورة.

ـ أعترف بذلك ولكن أين الخرائط؟ أين الأدلّة والبراهين؟ إنّ مشكلة السيّد كريستوبال كولون في غاية البساطة: قد توجد طريق مباشرة تربط غرب أوروبا بشرق آسيا ما دامت الأرض كرويّة. ولكن أيّ مسافة على السفينة أن تقطعها قبل أن تبلغ البرّ؟ ألف فرسخ بحريّ؟ عشرة آلاف

فرسخ؟ عشرين ألف فرسخ؟ من ثمّ أكرّر السؤال يا سينور كولون: من أين لك هذه الثقة؟ من أين لك هذا اليقين الأعمى بأنّ الرحلة ممكنة؟

ـ أقول إنّها ممكنة لأنّي أعرف أنّ المسافة التي تفصلنا عن الهند لا تتعدّى سبعة وسبعين وتسعمائة فرسخ، أي ثلاثين يوماً بحريّاً، وهي رحلة في متناول أيّ سفينة جيّدة التموين والعتاد.

قال فارغاس وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ ذاك ما توقّعته.

ـ ماذا تعني؟

ألقى عليه الراهب نظرة غامضة ولزم الصمت فعاود البحّار السؤال:

ـ إلى ماذا تلمح؟

ـ إنّها مجرّد إشاعات.

سأله البحّار بنبرة أحدّ:

ـ عن أيّ إشاعات تتحدّث؟

ـ لنقل إنّك لو كنت مدفوعاً بحبّ المغامرة والرغبة في الاكتشاف والاطّلاع لما وجدت أيّ صعوبة في إيجاد سفينة وتجهيزها والإبحار بها في أيّ اتّجاه أردت. أمّا إذا كنت تطمع في السيطرة على الأراضي المكتشفة واستغلالها فإنّك تحتاج إلى مساندة الملك والملكة. وهذا يدلّ على وثوقك من الأمر.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لا شيء سوى أنّ الكثيرين ينسبون هذه الثقة إلى حصولك على سجلّ موثّق مليء بالعلامات البحريّة وفيه إشارة إلى كلّ الأرصفة والمضائق والموانئ، سُرق من أحد البحّارة البرتغاليّين. إضافة إلى خارطة بحريّة رسمها قبل خمس عشرة سنة بحّار إيطاليّ اسمه توسكانيللي سُرقت هي أيضاً من المكتبة الملكيّة في لشبونة عند مرورك بها.

ـ أستحلفك بالله هل تصدّق كلّ هذه الأراجيف؟

ـ لا أملك أن أصدّق أو أكذّب.

هتف كولون:

ـ دعك من هذا اللفّ والدوران أيّها الراهب وهات حقيقة رأيك.

لم يرد فارغاس الكشف عن اسم فراي مارشينا الذي مدّه بكلّ هذه المعلومات لكنّه أراد استدراج البحّار إلى الدفاع عن نفسه:

ـ ليس لي شخصيّاً أيّ علاقة بالأمر لكن هذا ما سمعته.

أحدّ الجنويّ البصر في الراهب ثمّ سأله ملحّاً:

ـ إذا كان هذا كلّ ما في الأمر فقل لي لماذا أُجهد نفسي كي أقنع جلالتهما بالخلفيّة العلميّة لرحلتي؟ أليس أفضل وأسهل أن أريهما هذه الوثائق كي يتأكّدا من سهولة الرحلة ويوافقا عليها فوراً وقد ضمنا نتائجها ومغانمها؟

ـ لديك سببان يمنعانك من ذلك. السبب الأوّل أنّك لو كشفت لجلالتهما عن أمر الوثائق لما بقي لك أيّ أمل في تلبية شروطك الغريبة: أن تُسمّى أميرال قشتالة ونائباً للملك ووالياً على كلّ الأراضي التي تكتشفها ومشرفاً على الإدارة والقضاء فيها إضافة إلى الحصول على عشر الذهب والكنوز التي قد تعثر عليها وثمن الأرباح وكلّ السلطات للحكم في أي مخالفات تجاريّة. لو كشفت عن أوراقك لما طمعت في أكثر من مبلغ ماليّ مقابل أتعابك، هذا إذا لم تُؤمر فوراً بتسليم الوثائق إلى جلالتهما كي لا يحلّ بك العقاب الشديد. ألستُ على حقّ؟

ـ تحدّثتَ عن سببين.

ـ السبب الثاني هو الموت المحقّق. هل فهمت قصدي؟

لم ينبس الجنويّ بكلمة فسألت مانويلا:

ـ ولِمَ الموت المحقّ؟

ـ لأنّ دفاتر البحّارة وسجلاّتهم تُعتبر من أسرار الدولة. وكلّ من يكشف عن معلومة بحريّة أو يستولي عليها بغير وجه حقّ يعرّض نفسه إلى الحكم بالإعدام. قبل سنوات فرّ ربّان سفينة صحبة بحّارين إلى قشتالة طمعاً في عرض خدماتهم على جلالة الملك فتمّ إيقافهم وإعدامهم فوراً. وحُملت جثّة الربّان إلى لشبونة حيث قطعت إلى أربع قطع وعلّقت كلّ قطعة على باب من أبواب المدينة الأربعة عبرة للآخرين. ولمّا كانت الوثائق التي يملكها السينور كولون أو يُشاع أنّه يملكها، قد سُرقت من بحّار برتغاليّ كان يحتضر على سفينة برتغاليّة، فهي قانونيّاً ملك البرتغال... ولا أتحدّث هنا عن خارطة توسكانيللي. فهل أحتاج إلى المزيد؟

انقبضت أسارير الجنوي وبدا عليه الإحباط وكأنّه قد وقف فجأة على حافة هاوية بلا قرار. فقال فارغاس في شيء من الارتباك:

ـ المعذرة إذا كنت قد جرحتك أو...

قاطعه البحّار:

ـ لا علاقة للأمر بالعواطف.

كان وجهه قد احتقن وارتعشت شفتاه.

ـ ما يثير غمّي هو سخافة كلّ هذا بالمقارنة مع أهميّة الهدف.

سأله عزرا:

ـ ما قصدك؟

ـ لنفترض أنّ هذه الـ... إشاعات... ذات أساس من الصحّة. ولنفترض أنّي أملك فعلاً هذه الوثائق وأنّي لا أستطيع الكشف عنها للسببين اللذين ذكرهما صديقكم. ولنفترض أنّي فشلت في إقناع الملكين بتمويل

حملتي جرّاء كلّ ما سبق ذكره. من الخاسر الحقيقيّ لو تمّ إفشالي وتحطيمي؟ من الخاسر أنا أم الحقيقة؟ إنّ الحقيقة هي التي يُراد محاربتها من خلالي باسم الظلاميّة والعمى واللاتسامح. إنّ من يستعدّون اليوم للبتّ في قضيّتي هم أنفسهم الذين يهدّدون اليوم ذاك الفلكيّ البولونيّ المدعوّ كوبرنيك الذي انتقد مقولات بطليموس وتجرّأ على القول إنّ الأرض تدور حول الشمس وليس العكس. هم لم يعدموه بعد ولكن من أدرانا بما يخفون له؟ هؤلاء هم الذين ينعتونني بالأصبع اليوم، أنا المسيحيّ المتحمّس والكاثوليكيّ المدافع عن الإيمان.

قال عزرا ساخراً:

ـ وماذا تريد؟ تلك هي الكنيسة. ما أن تدخلها حتّى يكون عليك أن تخرج منها وقدماك أعلى من رأسك.

قال فارغاس وقد تصلّبت أساريره:

ـ يبدو أنّك لا تضيّع فرصة يا عزرا. ولكنّ استخفافك بكلّ دين غير دينك يجعل كلامك خالياً من كلّ مصداقيّة.

ـ إذا كان هذا رأيك فلماذا لا تصحب السينورِ كولون ولماذا لا تدافع عنه أمام اللجنة؟ لمذا لا تكون لك الشجاعة الكافية للدفاع عن العلم في وجه الحمق والتعصّب؟

هتف الجنويّ:

ـ هذا صحيح. تعال معي وكن أحد شهودي فأنا لا أملك أحداً إلى جانبي باستثناء رئيس دير الرابطة والأب دييغو دو ديزا، رئيس دير سان إيستيبان.

ـ لا أريد أن أكون محلّ سخرية فأنا لا أعرف شيئاً عن الفلك ولا عن الملاحة.

ـ لو كانت اللجنة تتألّف من علماء ورياضيّين لاتّفقت معك لكنّ أغلبها

من الإكليروس. ولهم الكلمة الحاسمة في الموضوع فهم يملكون كلّ السلطات. وماذا في وسع المنطق والتفكير أن يفعلا مقابل الكتابات المقدّسة؟ بسبب تعنّتهم ظلّ العلم مجرّد فرع من فروع اللاهوت محبوساً فيه مثل النواة في القشر. ولو طمعنا في أن تفجّر النواة قشرها يوماً لاعتبرونا مجدّفين. تعال معي أرجوك.

قال عزرا:

ـ لا تلحّ عليه فلن يصحبك.

احتجّت مانويلا:

ـ ومن أدراك؟

أضافت متمعّنة في فارغاس:

ـ أليست فرصة سانحة لجلب شيء من نور العقل إلى محيط نعرف أنا وأنت أنّه مليء بالعتمة؟

خفض الفرانسيسكانيّ عينيه ولزم الصمت فقال الجنويّ مستسلماً:

ـ خسارة. كنت محتاجاً إلى صوت آخر للتخفيف من نباح الكلاب. خسارة. ليس أمامي الآن إلاّ الصلاة للربّ. وحده الربّ يستطيع أن يجعلني أعبر هذه المحنة من باب المجد لا من باب العار.

أحنى رأسه محيّياً:

ـ عليّ بالانصراف فإنّ قُضاتي في انتظاري. سررتُ برؤيتكم.

هتف عزرا:

ـ لحظة من فضلك. لقد ذكرت الآن عبارة جاء فيها ذكر المجد والعار. هل كان الأمر محض صدفة؟

ـ كلاّ.

ـ ماذا تقصد؟

ـ إنّها عادة قديمة.

ألحّ الحبر:

ـ أيّ عادة؟

ـ ثمّة رواق مجاور للكاتدرائيّة يوجد فيه مصلّى صغير اسمه مصلّى سانتا باربرا. وقد اعتاد الطلبة ليلة الامتحان أن يراجعوا دروسهم هناك ساهرين طيلة الليل مع كتبهم في عزلة كاملة جالسين على دكّة مرتفعة واضعين أقدامهم على قبر أحد الأساقفة تبرّكاً وتفاؤلاً. فإذا كان الغد وتجاوزوا الامتحان بنجاح أمكن لهم التمتّع بالتشريفات اللائقة بالناجحين والخروج من الباب الرئيسيّ، باب المجد. أمّا إذا فشلوا في الامتحان فعليهم التخفّي عن الأنظار والخروج من باب الرواق، باب العار.

همس بصوت متهدّج:

ـ أخشى أنّه الباب الذي سأخرج منه بعد قليل: وداعاً أيّها السادة.

لم يردّ أحدٌ منهم على تحيّته. كانوا ينظرون جميعهم إلى نقطة خفيّة، وراء الحائط القصير الذي يقوم خلفه مُصلّى سانتا باربرا، وقد شغلهم نغم وحيد يتغنّى بكلمات وحيدة: **المجد والعار تحت تابوت الأسقف.**

الفصل ٢٢

إن الاستغلال الكامل للغموض هو الذي ينشئ الرمز: أن تعرض شيئاً معيناً بشكل تدريجيّ إلى أن تُبرز إحساساً، أو العكس، أن تختار شيئاً معيّناً ثمّ تستخرج منه إحساساً بواسطة سلسلة من التأويلات...

(ملارميه)

اضطجع فارغاس على بطنه أسفل التابوت ومدّ يده متحسّساً الفجوات والنتوءات وسرعان ما عثر على المثلّث البرونزيّ. تنفّس عزرا الصعداء:

ـ والآن؟ من يشرح لي الفائدة من هذه المثلّثات؟

قال فارغاس وهو ينهض منفّضاً الغبار عن مسوحه:

ـ لنثق في ابن برول فلا شكّ أنّه جعل لها دوراً سنفهمه في إبّانه.

كان المصلّى خالياً وكان يعبق بروائح البخور والشمع بينما أحاطت عشرات الشمعدانات بالمذبح الرئيس مرسلة أمواجها الضوئيّة على الرافدة مسبغة ألواناً مخيفة على الوجوه الملائكيّة. سأل ابن سراج:

ـ والآن؟ ما العمل؟

ـ أرى أن نشرع فوراً في حلّ شفرة القصر الموالي وأن نستأنف رحلتنا دون إضاعة المزيد من الوقت.

اقترب فارغاس من رفاقه وقال مواصلاً تنظيف مسوحه:

ـ ستشرعون في ذلك بدوني.

هتف عزرا:

ـ ماذا؟ تعرف جيّداً أنّنا في حاجة إلى أوراقك. . .

ـ لا تخف يا ربّي. سأملي عليكم ما لديّ وأتمنّى أن تكونوا أهلاً لثقتي.

قرأ على مسامعهم الجزء الخاصّ به من القصر وأعاد ذلك مرّتين وثلاثاً حتّى اطمأنّ إلى أنّهم كتبوا كلّ كلمة. ثمّ اتّجه ناحية رحبة الكنيسة.
هتف ابن سراج محتجّاً:

ـ ألا تخبرنا بسبب انصرافك عنّا في هذا الوقت وبهذه السرعة؟

ـ إنّه داعي البحر يا شيخ.

بدت على ثلاثتهم الحيرة فشرح لهم فارغاس الأمر:

ـ سأحاول ان أشرح لإخوتي أنّ الطريق إلى الفردوس قد يكون من الغرب أيضاً.

كاد يصل إلى الباب حين اندفعت مانويلا في إثره.

ـ سأصحبك فراي فارغاس. اثنان أفضل من واحد لمحاربة العتمة.

*

أشرع فارغاس ومانويلا الباب فصدمتهما الإنارة الخافتة ولم يتبيّنا في البداية سوى الطاولة الكبيرة ذات الشكل الشبيه بصفيحة الحصان وحولها أطياف أساكيم وقنابيز كهنوتيّة تضيئها الشمعدانات. مع تعوّد أعينهما على نصف العتمة اكتشفا أشخاصاً آخرين جالسين على كراسٍ ملتصقة بالجدران، بعضهم ينظر إلى القاعة باجفان مثقلة وبعضهم أسند رأسه إلى كفّه وبعضهم منتصب في جلسته يحدّق في الفراغ كأنّه تمثال. لم ينتبه إلى دخولهما إلاّ قلّة أمّا الآخرون فكانوا مشدودين إلى خطيب واقف قبالة الطاولة. تقدّم فارغاس ومانويلا ناحية وسط القاعة بحثاً عن مقعدين شاغرين وفجأة سمعا صوتاً يهمس ناحيتهما:

ـ من هنا. . .على يمينكما.

دقّقا النظر في نصف العتمة فلمحا كريستوبال كولون وهو يشير إلى المقاعد الشاغرة بالقرب منه. جلس فارغاس على أحد المقاعد وكانت مانويلا تهمّ بالجلوس إلى جواره حين تجمّد الدم في عروقها. كان رئيس الجلسة يدقّق فيها النظر ولم يكن سوى فراي هرناندو تالافيرا. ماذا جاء به إلى هنا؟ كانت واثقة من أنّه لم يحد عنها بعينيه منذ دخلت القاعة. تهالكت إلى جانب فارغاس وقد أُسقط في يدها. فات أوان الهرب وأنّى لها أن تفعل وقد خانتها ركبتاها المرتجفتان.

من ناحيته كان تالافيرا بين مكذّب ومصدّق. هل هو فريسة هلوسة؟ كلاّ. إنّها دونا فيفيرو. وبجوار الجنويّ. أيّ لعبة قدر جمعت بينهما في هذا المكان؟ كيف أمكن ذلك؟ لا شكّ أنّ الراهب الجالس إلى جوارها هو الفرانسيسكانيّ فارغاس رافائيل. ولا شكّ أنّ العربيّ واليهوديّ ليسا بعيدين. والغريب أنّ الجميع يبحث عنهم في أحواز قصرش بينما هم هنا في سلمنقة. عليه أن يفعل كلّ ما في وسعه كي لا تعرف أنّه انتبه إليها. تنازعته الخواطر حتّى بات عليه أن يجهد نفسه كي ينتبه إلى خطاب الكاهن الدومينيكانيّ ذي الوجه الممتقع الملتحي الذي كان يتكلّم بلهجة مسرحيّة.

ـ وفي الختام أسأل: من هو هذا الرجل؟ إنّه ليس من مواطني هذا البلد وليس واحداً من رعايا جلالتي الملكين. بل هو غريب من جنوة ذو أصول غامضة ومشكوك فيها، ينتمي دون شكّ إلى قاع المجتمع وإلى الرعاع من حيث انبعثت دائماً روائح الكفر العطنة.

ارتفع أحد الأصوات بالاحتجاج. كان صوت دييغو دو ديزا.

ـ فراي أوفييدو. إنّ كلماتك جارحة وظالمة. ما معنى تلميحك إلى الأصول المتواضعة للسينور كولون؟ ألم يخرج سيّدنا من إسطبل ليحمل النور إلى العالم؟

ـ هذا صحيح. لكنّ الكنيسة المقدّسة تملك كلّ الأسباب للاحتراز من هذا المسيح الجديد الذي يريد إحداث ثغرات في أسوار عالمنا الذي بناه على امتداد ألف عام الإنجيليّون رُسُلُ الربّ وآباءُ الكنيسة واللاهوتيّون. فلتتخشّب اليد التي ترتفع لأوّل ضربة فأس.

تراجع دييغو دو ديزا وابتلعته العتمة وصرّ كولون على قبضة يده فهمس فارغاس:

ـ لا تنجرّ إلى المعركة على هذه الجبهة وإلاّ وقعتَ في فخّهم.

ظلّ البحّار صامتاً فأعاد دو ديزا الكرّة:

ـ السينور كولون موجود بيننا وهو مستعدّ للإجابة على كلّ الأسئلة فلتطرحوا عليه أسئلتكم.

ـ سنفعل.

التفتت بعض الرؤوس ناحية الصوت فتعرّفوا على صاحبه الستّينيّ بفضل السلسلة البرّاقة التي زانت صدره. كان رئيس دار العلوم.

ـ ولكن ليكن في علم الجميع أنّ هذه الأسئلة أكثر تعقيداً من أن تكفيها جلسة واحدة. وعلى السينور كولون أن يبقى على ذمّتنا طيلة الأسابيع القادمة.

اتّجه تالافيرا إلى الجنويّ بالسؤال:

ـ هل نستطيع التعويل على حضورك طيلة هذه المدّة يا سينور كولون؟

أجابه البحّار بنبرة واثقة:

ـ أنا على ذمّتكم طيلة الوقت المطلوب.

ألقى معرّف الملكة نظرة خاطفة ودون قصد على مانويلا ثمّ دعا رئيس دار العلوم إلى الحديث.

ـ سأهتمّ مباشرة بجوهر الموضوع. وقد يستغرب الكثيرون ذلك لكنّي

سأذهب في الاتّجاه الذي يريده السينور كولون. لنجهّز سفينة ولنبحر في اتّجاه الغرب.

سرت همهمة في القاعة فواصل الرجل حديثه دون اكتراث:

ـ يعلم الجميع أنّي كرّست حياتي لدراسة مقولات بطليموس وشرحها وتطويرها. وهي مقولات تعود إلى قرون عديدة لكنّها لم تُفنّد حتى الآن. ومن مسلّمات بطليموس أنّ محيط دائرة الأرض عند خطّ الاستواء يغطّي نصفه البرّ ويغطّي نصفه الآخر البحر. من ثمّ تحتلّ المساحة البرّية لآسيا وأوروبا ١٨٠ درجة من أصل ٣٦٠ درجة تمثّل محيط الدائرة الأرضيّة ككلّ. وهذا يعني أنّ على السفينة التي تريد بلوغ الهند من تلك الجهة أن تقطع ٣٣٧٥ فرسخاً. ومن المعلوم طبعاً أنّ ما يمكن أن تحمله السُفُنُ من مؤونة وماء صالح للشرب لا يتجاوز حدّاً معيّناً. وهذا يعني أنّ الموت جوعاً وعطشاً هو ما ينتظر ملاّحي كلّ سفينة تتجاوز مدّة رحلتها الثلاثين يوماً.

توقّف لحظةً وكرّر العدد مشدّداً على الأرقام:

ـ ٣٣٧٥ فرسخاً. السؤال الآن: هل توجد سفينة قادرة على حمْل مؤونةٍ كافية لمدّة بهذا الطول؟ هل يستطيع السينور كولون إجابتنا على هذا السؤال؟

همس فارغاس في أذن الجنويّ:

ـ تلك نقطة الضعف التي تحدّثنا فيها منذ قليل. هل رأيت؟

نهض كولون متثاقلاً:

ـ سؤالكم وجيه. لا تستطيع سفينة في هذا الزمان قطع مثل هذه المسافة. وربّما ذاك هو السبب الذي جعل الكثيرين يحجمون عن المحاولة حتى اليوم. لكنّ المسافة التي أقصدها أنا ليست ٣٣٧٥ فرسخا بل هي ٩٧٧ فرسخاً، وقد تكون أقلّ لو انطلقنا من جزر فورتوني.

حدث تململ في القاعة وندّت ضحكات سخرية عن بعض الحاضرين. إلاّ أنّ مدير دار العلوم حافظ على هدوئه سائلاً البحّار:

ـ هل لديك دليل على كلامك؟

ـ أجل. أضع بين أيديكم مختصراً في الجغرافيا كتبه منذ نصف قرن ـ توقّف عن الكلام عمداً قبل أن يضيف ـ أحدُ رجال الكنيسة الموقّرين، الكاردينال بيار دايي. وهو يؤكّد أنّنا نستطيع بلوغ آسيا مبحرين غرباً. وفي هذا المختصر ذكرٌ لجغرافيّ إغريقيّ من القرن الثاني كان يعمل في صُور وقد قدّر بالمقارنة مع سرعة حركة الجمل أن آسيا أقرب بكثير ممّا قدّره بطليموس. ممّا يدلّ على أنّ هذا الجزء من العالم يغطّي ٢٢٥ درجة ولا يترك للبحر إلاّ ١٣٥ درجة للوصول إلى الهند، بل ٦٨ درجة إذا انطلقنا من جزر فورتوني.

ـ وما هي في نظرك المسافة الفاصلة بين درجة وأخرى؟

ـ يعتمد خبراؤنا في وفاق تامّ مع أغلب زملائهم الأوروبيّين على الحسابات التي قام بها منذ أربعة قرون أحد الجغرافيّين المصريّين. وحصيلة هذه الحسابات أنّ الدرجة في خطّ الاستواء تساوي ٥٦ ميلاً وثُلثي ميل. ولمّا كان هذا الجغرافيّ المصريّ قد تخلّى في حساباته عن الميل العربيّ واستعمل الميل الإيطاليّ فإنّ المسافة. . .

قاطعه مدير دار العلوم:

ـ ومن أين لك أنّ المصريّ لم يعتمد على المِيل العربيّ كوحدة قياس؟

ـ أنا واثق من ذلك.

ـ واثق؟ أهذا كلّ ما لديك؟ ألا تعلم أنّ المِيل الإيطاليّ أقصر من المِيل العربيّ بأربعة فراسخ وأنّك باعتماد الميل الإيطاليّ تقلّص مساحة العالم إلى ربع مساحته الحقيقيّة؟

لم يبد على كولون الاكتراث لاعتراض العالِم بل قال بنفس النبرة الواثقة:

- أعلم ذلك ولكنّي أعتمد أيضاً على الكتابات المقدّسة.

عمّت الضجّة من حوله حتّى احتاج تالافيرا إلى كلّ سلطته لإعادة النظام والهدوء إلى القاعة داعياً الجنويّ إلى توضيح كلامه.

- أستشهد بالكتاب الثاني لعزرا الذي ورد فيه أنّ الربّ جعل مقابل كلّ جزء من البحر ستّة أجزاء من البرّ. وعملاً بذلك فإنّ المسافة الفاصلة بين الغرب والشرق تتقلّص إلى أن تصبح ٩٧٧ فرسخاً. لذلك أؤكّد أنّها رحلة في متناولنا.

لم يجد مدير دار العلوم الفرصة كي يعرب عن اعتراضه فقد انبرى من بين الصفوف أحد الشيوخ ووقف على كرسيّه صارخاً في البحّار:

- هذه هرطقة لا شكّ فيها. كيف تجرؤ على ربط مسألة دنيويّة لا هدف لها إلاّ إشباع غرورك بمسائل الكتابات المقدّسة؟

فتح الجنويّ فمه هامّاً بالكلام فضاعف ذلك من هيجان العجوز.

- لا يمكن لحقيقتين أن تتعارضا ومن ثمّ فلا بدّ لحقائق الملاحة والفلك من أن تتوافق مع حقائق اللاهوت.

أضاف مشهداً الحاضرين:

- لقد أثبت لنا السينور كولون للتوّ أنّه ليس سوى واحد من مدّعي الفكر المارقين الخارجين على النظام والموجودين في كلّ زمن وفي كلّ مجال، بل والذين لا يخلو منهم ديننا المقدّس نفسه.

عبر الصفوف بخطوات قصيرة مرتبكة وواجه الحاضرين.

- إخوتي في محبّة المسيح يسوع. إنّ العلم شأنٌ من شؤون البشر لكنّ الإيمان شأن الربّ وحده. وإنّ العلم يخطئ كلّ الخطأ حين يعارض

الكتابات المقدّسة لأنّ الكتابات المقدّسة وحدها تملك الحقيقة. لقد هزمت كلماتُ مبشّرينا وقدّيسينا الوثنيّين في العالم القديم، وها هم أحفادهم اليوم أبناء المسيح يحملون الصليب في وجه الإسلام وراياته المضمّخة بدماء إسبانيا. ماذا يقول أكبر فلاسفتنا وأبو كنيستنا القديس أغسطينوس؟ إنّه ينعت بالهرطقة كلّ من يؤمن بوجود «المتقابلين»، لأنّ في تلك الأقاصي يعيش بشر لم ينحدروا من آدم. والكتابات تعلّمنا أنّنا جميعاً من نسل الزوج نفسه: آدم وحوّاء. هل يريد السينور كولون إقناعنا بأنّ نوحاً آخر أبحر بفلكه في اتّجاه الغرب؟ إنّ الكتابات المقدّسة لا تقول شيئاً عن ذلك. يقولون لنا إنّ الأرض كرويّة الشكل وأقول إنّ هذا عين السخف. أليست صورة الأرض موصوفة في العهد القديم بما لا يترك أي حاجة إلى المزيد؟ ألم يجئ في الكتابات المقدّسة أنّ الربّ بسط السماوات كشُقّة وشدّها مثلما يُشدّ سقف خيمة؟ فهل رأيتم خيمة تُنصَبُ فوق كرة؟ كلاّ. إنّ الأرض مساحة منبسطة غير متساوية.

صمت العجوز ثمّ أشهر سبّابته في وجه الجنويّ.

ـ هرطقة.

التفتت مانويلا ناحية فارغاس لكنّها رأت مقعده فارغاً، وفي الوقت نفسه سمعت صوته يرتفع من جهة الصفوف الأماميّة.

ـ اسمحوا لي بالتدخّل وإن كنت غير مختصّ لا في علم الفلك ولا في الملاحة. أنا فارغاس رافائيل راهب فرانسيسكانيّ من دير الرابطة. قبل أن أكشف لكم عن سبب تدخّلي أحبّ أن أخبركم بأنّي تحدّثت مع السينور كولون وأعرف الثغرات التي تسم نظريّته. والمستقبل وحده يستطيع إثبات إن كان على خطأ أم على صواب. أمّا في ما يتعلّق بكرويّة الأرض ـ التفت ناحية العجوز ـ فاسمحوا لي بإبداء بعض الأفكار البسيطة. لقد أتيح لي أن أجوب البلاد ولاحظت دائماً أنّ قمم الجبال هي التي تنبثق أوّلاً من الأفق.

كما أتيح لي أن أبحر على سفن عديدة ولاحظتُ أن ذؤابات الصواري هي آخر ما يختفي من السفن عند خطّ الأفق. وفي ذلك دليل كافٍ على أنّ الأرض كرويّة. قد تكون هذه الملاحظة أجدر بالأطفال منها برجال العلم لكنّها ملاحظة بديهيّة تفرض نفسها على الجميع ولا يمكن لأحد تجاهلها اليوم. وانطلاقاً من ذلك فإنّ فكرةَ كرويّة الأرض التي يشكّك فيها البعض اليوم ستصبح قريباً حقيقة لا يختلف فيها اثنان.

ارتفعت موجة احتجاج تحت القبّة ممّا اضطرّ تالافيرا إلى الضرب على الطاولة بمطرقة عاجيّة صغيرة مرّات متتالية قبل أن يعود الهدوء ويستأنف فارغاس حديثه.

ـ أخْلُصُ الآن إلى السبب الحقيقيّ لوجودي بينكم. لا يمكن للكنيسة أن تستمرّ في الاعتماد على مثل هذا التفكير الذي عبّر عنه أخي قبل حين. قال: العلم بشريّ والإيمان إلهيّ. وقال: العلم يخطئ حين يتعارض مع الكتابات المقدّسة التي تملك وحدها الحقيقة. هل نسيتم قول الربّ: *أنتم نور العالم*؟ إذا استمرّت الكنيسة في التعنّت والانغلاق داخل الاستبداد فهي لن تمنح النور بل الظلمة للعالم. وحينئذ قد يصحّ أن نسأل: ألن تكون الكنيسة المقدّسة شبيهة بأولئك الذين تحدّث عنهم المحاضر السابق؟ أولئك الذين يفضّلون التضحية بالأرواح على الإقرار بخطئهم في الإبّان؟ ستبحثون عبثاً في الكتابات المقدّسة عن عبارة تضع حدوداً للمعرفة البشريّة. وأنا واثق من أنّكم لن تعثروا على هذه العبارة.

مرّ بيده على جبينه كأنّه شعر فجأة بدوار. كان تأثّره ظاهراً للعيان ولعلّه تجاوز به الحدود التي رسمها لنفسه قبل أن يطلب الحديث. لكنّه لم يعد مبالياً بشيء الآن عدا أن يعبّر عن أفكاره إلى النهاية.

ـ قفوا في وجه الجنويّ إذا قدّرتم أنّ براهينه غير كافية أو وهميّة. ولكن رجاءً. إذا كان ثمّة أمل مهما صغر حجمه في أن يكون ما قاله

صحيحاً، رجاءً، لا تلقوا بأحلامه إلى الجحيم لأنّ هذا الجحيم سيكون صنيعتكم أنتم.

صمت فارغاس بعد أن بلغ التوتّر بالقاعة أقصاه وبات في وسع الملاحظ الانتباه بيسر في نصف العتمة إلى الوجوه التي أخذت تحدّ النظر إليه بحديّة واهتمام أو بغضب وسخط. كان العجوز أوّل من أعرب عن غضبه صارخاً بالويل والثبور راسماً علامة الصليب. تلا ذلك اضطراب غريب على مثل ذلك المكان وعلى مثل تلك الاجتماعات التي يغلب عليها عادة الانضباط والجديّة والنظام. ظلّ تالافيرا للحظات عاجزاً عن ردّ الفعل وقد أفلت منه زمام الأمور. أثناء حديث الفرانسيسكانيّ كان يحسّ بتجاوب عميق وحقيقيّ قادم من أعماق ذاكرته وأقاصيها من أيّام كان هو نفسه مبتدئاً بريئاً يحلم بعالم مُفعَم بالتسامح والغفران، دون أن يعنيه في شيء إن كان ذاك العالم كرويّاً أم غَير كرويّ. لكنّه اليوم لا يفهم أيّ دور يلعبه هذا الراهب في هذه المسألة وما علاقته بابن برول؟

دقّق تالافيرا النظر في القاعة فلم ير مانويلا. شاهد فارغاس إلى جانب الجنويّ ثمّ لاحظ أنّ رجلاً آخر التحق بهما. كان طويلا نحيفاً أبيض اللحية. هل هو اليهوديّ صموئيل عزرا؟ كانوا أبعد من أن يتبيّن حديثهم لكنّه رأى شفاههم تتحرّك وعيونهم تبرق بغموض في نصف العتمة. على أيّ حال في وسعه الآن أن يحمد الربّ على اهتدائه إلى أثرهم. فلعلّ في ذلك علامة. لم يبق إلاّ أن يخبر دياز بالأمر. رفع مطرقة العاج بيد واثقة وضرب بها الطاولة الخشبيّة ضربة مُدوّية.

ـ رُفعت الجلسة. موعدنا غداً على الساعة نفسها.

*

سارت مانويلا بخطى حثيثة تذرع الشارع الملتوي متلفّتة مسترقة النظر إلى الخلف تحسّباً من المجهول. لم تكن واثقة من أنّ تالافيرا لم يتعرّف

عليها. وإذا فعل فهو قد أخفى ذلك لأمر في نفسه. ولعلّه انشغل بالجدل المحتدم في القاعة فلم ينتبه إليها. لم يكن في وسعها المكوث في القاعة لدقيقة أخرى على أيّ حال فالأمر محفوف بالمخاطر. حثّت الخطى حتّى بلغت ساحة العناية وكانت تهمّ بالانعطاف حين سمعت هتافاً باسمها.

ـ دونا فيفيرو.

قفز قلبها في صدرها ولم تجرؤ على الالتفات. هل هو تالافيرا. تسمّرت في مكانها وكأنّها تمثال. ثمّة الآن صدى ركضٍ من خلفها يتخلّله نفس الهتاف:

ـ دونا فيفيرو.

أجبرت نفسها على الالتفات ناحية الصوت وما أن فعلت حتّى همست وقد هدأ روعها وتنفّست الصعداء:

ـ ميندوزا؟ أخيراً؟

في اللحظة نفسها كان فارغاس يغادر القاعة التي لم تهدأ ضجّتها بعد.

ـ منذ متى وأنت تواكب الجلسة يا رّبي عزرا؟

ـ منذ بدأت أنت تتكلّم.

ـ ولماذا فعلت ذلك بحقّ الربّ؟

توقّف عن الحديث فجأة وقال مقطّباً جبينه:

ـ لا تقل لي إنّك ظننتني لن أقدم على ذلك فجئت تتثبّت من الأمر؟

ـ كلاّ. ولكنّي لم أشاهد من قبل مسيحيّاً يلقي بنفسه طوعاً إلى الوحوش المفترسة فلم أرد تفويت الفرصة.

ندّت عن الراهب ابتسامة خاطفة وقال متلفّتاً:

ـ لا أرى السينورة فيفيرو.

ـ لقد لمحتها تغادر القاعة منذ قليل ولعلّها التحقت بابن سراج في المصلّى.

أشعّت عينا الراهب ببريق غامض وهو يلاحظ:

ـ أمرها غريب. كان في وسعها انتظارنا.

سارا في اتّجاه دار العلوم. قال عزرا:

ـ الغريب حقّاً أن يوجد في هذا الزمن أناس يشكّكون حتّى الآن في كرويّة الأرض. لو لم أسمع بأذنيّ ذاك العجوز الخرف يقول ما قاله لما صدّقت. ثمّ هذا العالم المزعوم رئيس دار العلوم. يا له من ماكر. تُرى لماذا يكون مثل هؤلاء الأشخاص بطوناً رخوة لا يجرؤون على شيء خيراً كان أم شرّاً؟ لماذا يحمل هذا الرجل سلسلة الوجاهة وهندام العلماء ولا يفعل شيئاً لإيقاف ذاك الجاهل عند حدّه؟

ـ أراك قاسياً مع الآخرين يا ربّي عزرا. رئيس الدار ناقش كولون على صعيد العلم ولم يناقشه على صعيد اللاهوت.

احتجّ عزرا:

ـ هذا صحيح. لكنّه صمت حين أطلق العجوز الآخر وابل تخريفه. إنّ عدم الاعتراض على مثل تلك الأقوال والأفعال يتساوى أحياناً مع الموافقة أو المشاركة في الجرم.

لم ينتبه الربّي إلى أن صوته ارتفع فإذا هو يتكلّم بحماسة من يريد أن يصرخ بثورته في وجه الأرض كلّها.

ـ ليشهد عليّ آدوناي. إنّ البشر لجبان. جبان لقلّة جرأته. جبان لأنّه يفضّل التقليد والاتّباع.

ما أن نطق بالكلمة الأخيرة حتّى تضاعفت حماسته.

ـ إنّه يفضّل أن يقف في الصفّ مطبّقاً للقوانين خاضعاً للتقاليد متابعاً للرأي السائد. وعمّا قريب يا فراي فارغاس، عمّا قريب يُرمى الناس في

الزنزانات لسبب وحيد: أنّهم مختلفون عن القطيع، ويُحفر على جلدتهم: محكومون بتهمة الاختلاف.

توقّف عن الحديث برهة وكأنّ الدهشة صعقته.

- لا جريمة للإنسان في نظري أكبرُ من رغبته الغريزيّة في الانسجام مع النظام القائم أو مع الأمر الواقع، والحال أن كلّ شيء ذي قيمة لم يتمّ إنجازه إلاّ نتيجة إعادة نظر في هذا النظام ومؤسّساته. خذ مسيحكم على سبيل المثال. إنّه يقول: ***لا تظنّوا أنّي جئت لأحمل السلام إلى العالم، ما جئتُ لأحمل سلاماً بل سيفاً. جئتُ لأفرّق بين الابن وأبيه، والبنتِ وأمّها، والكنّة وحماتها. ويكونُ أعداءُ الإنسان أهلُ بيته.***

ارتعشت شفتاه وهو يكرّر.

- ***ويكونُ أعداءُ الإنسان أهلُ بيته.*** هل أنت منتبه إلى عمق هذه العبارة يا فراي فارغاس؟ الأهل أي لحم الإنسان ودمه. لأنّهم يستيقظون ذات يوم وقد أصبحوا مختلفين. لأنّ أحد الأطفال يعبّر ذات يوم عن رغبته في أن يكون شاعراً في عالم يعتبر الشعر بدعة وعيباً. لأنّ بشراً رُبّي طيلة حياته على العبوديّة يجرؤ ذات يوم على المجاهرة برفضه. لأنّ شيخاً هرماً يعلن بأنّه يرى الجمال والتسامح حيث لا يرى محيطه إلاّ القبح والخطيئة.

رفع قبضته في اتّجاه السماء وقال:

- ليلعن الربّ كلّ نظام قائم.

- ماذا دهاك يا رِبّي عزرا؟ هل هو من أثر الحمّى؟ لا أراك معنيّاً بقضيّة السينور كولون فما الذي دهاك؟

- أنا معنيّ بمصيري ولذلك أقول ما أقول. ألا تفهم؟ لقد أعطيتني درساً للتوّ يا فراي فارغاس. استمعتُ إليك فاكتشفت كم أنا تافه ومنغلق عل نفسي. استمعتُ إليك فكأنّ غشاوةً أُزيحت من على عينيّ وكأنّ الشمس أطاحت فجأة بعتمة أوهامي ويقيني المزيّف. فجأة فهمت أن لا

شيء مكتسب ولا شيء نهائيّ. إنّ التكلّس في قناعات جامدة بتعلّة أنّها قناعات الجمهور أو الأغلبيّة هو شبيه بالعيش في كفن. في جمود. مع الموتى.

بتأثّر بالغ أمسك الربّي بيد الراهب وضغط عليها بكفّيه قائلاً:

- كانت دونا فيفيرو على حقّ حين طلبت منك أن تجلب شيئاً من نور العقل إلى عالم تغلب عليه العتمة. شكراً يا فراي فارغاس. شكراً جزيلاً.

داعب الرجل ذو وجه العُقاب أثر الجرح على وجهه وقال بلهجة حادّة:

- لا سبيل إلى الالتقاء بك دون خطر دونا فيفيرو. كيف حال جرح العربيّ؟

- إنّه يلتئم. ولكن قل لي. هل قبضتم على مهاجمينا؟

- ليس بعد. ولكنّي أؤكّد لك أنّهم سيقعون في أيدينا عند أوّل محاولة جديدة. لقد تعرّفت بينهم على خادم الشيخ الذي وشى به لدينا. هل تعرفين لِمَ يحاول قتل سيّده السابق؟

- الشيخ نفسُه لا يعرف السبب.

أضافت وهي تُحكم عقصة شعرها:

- ولكن كيف تركتموه يفعل يا سينور ميندوزا؟ أليس دوركم أن تراقبونا عن كثب؟

- حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. انتبهنا إلى وجودهم لكنّنا لم نحدس بما كانوا يستعدّون لفعله. وقد حاولنا ملاحقتهم بعد الهجوم لكنّنا لم نفلح في القبض عليهم.

ضاقت عينا مانويلا حتّى تحوّلتا إلى ثقبين أسودين.

- لم تحولوا دون الحريق في دير الرابطة، وعجزتم عن منع إيقاف

الربّي في قصرش، ثمّ فشلتم في تجنيبنا هجوماً كاد يوصلنا إلى الكارثة، وها أنتم تعجزون عن القبض على الفاعلين. لا أجد وصفاً لكلّ هذا أخفّ من عدم الكفاءة يا سينور ميندوزا.

صرّ الرجل على أسنانه. كان محتاراً بين الرغبة العارمة في الردّ على المرأة بعنف والخوف من مغبّة ذلك. تغلّب عليه الخوف فقال بلهجة متمسكنة:

ـ أنت على حقّ دونا فيفيرو. ولكنّي أؤكّد لك أنّنا لن نعود إلى مثل هذه الأخطاء. أعدك بذلك.

ـ أرجو أن تكون عند وعدك. والآن عليك أن تطيّر خبراً إلى المفتّش العامّ بأنّ الجماعة يبحثون عن كتاب.

بدت على الرجل معالم الحيرة والاستغراب فقالت مانويلا مؤكّدة:

ـ أي نعم. ويبدو أنّه كتاب لا يُقدّر بثمن. عليك إخبار توركيمادا في أسرع وقت.

ـ وهل يمكن أن نعرف أيّ كتاب؟

كانت مانويلا تهمّ بالردّ على الرجل حين تجمّدت الكلمات في حلقها وهي ترى فارغاس وعزرا يدنوان منهما.

تمالكت نفسها قدر المستطاع واتّخذت هيئة برود وقالت بصوت مسموع:

ـ كلاّ يا سينور، أنا لا أعرف أين توجد الساحة التي تسأل عنها.

أوشك ميندوزا على الاستفهام لكنه رآها تشير إليه بيدها خفيةً ففهم كلّ شيء. شكرها بصوت مسموع هو أيضاً وانصرف بسرعة.

سألها فارغاس:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا لم تنتظريني؟

ـ شعرتُ بالاختناق في تلك القاعة وكان لابدّ من أن أخرج.

أجابت بأكثر ما استطاعت من هدوء لكنّها لم تفلح في إخفاء بعض التوتّر.

كان فارغاس يتابع بعينيه الرجل ذا وجه العُقاب الذي ابتعد في اتّجاه المنعطف.

ـ من كان هذا الشخص وماذا كان يريد؟

ـ غريب مثلنا يسأل عن إحدى الساحات.

أومأ فارغاس برأسه. كان واضحاً أن تحفّظاته السابقة كانت نائمة واستيقظت فجأة. ومن حسن حظّها أنّهم كانوا على عتبة القصر الثالث. القصر الذي تملك هي مفتاحه. فجأة داهمتها فكرة مرعبة: ماذا لو أن ابن برول غيّر رأيه؟ ماذا لو أنّه قرّر تغيير القصر بعد أن اختار مدينة برغش؟ ماذا لو أنّ هذه المسودّة التي عثر عليها رجال توركيمادا ليست سوى تخطيط أوّلي لا علاقة له بالقصر النهائيّ الذي سُلّم إلى فارغاس ورفيقيه؟ شعرت فجأة بأنّها وحيدة وأنّ ظهرها إلى الحائط.

الفصل ٢٣

لاشيء أخطر من صديق جاهل.
والأفضل عدوّ حكيم.
(لافونتان)

فوق الرواق المقفر لكنيسة سانتا بربرا قُرعت الأجراس إعلاناً عن صلاة التبشير. تربّع الرجال الثلاثة على العشب إلى جانب مانويلا وكان عزرا أوّل المتحدّثين.

ـ حسناً يا سينورة. آن أوان الحقيقة وها نحن أمام القصر الثالث الذي زعمتِ امتلاك مفتاحه. ماذا لديك؟

أخذ قلب مانويلا يخفق بقوّة وشعرت بالخوف الحقيقيّ لأوّل مرّة منذ بداية مغامرتها. اقترح عزرا بلطف:

ـ هل تريدين أن أقرأ عليك النصّ للتذكير؟

أومأت بالإيجاب مرحّبةً في سرّها بكسب بضع دقائق قبل لحظة الحسم. شرع الربّي في قراءة النصّ بنبرة هادئة:

«القصر الثالث الرئيسيّ»

مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاسم في ٤.

عندئذ فتح فمه وقال: ستجيء ساعة نطيح بالتنّين، الشيطان أو إبليس

كما يُسمّى، مغوي العالم كلّه، سنطيح به أرضاً وزبانيته معه، ابن قابيل هذا. اسمه في الوقت نفسه متعدّد وواحد. اسم خليلة النبيّ. اسم المرأة التي قال عنها الرسول: لا يولد ابن آدم إلاّ لمسه الشيطان يوم ولادته، إلاّ هو وأمّه. وأخيراً اسم السِقط، صانع الخيام. الكلّ، وا أسفاه، لا يساوي أكثر من ثمن عبد. لأنّه يذكّر بذاك الذي كان عليه أن يقع على رأسه، وينشقّ من وسطه، وتندلق أمعاؤه كلّها. على الضفّة، بين شوكتي السعدان، شوكة الجنّة وشوكة جهنّم، احتفظتُ بالـ ٣. إنّه أسفل دموع العنبر، على رأس السيّد وزوجته وابنه.

ما أن فرغ الربّي من قراءة النصّ حتّى أعلنت مانويلا:

ـ برغش.

ـ ذاك هو اسم المدينة الذي شطبتِه أسفل الورقة؟

ـ أجل.

غلبت على عزرا ملامح ريبة أفزعت المرأة.

ـ ماذا؟ ألا تصدّقني؟ أؤكّد لك أنّ...

ـ اهدئي يا سينورة. لا علاقة للمسألة بتصديقك أو تكذيبك. المشكلة أنّ معرفة وجهتنا القادمة لا يحلّ المسألة.

التفت ناحية رفيقه وكأنّه يشهدهما على كلامه.

ـ أظن أنكما فهمتما إلى ما أُلمح؟

أجابه فارغاس:

ـ طبعاً، فمعرفتنا بأنّ المدينة المقصودة هي برغش لا تعني أنّنا اهتدينا إلى حيث يختفي المثلّث الرابع.

التفت ناحية مانويلا وسألها:

ـ أليس لديك أيّ معلومة أخرى يمكن أن تساعدنا؟

ـ للأسف ذاك كلّ ما لديّ.

ـ لم يبق أمامنا إلا أن نحاول تفكيك شفرة النصّ.

تدخّل ابن سراج معترضاً:

ـ أعلم أنّ هذا قد يزعج السينورة فيفيرو ولكنّي لا أظنّ أنّ المدينة المقصودة هي برغش.

أحسّت مانويلا بأنّها تقف على حافة هاوية فسألت بصوت مرتعش:

ـ وما الذي يدفعك إلى هذا الرأي؟

ـ سأشرح لك لأمر. لا شكّ أنّك لاحظت أنّ ابن برول وعلى خلاف ما فعل في القصور الأخرى لم يحدّثنا عن مبانٍ أو تماثيل أو مشاهد طبيعيّة، بل ركّز على شخص معيّن. شخص شرّير أطلق عليه اسم التنّين والشيطان وإبليس ونسبهُ إلى قابيل. مضيفاً أنّه لا يساوي أكثر من ثمن عبد. وقد ألمح ابن برول إلى أنّ اسم هذا الشخص متعدّد وواحد.

صمت برهة ثمّ سأل:

ـ هل يعرف أحدكم ممّا يتكوّن هذا الاسم؟ أنت يا سينورة؟

أشارت برأسها أن لا.

قال فارغاس:

ـ للوهلة الأولى يبدو هذا الاسم مركّباً من اسم سريّة النبيّ ومن اسم امرأة أخرى هي وابنها استثناء من لمسة الشيطان، إضافة إلى اسم السقط أو الجهيض.

ـ هذا صحيح. وقد كان للرسول صلّى الله عليه وسلّم عدد من النساء لا أريد أن أستعرض الآن أسماءهنّ، لكنّي أريد أن أركّز على تلك المستثناة من لمسة الشيطان.

أحكم وضع البرنس على كتفيه وأضاف:

ـ ظننت في البداية أنّ ابن برول يشير إلى إحدى السور ثمّ سرعان ما تبيّنت أنّه يعرض إلى حديث عن مريم.

ـ مريم أمّ المسيح؟

ـ تماماً.

ـ هذا يعني أنّ صاحبة النبيّ المذكورة هي أيضاً اسمها مريم.

ـ إنّها مريّة القبطيّة سريّة الرسول. وهذا يعني أنّ الإشارة الأولى متّسقة مع الإشارة الثانية.

لاحظ عزرا:

ـ حتى الآن لا يخلو حديثك من منطق، ولكن ماذا بعد؟

ـ انظروا الآن إلى العبارة الموالية: **على الضفّة وبين شوكتي السعدان، شوكة الجنّة وشوكة جهنّم احتفظتُ بالـ ٣.**

ـ ما معنى الجنّة وما معنى السعدان؟

ـ الجنّة هي الحديقة في الدنيا وهي ما يقابل الفردوس عندكم في الآخرة. وأمّا السعدان فهو نبتٌ كثير الحسك موجود في شبه الجزيرة العربيّة تأكله الإبل فتسمن عليه. وفي الحديث أنّ في جهنّم كلاليب مثل شوك السعدان تتناهش العابر فوق الصراط من ضفّة إلى أخرى في اتّجاه الجنّة. والحديث عن شوكتين واحدة لجهنّم والأخرى للجنّة قد يعني أنّنا أمام جسرين.

سأل عزرا:

ـ وماذا تستنتج من كلّ ذلك؟

ـ بعد حديثي مع أحد مدرّسي دار العلوم وبعد النظر في كلّ الخرائط المتاحة اتّضح لي أنّ في إسبانيا كلّها ديراً وحيداً يحمل اسم مريم أو

ماريا، هو دير شنتمريّة في إقليم صورية على بعد بضعة فراسخ من مدينة سالم.

قال عزرا منتقداً:

ـ أنت تطوي المراحل طيّاً ياشيخ. واعتمادك على اسم مريّة وحدها يبدو لي نهجاً لا يخلو من تسرّع.

كانت مانويلا تتابع الحوار مشدودة الأعصاب وتمنّت أن تجهر بامتنانها للربّي على ملاحظته. كان لابدّ من أن تكون برغش هي المدينة المعنيّة في القصر. قال ابن سراج:

ـ لا تتسرّع في انتقادي يا ربّي واستمع إليّ فأنا لم أعتمد على اسم مريّة وحده في استنتاجاتي. قلت إنّ نصّ ابن برول يلمح أيضاً إلى جسرين. والغريب أنّ الدير الذي حدّثتكم عنه يقع بالقرب من جسرين يعلوان نهر دويرة. فهل تعرفون اسمي هذين الجسرين؟ إنفييرنو وباريزو. جهنّم والجنّة.

فكّر فارغاس قليلاً قبل أن يقول:

ـ قمت بعمل لا بأس به يا ابن سراج ولكنّي لا أظنّك تجهل أنّه عمل ناقص.

تنفّست مانويلا الصعداء حين قال العربيّ معترفاً:

ـ أعلم ذلك. لم أجد بعد موضعاً للسقّط صانع الملابس ولا أعرف من يكون؟ ثمّ لماذا لا يساوي الرجل أكثر من ثمن عبد؟ وأخيراً من هو هذا السيّد وزوجته وابنه؟

تنهّد عزرا فريسةً من جديد لألم المفاصل. وتحرّك أحد القطط بين الأعمدة فتمطّى بفخامة ثمّ غاب فجأة في طرف الرواق. بينما بلغ مسامعهم صوت أحد السقاة يرتفع في سماءٍ مُشْرَبَةٍ بشفق الغروب، وبدا لهم أنّ الزمن تجمّد فوق المصلّى. همس فارغاس:

ـ السقط. . . قال ابن برول إنّ اسم الشخص المقصود واحد ومتعدّد. وقد أفلحنا في التوصّل إلى أحد مكوّناته، ماري أو مريم أو ماريّة، وأنا واثق من أنّ كلمة السقط تشير إلى مكوّن آخر. إلى ماذا تعني هذه الكلمة؟

قال عزرا:

ـ الطفل الذي ولد ميتاً أو أجهض قبل. . .

ـ رجاءً يا ربّي. لم نطلب قائمة بدلالات الكلمة.

نهض ابن سراج ساخطاً.

ـ أفضّل أن أتمشّى قليلاً.

همست مانويلا وهي تراقب الشيخ يبتعد:

ـ يبدو أنّنا وقعنا في مأزق.

لم يجبها أحد. كان فارغاس شارد الذهن بينما استلقى عزرا على ظهره شابكاً يديه فوق صدره. كفّت التراتيل عن الوصول إليهم دون أن ينتبه أحد منهم إلى ذلك وأخذت الأنحاء تغطس ببطء في العتمة متوغّلة بهم في ذلك الخدر المليء بالحنين. في تلك اللحظة دوّت صرخة مكتومة، أشبه باللهاث، فشعرت مانويلا بالدم يتجمّد في عروقها ونهض عزرا وفارغاس كالرجل الواحد.

غمغم الربّي:

ـ ماذا؟ ماذا هناك؟

ـ إنّه ابن سراج.

اندفع فارغاس دون تفكير إلى حيث سُمعت الصرخة. شاهدت مانويلا الراهب يجري في اتّجاه الرواق الغربيّ فصرخت:

ـ كن حذراً.

كانت تريد أن تركض في إثره لكنّ قدميها تسمّرتا في مكانهما فكرّرت:

ـ كن حذراً.

فجأة رأي الجميع أطيافاً تخرج من بين الأعمدة. ظهر ابن سراج أوّلاً وهو يجري لا يلوي على شيء، وظهر من خلفه شخص يرتدي مسوح راهب مقنّع الرأس وفي يده خنجر، ثمّ تلاهما شخص ثالث سرعان ما تجاوز رفيقه ليعترض طريق فارغاس.

ـ لو تقدّمتَ خطوةً أخرى لحكمتَ على نفسك بالموت.

تعرّف الفرانسيسكانيّ على الزنجيّ الذي هاجمه على طريق سلمنقة. كان الخنجر يلمع في طرف يده.

ـ هل أنتم مجانين؟ لماذا تفعلون هذا؟

ـ ليس هذا شأنك أيّها المسيحيّ.

كرّر بنبرة أكثر حدّة:

ـ أحذّرك للمرّة الأخيرة. خطوة أخرى ولا شيء غير الموت.

استعادت مانويلا في الأثناء شيئاً من رباطة جأشها ووجدت في نفسها من الشجاعة ما مكّنها من الالتحاق بالراهب، فتشبّثت بذراعه وقد نسيت فجأة كلّ حياء هاتفة بحماسة:

ـ فارغاس. افعل ما طلبه منك.

زعق الزنجيّ:

ـ المرأة على حقّ. لا تتدخّل في ما لا يعنيك.

سار خطوة إلى الأمام تأكيداً لكلامه ملوّحاً بخنجره راسماً به أشكالاً مفزعة في الهواء. من خلفه كان المشهد يزداد توتّراً. التحق الراهب المزيّف بابن سراج وانعكس الضوء للحظة على نصل الخنجر وهو يرتفع ثمّ يهوي على صدر الشيخ. لكنّ هذا الأخير أبدى مرونة غير متوقّعة من رجل في سنّه وفي سمنته واستطاع في اللحظة الأخيرة أن يتراجع إلى

الخلف متجنّباً الضربة، متمكّنا في الوقت نفسه وبمهارة أدهشت رفاقه من إشهار خنجر كان يخفيه تحت جبّته.

ـ هيّا يا سليمان. هيّا أيّها الكلب الأجرب. أنا في انتظارك.

لم يفاجئ الاسم أحداً من الحاضرين فقد خمّن الجميع ومنذ اللحظات الأولى أنّ المهاجم هو أبو طالب. توقّف هذا الأخير للحظة وهو يكتشف الخنجر في يد غريمه. ولعلّه فكّر في أنّه أمام سلاح فتّاك قادر على تمزيق أمتن الدروع فما بالك بجسد بشريّ. ثمّ نزع عنه المسوح بحركة تشي بحقده الشديد وألقاه أرضاً.

ـ هذا أفضل. سأجعلك تدفع الثمن في مبارزة عادلة، فبنُو زغري ليسو جبناء مثل بني سراج.

ـ لا أفهم شيئاً من هذيانك ولكنّي...

تخلّى عن إتمام العبارة حين رأى الشابّ يشرع في الدوران حوله مثلما يدور الوحش حول فريسته، وقد غلب على حركاته كلّ ما يشي بالحقد والاستعداد للقتل. هكذا افتُتِحت سلسلةٌ من الحركات الدائريّة يوقّعها اللهاث والتفادي والمراوغة، وكلّ من الخصمين يحاول تسديد الطعنة القاتلة. تلا ذلك اصطدام وإمساك بالتلابيب ثمّ انفصل الجسدان وكأنّ صاعقة هبطت عليهما. انتزع إثر ذلك سليمان زمام المبادرة فرسمت ذؤابةُ خنجره نصف دائرة في الهواء لتكمل جولتها على جبين ابن سراج. تدفّق الدم من الجرح الفاغر وفاض على أجفانه وأعاق النظر. كان الشيخ قد عاد إلى صباه في البداية إلاّ أنّه بدا الآن وقد استعاد عمره الحقيقيّ.

هتف عزرا بنبرة إحباط:

ـ إنّها معركة غير عادلة. إنّها مواجهة بين ربيع العمر وخريفه.

التفت الخادم فجأة وكأنّه سمع هتاف الربّي وأراد دعْم رأيه بالحجّة فرمى قدمه في صدر خصمه بقوّة وعنف مما أفقد الشيخ توازنه فوقع أرضاً

مفلتاً خنجره من يده. أشعّت عينا الفتى ببريق من يرغب في أكل اللحم وصرخ وهو يركل الخنجر بعيداً عن يد الشيخ:

ـ حانت ساعتك وحلّ موعد الثأر.

عندها لم يطق فارغاس صبراً. ارتمى على الأسود الذي كان يتابع المعركة غافلاً عنه ولم يمنحه فرصة ردّ الفعل بل انقض عليه ضاغطاً على يمناه محاولاً إجباره على إلقاء سلاحه منهالاً على جنبه ومعدته في الوقت نفسه ضرباً بالركبة اليمنى، حتّى أخذ يصرخ ويتلوّى ألماً دون أن يفلت السلاح من يده. عندئذ غيّر فارغاس خطّته. توقّف للحظة عن كلّ حركة ثمّ سحب يد الزنجيّ في اتّجاه بطنه هو وحين كاد الخنجر يلمس مسوحه دار حول نفسه دافعاً باليد في اتّجاه بطن صاحبها. أطلق هذا الأخير صيحة ألم ولم يلبث أن ترنّح ثمّ وقع أرضاً ساحباً فارغاس معه.

كتمت مانويلا شهقة ثمّ رأت فارغاس ينهض وينفّض مسوحه مثبتاً عينيه في جسد الزنجيّ الذي ظلّ طريح الأرض وقد بدت من تحته بركة دم أخذت تتّسع شيئاً فشيئاً. كان مشدوهاً لمرأى الموت الذي صنعه بيديه وكان يهمّ بالجثوّ قرب ضحيّته لولا أن انتزعته صرخة من شروده. هناك في ظلّ الأعمدة كانت الوضعيّة قد تغيّرت بما يشبه المعجزة. استطاع الشيخ أن ينتزع خنجر خصمه وأن يحيط رقبته بذراعه مدنياً النصل من رقبته باليد الأخرى وكان يهمّ بذبحه من الوريد إلى الوريد. صرخ فارغاس:

ـ كلاّ. لا تفعل بربّك.

ركض ناحية الخصْمين وارتمى على ابن سراج فسحبه سحْباً من فوق خادمه السابق على الرغم من احتجاج الشيخ وصراخه:

ـ دعني. ستمكّن هذا الزنديق من الفرار.

إلا أن الشاب كان قد استسلم نهائيّاً ولم يبد عليه أنه يريد اغتنام

الفرصة السانحة. احتقن وجهه وانطفأ بريق عينيه وتحوّل حقده إلى نوع من الإحباط.

ـ اطمئنّ فأنا لن أهرب. أنا من بني زغري وأفضّل الموت على العار. لكن أنّى لأحد من بني سراج أن يفهم ذلك.

ـ يا ابن الزانية. ليس بنو سراج أقلّ من غيرهم شرفاً.

ظهرت ابتسامة مرارة على شفتي الشابّ.

ـ أتدّعي ذلك وأنت سليل من لم يرعووا عن ارتكاب المجازر البشعة في حقّ الأبرياء العزّل؟

قطّب ابن سراج جبينه وقد فاجأته كلمات الفتى.

ـ عن أيّ مجازر تتحدّث؟

ـ ها أنت تضيف الكذب إلى الجبن.

ـ كفّ عن كيل الشتائم وهات ما عندك وإلاّ أخرستُك إلى الأبد.

تدخّل فارغاس فاقترب من الشابّ.

ـ اسمعني يا هذا. بسببك قتلتُ رجلاً للتوّ. وقد يكون من حقّك أن لا تجيب الشيخ أمّا أنا فأُلزمك بإجابتي. هل تسمعني؟ أريد أن أفهم.

تردّد الرجل قليلاً ثمّ بدا عليه أنّه اتّخذ قراره فنهض وقال بكبرياء وهدوء:

ـ أنا من بني زغري.

تفوّه بتلك العبارة للمرّة الثالثة. يعرف فارغاس أنّ بني زغري من أصيلي شبه الجزيرة وأنّهم يتنافسون على السلطة في غرناطة مع بني سراج القادمين من إفريقيا وهذا منذ سنوات طويلة. وأنّ كلاً من الفريقين أنجب أبناء خلعوا آباءهم وإخوةً اغتالوا إخوتهم وأنّ كلاً يخوض حربه من أجل مصلحته. وكان من نتائج الصراع بين العائلتين وصول عبد الله الصغير إلى عرش غرناطة. فما علاقة سليمان بكلّ هذا؟

ـ حدث ذلك منذ تسع سنوات. كنا نقيم في ضيعة من أعمال فاس. وذات يوم وأنا أعمل في الحقل جاء رجال من بني سراج فنهبوا وسلبوا وذبحوا أبي وأخي واغتصبوا أمّي وأختي وأحرقوا الضيعة. شاهدت الدخان من بعيد فهرعت إلى المكان لكنّ الأوان كان قد فات. وماذا كان في وسعي أن افعل أنا الأعزل في مواجهة هؤلاء الوحوش؟ كان قادة المجموعة قد غادروا المكان مخلّفين بعض أعوانهم لجمع القطعان وقيادتها، وما أن رأوني حتى قبضوا عليّ وفي عزمهم أن يذبحوني كما ذبحوا أهلي إلاّ أنّهم أحجموا عن ذلك في آخر لحظة وأخذوني إلى فاس. لم أفهم لماذا في البداية ثمّ سمعتهم يتحدّثون ونحن في الطريق ففهمت لماذا أبقوا عليّ. كنت في الثامنة عشر بعضلات مفتولة وبأسنان سليمة وهذا يعني أنّي أساوي الكثير في سوق العبيد. وقد تمّ بيعي في سوف غرناطة لأحد القُضاة.

أكمل عنه ابن سراج:

ـ القاضي إبراهيم الصابي. كان أحد أصدقائي.

تجاهل الخادم تدخّل الشيخ وواصل حديثه:

ـ أعترفُ بأن القاضي كان سيّدا طيّباً يحترم كرامة البشر. وقد عاملني بنُبْلٍ وعلّمني القراءة والكتابة وأمسكني عنده لأكثر من سنتين. إلا أنّه حدس ربّما بأفول الأندلس فقرّر العودة إلى المغرب.

ـ وقبل أسبوع من رحيله وهبك لي.

استعاد الفتى لهجة التحدّي.

ـ لم يعرف أنّه كان يهبني لقاتل.

صرخ الشيخ محتجّاً:

ـ إذا كان بعض بني سراج يتصرّف كالأشرار فهذا لا يعني أنّ كلّ أيدي بني سراج ملطّخة بالدماء. ثمّ إنّك كنت تعرف جيّداً أنّي أنتمي إليهم فلماذا لم يبد منك أيّ شيء طيلة خمس سنوات.

ـ كنت أعرف حقّاً أنّك من بني سراج ولكن هل كنت مخيّراً في أمري؟ ثمّ إنّي قد أفاجئك ولكنّي أنا أيضاً، على الرغم من جرح قلبي الدامي، كنت أظنّ أنّ بني سراج ليسوا كلّهم مسؤولين عن الجريمة التي ارتكبت في حقّي وفي حقّ أسرتي. والدليل على ذلك أنّي لم أسئ يوماً إليك أو إلى أسرتك.

بدا الشيخ محتاراً فسأل:

ـ إذن ماذا دهاك؟

ـ هل تذكر يوم زارك اليهوديّ؟

ـ طبعاً.

انتبه عزرا.

ـ قبلها كان اليوم جمعة وكنت أتوضّأ في الجامع استعدادا للصلاة حين انتبهتُ إلى أنّ أحدهم يتفرّس فيّ منذ برهة. وأخيراً عرّفني بنفسه. كان أحد رعاة أبي الذين نجوا من المجزرة. وقد حدّثني طويلاً عن أسرتي وعن الأيّام السعيدة وعن الواقعة الدامية ثمّ أخبرني باسم قائد المجموعة التي ارتكبت ما لا يُغتفر.

صمت لحظةً ثمّ أضاف صارّاً على قبضته:

ـ إنّه أحمد بن سراج.

احتقن وجه الشيخ.

ـ أحمد؟ ولكنّه أخي؟ أخي؟

ـ هو ذاك.

ـ هذا غير معقول.

حدجه سليمان بنظرة ازدراء:

ـ لا يهمّني إن كنت على علمٍ أم لا فالأمر سيّان عندي.

تدخّل فارغاس:

ـ أُقدّر ألمك ولكن بحقّ الربّ، أما قلتَ منذ قليل إنّك تفهم أن لا يكون جميع بني سراج شركاء في جريمة أحدهم؟

ـ اسمع أيّها المسيحي؟ أعرف أنّه مكتوب في إنجيلكم من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر. أمّا نحن بنو زغري فلسنا كذلك. وقد عبّرتُ عن رحابة صدري بعملي في بيته أمّا حين عرفت بقرابته للمجرم فلا.

أشار بسبّابته ناحية ابن سراج:

ـ أخ بأخ.

كان الشيخ قد فقد كلّ رغبة في الفتك بالفتى. سأل محتاراً:

ـ ولماذا انتظرت طيلة هذا الوقت كي تحاول الانتقام؟ كان في وسعك السعي إلى قتلي في غرناطة في الليلة نفسها.

ـ هذا صحيح. لكنّ موتك ما كان ليشفي غليلي. أردتُ أن أرى أسرتك كلّها تُباد كما أبيدت أسرتي.

ـ ألهذا السبب سرقت الوثائق؟

أومأ سليمان بالإيجاب فتدخّل عزرا.

ـ لحظة من فضلكم. لا أفهم فيم كانت سرقة الوثائق وسيلة للانتقام من الشيخ ابن سراج وأسرته؟

ـ المفروض أن تكون أنت أفضل من يعلم. . .

ـ تقصد ديوان التفتيش. . . أي أنّك باتّهامنا تجعل من ديوان التفتيش نائباً عنك في ارتكاب الجريمة التي خطّطتَ لها. ولمن وشيت بنا؟ هل التقيت أحد كبار القوم؟

عند ذاك السؤال شعرت مانويلا برعدة تسري في جسدها. أجاب الشابّ:

ـ في البداية لم يحملوني محمل الجدّ. ثمّ سرعان ما استدعوني من جديد وطلبوا منّي إعطاءهم ما لديّ من معلومات.

ـ لماذا؟

ـ لأسباب لا أعرفها. طلبوا منّي أن أصفكم كأنّهم يرونكم. ذهب في ظنّي أنّهم رأوا أخيراً أن يقبضوا عليكم فقرّرت أن أتأكّد من ذلك بنفسي وأن أتبعكم. فاكتشفت أنّ رجال ديوان التفتيش خدعوني وأنكم طلقاء.

ـ وهكذا قرّرتما في الرابطة أنت وشريكك أن تضعا حدّاً لذلك فأضرمتما النار في تلك المكتبة الرائعة.

أضاف وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ طلبوا منك أوصافنا ومع ذلك لم يوقفونا.

ألقى نظرة على الأنحاء.

ـ ومن أدرانا بأنّهم لم يكونوا. . .بل ليسوا دائماً هنا.

كانت مانويلا واثقة من أنّ الراهب يقصدها بتلميحه الأخير. مرّت بأصابعها على شعرها واكتشفت مفزوعة أنّها لا تستطيع منع يديها من الارتعاش. كان الغروب قد أخذ يتربّع على الأفق. تمتم عزرا بصوت متعب:

ـ لن يلبث الليل أن يداهمنا فماذا قرّرتم؟ هل نسلّم هذا الرجل إلى الشرطة؟

ـ لا سبيل إلى ذلك.

جاءت إجابة ابن سراج حاسمة وواثقة. اقترب من خادمه السابق.

ـ اذهب يا سليمان يا أبا طالب بن زغري. اذهب إلى حيث شئت فأنت حرّ طليق. ليحرسك الله وليضمّد جراحك.

تقدّم منه خطوة أخرى وفي حركة ما كان لأحد أن يتخيّلها جثا على ركبته وأمسك بيد الشاب فقبّلها:

ـ أطلب منك الصفح نيابةً عن أخي.

لم ينبس الخادم بكلمة. ظلّ مرفوع الرأس لكنّ عينيه اغرورقتا بالدمع والغفران.

الفصل ٢٤

في أيديهما سيّان، الجريمةُ والمداعبة. . .

(بول فاليري)

حين دخلت مانويلا مصلّى ساناتا باربرا منعتها العتمة من تبيّن جميع المصلّين. رأت في البداية ثلاثة طلبة خاشعين عند تمثال القديس يعقوب ثمّ اكتشفت رافائيل وهو جاثٍ على أحد المراكع وقد تهدّل كتفاه واندسّ وجهه بين كفيّه وانبعث من هيئته وهج من اليأس الحزين الصامت. لم تشأ أن تقطع عليه خشوعه فجثت إلى جواره وانتظرت.

من يومِ صاحبته إلى جلسة كريستوبال كولون وهي تائهة. هل يمكن لقلبها أن يتغيّر بين عشيّة وضحاها ويخرج نبضه عن انتظامه الرتيب ويتحوّل إلى مدّ وجزر شبيهين بحركة البحر؟ ما الذي حدث كي يتغيّر العالم في نظرها في ساعات معدودة فإذا هي تتنكّر لما كانت تعتبره قناعة نهائيّة؟ فجأة تفتّحت داخلها قيم جديدة حيث كانت تظنّ نفسها محصّنةً مطمئنّة إلى مكتسباتها ونظرتها للخير والشرّ وما حفظته من قواعد وقوانين منذ الطفولة وما أحاطت به نفسها من أسوار منيعة. وها هي تجد صعوبة بالغة في فهم هذه الأحاسيس الغريبة التي انتابتها واقتحمت عليها قلاعها دون استئذان لتجرّها إلى حيث لا تدري.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

كان فارغاس قد انتبه إليها واقترب منها وعلى وجهه نفس اليأس الصامت الذي تبيّنته حين كان يصلّي.

ـ أنا...

لم تسعفها الكلمات. عضّت على شفتيها وأخذت تلعن نفسها في سرّها. مجنونة. لقد أصبحتُ مجنونة.

ـ قلقتُ عليك. بدوتَ لي البارحة شديد الاضطراب.

اكتفى بهزّ رأسه شارد الذهن مستسلماً لتأمّلاته ثمّ قال:

ـ تعالي. لنخرج.

ما أن عبرا رحبة الكنيسة الصغيرة حتّى بحث فارغاس عن أقرب مقعد حجريّ فتهالك عليه. سألته مانويلا في قلق ظاهر:

ـ لعلّك تفضّل أن تجلس لوحدك.

أجابها بالنفي ودعاها إلى الجلوس حذوه ثمّ سألها بعد برهة:

ـ أين ابن سراج وعزرا؟

ـ حين غادرتهما كانا يتمشّيان في حديقة دار العلوم ولكن قد يكونان غادراها في اتّجاه المكتبة.

ـ للبحث عن هوية السِقْط؟

ـ هو ذاك.

ظهرت مجموعة من الطلبة في معزوفة من الحركات والضحكات أنعشت المصلّى بكلّ ما في الشباب من لامبالاة. مرّوا بالقرب منهما ثمّ خرجوا من أحد الأبواب المطلّة على الشارع الصغير.

ـ لقد قتلتُ رجلاً.

وقعت الكلمات من فمه كأنّها المقصلة.

ـ لم تكن جريمة. كنت تدافع عن صديقك.

ـ فماذا تسمّينها إذنْ؟

ـ أعتقد أنك تطرح السؤال الخطأ؟ ماذا تسمّي التقاعس عن نجدة إنسان في خطر والتخاذل عن إنقاذ حياته؟

ـ ولكنّي وضعتُ حدّاً لحياة إنسان آخر.

ـ حسناً. لو مات ابن سراج بسببك أيضاً أي بسبب عدم تدخّلك وعدم قتلك المجرم، فماذا تسمّي ذلك؟

ـ لا أدري.

واصل بصوت خافتٍ كادت تظنّ أنّها تحدس به أكثر مما تسمعه:

ـ يا إلهي... أيّها الربّ..: لماذا؟ لماذا هذه الأفعال التي تفلت منّا قبل الأوان أو بعد الأوان؟ لماذا مفترقات الطرق هذه حيث نتوه عن أنفسنا؟ لماذا يا ربّي؟

ـ نحن لسنا سوى بشر ضعفاء مخلوقين من لحم ودم. نحن فانون يا فراي فارغاس ولسنا آلهة صغيرة.

ـ كيف تقولين هذا الكلام وأنتِ تبدين أقوى من كلّ شيء؟

مالت برأسها إلى الخلف وكأنّها تهمّ بالانفجار ضحكاً.

ـ عجباً... يبدو أنّي أعطي صورة مضلّلة عن نفسي. ولكن فيم تراني مختلفة عن الآخرين؟

لم يبد عليه أنّه فهم السؤال فواصلت:

ـ أجل. فيم أنا مختلفة؟ أغلب البشر من حولنا يجدون صعوبة غامضة في... أن يتجسّدوا لحماً ودماً... أن يعيشوا بكلّ معنى الكلمة... أن يكونوا.

أضافت:

ـ نحن نمنح الآخرين مظهرنا لكنّه ليس سوى مظهر. أمّا وجهنا

الحقيقيّ، الجزء الآخر منّا، فهو يختفي خلف المرآة. وحدهم الحكماء الكبار الذين بلغوا النضج قادرون على الظهور دون أي دفاع أو قناع أو تنازل، دون خوف من الكشف علناً عن كلّ ما هم في داخلهم. لكنّ أغلبنا شديد الضعف والتأثّر شديد الاحتراز من كلّ شيء وتحديداً من الآخر، يتمنّى أن يفتح ذراعيه لكنّه يكتفي بالتسوّل. نُضبط يوماً متلبّسين بجريمة الجبن ونُضبط يوماً آخر متلبّسين بجرم التهوّر. إنّ الطريق التي تقود إلى الذات طويلة يا فراي فارغاس. أليس كذلك؟

ـ ما أراه أنّ في أفعالنا ما هو بلا رجعة، مثل ما قمْتُ به.

ـ وهل أنت أكبر من بطرس؟ حين أنكر ربّه ثلاث مرّات قبل صياح الديك ماذا كان عليه أن يفعل في نظرك؟ أن يمرّغ أنفه في التراب؟ أن يهجر كلّ شيء وينطوي على نفسه؟ أن يجترّ حسرته حتّى الموت؟

ـ أنت لا تفهمين. لقد قتلتُ نفساً.

ـ لم تقصد ذلك. كان ذلك دفاعاً شرعيّاً عن النفس.

لم تنتبه إلى أنّ صوتها ارتفع شيئاً فشيئاً أعلى من صوت فارغاس. واصلت حديثها بنفس الحماسة:

ـ من أين جاءتك هذه الحاجة إلى جلد ذاتك طيلة الوقت؟ من أين هذه الرغبة في التقوقع داخل جدرانك بتعلّة أنّ الصعوبة تبدو لك غير قابلة للتذليل؟

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول الحقيقة. أنت تعرف حقّ المعرفة أنّك لم ترتكب جريمة بقتل هذا الصعلوك. ولكن ها أنت تحاول إقناع نفسك بالعكس.

أخذتها الحميّة والرغبة في إخراجه من إحباطه ثمّ انتبهت إلى أنّه قد يرى في موقفها قسوة عليه.

ـ المعذرة... لم أقصد إيلامك...

ـ لا داعي للاعتذار. ثمّة الكثير من الصواب في ما قلتِ.

بلغتهما أصداء ضحكات الطلبة من حديقة دار العلوم فاستأنف فارغاس حديثه:

ـ ماذا أقول لك؟ لعلّي لست متواضعاً بما فيه الكفاية أو لعلّي لم أعد أؤمن بما يُسمّونه السعادة.

قالت بابتسامة دافئة:

ـ عجيب أن تذكر ذلك. كنتُ في الخامسة عشرة أو بعدها بقليل حين سألتُ والدي عن السعادة. هل تعرف بماذا أجابني؟ علينا أن لا ننسى أحلامنا وأن ننظر إليها بحرص البحّار حين ينظر إلى النجوم. ثمّ علينا أن نكرّس كلّ لحظة من لحظات حياتنا للاقتراب من تلك الأحلام، فلا شيء أسوأ من الاستسلام واليأس.

ـ هذا الكلام جيّد لكنّه يحتاج إلى تصحيح.

ـ ما هو؟

ـ أنّ الاستسلام واليأس قد يكونان في بعض الأحيان أكبر دليل على الحبّ.

ـ هل لهذا السبب دخلتَ في الرهبانيّة؟ بسبب الاستسلام واليأس؟

ردّ دون أن ينظر إليها:

ـ لا تظنّي ذلك. لقد دخلت في الرهبانيّة حبّاً في المسيح وبِهَدْيِ من إيماني به وتأثّراً بحياته وموته وقيامه.

تكلّم بكلّ ما استطاع من ثقة لكنّه كان يعلم أنّه لم يقنعها فأضاف:

ـ حسناً. قولي لي ما دمت تشكّين في كلامي، لأيّ سبب آخر غير الإيمان اخترتُ أن أنفي نفسي إلى الكنيسة؟

لزمت الصمت وقد رجعت بالذاكرة إلى مشهد الحنفيّة حين قست عليه في قصرش دافعة به إلى أقصى طاقته على التحمّل. كانت تعرف قدرة الكلمات على تعرية القلوب ولكنّها لم تتأكّد من ذلك مثلما تأكّدت منه اليوم، فقرّرت الكفّ عن محاصرته.

ـ أصدّقك فلا حاجة لك بإقناعي.

ـ ماذا؟

كرّرت كلامها فأخذ يراقبها محتاراً لا يعرف إن كانت تخفي في ما قالته فخّاً ما. إلا أنّ هدوءها التامّ أزاح عنه هواجسه فزال عنه التوتّر الذي غلب عليه حتّى تلك اللحظة، دفعة واحدة. سلّطت الشمس أشعّتها الحارقة على مقعدهما وتصبّب وجه فارغاس عرقاً فلمعت بشرته وغطّت شفتيه غلالة من الرطوبة الناعمة فبدتا شبيهتين بثمرتين من المعدن الأحمر. غادرت مانويلا المقعد مضطربةً وقد شعرت فجأة بأنّ الحرارة لم تعد محتملة وقالت بصوت غلب عليه الارتباك:

ـ لنلتحق بصديقينا، فلعلّهما اهتديا إلى جديد.

ـ لم العجلة؟ لن يجدا شيئاً فأنا أعرف من هو السقط؟

ـ منذ متى؟

ـ كنت مغرقاً في تأمّلاتي قبل قليل حين وقع بصري صدفة على تمثال القديس يعقوب. فكّرت طبعاً في الرسل وورعهم وما تحمّلوه في سبيل دعوتهم ثمّ تساءلت لماذا يختار الربّ أشخاصاً بعينهم فيحمّلهم الكثير؟ لماذا بطرس؟ لماذا يوحنّا؟ لماذا نحن؟ أجل، قلت نحن، ألسنا أيضاً ممّن أشار إليهم الربّ ببنانه؟ لحظتها قفزت استعارة السقط إلى ذهني.

نظر برهة إلى السماء قبل أن يواصل:

ـ إنّها الكنية التي نسبها بولس الطرسوسي إلى نفسه في حديثه إلى أهل كورنثوس. *ثمّ ظهر ليعقوب ثمّ لجميع الرسل، حتى ظهر لي آخراً أنا أيضاً*

كأني سِقْطٌ. وكانت تلك طريقته ليبيّن أنه أقلّ الرُسُل شأناً وأصغرهم. وكان يعمل نسّاجاً قبل أن يدعوه الرب. وبولس هو بابلو بالإسبانيّة.

ـ رائع.

ضربت كفّاً بكفّ وكأنّها تصفّق دون إحداث صوت.

ـ لا يقف الأمر عند هذا الحدّ. لمّا كان ابن برول يأخذنا في اتّجاه الرُسُل فقد خطر لي أنّ عبارته: **كنْ الكلّ وا أسفاه لا يتجاوز ثمن عبد، قد** يكون على صلة بتابع آخر من أتباع المسيح. ولم أبحث طويلاً فقد كنت واثقاً من أنه يهوذا وذلك لسببين. أوّلا لأنّ ثمن العبد كان في ذلك الوقت ثلاثين شاقلاً أو مائة وعشرين درهما. وكيف لا نربطه عندئذ بالآية: ***ماذا تعطوني لأسلّم إليكم يسوع؟ فوعدوه بثلاثين من الفضّة***. أمّا السبب الثاني فهو أكثر وضوحاً. **لأنه يذكّر بذاك الذي كان عليه أن يقع على رأسه، وينشقّ من وسطه، وتندلق أمعاؤه كلّها**. وهي عبارات وردت في أعمال الرسل وتشير كلّها إلى انتحار يهوذا.

ـ وما هو استنتاجك النهائيّ؟

بدت على فارغاس ملامح الأسف.

ـ ليس لديّ استنتاج نهائيّ.

ـ هذا يعني أنّنا لم نتأكّد بعد من أنّ المدينة المقصودة هي برغش.

ـ ولماذا نشكّ في ذلك ما دمت أكّدت لنا الأمر؟

سألته وهي تكاد لا تصدّق:

ـ هل تعني أنّك تصدّقني؟

أجاب دون تردّد:

ـ طبعاً. وأعتقد انّ كلمتي بابلو ويهوذا يساعداننا في الاقتراب من الحلّ.

ـ ليسمع منك الربّ. هيّا، لنلتحق بصديقينا.

كانت تهمّ بمغادرة المكان حين جاءها صوت فارغاس من خلفها.

ـ انتظري.

التفتت وفي عينيها سؤال صامت:

ـ لقد كذبت عليك... أؤمن بيسوع المسيح وبمحنته وقيامه وبمهمّتي كشاهد على هذه الحقيقة، لكنّ الاستسلام واليأس لم يكونا غريبين عن دوافع التحاقي بالرهبانيّة.

*

فكّر العربيّ بصوت عال:

ـ بابلو ويهوذا... بابلو، مريّة، ويهوذا... أعترف بأنّك قمت بعمل ممتاز يا فراي فارغاس، ولكن إلى أين يقودنا كلّ هذا؟

اعترض عزرا:

ـ كفاك غيرة يا شيخ ابن سراج. ما اكتشفه الراهب شديد الأهميّة فلا تتصنّع عدم الاكتراث، ودعنا نفكّر في ضوء هذه العناصر الجديدة. لم يبخل علينا ابن برول بالإشارة إلى أوصاف هذا الشخص الغامض. هذا السقط ذو الاسم المتعدّد والواحد في الوقت نفسه: بابلو مريّة يهوذا.

أخذ يعدّد مستعملاً أصابعه التي شوّهها المرض:

ـ هو يقارنه أوّلاً بالتنّين وينعته ثانياً بابن قابيل، ممّا يعني أنّه ربّما كان قاتلاً، ثمّ يقارنه بيهوذا، ممّا يدلّ على أنّه خائن.

لاحظت مانويلا:

ـ يا له من شخص شرّير، أقلّ ما يُقال إن ابن برول لم يكن يحبّه.

سأل ابن سراج:

ـ إذا كان قاتلاً فمن هي ضحيّته؟ وإذا كان خائناً فمن خان؟

فجأة ضرب عزرا جبينه بيده فسألته مانويلا بعد أن خفّت إليه:

ـ ما بك يا ربّي؟

تمتم الحبر:

ـ إنّه سليمان... سليمان الحليفي.

هتف ابن سراج:

ـ ماذا تقول؟

ـ إنّه جلاّد برغش. قبل قرابة القرن حين كانت حملة التنصير في أوجها التحق أحد اليهود بالديانة المسيحيّة. كان حبراً يدعى سليمان الحليفي. وما كان الأمر ليتعدّى المألوف في تلك الفترة لولا أنّ هذا المرتدّ الذي أصبح راهباً بالغ في إظهار حماسته لدينه الجديد مستشرساً في مطاردة وإبادة إخوته القدامى. وهكذا أصبح أسقفاً لمسقط رأسه وهي مدينة برغش. ثمّ سرعان ما أُلحق بمجلس الوصاية على عرش قشتالة. في تلك الأيّام أصبح تنكيله بالمرّانو وباليهود الذين تمسّكوا بدينهم مضرب الأمثال وفاقت وحشيّته كلّ تصوّر. وحين تقدّم في السنّ خلفه ابنه في منصب الأسقفيّة وساهم بعد ذلك في استصدار أكثر المراسيم عدائيّة لليهود. نسيت أن أقول لكم إنّ سليمان هذا حين تنصّر غيّر اسمه...

أمسك أنفاسه وكأنّ النطق بهذا الاسم الرجيم فوق تحمّله:

ـ أصبح اسمه الجديد: بابلو دو سانتا ماريّا.

قال فارغاس:

ـ إنّه الرجل الذي نبحث عنه. اسمه واحد ومتعدّد. ويتضمّن بابلو أي بولس أو شاول الطرسوسيّ المكنّى بالسقط. كما يتضمّن اسم أمّ المسيح واسم سريّة النبيّ مريّة. وكونه أصيل برغش وخانها وخان ديانته يشير إلى يهوذا. هكذا يصبح من الواضح أنّ المدينة المقصودة هي برغش كما قالت السينورة.

ندّت عن مانويلا صيحة فرح:

ـ ألم أقل لكم؟

قال ابن سراج معترفاً:

ـ لا يمكننا إلاّ الانحناء إليك سيّدتي.

أضاف ممازحاً عزرا:

ـ على أيّ حال، هذا الاسم يجبر الربّي عزرا على الاعتراف صراحةً بأنّ من اليهود من عذّب اليهود.

أجاب عزرا بضحكة ساخرة:

ـ وهل استيقظت للتوّ يا شيخ أم أنّك لم تكتشف العالم إلاّ الآن؟ ما انفكّت المصلحة والسلطة بالنسبة إلى الإنسان بمثابة الشمس بالنسبة إلى زهرة عبّاد الشمس. وإلاّ فكيف نسميّ هؤلاء المسلمين الذين يتقاتلون تحت سماء غرناطة؟ أو خيانة أبي عبد الله الصغير الذي يُشاع أنّه بصدد الاستسلام دون قتال؟

أضاف ملتفتاً ناحية فارغاس:

ـ أنتم أيضاً كان لديكم بابلو دو سانتا ماريّا في شخص يهوذا وأمثاله، أليس كذلك؟

ـ أجل. وإن كنت أسأل أحياناً إن لم يكن الحبّ والتفاني في الخدمة هما ما قادا هذا الحواريّ إلى هلاكه. ألم تكن خيانة أحدهم ضروريّةً لنفاذ أمر الربّ؟ بدون خيانة ما كان للمسيح أن يُصلب ثمّ يقوم. ثمّ ماذا قال المسيح لحواريّه ليلة القبض عليه: ***اعمل ما أنت تعملُه ولا تبطئ***. وهي عبارة يمكن تأويلها بألف طريقة. أضف إلى ذلك أنّه ما أن خرج حتّى قال يسوع: ***الآن تمجّد ابنُ الإنسان وتمجّد اللهُ فيه***. ماذا لو أنّ الحبّ العارم الذي يكنّه الإسخريوطيّ للمسيح، الحبّ المجنون اللامحدود، هو الذي

أجبر يهوذا على لعب دور الخائن والقيام بتلك المهمّة التي كان لابدّ منها لإتمام مشيئة الربّ ونشر رسالته، متحمّلاً في سبيل تلك القضيّة العظمى أن يظلّ ملعوناً إلى الأبد منبوذاً في نظر الأجيال إلى نهاية الزمن؟

قال عزرا مبتسماً:

ـ يا لها من نظريّة غريبة. إنّها تفترض لدى هذا الرجل قدرة خارقة على الاستسلام والتضحية.

لم يجبه الراهب. كان طيلة حديثه لا يحيد بعينيه عن مانويلا ولم يستطع أن يلفت نظره عنها حتّى بعد أن فرغ من حديثه. نهض ابن سراج ونفّض جبّته قائلاً:

ـ برغش. إنّها على مسافة ستّة أيّام. أمامنا رحلة طويلة يا جماعة.

لم يبد على مانويلا ولا على فارغاس أنّهما سمعا كلمة ممّا قال.

الفصل ٢٥

أن تحبّ، يعني أن تعيش وأن تموت مراهناً على
ما يحدث في روح الآخر.

(بول فاليري)

حين انطلقوا في اتّجاه برغش من الغد صباحاً كانت الحرارة قد تضاعفت إلى درجة لا تُطاق. عبروا الجسر الرومانيّ الذي يقطع نهر طرمش مائلين شمالاً مخلّفين وراءهم أسوار سلمنقة دون أن يتوقّع أيّ منهم المشهد المريع االذي كان في انتظارهم على بعد فرسخ من المدينة. كانوا في بداية الطريق إلى بلد الوليد حين شاهدوا رجلين مشدودين إلى الأرض وقد شُوّه وجهاهما وأوثقت أذرعتهما إلى أوتاد خشبيّة فبديا شبيهين بصليبين من لحم ودم. وعلى الرغم من تشوّه الجثّتين فإنّ الرفاق الأربعة لم يجدوا صعوبة في التعرّف على صاحبيهما: سليمان أبو طالب وشريكه. كان ابن سراج أوّل المترجّلين وما أن هرع نحو خادمه السابق حتّى وجده جثّة هامدة وقد انفتحت عيناه إلى الأبد على رعب لا يوصف.

ـ يا رسول الله من فعل هذا؟ ولماذا؟

قال فارغاس بعد أن تفحّص الجثّتين:

ـ يا للبشاعة. لكأنّ القتلة تلذّذوا بتعذيب هذين المسكينين قبل الإجهاز عليهما. انظروا إلى معاصمهما المكسورة وأقدامهما المهشّمة. هل تظنّون المغاوير قادرين على مثل هذا؟

ردّ عزرا بنبرة واثقة:

ـ كلاّ إنّهم لا يعذّبون بهذه الطريقة.

ـ من إذن؟ ولماذا؟

ـ لا أدري.

تنهّد الشيخ جاثياً حذو خادمه السابق:

ـ لكلّ أجل كتاب. تركتُ له حياته لكنّ الموت كان مقدّراً عليه.

ظلّت مانويلا تتابع المشهد من على صهوة حصانها وقد صرّت على أسنانها وشحب وجهها وبدت مثل تمثال من الملح. كانت واثقة من أن الشرطة لا علاقة لها بمقتل الرجلين وأنّ المسؤول عن الجريمة لم يكن غير الرجل ذي وجه العُقاب. ألقت نظرة على الأنحاء دون كبير أمل فلا شكّ أن ميندوزا ورجاله في مأمن الآن بعيدا عن الأنظار. أحسّت بالحقد يملأ جنبيها وأقسمت في سرّها أنّها ستقتله بيديها إذا لم يقم توركيمادا بذلك.

أجبرتهم الحرارة في الأيّام الموالية على أكثر من استراحة وكانوا لا ينطلقون من جديد إلاّ شعروا بأنّ سياطاً ناريّة تنهال على وجوههم من كلّ جانب. قال الشيخ ابن سراج ضاحكاً إنّها أنفاس الشيطان راوياً لهم أنّ جهنّم اكتشفت ذات يوم أنّ بعضها يأكل بعضاً فطلبت من الربّ المساعدة فسمح لها بأن تتنفّس مرّتين واحدة في الشتاء والأخرى في الصيف وهما الفترتان اللتان تعرف الأرض خلالهما ذروة البرد وذروة الحرّ.

لم تعد مانويلا قادرة على مواجهة نظرات فارغاس. حرصت كلّ ليلة عند ترجُّلهم لنصب الخيام على التعلّل بأي سبب كي لا ينفرد بها وكانت لا تتخيّل نفسها بقربه إلاّ غمر الفزع قلبها. أمّا إذا لم تجد مفرّا من الحديث معه فكانت تحاول وسعها كي لا يتجاوز الحوار بعض المسائل العاديّة. منذ أن غادروا سلمنقة وهي تجد صعوبة في لعب دورها

كجاسوسة واشية. فهل للأحاسيس التي أصبحت تحملها تجاه الراهب دور في الإطاحة بعزمها السابق؟ لا شكّ في ذلك.

امتنعت طيلة سنوات عن فتح أبواب قلاعها عن حياء ربّما ولكن أيضاً عن رغبة في الاستقلال والحريّة. لم تتحمّل يوماً فكرة أن يصبح قلبها تحت رحمة رجل مهما كان هذا الرجل جديرا بالإعجاب. لكنّ ما يثير اضطرابها أكثر وهو ما تكاد ترفض الاعتراف به تلك الرغبة العنيفة التي استيقظت فيها تجاه فارغاس. ما أن يتحرّك أو يتكلّم، ما أن تلحظ يديه أو شفتيه، ما أن ينظر إليها، حتّى تتحرّك حواسّها كلّها. فإذا نامت لم تستطع منع نومها من استقبال أطياف أجساد متعانقة متشابكة في هيئات لا حياء فيها.

ذكّرها كلّ ذلك بمشاعر انتابتها قديماً وهي في السادسة عشرة حين أثار أحد أصدقاء أبيها إعجابها. كان في الأربعين من العمر وكان يبدو لها رمزاً للفتنة وهكذا أصبحت على وشك استباحة كلّ المحرّمات هي التي أنشئت على مفهوم الخطيئة المرتبطة بأمور الجسد وباتت تسهر الليالي الطويلة وهي تطارد صوّراً تقودها في طرق تنطلق كلّها وتعود إلى أسرار جسدها. بعد ذلك اكتشفت أنّها لم تعجب بالرجل بقدر ما دعاها داعي الحبّ وغموضه وأسراره. وها هي تستعيد اليوم المشاعر نفسها ولكن بكثافة تساوي أضعاف ما عرفته في السابق. أتراها جُنّت؟ ألا تعرف أنّ فارغاس راهب وهب نفسه إلى الكنيسة؟ ثمّ ماذا عن مهمّتها؟ كلاّ. عليها أن تثوب إلى رشدها وأن تتعقّل. عليها أن تفكّر في واجبها ولا شيء غير الواجب.

مع بداية ظهيرة اليوم السابع من رحلتهم ظهرت حصون برغش في الأفق وتوهّجت عاصمة مملكة قشتالة وليون الموحّدة مثل تاج تحت شمس الصيف. قبل فرسخين من المدينة طلب ابن سراج وعزرا التوقّف عن المسير بعد أن خارت قواهما وقال عزرا لاهثاً وهو يتهالك على جذع زيتونة:

ـ إذا كان ابن برول يريد لنا الموت من هذه الرحلة فهو يكاد ينجح في ذلك.

هتف ابن سراج:

ـ ولا شكّ أنّك لن تموت وحيداً فأنا معك.

ـ في أيّ يوم نحن؟

ـ إنّه يوم جمعة.

ثمّ أضاف:

ـ لا تقل لي إنّك ستجبرنا على المكوث هنا. بسببك أضعنا ما يكفي من الوقت الثمين. منذ خروجنا من غرناطة وأنت تجبرنا على المكوث متسمّرين في مكاننا من غروب شمس كلّ جمعة حتّى مساء الغد. وماذا لو تخلّيت عن القيام بشريعة السبت مادمت على سفر؟ لا أظنّ الربّ يحاسبك على ذلك لا في هذه الدنيا ولا في الحياة الآخرة.

ـ اسمع يا عزيزي، لا شيء يحلّل الإخلال بالسبت إلاّ خطر الموت المحدق، وهذا أيضاً فيه نظر. لكن الأدهى أنّه قد حان وقت الصلاة وأشعر بأنّي لا أملك أيّ قدرة على القيام بواجباتي نحو السرمديّ.

قال ابن سراج ضاحكاً:

ـ وهكذا لن يولينا الشيطان ظهره.

تفرّس فيه الآخرون وقد غلبتهم الدهشة.

سأله الراهب:

ـ عمّ تتحدّث؟

قال الشيخ شارحاً:

ـ يُروى عن الرسول الكريم أنّ الشيطان إذا سمع الأذان أدبر ولهُ حصاص.

قال عزرا:

ـ كلّ هذا مفيد ولكنّي أذكّركم بأنّ وجودنا على أبواب برغش لا يعني أنّنا عثرنا على المثلّث الرابع.

ردّ الشيخ معلّقاً:

ـ هل تستخفّ بتأويلي للقصر؟

ـ تعني إشارتك إلى الجسرين؟

ـ طبعاً فأنا واثق من وجودهما على نهر أرلانثون. جسر الجنّة وجسر جهنّم.

سألت مانويلا:

ـ هل تساءلتم عمّا يدفع ابن برول إلى اختيار هذا المخبأ أو ذاك؟

ردّ ابن سراج هازّاً كتفيه:

ـ وما أهميّة ذلك؟

ـ عجباً. ألم تؤكّدوا لي أكثر من مرّة أنّ ابن برول لا يترك شيئاً للصدفة أو للارتجال؟ ومعنى ذلك أنّنا لو فهمنا الخلفيّة المنطقيّة المشتركة لخياراته السابقة لسهُل علينا التعرّف على خياراته اللاحقة. صوّبوني إذا أخطأت. وجدنا المثلّث الأوّل أعلى برج الدم رمز فرسان الهيكل والعنف واللاتسامح. ثمّ وجدنا المثلّث الثاني في مغارة آل مالترافييزو وقد ذكرت لي بنفسك يا شيخ كم أن هذا المكان محمّل بالدلالات التي تشير إلى حضور الكهوف والمغارات في زوايا لا وعي كلٌ منّا. أمّا المثلّث الثالث فقد وجدناه تحت تابوت الأسقف في سلمنقة. هذه المحطّات كلّها توحي بالانحياز إلى العلم والمعرفة والتسامح في مقابل التعصّب والاستبداد والظلاميّة. ألا ترون في ذلك إشارةً أراد صاحبكم أن يلحّ عليها؟

اعترف الثلاثة بأنّ تحليل المرأة لا يخلو من وجاهة. كان احترازهم

منها قد تقلّص بشكل كبير منذ حصلوا على دليل نزاهتها ولم يعد أيّ منهم يرى مانعاً في أن تشاركهم حديثهم دون أيّ تحفّظ.

قال فارغاس ممازحاً:

ـ ما دمت بهذه الفطنة فلماذا لا تقولين لنا ماذا ينتظرنا؟

ـ ولم لا؟ إذا كان المثلّث الرابع في مكان منسجم مع المنطق العامّ لابن برول فلا شكّ أنّ الدلالة واضحة. ما الجسر إن لم يكن وسيلة للعبور من ضفّة إلى أخرى؟ وإذا توسّعنا أكثر فهو وسيلة للانتقال من حالة ذهنيّة إلى أخرى ممّا يذكّرني بأنّ الرحلات التعليميّة التي تُخاضُ من أجل المعرفة كان يُشار إليها دائماً عن طريق هذا الرمز. وقد قرأت في أحد الكتب إلحاحاً على العلاقة بين الجسر وقوس قزح الذي ألقاه زيوس للربط بين العالمين.

هتف ابن سراج ضارباً بيده على جبينه:

ـ السينورة على حقّ. كيف لم أنتبه إلى ذلك؟ تذكّروا النصّ: **على الضفّة، بين شوكتي السعدان، شوكة الجنّة وشوكة جهنّم**... كنت حدّثتكم يومها بأنّ الجسر قد يكون هو الصراط الذي يُعبر فوقه إلى جنّات النعيم. وفي أحد الأحاديث أنّ الصراط أدقّ من شعرة وأمضى من حدّ السيف.

أضاف متحمّساً:

ـ وحدهم المؤمنون يعبرون أمّا الملعونون فيقعون أو تسحبهم الكلاليب قبل أن يصلوا الجنّة ويلقى بهم في جهنّم. وفي الأحاديث أيضاً أن عبور الجسر قد يستغرق مائة سنة للبعض وألف سنة للبعض الآخر وفق نقاوة حياتهم. وفي المحصّلة ليس للنار سلطان على من عرفوا الله وهو ما يدعم رأي السينورة فيفيرو.

قال عزرا موافقاً:

ـ قد يكون هذا صحيحاً ولكن بعيداً عن الناحية الفلسفيّة لا تنسوا أنّ علينا أن نفكّك شفرة العبارة الأخيرة: **إنّه أسفل دموع العنبر، على رأس السيّد وزوجته وابنه.** وللأسف لا أرى أيّاً منّا قد اقترح أيّ فكرة لشرح هذه العبارة، إضافة إلى أنّ نهر أرلانثون يملك دون شكّ أكثر من جسرين يعبرانه.

ـ أرجّح أنّ الأمور ستتّضح بوصولنا إلى برغش تماماً كما حدث بالنسبة إلى مغارة آل غولفينو.

أضاف بسرعة:

ـ إن شاء الله.

كرّر فارغاس بصوت خافت:

ـ إن شاء الله. على أمل أن نعبر الجسر فنرى نور الربّ... نحن أيضاً.

*

طليطلة.

تناولت الملكة المروحة الموضوعة على طاولة صغيرة من الخشب المطعّم ودون أن تفتحها ضمّت عليها أصابعها بقوّة. لم تكن المعلومات التي مدّها بها المفتّش العامّ لتهدّئ من توتّر أعصابها. قالت بنبرة غلبت عليها المرارة:

ـ أتساءل في النهاية إن كانت هذه المؤامرة موجودة خارج خيالك. وهي فرضيّة لا أظنّك تنسى أنّها لم تغب عن ذهن صديقنا فراي هرناندو دو تالافيرا. منذ أيّام وأيّام ولا شيء يحدث ولم تمدّنا دونا فيفيرو بأيّ دليل أو قرينة تدعم مخاوفك.

صرّ توركيمادا على أسنانه. كيف له أن يخبرها بآخر المعلومات:

كتاب. كانوا يبحثون عن كتاب. كاد الأمر يضحكه لو لم يكن من الخطورة بمكان ولو علمت الملكة بالأمر لوضعت حدّاً للعمليّة على الفور مع كلّ ما يعني ذلك بالنسبة إليه من فقدان المصداقيّة وضعف الحظوة وتقلّص التأثير في شؤون المملكة دون ذكر ما سيغنمه الآخرون مثل تالافيرا. ومع ذلك فهو واثق من أنّه على حقّ. وإذا كان الأمر متعلّقاً حقّاً بكتاب فلا شكّ أنّ هذا الكتاب يتضمّن نصّاً ذا أهميّة قصوى. فكّر من جديد في كلمات دونا فيفيرو كما رواها له ميندوزا: لاشكّ أنّ لهذا الكتاب قيمة لا تقدّر بثمن. وهو واثق من أنّها على حقّ. لذلك عليه أن يكسب المزيد من الوقت. تصنّع النبرة الأكثر رصانة وقال:

ـ أرجو من جلالتك الانتباه إلى أنّ المظاهر خدّاعة فهؤلاء الرجال يتبعون مساراً مضبوطاً بدقّة ودراية. من ولبة إلى الرابطة ثمّ إلى شريش وإلى قصرش ومنها إلى سلمنقة وآخر الأخبار تقول إنّهم يتّجهون إلى بلد الوليد أو برغش.

فتحت الملكة مروحتها بحركة حادّة وقالت دون أن ترفع صوتها:

ـ إذا فهمتك جيّدا فهؤلاء الرجال قد قرّروا أن يجوبوا إسبانيا. اليوم في بلد الوليد وغداً في مدريد وبعد غد من يعلم أين؟ ما هدفُ كلّ هذه التنقّلات؟ أي معنى ترى لكلّ هذا؟

داعب توركيمادا الصليب المتدلّي على صدره.

ـ كنت شرحت لجلالتك أنّ هذه الرحلة مبنيّة على نوع من الخارطة المشفّرة ونعلم أنّ هذه الخارطة تتكوّن من ألغاز يُسمّى كلّ لغز منها قصراً وأنّ كلّ قصر أو كلّ لغز يتضمّن وجهة معيّنة.

ـ لم تجب عن سؤالي. لماذا يدفع صاحب اللغز بهؤلاء الرجال الثلاثة من مدينة إلى أخرى؟

ـ لا نعرف السبب حتّى الآن لكنّ ما أستطيع أن أؤكّده لجلالتك أنّنا نقترب من نهاية الرحلة.

طوت الملكة المروحة وضمّت أصابعها على العيدان اللؤلؤيّة الرقيقة.

ـ من أين لك بهذه الثقة؟

ـ نعلم يقيناً أنّنا أمام ثمانية ألغاز في الجملة وإذا استثنينا اللغز الحاليّ الذي قد يأخذهم إلى بلد الوليد أو برغش فإنّ أمامهم ثلاث مراحل أخرى قبل الوصول إلى هدفهم.

ـ وهل أنت واثق من أنّ اللغز لا يخفي فخّاً؟

زوّى توركيمادا ما بين حاجبيه.

ـ أيّ فخّ يا صاحبة الجلالة؟

ـ مدينة تاسعة أو زقاق أو بلد آخر، من أدراني؟

ارتفعت نبرتها في دلالة واضحة على ضيق تكاد لا تخفيه.

ـ لا أعتقد ذلك يا صاحبة الجلالة فالخارطة مرسومة بدقّة لا تدع مجالاً للطرق المسدودة. أمّا أن تأخذهم الرحلة إلى خارج حدودنا فهذا يبدو لي أمراً مستبعداً.

ضربت بعيدان اللؤلؤ على راحة يدها.

ـ وهل لديك أخبار عن دونا فيفيرو؟

جلا المفتّش العام صوته قبل أن يقول:

ـ إنّها بخير.

ـ وماذا غير ذلك؟

رمش توركيمادا بعينيه قبل أن يسأل:

ـ عفواً يا صاحبة الجلالة؟

ـ منذ أسابيع وهي تخوض مغامرة محفوفة بالمخاطر وفي أسوأ الظروف وبطريقة لا تليق بامرأة، ولماذا؟ لأنّها أرادت الاستجابة إلى طلبي باسم صداقتنا وباسم إسبانيا. لقد ضحّت بنفسها ولا أجد لديك شيئاً تقوله لي سوى إنّها بخير؟

سكن الليل الأكثر عتمة بؤبؤي المفتّش العامّ. كان لابدّ له الآن من إعادة التوازن. فجأة اختفت الهيئة المُراضِيَة المتواضعة التي غلبت عليه حتّى الآن وحلّت محلّها صلابة جليديّة قريبة من الوقاحة. دوّى صوته حاسماً:

ـ أنت الملكة يا صاحبة الجلالة وأنا الكنيسة. أنت تمثّلين السلطة الدنيويّة وأنا أمثّل الربّ. اهتماماتك لا تتعدّى أمور هذه الدنيا أمّا أنا فاهتماماتي تتعلّق بالأرواح. وماذا تساوي تضحية السينورة فيفيرو بالمقارنة مع محنة ربّنا؟ ماذا تساوي بضع ليالٍ في الطريق بالمقارنة مع الدماء التي بذلها إخواننا المؤمنون الأوفياء الذين استشهدوا على أبواب اورشليم؟

لزمت إيزابيل الصمت فواصل متحمّساً:

ـ صحيح أنّي قد لا أبدو مكترثاً بمصير دونا فيفيرو ولكن ماذا أفعل؟ إنّ قلبي لا يقطر دماً حين أفكّر فيها لكنّي أجود بدمائي كلّها حين أفكّر في مصائر وعذاباتٍ أكثر بطولة.

نهض مشرفاً على الملكة من أعلى قامته.

ـ أستأذن في الانصراف يا صاحبة الجلالة.

*

انكبّ الرجال الثلاثة يفحصون خارطة بدائيّة لعاصمة مملكة قشتالة وليون الموحّدة في ضوء أشعّة الشمس المتسلّلة من خلال نافذة صغيرة غطّتها القضبان. كانت الجسور الستّة التي تقطع نهر أرلانثون مرسومة بدقّة إلاّ أنّ أيّاً منها لا يحمل اسما يشير من قريب أو من بعيد إلى الجنّة أو جهنّم. ضرب فارغاس على الطاولة بجمع يده معبّراً عن خيبة أمله.

ـ لا أدري أين أخطأنا؟

هتف الشيخ:

ـ وماذا لو كنت أنا على حقّ؟ ماذا لو كان علينا أن نتوجّه إلى شنتمريّة؟

ـ كلاّ. عليك أن تعترف بأنّك لم تجد إلاّ اسماً وحيداً في حين كان علينا أن نجد اسم بابلو إلى جانب مريّة.

ـ هذا صحيح لكنّي اهتديت إلى جسرين.

قال الراهب وهو على حافة الانفجار:

ـ اسمع يا ابن سراج إمّا أن...

قاطعه عزرا متبرّماً:

ـ اصمتا رجاءً. أنتما تصدّعان رأسي بثرثرتكما وتمنعاني من التفكير. وأغلب الظنّ أنّنا نتعنّت في الاتّجاه الخاطئ. بربّكما قولا لي لماذا نتشبّث بهذين الكلمتين: الجنّة والنار؟

ـ بسبب النصّ طبعاً فهو الذي يقول: **على الضفّة، بين شوكتي السعدان، شوكة الجنّة وشوكة جهنّم**. هذا يعني أنّ العلاقة أكيدة مع الصراط.

تهالك عزرا على أقرب مقعد:

ـ لنتّخذ مسافة من كلّ هذا ولنتخيّل أن ابن برول لم يذكر هذين الكلمتين إلاّ ليقرّبنا من صورة الجسر.

قال ابن سراج:

ـ حسناً وبعد؟

ـ بعد ذلك ليس أمامنا سوى فهم مقصده من وراء العبارة الأخيرة: **إنّه أسفل دموع العنبر، على رأس السيّد وزوجته وابنه**. نحن جميعاً متّفقون

على أنّ هذه العبارة تشير دون لبس إلى المكان الذي خبّأ فيه ابن برول المثلّث البرونزيّ. قد نجد صعوبة الآن في فهم ما يقصده بدموع العنبر لكنّ كلمة السيّد تبدو لي في متناول فهمنا فلابدّ أنّها تعني أحد الأشراف أو واحداً من علية القوم.

قال فارغاس مبتسماً:

ـ لا أراك تطلب منّا أن نستعرض كلّ نبلاء إسبانيا؟

ـ أنا عجوز يا فارغاس لكنّي لست خرفاً بعد. لا قِبَلَ لنا باستعراض نبلاء إسبانيا لكن في وسعنا أن نستعرض النبلاء الذين أثّروا في تاريخ المدينة التي نحن بصددها.

بدا الراهب مفزوعاً أمام ثقل المهمّة.

ـ إنّه الجنون بعينه.

ـ حسناً. لماذا لا تكفّ عن انتقاد فكرتي وتقترح حلاً آخر؟

مرّت فترة من الصمت لم يخترقها سوى الضجّة القادمة من الشارع وفجأة هتف ابن سراج مبتهجاً:

ـ أظنّ أنّنا لن نحتاج إلى المزيد من البحث.

فكّر لحظة ثمّ أضاف:

ـ هل تعرفون كيف نسمّي أحد النبلاء أو الأشراف بالعربيّة؟

لم يجبه أحد فقال:

ـ سيّدي أو السيّد. ألا تذكّركم هذه الكلمة بشيء؟

لم يكد الشيخ يفرغ من كلامه حتى أطلق فارغاس صيحة نصر.

الفصل ٢٦

بما أنّ السيد في لغتهم يعني الحاكم فإنّي لن
أحسدك على مثل هذا التشريف...

(كورناي)

لبث الرجال الثلاثة يتأمّلون الجسر وكأنّه أجمل مبنى في شبه الجزيرة إن لم يكن في العالم بأسره والحال أنّه جسر عاديّ لولا التماثيل الثمانية التي قامت على طول حاجزيه الأيمن والأيسر. تمثال رودريغو دياز دو فيفار المكنّى بالسيد المبارز وزوجته دونا خيمينة وابنهما وخمسة أشخاص آخرين.

هل كان الأمر من قبيل الصدفة أم من حسن تدبير ابن برول؟ لم يجرؤوا على الجزم لكنّهم ما أن سألوا عن الطريق إلى ضفّة النهر حتّى قيل لهم إنّ الأفضل أن يجتازوا الحصن من باب شنتمريّة. وهكذا اكتملت حلقة الرموز: بابلو دو سانتا ماريّة ذو الاسم الواحد المتعدّد، المولود في برغش، إضافة إلى السيّد وزوجته وابنه. توقّفوا عند تمثال السيد وأخذوا يتفحّصونه بفضول. مرّ فارغاس بيده على السيف المنحوت في الحجارة.

ـ يا له من شخص غامض. لقد سفك من الدماء المسيحيّة بقدر ما سفك من دماء المسلمين. هل كان وطنيّاً أم مرتزقاً؟ لا أحد يعلم. ربّما كان الاثنين معاً.

سأله ابن سراج:

ـ هل هو مدفون في برغش؟

ـ على بعد فراسخ من هنا في دير سان بيدرو دو كاردينا البندكتيّ. ويُقال إنّه وفقاً لوصيّته قد دُفن وحصانه إلى جانبه.

قال عزرا:

ـ على أي حال أستطيع أن أؤكّد لكم أنّه كان ثعلباً ماكراً. حين حكم عليه الملك ألونسو السادس بالنفي اقترض مالاً من أحد المرابين اليهود وترك له رهناً صندوقاً زعم أنّه مملوء ذهباً فهل تعرفون ماذا كان في الصندوق؟ رمل. لا شيء سوى رمل. ولم يكتشف المرابي الأمر إلاّ بعد فوات الأوان.

صفّق ابن سراج:

ـ اللهمّ لا شماتة ولكنّ الربا حرام وما كان على اليهوديّ أن يمارس الربا وهو مخالفٌ لما جاء في التعاليم اليهوديّة.

ـ خطأ يا عزيزي فاليهوديّة لا تحرّم الربا إلاّ بين اليهود لكنّها تعتبره حلالاً إذا تعلّق بالآخرين. وهذا تأويل آخر خاطئ للتعاليم.

قال ابن سراج مصرّاً:

ـ يا له من تحايل على الشريعة. تجفّ ألسنتكم ولا تكفّون عن تقويل التعاليم ما يتماشى ومصالحكم.

ـ لك أن تقول ما تشاء أمّا أنا فأفضّل البحث عن المثلّث عوضاً عن إضاعة الوقت في جدل عقيم.

اقترب من الحاجز ونظر إلى الضفّتين اللتين يجري بينهما النهر ثمّ قال مشيراً إلى جسر آخر أعلى:

ـ انظروا. لاشكّ أنّه الجسر الذي أشار إليه ابن برول حين قال: **على الضفّة، بين شوكتي السعدان، شوكة الجنّة وشوكة جهنّم، احتفظت بالـ ٣.**

قال الراهب موافقاً:

ـ هذا ممكن فالنصّ يؤكّد: **على رأس السيّد وزوجته وابنه**. ممّا يعني أعلى التماثيل. ولو صعدنا النهر لوجدنا المثلّث هناك.

أشار بيده إلى الضفّة اليمنى ثمّ إلى الضفّة اليسرى:

ـ أو هناك.

اقترب منهم أحدُ نَقَلَةِ الخشب بالطنبر فانتظر فارغاس أن يبتعد قبل أن يضيف:

ـ علينا أن نفترق كي نفحص الضفّتين.

أجاب عزرا:

ـ لنسرع. أنت وابن سراج عليكما بالضفّة اليمنى وسأتكفّل أنا باليسرى.

بعد لحظات كان فارغاس وعزرا يتّجهان أعلى النهر من ضفّة بينما انطلق عزرا يفعل الشيء نفسه من الضفّة الأخرى. وكان هو من عثر على الصفصاف الباكي. رأى الأغصان تتدلّى وتغطس في الماء وشاهد الأوراق الشبيهة بالدموع تنعكس على المرآة السائلة وكأنّها في انتظار يد مكفكفة. **إنّه أسفل دموع العنبر**. الصفصاف الباكي. فكّر عزرا أنّ ابن برول بالغ في الدعابة هذه المرّة.

تفحّص المكان طويلاً دون أن يلحظ شيئاً فنهض وأوغل أكثر في مياه النهر متفحّصاً الجذع وعندها رأى أربعة حروف محفورة في القشر: ي.ه.و.ه. وتحتها مباشرة ربوة طينيّة كان واضحاً أنّها ليست بفعل الطبيعة. جثا على ركبتيه وأخذ ينبش بأصابعه بلهفة. وصلته نداءات فارغاس وابن سراج فلم يعرهما اهتماماً.

ـ ماذا تفعل يا ربّي؟ هل عثرت على شيء؟

ظلّ منشغلاً بالحفر. سحب قبضة من الطين ثمّ قبضة أخرى بينما ظلّ رفيقاه يضحكان من على الضفّة الأخرى.

ـ والآن؟

مرّت برهة ثمّ نهض عزرا وفي يده المثلّث البرونزيّ الرابع.

مع أواخر الليل ثارت في سماء عاصمة المملكة عاصفة نادراً ما عرفتها في مثل هذا الموسم. كانت السماء قد تلبّدت بالسحب والشمس توشك على الغروب خلف الهضاب وما أن غابت تماماً وابتلعها الأفق حتّى أمسكت المدينة أنفاسها. بدأ الأمر بزمجرة من بعيد ثمّ أخذت الزمجرة تقترب حتّى صمّت الآذان وفي ثوانٍ معدودة لاذ كلّ الفارغين إلى أعمالهم ببيوتهم وأقفلت الكاتدرائيّة التي اعتادت أن تزدحم بالروّاد في مثل ذلك الوقت. فجأة تبخّر التجّار والسقاة والباعة المتجوّلون ولم يبق في الشوارع إلاّ بعض القطط المتهوّرة وسرعان ما أومض البرق جارحاً السماء تماماً فوق مدرسة الراهبات التي لجأ إليها المسافرون الأربعة. كانت مانويلا جالسة إلى طرف الطاولة وقد وضعت شالاً على كتفيها دون أن تفلح في كتمان رعشة شديدة. سألها فارغاس:

ـ هل تشعرين بالبرد؟

أسرعت بالردّ بنبرة هادئة:

ـ كلاّ كلّ شيء على ما يرام.

قال ابن سراج:

ـ إنّها العاصفة. ثمّة شيء يذكّر بيوم القيامة في قصف الرعد وهو حدث لا يمكن للنساء إلاّ الخوف منه.

أخذ يضحك لكنّها كانت ضحكة متوتّرة مصطنعة. كلّ شيء فيه كما في رفاقه كان يشي بالتعب والإنهاك. أومض البرق حادّاً أكثر من السابق ثمّ انهمر المطر فهتف عزرا:

ـ من حسن الحظّ أنّ الراهبات قبلن استضافتنا بفضلك يا فارغاس.

أصبح إيقاع المطر رتيباً لا يقطعه إلاّ قصف الرعد. نقر عزرا بأصابعه الملتوية على الطاولة ثمّ سأل:

ـ بالمناسبة. هل كنت جادّاً في حديثك منذ قليل عن رئيسة هذا الدير قبل مائتي عام؟ هل كانت فعلاً تملك سلطة الحياة والموت على قرابة الخمسين قصراً؟

ـ سيّدة المشنقة والسكّين. . . أجل يا ربّي. قلت لك أيضاً إنّ النبيلات وسليلات علية القوم وحدهنّ كنّ يُقبلن كراهبات في هذا الدير وكن يتمتّعن بميزات خارقة من ثمّ جاءت سلطة رئيسة الدير.

ـ المعذرة يا فارغاس فأنا لا أريد أن أبدو لك مستفزّاً أو جارحاً ولكن هل تستطيع أن تقول لي أي علاقة للربّ بكلّ هذا؟

تجاهل الراهب السؤال وأكبّ على الورقتين المفتوحتين أمامه واللتين تمثّلان القصر الخامس وظلّ ينظر فيهما دون حماسة. أومض البرق وخيّل إليهم أنّهم يتبيّنون صوت صاعقة هبطت قريباً من المكان فارتجّت لها جدران قاعة الطعام. همس عزرا:

ـ من يدري؟ لعلّنا فعلاً على عتبة القيامة، ولكنّنا على الأقلّ محاطون بالصلوات والراهبات.

قال ذلك على سبيل الدعابة لكنّ أحداً لم يردّ الفعل فضرب على الطاولة:

ـ ماذا حصل لنا بحقّ الربّ؟ لم يبق أمامنا إلاّ قصران وقد عثرنا على المثلّث الرابع ومع ذلك نحن حزانى كأنّنا في جنازة.

ظلّ فارغاس ينظر إلى الورقة أمامه شارد الذهن بينما أخرج ابن سراج مسبحة من العقيق اشتراها صباح اليوم من تاجر سوريّ وأخذ يفرك حبّاتها

ببطء أمّا مانويلا فقد ظلّت متسمّرة في جلستها القلقة في طرف الطاولة. أخيراً رأى ابن سراج أن يقطع الصمت.

ـ ولماذا تستغرب الأمر يا ربّي؟ لعلّنا بكلّ بساطة في الرمق الأخير.

لفّ المسبحة بحركة جافّة حول سبّابته وأضاف.

ـ تحدّثتَ عن نهاية قريبة يا عزرا. . . ألا تكون الساعة قد حانت لنتذكّر المعنى الحقيقيّ لرحلتنا؟ ألا نكون ابتعدنا عن غايتنا الحقيقيّة في حماسة انشغالنا بحلّ الألغاز؟ قد تكون صورة هذه الأمطار وهي تغسل كلّ شيء من حولنا كنايةً عن الواقع وهو يذكّر كلاً منّا بالسبب العميق لوجوده هنا.

قال فارغاس:

ـ الغريب أنّي كنت أظنّ حتى اليوم أنّ خلافاتنا تقلّصت بعض الشيء وها أنا أكتشف أنّ المشهد ليس كما تصوّرته. لكأنّنا في مسرحيّة تاه الممثّلون فيها عن الأدوار التي أنيطت بعهدتهم ثمّ جاء المؤلّف فأعادهم إلى الواقع.

سألته مانويلا:

ـ وأين تحدّد هذا الواقع يا فراي فارغاس؟ في تخلّي الممثّلين عن أدوارهم أم في عودتهم إليها؟

ـ من يدري؟

قال عزرا:

ـ أنا أجيبكم. المهمّ هو الوفاءُ للذات حلماً كان الأمر أم حقيقة. كنتَ على حقّ يا فارغاس حين لاحظتَ أنّ خلافاتنا تقلّصت أثناء الطريق إلاّ أنّ قناعاتنا لم تتغيّر. قد تكون الأحداث ألبستها قناعاً لكنّ القناع لا يمنع الوجه من أن يظلّ دائماً هناك، حاضراً فينا. لنكن صرحاء. أنا يهوديّ وسأبقى يهوديّاً إلى آخر نفس وأنت مسيحيّ ولا شيء سيجعلك تعيد النظر

في إيمانك بيسوع المسيح وابن سراج مسلم وسيظلّ دائماً على دين من يراه خاتم الأنبياء. وإذا سمحتَ لي باستعمال استعارتك ليس المؤلّف من يعيد الممثّلين إلى النصّ الأصليّ بل الاقتراب من الكتاب. إنّ الكتاب هو الذي يسيطر على ذاكرتنا الليلة ومن خلاله يسودنا القلق التي تناسيناه لفترة. القلق من أن لا نجد فيه الرسالةَ التي تدعمنا في معتقداتنا.

لم تستطع مانويلا أن تمنع نفسها من الملاحظة:

ـ الغريب أني أراك تذكر خلافاتكم وكأنّك كاره لها فلماذا لا تقرّرون أن يثق بعضكم في بعض. بتعبير آخر لماذا لا تتبادلون شذرات القصور التي يملكها كلّ منكم.

سألها ابن سراج:

ـ لا أفهم مقصدك يا سينورة. ولماذا علينا أن نفعل ذلك؟

ـ هل نسيت أنّ الرِبّي عزرا كاد يموت قبل أيّام؟ ألم تكن على حافة اليأس خوفاً من أن تتوقّف الرحلة دون أن تعثروا على الكتاب؟ ألم تقل إنّ عليه أن يترك لكم قصوره وإلاّ كان يسيء لروح ابن برول؟ من قال إنّ المآل لن يكون أسوأ في المرّة القادمة وإنّ أحدكم لن يحدث له مكروه؟ ألا يعني ذلك أنّ الكتاب الذي ترغبون في الوصول إليه سيضيع إلى الأبد؟ من ثمّ اقتراحي.

ـ وهو اقتراح وجيه فعلاً.

قال ابن سراج ذلك بنبرة مسرحيّة مضيفاً على الفور:

ـ وليتك تقدّمين النموذج يا سينورة فيفيرو وتتكرّمين علينا بالمفتاح الأخير. أليس في حوزتك؟

وجدت نفسها قد وقعت ضحيّة منطقها وعفويّتها ولم تنتبه إلى أنّها كانت تنصب لنفسها فخّاً دون أن تشعر. قالت مرتبكة:

ـ لا معنى لهذا المفتاح إذا لم يكن النصّ كاملاً وإذا لم تجتمع فقراته. اجمعوا قصوركم وسأعطيكم ما لديّ.

كانت تمشي على شفرة سكّين. هل شعر فارغاس بذلك أم رأى أنّ الحديث لا جدوى له؟ المهمّ أنّه هو من بادر إلى كسر الطوق من حولها.

ـ لنترك الأمر للمستقبل. ما دام كتاب السفير يحمل كلام الربّ فلنترك للربّ أن يقرّر إن كنّا جديرين بكتابه.

ارتجفت مانويلا. سمعت الراهب جيّداً وهو يتحدّث عن كتاب السفير. لم تتردّد في السؤال:

ـ كتاب السفير؟ هل تبحثون عن كتاب من الحجارة الكريمة التي يُسمّونها السفير؟

احمرّت وجنتا الفرانسيسكانيّ.

ـ ألا يجيبني أحدكم؟

تولّى عزرا الإجابة:

ـ ربّما كان الأمر كذلك يا سينورة؟

ـ وهل ذاك سبب قيمته؟

للمرّة الثانية لم يجبها أحد. أومض البرق مرّة أخرى داخل القاعة.

ـ لن تقولوا لي المزيد أليس كذلك؟

كان تأكيداً أكثر مما كان سؤالاً. ابتعدت عن الطاولة وأعلنت بنبرة مكتومة:

ـ لم يبق أمامي إلاّ أن أفارقكم أيّها السادة. المؤسف أنّي كنت أظنّني اكتسبت ثقتكم ولكن يبدو أنّي أخطأت.

ظلّ ابن سراج ينظر إلى الجدار المقابل بينما تلهّى عزرا بمداعبة طرف الطاولة. وحده فارغاس بدا قلقاً للأمر وإن لم يقل شيئاً. كان ذاك ما

صدمها أكثر من أيّ شيء. عضّت على شفتيها مفكّرة أنّ هؤلاء الرجال مهما بدوا ودودين ليسوا في الحقيقة سوى حسابات باردة جافّة وليس لها ما تنتظره منهم. حدجت فارغاس بنظرة مريرة ثمّ دارت على عقبيها.

ـ مهلاً.

أشار الفرانسيسكانيّ إلى المقعد الذي غادرته للتوّ.

ـ اجلسي.

ثمّ أهاب بعزرا في لهجة لا تقبل نقاشاً:

ـ أرِها الرسالة يا ربّي. أقصد رسالة ابن برول.

لم يبد على الربّي أنّ الراهب فاجأه بطلبه. فتّش في أحد جيوبه وأخرج رزمة مطويّة على أربع وضعها أمام الفتاة. همّ الشيخ بالاحتجاج لكنّه أحجم أمام سحنتي رفيقيه. قال عزرا:

ـ اقرئي وستفهمين كلّ شيء.

تناولت مانويلا الوثائق وكأنّها تمسك بأوراق من الكريستال. كان قصف الرعد قد اشتدّ في الخارج لكنّ الفتاة لم تعد تسمع شيئاً. أخذتها القراءة بعيداً عن المكان والزمان. هل هذه هي المؤامرة المزعومة؟ إنّها رسالة سماويّة قادمة من بداية الزمن فما أبعد هذا عن كلّ ما ذهب إليه المفتّش العامّ والملكة وحتّى مانويلا نفسها. تنفّست الصعداء فقد عرفت هؤلاء الرجال عن كثب وأعجبت بسعة علمهم وعمق نقاشاتهم وكانت فكرة أنّهم ليسوا سوى متآمرين تافهين تؤرّقها وتقضّ مضجعها. ولكن لعلّ العناية الإلهيّة في خدمتها. أليسوا في برغش حيث يقيم توركيمادا؟ من الغد وعند أوّل فرصة ستطلب من ميندوزا أن يحدّد لها موعداً مع رئيس ديوان التفتيش لتشرح له كلّ شيء. ستحدّثه عن كتاب السفير والأمل الروحانيّ الذي يعنيه ولا شكّ أنّه سيضع حدّاً للعمليّة على الفور. هكذا

تستعيد حريّتها وهكذا تكون قد قامت بمهمّتها حتّى النهاية ولن تستطيع الملكة أن تنعتها بالتهرّب مثلما فعلت يوم المحرقة.

لكنّ استعادة حريّتها لا تعني نهاية كلّ شيء. أصبحت هي أيضاً متطلّعة إلى هذا الكتاب. هل هو موجود فعلاً؟ وما الذي يمنعها من مواصلة هذه المغامرة العجيبة حتى النهاية بعد أن تكون قد فرغت من مهمّتها تجاه الملكة وتوركيمادا؟ لماذا لا تواصل الرحلة من أجل متعتها الخاصّة هذه المرّة؟ صحيح أنّها ترغب في ذلك بقوّة لكنّها ستكون مجبرة في المرحلة الأخيرة على الاعتراف لهم بكلّ الحقيقة، أي بأنّها لم تملك يوماً المفتاح الأخير المزعوم. ترى كيف يكون ردّ فعلهم آنذاك؟ ثمّ ألا يعني اعترافها لهم بالحقيقة خيانةَ العهد الذي قطعته للملكة؟ عليها أن تفكّر في الأمر أمّا الآن فالأهمّ أن تلتقي توركيمادا. وفيما بعد تتّضح الأمور. أعادت الرسالة إلى عزرا:

ـ أنا مدينةٌ لكم بهذه الثقة.

افترّت شفتا الحبر عن ابتسامة.

ـ نحن أيضاً مدينون لك يا سينورة. لقد ساعدتنا عند البرج الدامي وعند مغارة آل غولفينو وكان حدسك حاسماً في مسألة المادّة البكر والمادّة المخصّبة. دون أن ننسى ما قمت به حين ألقي عليّ القبض. لكلّ هذه الأسباب كان من الطبيعيّ أن نطلعك على الحقيقة.

كرّرت الشكر وقد بدا عليها التأثّر.

ـ بالمناسبة، هل تعرفون أن هذا الكتاب مذكور في حكايتين إسبانيّتين؟

تأمّلها الرجال الثلاثة بفضول.

ـ الحكاية الأولى تقول إنّ سلطاناً عربيّاً من غرناطة دعا رجلاً خبيراً في الفلك والخيمياء كي يساعده على دحر أعدائه، وقد أفلح الرجل في ذلك،

وذات يوم كانا ساهرين في قصر الحمراء فسأل السلطان الرجل عن سرّ علمه السحريّ فأخبره بأنّه ذهب منذ سنوات طويلة إلى مصر ليأخذ عن كهنتها أسرار علمهم. وذات يوم كان يتحدّث مع أحدهم على ضفّة النيل فأشار الرجل إلى الأهرام وقال له إنّ كلّ ما نعرف لا يساوي شيئاً ممّا هو محفوظ داخل الهرم الأوسط حيث مومياء الكاهن الأكبر. وقد دُفن هذا الكاهن ومعه كتاب الحكمة الذي يحتوي على كلّ الأسرار. ويُقال إنّ هذا الكتاب أُنزِلَ على آدم حين طرد من الجنّة ثمّ انتقل من جيل إلى جيل. كيف وصل إلى باني الهرم؟ وحده الربّ يعلم. . .

علّق الشيخ:

ـ حكاية طريفة. لكنّ هذا الخيميائيّ يجب أن يكون قد عمّر أكثر من ألفي سنة كي يلتقى أحد كهنة مصر القدامى.

ـ لا تتحدّث الأسطورة عن ذلك.

ـ أخبرتِنا عن حكايتين فماذا تقول الثانية؟

ـ تدور أحداث الحكاية الثانية في زمن غير محدّد وقد نسيت التفاصيل لكنّي أذكر انّها تقوم على عشق بين أمير وأميرة يقف أبواهما في وجه حبّهما، كما جاء فيها أيضاً ولا تضحكوا رجاء، ذكرٌ لبومة تتحدّث عن تحف وتعويذات تعود إلى زمن القوط من بينها صندوق من خشب الصندل ملفوف بشرائط معدنيّة على الطريقة الشرقيّة ومزخرف بكتابة لا يعرفها إلاّ القلّة. ونكتشف في نهاية الحكاية أن الصندوق يخفي كتاباً غامضاً وبساطاً حريريّاً كانا في عهدة الملك سليمان جاء بهما اليهود إلى طليطلة بعد سقوط أورشليم.

أشعّ وجه ابن سراج بابتسامة عريضة.

ـ من طريفٍ إلى أطرف، خاصّة حين نعلم أنّ الملك سليمان كان في

نظر العرب ملكاً على الإنس والجنّ وذا قدرات سحريّة عجيبة ويتنقّل بواسطة بساط الريح.

علّق عزرا:

ـ ممّا يعني أنّ ما نحسبه أسطورة قد يكون حقيقة والعكس صحيح.

فكّر للحظة ثمّ نهض قائلاً:

ـ سأذهب إلى النوم.

أردف ابن سراج وهو يغادر الطاولة:

ـ وأنا أيضاً.

أشار إليهما فارغاس بالورقتين اللذين كُتب فيهما القصر.

ـ وماذا تفعلان في هذا؟

ردّ عزرا:

ـ إنّ غدا لناظره قريب.

ـ خسارة. هذا القصر يبدو لي الأكثر إمتاعاً.

كرّر الحبر:

ـ إنّ غدا لناظره قريب.

انغلق باب قاعة الطعام بصوت مكتوم تاركاً المكان للصمت فلملمت مانويلا طرفي شالها قبل أن تعلن:

ـ أظنّ أنّي سأذهب لأنام أنا أيضاً.

كانت تهمّ بالوقوف حين همس بصوت يكاد لا يبين:

ـ أريد أن أشكرك بدوري.

ـ على ماذا؟

ـ على ذلك اليوم في سلمنقة. لولا كلماتك لما أقدمتُ على مساعدة البحار الجنويّ. أريد أن أشكرك على حثّك لي على مساعدته.

ـ لنقل إنّي لم أفعل سوى إيقاظ من كان نائماً فيك.

شبك يديه على الطاولة.

ـ لولاك لفضّلتُ الهرب من هذا الذي ينام فيّ.

ـ لا أظنّ ذلك، على الأقلّ مادمت أنت.

زوّى ما بين حاجبيه.

ـ ومن أنا؟

ـ رجل انتمى ذات يوم إلى رهبانيّة سنتياغو دي لا إسبادا، فارس وابنَ فارس وحفيد فارس.

وجد الراهب صعوبة في إخفاء اضطرابه.

ـ كيف تفعلين لقراءة ما في قلوب الآخرين؟

شبكت طرفي الشال على صدرها وكأنّها تقوم بحركة دفاع.

ـ أنت تنسب إليّ موهبة لا أملكها، وحتى لو صحّ أنّي أمتلكها فإنّها لا تسعفني مع الجميع. إنّها لا تتجلّى لديّ إلاّ مع أشخاص معيّنين.

ـ وهل أنا من هؤلاء الأشخاص؟

لزمت الصمت ولكن هل كانت في حاجة إلى الردّ؟

ـ أنت شخص مكتنز بالمفاجآت يا دونا فيفيرو. حسبتُني أكثر من مرّة قادراً على قراءة ما يعتمل في روحك لكنّي وجدتُني دائماً على خطأ. كلّما تصوّرتكِ ناراً اتّضح أنّك الماء. كلّما تخيّلتك وقحة أنانيّة مغرورة اكتشفت أنّك غاية في التواضع والجود ونكران الذات. أجل أنت حقّاً شخص لا يمكن توقّع ردود فعله.

قصف الرعد بقوّة فندّت عن المرأة صرخة فزع. هل كان يريد طمأنتها أم أنّ الأمر كان مقدّراً؟ لا تعلم. لكنّه أمسك بيدها فلم تفعل شيئاً لصدّه. كانت أعجز من أن تفعل حتّى لو أرادت. ما أن أحسّت بلمسته حتى

فقدت كلّ رغبة في الهرب. تموّجت أصابعه بهدوء دون أن تجزم إن كانت حركة عفويّة أم مداعبة محتشمة فأحسّت بدفق يهزّها بعنف وكأنّه احتواها بين ذراعيه. قرأت ذات يوم أن لا وجود للحبّ دون يأس من الحبّ كما أنّنا لا نحبّ الحياة إلاّ بقدر يأسنا من الحياة. بدت لها المقارنة يومها مبالغة خالية من المعنى ولم تحاول أن تتعمّق في مقاصد الكاتب وها هو معنى تلك الكلمات يضربها اليوم في الصميم. قالت وقد أدهشتها نبرة صوتها:

ـ حدّثني عنها. حدّثني عن المرأة التي أحببتها بهذه القوّة.

ـ هل تريدين ذلك حقّاً؟

ـ أجل إذا لم تر مانعاً.

ـ حدث ذلك منذ سنوات. كان اسمها كريستينا. كريستينا ريباديو. سليلة إحدى أكبر عائلات إشبيلية. أبوها الكونت ريبادبو وأمّها إحدى قريبات الملك خوان والد الملكة إيزابيلا. كانت في الخامسة والعشرين. التقينا ذات مساء بمناسبة زفاف ابنة المركيز دو فيرول التي كانت صديقة مشتركة. لا تطلبي منّي أن أصف لك لقاءنا ولا أن أشرح لك ما حدث بشكل معقول فهذا مستحيل. غالبا ما يطلقون على مثل تلك اللقاءات اسم الصعقة أو الحبّ من النظرة الأولى وهي تسميات مضحكة لكنّي لا أجد غيرها. ولو حاولت شرح هذا الإحساس لقلت إنّه ليس اندفاعاً للقلب فحسب بل هو اندفاع للروح أيضاً. أي أنّنا أمام قوّة أكثر كثافة بكثير لا تتجلّى إلاّ مرّة واحدة في الحياة. في تلك اللحظة نلقي بأنفسنا بشكل أعمى في سعادة الحبّ دون سلاح ودون احتراز مهدّمين كلّ أسوارنا وحصوننا لأنّنا نعرف، بل نظنّ أنّنا نعرف أن الآخر هو الجزء المكمّل لروحنا الذي اهتدينا إليه أخيراً. بعد ذلك فهمت أنّ ذلك النوع من الحبّ مهما بدا عنيفاً وعميقاً وحقيقيّاً ليس سوى محاولة للحبّ. بل لعلّي أقول

إنه بالنسبة إلى الحبّ الحقيقيّ بمثابة المسودّة بالنسبة إلى اللوحة النهائيّة.

ضغط أكثر على يد مانويلا وكأنّه يستمدّ مزيداً من القوّة لمواصلة القصّة فتجرّأت على السؤال:

ـ أفترض أنّ هذا الشعور كان متبادلاً أليس كذلك؟

ـ ظننت ذلك أنا أيضاً بل أقنعت نفسي بذلك طويلاً. لم أتصوّر أنّ مثل هذا الشعور يمكن أن يتوهّج من طرف واحد لكنّي كنت على خطأ. في وسعنا أن نتعرّف على شخص التقينا به منذ زمن طويل لكنّ ذاك الشخص ليس ملزماً بأن يتذكّرنا. كريستينا ريباديو لم تتعرّف فيّ على الجزء الناقص منها لكنّي لم أتفطّن إلى ذلك إلاّ لاحقاً.

توقّف لحظة.

ـ ليلتها لم يتعدّ حوارنا ذاك النوع من الحديث الذي يجبرك عليه الناس المحيطون بك في أيّ مكان عامّ بينما أنت لا تتمنّى إلاّ الانفراد بمن تحبّ. أوشك الحفل على النهاية واقتربت لحظة الفراق ولم أكن أعرف أين ولا متى أراها من جديد. لم أجرؤ على فعل شيء ربّما عن خجل أو عن جبن أو عن خوف من أن أبدو سخيفاً، وربّما لأنّي كنت أشعر بأنّي في حلم سأصحو منه طال الزمن أم قصر. كانت هي من قام بالخطوة الأولى على خلاف كلّ الأعراف. أخبرتني متظاهرة بعدم الاكتراث، بأنّها تحضر القداس في الكاتدرائيّة صباح كلّ أحد وبعد ذلك تتّجه هي ومربّيتها إلى الحديقة الكبيرة. كنت أشرب تلك الكلمات وكأنّها وعود بحبّ لا يفنى.

ـ طبعاً لم تخلف ذلك الموعد؟

ـ وكيف أخلفه؟ ما أن حلّ صباح الأحد حتّى كنت في الكاتدرائيّة أسترق إليها النظر من خلف أحد الأعمدة. ثمّ تبعتها إلى الحديقة. نسيت أن أخبرك بأنّ كريستينا لم تكن جميلة وهذا دليل على سحر شخصيّتها

الخارق. وقد حدّثت عنها أحد أصدقائي فقال لي إنّ المرأة غير الجميلة لا يمكن أن تُحَبّ إلاّ بجنون لأنّها تمتلك أسراراً أخرى أشدّ فتنة من الجمال.

أفلت يد مانويلا ورفع قبضته.

ـ لكلّ صحراء سرابها وكريستينا ريباديو كانت سرابي أنا. التقينا مراراً في السرّ بعيداً عن عيون الجميع وبالرغم عن أهلها الذين لم يتصوّروا أن ترتبط برجل ليس من مستواها. ومع ذلك أؤكّد لك أنّي التقيت رجالاً ونساء من نفس الوسط يحملون في عيونهم حزناً أكبر ممّا كان يغمرهم لو أنّهم ارتبطوا بمشرّدين.

عند هذا الحدّ من القصّة تغيّرت نبرة فارغاس.

ـ استمرّت علاقتنا طيلة خمسة أشهر وأستطيع القول الآن إنّ من الصعب أن يوجد في الكون شخص يحبّ بالنهم الذي تحبّ به كريستينا. قد يفاجئك ذلك ولكن عوضاً عن إرضائي وإشباعي فإنّ طريقتها في الحبّ كانت تبعث في نفسي إحساساً عميقاً بعدم التوازن. شعرت بأنّي على ظهر سفينة بلا دفّة ولا شراع متروكة لأهواء المحيط.

قطّبت مانويلا جبينها.

ـ عفواً ولكن كيف يمكن لحبّ متبادل أن يمنحكِ أحساساً بعدم الامان؟ اعتدنا ذلك من الوضع المعاكس.

ـ طبعاً. شرط أن تكون الأفعال امتداداً للكلمات. لكن لا شيء مضمون مع كريستينا باستثناء تحويل رغباتها إلى قرارات ملموسة. ثمّة من يرفض الاستسلام إلى القدر وكأنّ ذلك الرفض جزء من غريزته وثمّة من لا يخاف شيئاً قدر خوفه من السباحة عكس التيّار. ماذا تريدين؟ ليس العدل من شِيَم الطبيعة. قد تكون الساحرات المكبّات على المهد مدعوّات عن طريق الصدفة. ومن بين الساحرات اللاتي دعين إلى مهد كريستينا حضرت ساحرة السعادة والرفاه ولكن حضرت أيضاً ساحرة شريرة منحتها المكر

والتقلّب. وكنت أنا تحت رحمتها. كاشفتني بسرعة بأنّها موعودة لأحد نبلاء إشبيلية، بيدرو دو أورتيغا. أكّدت لي أنها لا تشعر بأيّ ميل نحو هذا الرجل الذي وصفته لي بالتافه الأحمق مقسمة بأنّها أبدا لن تربط مصيرها بمصير رجل مثله مضيفة بتلك الحماسة التي تعرف سرّها، إنّها تفضّل الموت على ذلك. وكانت تموت فعلاً ما أن تنطق بتلك الكلمات، ولكن مجازيّاً وبين ذراعيّ. كانت تؤكّد لي بانتظام أنّها ستواجه والديها قريباً صارخة برفضها الزواج من بيدرو دو أورتيغا، وكانت تقول وتردّد: لأنّي أحبّك، لأنّك حياتي وقلبي ورجلي.

أعاد يده إلى يد مانويلا.

ـ مع مرور الوقت أصبحت اكثر لهفةً على الإعلان عن حبّنا. وذات مساء طلبتُ منها أن تضع حدّاً للأكذوبة التي نعيش في كنفها منذ أشهر واقترحتُ عليها أن أذهب إلى لقاء أبيها وأن أصارحه بالأمر فلم تمانع. طلبت منّي مهلة فحسب. مهلة بأسبوع، ليس لأنّها غير واثقة من مشاعرها فمشاعرها لا شكّ فيها كما كانت تقول، بل رأفة بوالدها دون ريباديو الذي كان يعاني من ذات الرئة وهي تخشى أن يستفحل مرضه بسبب الصدمة. وسرعان ما أضافت وكأنّ الفكرة خامرتها للتوّ، بأنّها تقترح أن تلازم أباها طيلة ذاك الأسبوع، من أجل حبّنا قالت، كي تهيّئ الكونت للقائي.

ـ وقبلت؟

ـ وهل كان لديّ خيار؟ كنت مكمّماً مكتوفاً محكوماً عليه بالاستسلام كما يستسلم الأعمى لدليله.

تنهّد طويلاً.

ـ اتّفقنا على لقاء بعد أسبوع، يوم الجمعة تحديداً، قرب الحنفيّة العموميّة التي اعتدنا الاجتماع عندها. وانتظرتها في الموعد المحدّد. انتظرتها حتّى هجم عليّ الليل. وانتظرتها من الغد. وانتظرتها بعد غد

أيضاً. وظللت في انتظارها لأيّام عديدة بدت لي أطول من الأبديّة. ثمّ أقنعتُ نفسي بأنّ كريستينا قد احتُجزت من طرف والديها بعد أن صارحتهما بالحقيقة فقرّرت أن أتوجّه إلى منزلها لمواجهة كلّ عفاريت آل ريباديو. كان ذلك يوم أحد لا أنساه وكان الربيع يعطّر هواء إشبيلية بألطف الروائح. طرقت الباب فأطلّت عليّ خادمة متجهّمة وخطت وجهها التجاعيد وكان عليّ أن أتوقّع أنّ مثلها لا يأتي إلاّ بأسوأ الأخبار. أعلمتني بأنّ دونا ريباديو ليست في المنزل لا هي ولا أبوها ولا أمّها ولا أيّ فرد من أفراد الأسرة. وحين رأت دهشتي قالت لي: الكاتدرائيّة. وأضافت قبل أن تصفق الباب في وجهي إنّه حفل زفاف السينوريتة.

انقبضت أصابع فارغاس كأنّه يريد النفاذ إلى باطن مانويلا.

ـ ثمّة لحظات يرفض فيها عقل البشر أن يعترف بأكثر الحقائق بداهة. اتّجهتُ إلى الناعورة ووجدت الشجاعة الكافية لدخول الكاتدرائيّة. كانت كريستينا هناك جاثية إلى جانب بيدرو دو اورتيغا الذي نعتته قبل أيّام بالتفاهة والحمق.

ـ وماذا فعلت؟ لا تقل لي إنّك...

ـ كلاّ. لم أتسبّب في فضيحة فما كنت لأضيف الإهانة إلى عذابي. ظللت هناك حتّى نهاية طقس الزفاف وراقبتها وهي تصعد المدرج الرئيسي إلى ذراع من صار زوجها. مرّت على مسافة خطوة منّي وانتبهت إليّ فلم ألمح في عينيها سوى بريق خاطف قرأت فيه إحساساً غامضاً هو مزيج من الحرج واللامبالاة.

نهض واتّجه ناحية إحدى النوافذ العالية المطلّة على الحديقة. أسند جبينه إلى الساكف وظلّ صامتاً. كانت الأرض قد أُشبِعت مياهاً وانبعثت منها روائح رطبة تشير إلى هدوء العاصفة. ابتعدت مانويلا عن الطاولة واقتربت من فارغاس هامسة:

- أتفهّم عذابك ولكن لماذا أغلقت الباب في وجه الحياة؟

أجاب دون أن يلتفت:

- لأنّي بكلّ بساطة كنت قد متّ وانتهى الأمر. وجدت نفسي فجأة ملقًى جوف عتمة مرعبة لا نجوم فيها ولا يسكنها إلاّ وحوش وأشباح تتناهشني من كلّ جانب وتحاول جرّي إلى أعماق بلا قرار. كان رافائيل فارغاس قد أخلى المكان إلى رجل آخر لا أستطيع معه شيئاً. لم تكن تمرّ لحظة دون أن تستعيد ذاكرتي بانتظام كلّ كلمة وكلّ حركة أثّثت الأيّام التي تقاسمتها مع كريستينا. كانت صورتها تحاصرني من كلّ جانب كالهلواس. حيثما اتّجهت كانت ذكراها تتشبّث بي حتّى أنّي تمنّيت أن يسعفني أيّ قاتل أو أيّ جلاّد في أيّ منعطف فيهشّم رأسي ويريحني من عذابي. وكم ظللت أمشي في شوارع إشبيلية منتهياً كلّ مرّة إلى ضفاف الوادي الكبير جالساً لساعات مفتوناً بأمواجه راغباً في الالتحام به وإنهاء كلّ شيء.

ظلّت مانويلا تنصت إليه ببالغ التوتّر.

- وكيف اهتديت إلى النور من جديد؟ كيف استعدت الرغبة في الحياة؟

انتبهت إلى حركة مكتومة فخمّنت أنّه كان يقبض بأصابعه على صليب الخشب المتدلّي على صدره. التفت إليها.

- عدت إلى الحياة بفضل الصلاة. فقدت كلّ إيمان بالبشر ولم يبق قادراً على إنقاذي إلاّ الإيمان بيسوع المسيح. كنت جالساً على حافة النهر ذات يوم حين اقترب منّي رجل وجلس إلى جانبي دون استئذان. قال إنّه راقبني منذ أيّام دون أن يجرؤ على قطع خلوتي. كان راهباً فرانسيسكانيّاً يدعى خوان بيريز.

- رئيس دير الرابطة.

- هو ذاك. أيّامها لم يكن مُكلّفاً بتلك المهمّة بعد وكان يعيش في دير

آخر قرب إشبيلية في انتظار تكليفه. تحدّث طويلاً يومها واكتفيت بالإنصات إليه. التقينا بعد يومين ثمّ تعدّدت لقاءاتنا ثمّ سرعان ما أصبحت أذهب إليه في الدير الذي يقيم فيه. هناك اكتشفت طمأنينة وراحة نفسيّة ما كنت أتوقّعهما. كنت أجد في صلتي بالرهبان هدوءً صالحني مع نفسي وقادني إلى السلام الباطنيّ. بعد أشهر حين آن اوان انطلاق الأب خوان بيريز إلى دير الرابطة طلبت منه أن يأذن لي بمصاحبته فوافق ولكن ليس دون أن يسألني إن كنت واثقاً من رغبتي في الالتحاق بالرهبانيّة؟ وإن لم يكن قراري متأثراً بخيبة أملي أو بإحساسي بالمرارة واليأس، أي بذلك الاستسلام الذي حدّثتني عنه حين كنّا في المصلّى يوم أفضيت إليكِ بحيرتي أمام ما اعتبرتُه وأعتبره حتّى الآن جريمة؟

تجنّبت كلّ تعليق وانتظرت أن يواصل الحديث.

ـ لكنّي أكّدت له أنّي اتّخذت قراري عن رويّة وأنّ جراحي ليست هي ما يقودني. كان كلّ هدفي أن أكرّس نفسي للغير. أن أضع حدّاً لرغبتي في المتع الدنيويّة العابرة. وخاصّة أنْ لا أقع مرّة أخرى عبداً لأحاسيسي وأن لا أمرّ مرّة أخرى بما سمّاه خوان بيريز ممازحاً: عثرات القلب.

ـ هل كنت منتبهاً إلى أنّك منذ تلك اللحظة قد حكمت على كلّ نساء العالم بأنّهنّ كريستينا ريباديو؟

ـ هذا صحيح.

تهرّب من عينيها وقال مرتبكاً.

ـ لكنّ كلّ هذا تغيّر اليوم.

كانا شبه متلاصقين وكان في وسعها أن تشعر بأنفاسه وصوته يخترقانها مثل حلم في ضوء الشمعدانات الذي كان يحيطهما بهالة مطمئنة، وكأنّه ينفصل بهما عن العالم داخل قوسين من نور.

همس فجأة:

ـ مانويلا. . . أنا. . .

وضعت سبّابتها على شفتيه.

ـ لا تقل شيئاً. لا حاجة إلى الكلمات.

ومع ذلك، وكأنّها مدفوعة بقوّة لا تُقاوم، رسمت بشفتيها عبارة: أحبّك. أمسك بيديها وضمّهما إلى وجنته وكأنّه يريد أن يستنشق عبيرها.

ـ أحبّك يا مانويلا.

بدا لها فجأة أنّ موجة من الشجن تغمرها. سألت:

ـ هل نحن مسودّة اللوحة؟

أجاب كأنّه يتكلّم من داخل حلم:

ـ منذ عرفتك أصبحتُ أؤمن بأنّ من المسودّات ما يمتلك حرارة لا ترقى إليها اللوحات المنجزة، وأنّ منها ما هو لحظات فريدة تفيض فيها روح الخالق على القماش بحريّة دون تكلّف ولا تفكير مسبق. إنّ بعض المسودّات غاية في ذاتها يا مانويلا.

سحبها نحوه ببطء فاستسلمت وقد تخلّى قلبها عن كلّ عقل. كانت شفاههما تهمّ بالالتقاء حين انقبض جسد فارغاس فجأة وكأنّه فريسة ألم لا يُطاق. ابتعد عنها دون عنف وظلّ زائغ النظرات يتأمّل الصليب المتدلّي على صدره.

همس أخيراً:

ـ يا إلهي.

قالها بصوت يكاد لا يبين. ولو أطلق صرخة مدوّية لما كان صوته أكثر يأساً ممّا بدا على همسته تلك.

الفصل ٢٧

لم يكن العاشقان يستطيعان الحياة أو الموت
أحدهما دون الآخر.
فراقهما لم يكن حياةً ولا موتاً.
كان الحياة والموت في الوقت نفسه.

(ج. بيدي)

طلع النهار على برغش وأخذت أجراس الكاتدرائيّة تقرع بلا هوادة. لجأ الرجل ذو وجه العُقاب إلى ظلّ سقيفة باب سان مرتان وأخذ ينصت إلى مانويلا متظاهراً بالأسف مخفياً ابتهاجه بانزعاجها. تركها تكمل تقريعها له قبل أن يغمغم:

ـ آسف إذا كنت أخطات لكنّي رأيتُ أنّ هذين العربيّين يستحقّان العقاب.

ـ أنت كاذب. لقد اعترفت لي بأنّك تابعت كلّ ما حدث وهذا يعني أنك رأيتنا نعفو عنهما ونطلق سبيلهما.

تصنّع ميندوزا الدهشة.

ـ عفوتم عنهما؟ ليشهد الربّ أنّي لم أقرأ الأمر على هذا النحو. ظننت فحسب أنّكم لم تستطيعوا قتلهما بدم بارد.

ـ ومن أذن لك بإنجاز ذلك نيابةً عنّا؟

غمغم بنبرة تكاد لا تُسمع فغيّرت مانويلا الموضوع.

ـ حسناً لندع كلّ ذلك الآن فلدينا ما هو أهمّ. عليّ أن أرى المفتّش العامّ فوراً. لديّ معلومات في غاية الأهميّة أريد إطلاعه عليها.

وجد ميندوزا صعوبة بالغة في إخفاء ابتسامته الماكرة. يبدو أنّ الربّ يقف إلى جانبه هذه المرّة.

ـ للأسف فإنّ فراي توركيمادا ذهب إلى طليطلة منذ أيّام بدعوة من جلالة الملكة.

بدا على مانويلا الامتعاض.

ـ وكاتبه الخاصّ؟

تردّد ميندوزا لحظة. كان الأب ألفاريز موجودا وقد قابله البارحة ومدّه بآخر الأخبار لكنّ تحديد موعد له مع السينورة غير مأمون العواقب. قد ترفع إليه انتقاداتها وشكاواها وهو يعرف العطف الخاصّ الذي تكنّه جلالة الملكة لهذه المرأة. يكفي أن تقول في شأنه كلمة كي تدمّر حياته. حسم قراره بسرعة وأجاب بنبرة لا تشوبها شائبة:

ـ لسوء الحظّ يا سينورة فراي ألفاريز متغيّب هو أيضاً وهو لن يعود إلى برغش قبل أسبوع.

ندّت عنها حركة تبرّم فاستفسر ميندوزا بنبرة محايدة:

ـ تحدّثت عن معلومات يا سينورة؟ هل اكتشفت مضمون هذا الكتاب الغامض؟

أومأت بالإيجاب وهي مبلبلة الفكر.

ـ في هذه الحالة دونا فيفيرو عليك أن تكاتبي المفتّش العامّ وسأعمل على إيصال رسالتك في أسرع وقت.

ـ لا أرى حلاً آخر بالفعل. لكنّي ألحّ بشدّة، عليّ أن أحصل على إجابة فوريّة. هل فهمت؟

انحنى الرجل ذو وجه العُقاب بنعومة زائدة قائلا:

ـ تستطيعين التعويل عليّ دونا فيفيرو.

*

رجع ابن سراج إلى الحجرة التي كان يتقاسمها مع فارغاس وعزرا وأشار إليهما بمرآة بيضاويّة صغيرة يتوسّطها شقّ متعرّج يكاد يقسمها إلى جزئين.

هتف وهو يضعها في يد الحبر:

ـ أعتقد أنّها تفي بالغرض.

ـ ولكنّها مرآة مكسورة. ألم تجد غير هذه؟

ـ اِحمد الربّ يا عزرا. اِسأل صديقنا الراهب وسيقول لك إنّ العثور على صليب في كنيس أسهل من العثور على مرآة في دير راهبات.

أومأ فارغاس موافقاً لكنّه بدا شارد الذهن.

سأل عزرا:

ـ وأين وجدت هذه التحفة؟

ـ سلّمتها لي إحدى الراهبات وكأنّها تسلّمني مفاتيح مملكة الربّ.

أضاف وقد غلب على ملامحه الأسف:

ـ يا لخسارة كلّ هؤلاء النسوة المحجوبات.

ندّت عن الحبر ضحكة مكتومة.

ـ يا لها من ملاحظة غريبة حين تصدر عن عربيّ. وهل تظنّ النساء أحسن حالاً في حريمكم أو حين يُجْبَرْنَ على الخروج منقّبات؟

ـ على الأقلّ هنّ لسن محرّمات علينا أكنّ منقّبات أم لا.

أطلق ملاحظته وهو ينظر بطرف العين ناحية فارغاس منتظراً تعليقاً لكن لم يبد على الراهب أنه سمع شيئاً من كلامه.

احتار الشيخ أمام صمت صديقه لكنّه آثر الالتفات ناحية عزرا:

ـ لنعد إلى النصّ.

أشار إلى المرآة مستفسراً:

ـ لماذا طلبت أن نأتيك بمرآة؟

تناول عزرا إحدى الاوراق:

ـ انظر بنفسك. **إيرفيج**. **إيكاج**. **سانفان ريفير**. **يكستوس**. نحن أمام كلمات غير مفهومة لكنّنا لو قرأناها في المرآة، أي معكوسة، لاستطعنا فكّ شفرتها. انظر الآن.

ـ لكنّي لا أراها أصبحت مفهومة.

ـ في الظاهر يا ابن سراج. في الظاهر. لقد اعتدنا من ابن برول أنّ ما يبدو غامضاً في البداية لا يظلّ كذلك طويلاً. وهذه ليست أوّل مرّة يضعنا أمام عالم مقلوب أو معكوس. تذكّر تلك الفقرة من القصر الثاني الفرعي حين أعطانا سلسلة من الأرقام كان علينا أن نضاعفها ثمّ أن نقوم بالعمليّة المعاكسة للوصول إلى تأويلها التأويل الصحيح.

ـ وماذا عن القصر الحاليّ؟

ـ كما قلت لك منذ قليل. لنقم بتطبيق قاعدة العالم المعكوس. ثمّة إمكانيات عديدة لمثل هذه اللعبة لكنّ توليفة واحدة تفضي إلى أسماء معروفة. أمضيت شطراً من الليل في البحث عنها وها هي النتيجة: **إيرفيج** يصبح إيرجيف. **إيكاج** يصبح إجيكا، **سانفان ريفير** يصبح فانسان فيرير وأخيراً **يكستوس** يصبح سيكستو.

وضع الورقة على حافة الفراش وسأل:

ـ والآن؟ هل تذكّركم هذه الأسماء بأشخاص معيّنين؟ ليكن في علمكم أنّي اهتديت إلى معرفتهم كلّهم.

ظلّ فارغاس ملازماً الصمت والشرود فتولّى ابن سراج الردّ.

- يبدو الأمر من السهولة بحيث لا أستبعد أن يكون مفخّخاً. اسمان من هذه الأسماء الأربعة هما لملكين من ملوك القوط.

- رائع.

- ولكنّي لا أعرف شيئاً عن الاسمين الآخرين فهل لفراي فارغاس ما ينيرنا به في هذا الشأن؟

لم ينبس الراهب فتولّى عزرا الإجابة:

- إليك برأيي. حتّى الآن لم يحمل اسم سيكستو إلاّ أربعة باباوات. لكنّي لا أعرف حتّى الآن البابا الذي يقصده ابن برول. أمّا فانسان فيرير فهو مجرم سفّاح كان العدوّ اللدود لليهود وكان مثار رعبهم في كلّ إسبانيا بين ١٤٠٦ و١٤٠٩. ولعلّ في وسعي القول إنّ يديه ملوّثتان بدماء إخوتي بالقدر نفسه الذي لوّث يدي بابلو دو سانتا ماريّة، مع فارق وحيد، أن فيرير لم يكن يهوديّاً بل مسيحيّاً خالصاً وراهباً دومينيكانيّاً.

شبك العربيّ يديه فوق بطنه:

- ملكان من القوط وبابا وجلاّد ثمّ ماذا؟

تناول الورقة التي كتب عليها القصر وأخذ يمعن فيها النظر:

القصر الرابع الرئيسيّ

مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاسم في ٣.

أنذر شعب إسرائيل.

إذا لم تسمع لصوت الربّ إلهك لتحرصَ أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم، ملعوناً تكون في المدينة وملعوناً تكون

في الحقل. يذهب بك الربُّ وبملِكِكَ الذي تقيمُهُ عليكَ إلى أُمَةٍ لم تعرفها أنت ولا آباؤك وتعْبُدُ هناك آلهةً أخرى من خشبٍ وحجرٍ.

يجلب الربّ عليك أمَةً من بعيدٍ من أقصاءِ الأرض كما يطيرُ النسرُ، أمَةً لا تفهمُ لسانها، أمَةً جافية الوجْهِ لا تهابُ الشيخ ولا تحنَ إلى الولد. تحاصرك في جميع أبوابك حتى تهبط أسوارك الشامخة الحصينة التي أنت تثقُ بها في كلّ أرضك.

ويُبدّدك الربّ في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها، وفي تلك الأمم لا تطمئنُّ ولا يكون قرارٌ لقدَمِك بل يُعطيك الربُّ هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذُبُولَ النفس.

عاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ بعد موت عثنيئيل بن قنازَ، فجعلهم الربّ عبيداً لإيرجيف ملك موآب ثمانيَ عشرةَ سنةً.

وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ بعد موت إِهُودَ، فباعهم الربّ بيدِ إجيكا ملك كنعان الذي ملَكَ في حاصُورَ.

وعمل بنُو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ فدفعهم الربّ ليد مِدْيانَ ١٣٩١ سنة فاعتزّت يدُ مديانَ على إسرائيل.

وكان بعد موت جِدعُونَ أنّ بني إسرائيل رجعوا وزنَوْا وراء البَعْلِيمِ وجعلوا لهم بعلَ بَرِيتَ إلهاً، فأوقعهم الربّ في يد فانسان فيرير.

وعاد بنو إسرائيل يعملونَ الشرّ في عيني الربّ وعبدوا البعليمَ والعشتاروثَ وآلهة آرامَ وآلهة صِيدُونَ وآلهة موآبَ وآلهة بني عمّونَ وآلهة الفلسطينيّين وتركوا الربّ ولم يعبدوهُ، فحمِيَ غضبُ الربّ على إسرائيل وباعهم بيد يكستوس الملك الرابع لبني عمّونَ.

ثمّ عاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ فدفعهم الربّ ليد حفيد سليمان، سيد فنسلار.

وقال الربّ الإله ليس جيّداً أن يكون الرجل وحده، فأوقع على الرجل

سباتاً فنام، وأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الربّ الإلهُ الضلْعَ التي أخذها امرأةً وأحضرها إلى الرجل، منذئذ والاخ والاخت متّحدان تحت نظر الأقوياء والضعفاء، وحيث لا يدخل الملائكة هما مجتمعان، بينما غير بعيد من هناك جثّة طبعت ببصمتها الظلّين التوأمين.

عند غروب الظلّ المائل تجدون الـ ٣. أسفل حائط كُتب عليه: وإذ وعدنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذتم العجْلَ من بعدِهِ وأنتم ظالمون.

ـ أقلّ ما يمكن أن يُقال إنّ ابن برول وهو يذكّر بكلّ هذه اللعنات لم يكن رفيقاً بكم يا ربّي، بل لعلّه كان شديد القسوة.

لم يبد على الحبر أنّه تأثّر بملاحظة الشيخ فقد أجاب بهدوء كامل:

ـ كلّ ما تدلّ عليه هذه العبارات أنّ السرمديّ أعرب عن أريحيّة لا تضاهى إزاء شعبه غافراً له كل أخطائه وهذا يعني أنّه أحبّه أكثر من أيّ شعب آخر.

ـ لو كنت مكانك لما وثقت في ذلك فبعض الفقرات يحمل دلالة لا تخلو من إثارة وقد تدفع إلى السؤال إن كان الربّ قد غفر لكم أصلاً.

ـ ماذا تقصد؟

تناول الشيخ الورقة من يد عزرا.

ـ اقرأ هذا مثلاً: **يذهب بك الربُّ وبملِكِكَ الذي تقيمُهُ عليكَ إلى أُمّةٍ لم تعرفها أنت ولا آباؤكَ وتعْبُدُ هناك آلهةً أخرى من خشبٍ وحجرٍ.** ألا ترى صلة بين هذا الكلام وتيهِ اليهود من بابل ووصولهم إلى إسبانيا حيث تعرّضوا إلى ألوان الإهانات؟ وهذه الفقرة: **يجلب الربّ عليك أمّةً من بعيدٍ من أقصاءِ الأرض كما يطيرُ النسرُ، أمّةً لا تفهمُ لسانها، أمّةً جافية الوجْهِ لا تهابُ الشيخ ولا تحنّ إلى الولد.**

ردّ الحبر بسرعة:

ـ فهمت إلى ماذا تريد أن تلمح ولكن لماذا تبقى في حدود شبه الجزيرة؟ لقد طوردنا وقُمعنا في أغلب البلاد وفي الوسع أن نكرّر إلى ما لا نهاية عبارات مثل: **ويُبدّدك الربّ في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها، وفي تلك الأمم لا تطمئنُّ ولا يكون قرارٌ لقدَمِك.**

أضاف مبتسماً ابتسامة غامضة:

ـ قلت مرّة لفراي فارغاس إنّ اليهوديّ غير موجود. إنّه اختراع بشريّ واستعارة كبرى. قد يكون هو الضحيّة اليوم لكنّ غيره سيكون يهوديّ الغد.

أشار بأصبعه المشوّه ناحية الشيخ.

ـ أنت مثلاً أو بعض أبناء دمك.

ـ ألم نصل إلى ذلك الآن؟

ـ كلاّ يا عزيزي ليس بعد.

ـ إذن فليرحمنا الله.

قال عزرا:

ـ دعنا الآن من كلّ هذه التنبّؤات المفزعة ولنهتمّ بألغازنا. بعيداً عن رغبة ابن برول في المزج بين نبوءات قديمة وأحداث راهنة فإنّه قد خلط لعناته بإشارات غريبة في شكل أخطاء مقصودة أو نشازات من شانها أن تساعدنا على اكتشاف وجهتنا القادمة. ولو فحصنا النصّ لوجدنا أنفسنا امام أربعة من هذه النشازات أو الإشارات. لنبدأ بالنقطة الاولى. **وعمل بنُو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ فدفعهم الربّ ليد مِدْيانَ ١٣٩١ سنة فاعتزّت يدُ مديانَ على إسرائيل.**

ـ اعتماداً على ذاكرتك، وهل لنا غيرها في مثل هذه الأمور، ألا تكون هذه الآية مقتطفة من سفر القضاة؟

ـ وتلك إحدى النشازات أو المغالطات المقصودة. ابن برول يعرف جيّداً أنّ الآية الأصليّة تتحدّث عن سبع سنوات. هل سمعت؟ سبع سنوات. فلماذا حوّلها صديقنا إلى ١٣٩١ سنة؟ طبعاً في وسعنا أن نؤوّل هذا العدد على ألف طريقة دون جدوى. وأغلب الظنّ عندي أنّ هذه الأرقام الأربعة ترمز إلى سنة بعينها.

ـ وماذا حدث في تلك السنة؟

ـ كانت سنة ١٣٩١ اللحظة الفاصلة بين مرحلتين. كانت سنة الإعلان عن نهاية التعايش. في تلك الأيّام قامت انتفاضة لعلّها أكثر الانتفاضات التي شهدتها إسبانيا عنفاً ووحشيّة. وقد أتت تلك الانتفاضة على الحيّ اليهوديّ في إشبيلية قبل أن تزحف على الأندلس وأراغون. ويُقدّر البعض أن الضحايا كانوا بين خمسة آلاف وعشرة آلاف. وكانت تلك إشارة الانطلاق للقمع الذي تلاها. منذ تلك السنة أخذت انتفاضات مشابهة وإن كانت أقلّ عنفاً تقوم هنا وهناك لتبرير القرارات التمييزيّة التي سنّها مجلس التاج في بلد الوليد سنة ١٤١٢، والتي تمّ بمقتضاها إجبار اليهود على عدم مغادرة أحيائهم فاصلاً بينهم وبين المسيحيّين، محرّماً كلّ ممارسة لطقوسهم الدينيّة.

لم يعلّق الشيخ لكنّه طلب من عزرا المضيّ قدماً في تحليله.

ـ الإشارة الغريبة الثانية تتمثّل في إيراد اسم فانسان فيرير في سياق آية من سفر القضاة: **وكان بعد موت جِدعُونَ أنّ بني إسرائيل رجعوا وزنَوْا وراء البَعْلِيم وجعلوا لهم بعلَ بَرِيثَ إلهاً، فأوقعهم الربّ في يد فانسان فيرير**. لماذا ذكر فيرير؟ لماذا هذه المفارقة؟ أمّا الإشارة الثالثة فتظهر في العبارة التالية: **فحمِيَ غضبُ الربّ على إسرائيل وباعهم بيد يكستوس الملك الرابع لبني عمّونَ**. لماذا حرّف ابن برول الآية؟ ولماذا جعل البابا ملكاً لبني عمّون؟ وأخيراً نصل إلى آخر غرائب صديقنا في هذا النصّ: **ثمّ**

عاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ فدفعهم الربّ ليد حفيد سليمان، سيد فنسلار. من هو السيد فنسلار هذا؟ أتحدّى كلّ علماء اللاهوت أن يجدوا في التوراة أثراً لمثل هذا الاسم.

أضاف مشهداً الفرانسيسكانيّ على كلامه:

ـ أنت تعرف اطّلاعي على الكتابات المقدّسة.

أومأ الراهب شارد الذهن فسأله الربّي وقد قلق حقّاً:

ـ ماذا أصابك هذا الصباح؟ هل أنت مريض؟ أراك في حيويّة دودة القزّ.

ـ لعلّه التعب.

الحقّ أنّه لم يغمض له جفن طيلة الليل.

ـ والنتيجة أنّك لا تساعدنا اليوم. قلت للشيخ إنّنا قد نرى الأمور بشكل أوضح لو حذّدنا الكلمات الدخيلة على الآيات الأصليّة وبحثنا عن صلات بينها. إيرجيف وإجيكا ملكان قوطيّان طاردا اليهود بشراسة. للوهلة الأولى لا نتبيّن العلاقة بين سنة ١٣٩١ وهؤلاء الأشخاص الثلاثة فانسان فيرير وسيكستو والسيّد فانسلار، لكنّ فحصاً أعمق يمكّننا في المقابل من إيجاد علاقة بين ١٣٩١ والملكين القوطيّين.

ـ ما القاسم المشترك بينهما؟

ـ اضطهاد الشعب اليهوديّ. في عهد إيرجيف أي سنة ٦٨١ قام مجمع طليطلة المسكونيّ بدعوة اليهود إلى إنكار شريعة موسى في مهلة عام أمّا إجيكا فقد حكم على اليهود السفرديم بالعبوديّة وانتزع منهم أطفالهم واسترقّهم. ولا فائدة من العودة إلى سنة ١٣٩١ وفانسان فيرير فإنّ صلة الاثنين بالاضطهاد لا تحتاج إلى المزيد من التوضيح.

لاحظ فارغاس:

ـ في هذه الحالة تستطيع أن تضيف إليهم سيكستو.

ـ لماذا؟

ـ النصّ يقول إنّه رابع ملوك بني عمّون ولو طبّقنا ذلك على الباباوات لأصبح الأمر شديد الوضوح.

فجأة صرخ عزرا وقد بدا له الأمر ساطعاً كالشمس:

ـ ما أغباني. كيف لم أنتبه إلى ذلك. أنت على حقّ يا فارغاس.

هتف ابن سراج:

ـ ألا تشرحان لي الأمر؟

ـ إنّه سيكستو الرابع وهو صاحب المرسوم البابويّ الصادر سنة ١٤٧٨ الذي أصبح بمقتضاه لفرديناند وإيزابيل الحقّ في تعيين المفتّشين العامّين. وهكذا تكون العلاقة بين التاريخ والأشخاص الأربعة قد أصبحت منطقيّة وقائمة. بقي الشخص الخامس. تُرى من يكون السيد فانسلار؟

*

برغش. اليوم نفسه.

قرأ الأب ألفاريز للمرّة الثانية رسالة ميندوزا. أمر لا يُصدقّ. كتاب؟ كتاب يتضمّن رسالة مصدرها الربّ نفسه؟ اعتاد على تجاوز الهرطوقيّين كلّ حدّ في اختراع أنواع الحماقات والأباطيل لكنّه يعترف بأنّهم تفوّقوا على أنفسهم هذه المرّة. ولكن ماذا عن هذا اللغز؟ لو تعلّق الأمر بمجرّد أكذوبة هل كان اليهوديّ يبذل كلّ ذاك الجهد في إخفاء كتابه؟ لا يمرّ يوم دون أن يأتيه مينداز بمعلومة عن تطابُقِ ما جاء في أوراق عزرا مع هذا المبنى أو مع تلك المدينة. لم يعد المسكين ينعم بالنوم منذ وقعت هذه الوثيقة بين يديه وأصبح حلّ اللغز شغله الشاغل وكأنّه بصدد تأويل أعظم نصّ لاهوتيّ في العالم.

وماذا لو كان الكتاب موجوداً حقّا؟ هل يُعقل هذا؟ هل يجوز أن ينزل الربّ من عليائه ويخاطب حقراء مثل ذاك اليهوديّ وذاك المسلم وذاك الراهب المرتدّ؟ ولكن ما العمل مع حماسة ميننداز ويقينه بأنّ هذه القصور من تدبير رجل ذي عقل خارق؟ إنّه لا ينفكّ يصف هذا الخائن ابن برول بالعبقريّة والنبوغ وهو ما يزيد ألفاريز حيرة. صحيح أنّ عواطف ميننداز لم تمت تماماً تجاه بني دينه القديم لكن معرفته العميقة بالقبالة لا يرقى إليها الشكّ.

وقف ألفاريز فجأة فتناول حزمة مفاتيح من الدرج واتّجه ناحية خزانة ضخمة من خشب السنديان. كانت مختومة بثلاثة أقفال جديدة من آخر طراز تمّ تركيبها في صباح اليوم نفسه. أمر توماس توركيمادا قبل ثلاثة أيّام بأن توضع خزانة مماثلة في كل المدن التي تضمّ محكمة تفتيش لإخفاء كلّ السجلاّت والدفاتر، وأن تُختم كلّ خزانة بثلاثة أقفال يُعهد بمفاتيحها الثلاثة إلى ثلاثة أشخاص مختلفين: كاتبيْ عدْل والمدّعي العامّ، كي لا يطّلع أحدهم على السجلاّت الحوْليّة إلاّ بحضور الآخرين.

كان ألفاريز محظوظاً فقد عهد إليه بالمفاتيح الثلاثة قبل ربع ساعة لتسليمها إلى الأشخاص المعنيّين وهذا يعني أنّ لديه فسحة من الوقت قبل أن يُمنع عليه الاطّلاع على السجلاّت الثمينة. فتح الخزانة فوجد نفسه أمام مئات الملفّات المصفوفة وكلّها يحمل تاريخ السنة نفسها أي ١٤٨٧. كانت مجلّدة بعناية ومغلقة بسيور ومرتّبة حسب التواريخ والأسماء. لم يجد صعوبة في العثور على ملفّات الشهر الرابع وعليها بحروف بارزة شعار الديوان: انهض أيّها الربّ ودافع عن قضيّتك. تصفّح عددا من الأوراق بسرعة ولهفة إلى أن عثر على مرامه: تقرير عن إيقاف ابن برول ومحاضر المحاكمة ونصّ الحكم. عاد إلى مكتبه وشرع في القراءة:

«وضع المُقرّب أندري مارتان على ذمّة المحكمة شخص ابن برول مع ملابسه وأربعمائة مرابطي لتأمين قوته وتمّ تسجيل ذلك في. . .».

انتقل ألفاريز إلى الفقرة الموالية:

«أقسم المتّهم على أن يراعي السريّة التامّة في كلّ ما يخصّ محاكمته وأن لا يبوح بما رآه أو سمعه منذ دخل السجن وأن لا يكشف عن ذلك لأيٍّ كان وبأيّ عذرٍ وإلاّ تعرّض إلى اللعن الأبديّ وإلى مائتي جلدة...».

لم ير فائدة في الاستزادة وقلب الصفحة:

«تواصلت جلسة التعذيب بعد ربط الجسم والذراع حتّى أغمي عليه فأعلن الخبير ضرورة التوقّف وخرج الحارس ليخبر الطبيب باربيتو بأنّ السجين في أسوأ حال...».

بحركة تشي بالضيق انتقل الكاهن إلى الصفحة الأخيرة من الدفتر وعثر أخيراً على ما كان يبحث عنه:

«ابن برول، ٧٥ سنة، من مواليد برغش، تاجر لوحات من سكّان طليلطلة. تمّ تنصيره سنة ١٤٧٨. ابن لوالدين يهوديّين. اجتمعت المحكمة للنظر في ما نُسب إليه من طرف أحد الشهود من المؤمنين الثقات من أنّه باق على تعاليم موسى. وحيث لم ينكر المتّهم أنّه مواظب على إحياء شعيرة السبت عملاً بشريعة موسى وأنّه يرتدي قميصاً نظيفاً ويفرش ملاءات نظيفة ولا يوقد ناراً ولا يشعل نوراً ويلازم بيته منذ صباح الجمعة فقد وجبت المحاكمة ولم يتوجّب عرضه على السؤال. وبعد الاستماع إلى رأي المجلس...».

أغلق الكاهن الملفّ وظلّ شارد الذهن. لا شيء استثنائيّ في هذا التقرير ولكن... ماذا لو أنّ الكتاب موجود فعلاً؟ ماذا لو أنّ الربّ... ماذا لو اتّضح أنّ شريعة موسى...؟ ماذا يكون مصير ديوان التفتيش... وكلّ هؤلاء الموتى...؟ أحسّ بالرعب فوضع الملفّ في الخزانة وأدار المفاتيح الثلاثة في الأقفال الثلاثة واتّجه ناحية الرواق. أصبحت الأسئلة أثقل من كتفيه وعليه أن يستشير المفتّش العامّ دون تأخير.

*

برغش.

كرّرت مانويلا:

ـ فانسلار؟ إنّه بكلّ بساطة لقب أسلاف توماس دو توركيمادا قبل قرن من الزمن وقبل أن يتنصّروا.

نظر إليها الرجال الثلاثة وقد فغرت أفواههم. التحقت بهم قبل دقائق وما أن حدّثوها بما يشغل بالهم حتّى بادرتهم بالإجابة. أخرجت المفاجأة فارغاس من خدره.

ـ من أين لك هذه المعلومة؟

ـ يكاد أغلب الناس في إسبانيا يعرفون أن أسرة توركيمادا من المتنصّرين.

قال عزرا:

ـ ربّما كان ذلك صحيحاً لكنّي لا أظنّ كثيرين يعلمون أنّ أفراد هذه الأسرة كانوا يحملون لقب فانسلار.

ندّت عنها حركة حرج وقالت:

ـ ماذا أقول لكم؟ كلّ ما أذكره أنّ تسمية توركيمادا على رأس ديوان التفتيش كانت موضوع نقاش داخل أسرتي. وكان أحد أعمامي يفاخر بأنّه هو أيضاً من مواليد طرويل مثل الجدّ الثالث لتوركيمادا، سليمان فانسلار.

قال ابن سراج ساخراً:

ـ هذه نقطة في غير صالحك يا ربّي، قد يكون مفهوماً أن نجهل أنا وفارغاس هذا الأمر أمّا أن تجهله أنت؟ اليهوديّ؟

ردّ الربّي بنبرة محايدة:

ـ لم أكن أعلم أنّ الاطّلاع على شجرة أنساب الشيطان أمر مهمّ. هو موجود وكفى بذلك بؤساً.

استعاد الورقة التي أثبت عليها ملاحظاته.

- فانسان فيرير وفانسلار مولودان كلاهما في طرويل.

تردّد فارغاس قليلاً قبل أن يقول:

- أظنّني فهمت إلى أين تتّجه؟

قال الشيخ معترضاً:

- هل نذهب إلى طرويل بسبب إشارتين لا قيمة لهما؟ أعتقد بصراحة أنكما تتعجّلان الأمور.

قال عزرا مصحّحاً:

- لا أجزم بأنّ وجهتنا القادمة هي طرويل ولكنّي أراها فرضيّة تستحقّ منّا وقفة. أنتم تعرفون أنّ ابن برول اعتاد الإلحاح على الإشارات التي يراها هامّة واعتاد تقديمها على مرّتين. وماذا لدينا هنا؟ نحن أمام شخصيّتين مولودتين في نفس المكان. وكيف قام ابن برول بإبراز هذا التفصيل؟ باختيار اسم سليمان فانسلار. لو لم يكن حريصاً على أن يلفت انتباهنا إلى طرويل لاكتفى بإيراد اسم توركيمادا دون المرور بجدّه الثالث.

تدخّلت مانويلا.

- اسمحوا لي بالإشارة إلى أنّ فانسلار وفيرير ليسا الوحيدين اللذين يجمع بينهما جذع مشترك. كلّ العناصر التي ذكرتموها تلتقي حول جذع مشترك. كلّها بلا استثناء ترمز إلى اضطهاد اليهود.

- باستثناء سليمان فانسلار. هو الوحيد الذي لا يدخل في هذا السياق.

اعترض ابن سراج:

- يؤسفني أن أخالفك الرأي. هو أيضاً داخل في السياق نفسه بما أنّه على صلة بتوركيمادا.

ـ أنتم عنيدون فعلاً. لو كان هذا صحيحاً فلماذا لم يذكر ابن برول مباشرة اسم المفتّش العامّ؟ أنا مصرّ على رأيي. هدف ابن برول أن يلفت انتباهنا إلى مدينة طرويل.

خيّم الصمت على الجميع للحظات وفجأة هتف ابن سراج:

ـ أظنّك على حقّ يا عزرا.

تناول القصر الرابع وأعاد القراءة:

ـ عند غروب الظلّ المائل تجدون الـ ٣. أسفل حائط كُتب عليه: *وإذ وعدنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذتم العجْلَ من بعدِهِ وأنتم ظالمون.*

لم يبد على عزرا أنّه فهم مرمى الشيخ:

ـ وماذا في ذلك؟ شرحت لنا البارحة أنّها آية من القرآن.

ـ أجل لكنّي لم أقل لكم من أيّ سورة هي.

ارتسمت على شفتيه بسمة ماكرة سرعان ما انقلبت إلى ضحكة.

ـ إنّها سورة البقرة.

فوجئ الجميع وهم يرونه ينفجر ضحكاً قائلاً بين شهقتين:

ـ حقّاً إنّ صديقنا لرجل عجيب وأغلب الظنّ أنّه كان يخفي في داخله طفلاً مولعاً بالمزاح.

انطلق في الضحك من جديد وكأنّه ألقى دعابة جديدة.

ـ ألا تشرح لنا الأمر كي نشاركك الضحك؟

ردّد شاهقاً:

ـ البقرة... البقرة...

ثمّ تمالك نفسه وسأل:

ـ البقرة أنثى ماذا؟

بدا لهما سؤالا صبيانيّاً فلم يشأ أيّ منهما أن يتنازل وأن يمدّه بإجابة، لكنّ مانويلا تولّت ذلك هامسة:

ـ الثور. . . البقرة أنثى الثور.

أومأ ابن سراج بالإيجاب قائلاً وهو يجاهد كي لا ينفجر ضحكاً من جديد:

ـ أليست تلك هي الإشارة الحاسمة؟ ألا ترون وجه الشبه بين كلمتي طرويل والطورو أو الثور؟

الفصل ٢٨

إنّ فرحة إشباع غريزة وحشيّة، أكثر كثافةً بكثير
من فرحة إشباع غريزة مروّضة. . .

(سيغموند فرويد)

مسحت مانويلا دموعها بظاهر يدها وتقوقعت في فراشها كالجنين وقد خارت قواها وبلغ بها التوتّر والسخط أقصى حدّ. أحسّت بالقرف وهي تسترجع حديثها لرفاقها عن فانسلار وكيف علمت بنسبته إلى أجداد توركيمادا عن طريق أحد أفراد أسرتها. بأيّ صفاقة ساقت أكاذيبها وبأيّ رباطة جأش أحكمت خداع الجماعة؟ طبعاً كان الربّي على حقّ حين لاحظ أنّ قلّة يعرفون شجرة نسب المفتّش العامّ. وصحيح أنّها تصرّفت بعفويّة حرصاً على مساعدتهم. ولكنّها حصلت على تلك المعلومات من الملكة نفسها. هي التي أخبرتها عن حقيقة أصول رئيس ديوان التفتيش. فهل كان في وسعها أن تشرح لهم ذلك دون أن تفشي سرّها؟

شدّت بأصابعها على طرف اللحاف وقد ضاقت بها الدنيا ولم تعد قادرة على تحمّل المزيد. أصبحت المغامرة التي زجّت بنفسها فيها أشبه بالكابوس وليتها تستطيع أن تفتح قلبها لفارغاس وأن تفضي إليه بما يثقل كاهلها. لم يمرّ يوم منذ بداية الرحلة دون أن تضطرّ إلى الكذب والمزيد من الكذب فإلى متى تكذب؟ تمنّت أن يتغيّر الأمر بعد أن يطّلع توركيمادا وإيزابيل على رسالتها، متلمّسة في ذلك بعض العزاء. سمعت طرقاً على

الباب فانتفضت ثمّ استقامت في جلستها على الفراش وقالت بصوت متماسك:

ـ تفضّل.

أُشرع الباب وظهر فارغاس واقفاً على العتبة.

ـ الخيول مسرجة ونحن على أهبة الرحيل.

نهضت على الفور وشرعت في جمع أغراضها.

ـ هل تكون رحلتنا طويلة؟

ـ أخشى أنها كذلك فبيننا وبين طرويل أكثر من مائة فرسخ.

أضاف بشبه الهمس:

ـ لاشكّ أنك مرهقة.

ـ كلاّ... بل... هو ذاك.

لم تجرؤ على النظر في عينيه وواصلت التشاغل بطيّ ملابسها. ظلّ يراقبها للحظات قبل أن يقول بنفس النبرة المتردّدة:

ـ أنا... ذاهب لإخبار عزرا وابن سراج.

سمعت وقع خطوات فتوتّرت في انتظار أن تسمع صدى إغلاق الباب لكن ذلك لم يحدث. التفتت مستغربة لتجد فارغاس على مسافة أنملة منها.

ـ لم أعد أفهم شيئاً... لم أعد أعرف ماذا عليّ ان أصنع... كلّ شيء غامض أمامي ومبلبل.

ـ وهل نملك خياراً في ذلك؟ ليس الناس وحدهم من يحول بيننا. ما يحول بيننا أكبر منّا. أكبر منك أنت.

ألحّت على كلمة «**أنت**» في ما بدا له مشوباً بنبرة ملامة.

ـ أنا راهب.

كانت ارتعاشة صوته أفصح من أيّ كلمات.

ـ ما جدوى أن نعّذب نفسينا؟ لماذا نجترّ ما نعرفه تمام المعرفة؟ أنا ملْكك وأنت ملك الكنيسة والربّ.

اخترقتها نظرته وكأنّه يتثبّت من نقطة غير مرئيّة موجودة بعيداً خلفَها.

ـ أنا ملْك الربّ أجل يا مانويلا، بكلّ ما في كياني وروحي.

ختم عبارته بما يشبه اللهاث.

ـ أمّا الكنيسة... فهل كنتُ ملْكَها يوماً؟

هزّتها حيرته فأحسّت بالدوار. كانت أقرّت العزم على الظهور بمظهر القوّة فالرهان شديد الخطورة وعواقب الضعف وخيمة دون ريب. استعادت رباطة جأشها وأحكمت ربط جرابها بأحد السيور الجلديّة ثمّ قالت بلهجة واثقة:

ـ ها أنا مستعدّة.

*

برغش

فرغ الأب ألفاريز من إحاطة تالافيرا علماً بآخر تطوّرات العمليّة في حضور المفتّش العامّ وأمام نظراته المتفحّصة. لم تندّ عن توركيمادا أيّ حركة طيلة حديث مأموره لغريمه معرّف الملكة. ظلّ متجمّداً كأنّه يمارس طقساً مهيباً بينما هو في الداخل يهتزّ فرحاً. ذلك أنّه لم يكن يعرف أنّ ألفاريز مدّ تالافيرا منذ البارحة بكلّ الأخبار. ما أن خيّم الصمت حتّى تناول توركيمادا الكلمة:

ـ والآن يا فراي تالافيرا؟ ألم أكن على حقّ؟ ألم تكن مخاوفي في محلّها؟

ردّ معرّف الملكة بهدوء تامّ:

ـ لقد استمعت إلى ما جاء بكلّ اهتمام وقد يدهشك أن أقول لك إنّي لم أجد فيه إلاّ كلّ ما يدعّم انطباعي الأوّل. لا أرى في الأمر أيّ دليل على مؤامرة.

ـ ولكن. . . الكتاب. . .

ـ إنّ وقت ديوان التفتيش أثمن من أن يُهدر بسبب خرافة.

شحب وجه المفتّش العامّ لكنّه بذل جهداً مضنياً كي يحافظ على هدوئه.

ـ اسمح لي فراي تالافيرا بأن أرى استنتاجك. . .

ـ خاطئاً؟

ـ لنقل. . . إنّه متسرّع. ثمّة سؤال لم تنتبه إلى ضرورة التعمّق فيه.

ـ ربّما أنت على حقّ فقد زهدتُ في التعمّق منذ استقرّ رأيي على أنّ الأمر مجرّد خرافة. إنّ حكاية كتاب السفير هذه لعبة غاية في السخف فاسمح لي بأن أنزّه الربّ تعالت قدرته عن الاهتمام بمثل هذه الألعاب.

قطّب توركيمادا جبينه.

ـ لنحذر الربّ يا فراي تالافيرا فهو قادر على مفاجأتنا من حيث لا نتوقّع. ماذا تسمّي الطوفان وبابل وسدوم وعمورة وامرأة لوط التي مسخت تمثالاً من الملح والنبع في الصحراء والبحر الأحمر الذي انشقّ أمام موسى وكلّ ما حلّ بمصر من لعنات؟ إنّ القائمة أطول من أن نحيط بكلّ ما أتاه الربّ بعيداً عن منطق البشر، فللربّ منطقه الذي لا يعرفه المنطقَ يا فراي تالافيرا. إنّه هو. لا تنس ذلك.

ردّ تالافيرا وهو يزيح عن مسوحه شعرةً خياليّة:

ـ حسناً. اعطني سببا محدّداً يبرّر اهتمام الديوان بهذا الكتاب المزعوم.

قال توركيمادا بنبرة مسرحيّة:

ـ إنّه مصير إسبانيا.

غادر كرسيّه وأضاف وقد غلبته الحماسة:

ـ تصوّر. . .تصوّر للحظة واحدة أنّ هذا الكتاب موجود وتصوّر أنّه يتضمّن حقّاً رسالة من الربّ إلى البشريّة. عندئذ سنكون أمام أصعب الخيارات على الإطلاق: إمّا أن تدعم تلك الرسالة تفوّق المسيحيّة وإمّا أن تغلّب عليها الإسلام أو اليهوديّة. ولو صحّت الفرضيّة الثانية لا قدّر الربّ لكان ذلك إيذاناً بهلاكنا وهلاك إسبانيا. إنّ ثبوت الفرضيّة الثانية يعني أنّ كلّ ما نؤمن به ونقاتل من أجله منذ قرون أمر لا حقّ له في الوجود وعليه أن يُباد وأن يُمحق إضافة إلى ما يتبع ذلك من لعنة أبديّة، بما أنّ الهرطوقيّين سيكونون نحن.

ألقى نظرة ذهول على تالافيرا.

ـ أحدّثك عن نهاية عالم. أحدّثك عن العبث المنتصر وعن الخطأ الكونيّ والحروب الصليبيّة والأضرحة المقدّسة والكاتدرائيّات وروما والبراءات البابويّة والمراسيم وميلاد يسوع المسيح وموته وانبعاثه وعن القديسين والشهداء. . .سيكون مصيرها كلّها أن تُشطب.

كرّر ملحّاً على الكلمات:

ـ أحدّثك عن نهاية عالم.

لم تطرف لتالافيرا عين طيلة حديث المفتّش العام ولم يبد عليه في أيّ لحظة أنّه فقد هدوءه. لذلك جاء ردّه قاطعاً في برودة الثلج:

ـ يا قليل الإيمان. أتشكّ إلى هذا الحدّ؟ أتشكّ إلى حدّ أن تتصوّر حياة مسيحنا يسوع وموتَه مُجرّد فرضيّة يمكن أن يشطبها كتاب؟ لو صحّ ذلك وهو ما لا أتخيّله لحظةً واحدة، فإنّ علينا أن ندفع ثمن أخطائنا وأن نكفّر عن ذنوبنا إلى آخر الدهور.

ندّت عن المفتّش العامّ حركة تراجع كأنّه رأى أمراً مهولاً.

ـ هل تخاطر بدمار إسبانيا والمسيحيّة؟

ـ دون أن يرفّ لي جفن. إذا كانتا مخطئتين إلى هذه الدرجة فهما لا تستحقّان البقاء أكثر. ليس من حقّنا المحافظة بأيّ ثمن على هرطقة بدعوى أنّها تخدم غرورنا وكبرياءنا.

صرخ توركيمادا:

ـ أبداً... أبداً لن أسمح بمجيء هذا اليوم.

ـ وكيف لك أن تمنعه؟ هل تظنّ نفسك قادراً على الاعتراض على مشيئة الربّ؟

ـ كلاّ. أما الاعتراض على مشيئة البشر فنعم.

سأله تالافيرا بشبه استخفاف:

ـ كيف؟ هل تأمر بإيقافهم؟

ـ بالعكس. سيكون من الغباء أن أفعل فتلك أفضل طريقة كي نخسر كلّ فرصة لوضع اليد على الكتاب. لقد ذكرتُ لك أسوأ التوقّعات يا فراي تالافيرا لكنّي لست غافلاً عن أفضل التوقّعات. أقصد أن الكتاب قد يتضمّن تأكيداً لأفضليّة المسيحيّة وعندئذ نحصل على دليل لا نظير له. أيّ ثأر عندئذ وأيّ نصر مدوّ على الهمج.

دار حول مكتبه وتهالك عل كرسيّه.

ـ لذلك لن أعمل على إيقاف هؤلاء الأشخاص. ليوصلوني إلى الكتاب وبعدئذ لكلّ حادث حديث.

أبدى تالافيرا شيئاً من الاهتمام.

ـ لا أدري كيف ستفعل دون إثارة شكوكهم.

ـ أنت تنسى وجود دونا مانويلا معهم. ستزوّدنا بالأخبار في الإبّان وبفضلها سنكون أوّل من يعلم بمكان الكتاب.

مال نحو الأب ألفاريز الذي لاذ بصمت مطبق.

ـ هل كلّفت ميندوزا بإخبارها كما أمرتك؟

ـ تماماً فراي توماس. غداً أو بغد غد يكون قد أعطاها الرسالة.

سأل تالافيرا:

ـ هل الملكة على علم؟

ـ طبعاً.

ـ وهل منحتك موافقتها؟

ـ دون أيّ تردّد، بل إنّي لم أجد أيّ صعوبة في إقناعها بالمخاطر التي تتهدّدنا والتي ترفض أنت أخذها بعين الاعتبار.

نهض تالافيرا بسرعة.

ـ حسمتَ أمرك وشرعت في تطبيق ما رأيت ولن يكون لنصائحي بعد ذلك أيّ جدوى. لم يبق لي الآن سوى الانصراف.

وقف المفتّش العامّ بدوره.

ـ لا تخش شيئاً فأنا واثق من أنّنا سننتصر.

لم يجبه تالافيرا بشيء. اتّجه صوب الباب ببطء وحين وضع يده على المقبض التفت وسأل بنبرة رصينة:

ـ هل تعرف ذاك الشاعر الفارسيّ المسمّى عمر الخيّام؟

أومأ توركيمادا بالنفي.

ـ لديه رباعيّة أحبّها كثيراً، ذكّرتني بها حكاية كتابك هذا، يقول فيها:

أردتُ الذهاب إلى ما وراء العرش وإلى ما فوق السماوات

بحثاً عن اللوح والقلم وعن الجنّة والجحيم

ثمّ سألت ربّي فأجابني: انظر فيك تجد كلّ شيء
الجنة والقلم. . .واللوح. . . والجحيم.

*

طرويل.

تقول الأسطورة إنّ جيش ألفونسو الثاني أو الأدفنش كان يدافع عن مرج طوريّة في وجه كتيبة من الفرسان المور. وقبل أن يشنّوا الغارة عمد العرب إلى إطلاق ثيران علّقوا في قرونها كتّاناً يشتعل. فتخلّف أحد هذه الثيران لسبب مجهول وتسمّر أعلى إحدى الهضاب المشرفة على النهر وقرناه يشتعلان. رأى الجيش المسيحيّ في ذلك إشارة من السماء إذ صادف قبل أيّام أن سمع الأدفنش في المنام هاتفاً يهتف به أن يبني مدينة حيث يظهر له ثور يلمع مثل النجوم. هكذا نشأت طرويل ببيوتها الصغيرة وجدرانها المسنّنة المشرفة على ضفاف نهر طوريّة بين هضاب مصدّعة ووهاد مدوّخة ذات طين أحمر. ما أن بلغوا أحد الأبراج العديدة المحيطة بالمدينة حتّى أبدى ابن سراج كلّ إعجاب ببراعة البناة العرب وتقدّم خطوات مشيراً بأصبعه إلى هيكل حجريّ حفر عليه شعار المدينة: ثور. فهتف منتصراً:

ـ ثور النار. ألم أكن على حقّ؟

اكتفى عزرا بالموافقة بغمغمة غير مفهومة قائلاً:

ـ أنا جوعان وعطشان وخائر القوى.

قال الشيخ:

ـ وأنا أيضاً. لينتظر قصر صديقنا ابن برول إلى الغد ولنبحث لنا عن مأوى. هل تصحبني يا فراي فارغاس؟

ـ الرأي عندي أن نعثر على المثلّث الخامس قبل أن نملأ بطوننا.

احتجّ عزرا:

ـ لا سبيل إلى ذلك. أوّلا أنا مرهق ولست الوحيد. وثانياً ليغفر لي آدوناي ولكنّي مللت الألغاز من حيث هبّت ودبّت ولم أعد قادراً على التفكير ولو سألتموني ما هو الحيوان الذي يمشي على أربعٍ وله عرف ويصهل لقلت لكم إنّه السلحفاة.

قال فارغاس مسلّماً:

ـ كما تريدون.

أضاف وكأنّه غير آبه للأمر:

ـ على الرغم من أنّه يكفي أن تنحني لتعثر عليه.

ـ أعثر على ماذا؟ هل تقصد المثلّث؟

ـ تماماً. إنّه هنا في متناول اليد.

حملق فيه ابن سراج غير مصدّق.

ـ أنت تتحدّث عن المثلّث الخامس؟

ـ وهل نطلب غيره؟

أثبت عزرا يديه في خاصرته وسأل مستسلماً:

ـ حسناً أين هو؟

أشار فارغاس إلى أعلى البرج وقال:

ـ **عند غروب الظلّ المائل تجدون الـ ٣**. مشى القهقرى حتّى صار على نحو عشر قامات من المبنى ونادى رفاقه:

ـ تعالوا. قولوا لي ماذا ترون؟

التحق به عزرا على مضض.

ـ والآن؟

ـ أنا في انتظار ملاحظاتكم.

قشع الثلاثة رؤوسهم في لحظة واحدة وكأنّهم تدرّبوا على تلك الحركة مسبقاً فاتّقوا الشمس بأكفّهم وأخذوا يتفحّصون البرج بتمعّن. ولا شكّ أنّ مظهرهم لم يَخْلُ من غرابة باعتبار النظرات المرحة التي كان يلقيها المارّة في اتّجاههم. هتف عزرا:

ـ فارغاس. إذا كنت تريد أن تجعل منّا مسخرة فها أنا أحذّرك. أنا لا أرى شيئاً يُذكر. نحن أمام برج شبيه بآلاف غيره في إسبانيا. لا أنكر أنّه لا يخلو من جمال ولكنّي لا أرى شيئاً غير ذلك.

همّ ابن سراج بالتعليق لكنّ فارغاس أومأ له بالتريّث.

ـ انظروا إلى اليسار. هناك.

تبعت النظرات إشارة الفرانسيسكانيّ لتنصبّ على برج آخر شبيه بالذي كانوا عنده.

ـ والآن؟

ـ صرخ عزرا:

ـ إنّه مائل.

هتف ابن سراج ومانويلا في وقت واحد:

ـ هذا صحيح إنّه مائل في اتّجاه الغرب.

ارتسمت على شفتي فارغاس ابتسامة هادئة:

ـ لو لم يكن مائلاً لكان شبيهاً تماماً بالبرج الذي نقف عنده أليس كذلك؟

أضاف دون توقّف:

ـ عند غروب الظلّ المائل تجدون الـ ٣.

وأردف بسرعة:

ـ بينما غير بعيد من هناك جثة طبعت ببصمتها الظلّين التوأمين. ها نحن نعثر على الظلّ المائل وعلى الظلّين التوأمين.

لم يجرؤ الشيخ ولا عزرا على مجادلة الفرانسيسكانيّ تكذيباً أو تصديقاً إلاّ أنّ مانويلا لم تكتَف بذلك.

ـ ربّما كنت على حقّ ولكن ما العمل مع ما يسبق هذه العبارة وما يتلوها؟

مدّت يدها.

ـ هل تسمح لي بأوراقك؟

ناولها فارغاس الأوراق.

ـ انظر. ماذا نفعل بالاخ والأخت؟ وأين الجثّة؟

ـ الإجابة واضحة: أنا لا أومن بالصدف.

أشار إلى البرجين:

ـ لا أتصوّر أنّ كلمات مثل الظلّ المائل والظلّين التوأمين يمكن أن تعني غير ما هو تحت نظرنا الآن.

لم يبد على عزرا الاقتناع بكلام صديقه.

ـ ولكنّ السينورة سألت عن الأخ والأخت وهما كلمتان ترمزان أحياناً إلى الرجل والمرأة أو إلى الذكر والأنثى. وأنا لا أرى في أيّ سياق يندرج كلّ ذلك. الخوف كلّ الخوف يا فارغاس أن تكون قد رأيتَ في حدوسك وقائع.

عقّب ابن سراج:

ـ ليت الأمر يقف عند هذا الحدّ. في النصّ أيضاً ذكرٌ لجثّة طبعت ببصمتها الظلّين التوأمين ولكنّي لا أرى قبراً ولا ضريحاً. وأنت؟

لم يجبه فارغاس. كان قد اقترب من أحد السقاة العابرين.

ـ عفواً سينور. هل تعرف حكاية هذا البرج؟

أخذ الرجل يضحك.

ـ واضح أيّها الأب أنّك لست من هنا. طبعاً أعرف حكاية هذا البرج لكنّها على صلة بحكاية البرج الآخر الملاصق للكاتدرائيّة.

ـ هل تسمح بتلخيصها لنا في كلمات؟

ـ هذا البرج اسمه برج سان سالفادور أمّا الآخر المائل فاسمه برج سان مارتان. ويحكى قديماً حين كان المور يحكمون المدينة أنّ مهندسين عربيّين أغرما بالمرأة نفسها، يُقال إنّها أميرة اسمها زريدة، ولم يجد الأمير طريقة كي يعدل بينهما غير أن يبني كلّ منهما برجاً وأن تكون الفتاة لصاحب البرج الأجمل.

فترت ابتسامة الساقي قليلا وهو يختم حكايته.

ـ لا شكّ أنّكم اهتديتم إلى الفائز فقد اتّضح أنّ برج سان مارتان مائل لكنّ صاحبه لم ينتبه إلى ذلك إلاّ بعد فوات الأوان.

سأل فارغاس متعطّشاً إلى المزيد:

ـ وماذا بعد؟

ـ لا شيء... باستثناء أنّ الفائز تزوّج زريدة وأنّ المهزوم...

تظاهر بالأسى مواصلاً.

ـ لم يتحمّل خسارة حبّه ففضّل الموت وألقى بنفسه من أعلى البرج الذي بناه، برج سان مارتان.

التفت الفرانسيسكانيّ إلى رفاقه.

ـ والآن؟ هل تؤمنون بالصدف؟

همس وكأنّه يشي بسرّ:

ـ بينما غير بعيد من هناك جثّة طبعت بصمتها الظلّين التوأمين.

*

تفرّقوا عند بداية مسلك شبيه بمسالك دوريّات الحراسة يلتفّ بالبرج المائل في شكل دائرة. اتّجه عزرا وفارغاس غرباً واختار ابن سراج ومانويلا الاتّجاه المعاكس. لم تمض لحظات حتّى أسرّ الشيخ لرفيقته:

ـ يا له من شخص لا يخلو من غرابة صديقنا فارغاس أليس كذلك يا سينورة؟ إنّه يفاجئنا دائماً من حيث لا نتوقّع. أوّل ما رأيته ذهب بي الظنّ إلى أنّه أصغر سنّاً من أن يرافقنا لكنّه سرعان ما أثبت لي خطأ ظنّي. بل أكثر من ذلك. لقد أدهشني بسعة معرفته. ثمّ ظننت أنّه غير قادر على الاستقلال برأيه تجاه زملائه وتجاه الكنيسة بشكل عامّ.

ـ لعلّك خلطت بين التعصّب والإحساس بالواجب.

ـ كلاّ. كنتُ مخطئاً في هذا أيضاً. إنّ الطريقة التي ورّط بها نفسه من أجل الدفاع عن البحّار الجنوي أثبتت لي أنّ الراهب فيه يخفي عقلاً حرّاً. وأخيراً صوّرت لي نفسي أنّ التحاقه بدعوة الربّ قد صرفته عن أمور الواقع.

زوّت مانويلا ما بين حاجبيها.

ـ ماذا تقصد بأمور الواقع؟

ـ الحياة والألم والموت والحبّ.

أحسّت الفتاة بقشعريرة تسري في جسدها. هل كان الشيخ يلاعبها؟ إذا صحّ ذلك فهي عازمة على عدم الوقوع في أيّ فخّ لذلك عقّبت بأكثر ما استطاعت من حياد:

ـ لا أعرف أيّ صورة تكوّنت لك عن الكهنوت لكنّ المسيح لم يكن بعيداً عن هذه الأمور الواقعيّة، فما بالك براهب.

ـ تحدّثت أيضاً عن الحبّ ولا أظنّك تخالفينني الرأي بأنّ يسوع المسيح لم يمارس هذا الأمر.

ـ أنت بعيد عن الحقيقة. صحيح أنّه لم يحبّ بالمعنى الجسديّ للكلمة لكنّ آلامه ومحنته وتضحيته لم تكن سوى حبّ.

بدت على الربيّ ملامح العتاب:

ـ هيّا يا سينورة تعلمين جيّداً أنّ الرهبان ليسوا المسيح. إنّهم بشر قبل كلّ شيء.

بدأ يضايقها حقّاً فتوقّفت عن المشي.

ـ لماذا لا تصارحني بما ترمي إليه عوضاً عن اللفّ والدوران؟

تفحّصها بجديّة مناقضة لبريق المكر الذي أشعّ من عينيه.

ـ لا أرمي إلى شيء معيّن يا سينورة.

ـ دعك من هذا يا شيخ ابن سراج.

ـ لنقل إنّه يحدث لي أحياناً أن أرى أشخاصاً يتوهّمون بأنّهم منذورون لمهمّة معيّنة، بينما هم مخلوقون لشيء آخر مختلف كلّياً.

لم تتبيّن حقيقة تفكيره فانتظرت المزيد. واصل بنبرة مختلفة تماماً وشديدة الدفء:

ـ في الشرق يا سينورة نحن نؤمن بأشياء قد ترونها منافية للعقل أو مثيرة للسخرية. من بين تلك الأشياء عين السوء مثلاً ومن بينها القدر المكتوب. نحن مؤمنون بأنّ كلّ شيء مكتوب في اللوح. أفراحنا وأتراحنا وحبّنا وساعة ميلادنا وساعة موتنا. أمّا أنتم فترفضون هذه الفكرة وتفضّلون عند حدوث كلّ أمر خارق أن تستعملوا كلمات مثل العناية الإلهيّة أو الصدفة والحظّ. لكنّ فارغاس قال منذ لحظات إنّه لا يؤمن بالصدفة. وكان على حقّ. أنا أيضاً لا أؤمن بالصدف.

تلاشى الاحتراز الذي غلب عليها في البداية فواصل الشيخ حديثه:

ـ لكلّ منّا دور يقوم به. وقد لا يتعدّى هذا الدور في أحيان كثيرة أن

يكون مصدر إلهام أو دافعاً في طريق أحدهم. نحن نظهر أحياناً في حياة شخص حين يكون هذا الشخص في مفترق طرق ويكون علينا واعين أو غير واعين أن نؤثّر في خيارات ذاك الشخص. وما أن يختار ذلك الشخص هذا الاتّجاه أو ذاك حتى يتغيّر مصيره وينتهي دورنا بالنسبة إليه. أعرف أشخاصاً ما كانوا يستسلمون إلى اليأس لو استمعوا في اللحظة المناسبة إلى الكلمة القادرة على إنعاش الأمل فيهم.

ـ تحدّثت عن تغيير المصير يا شيخ ابن سراج ولكن في أيّ اتّجاه؟ في اتّجاه الأسوأ أم في اتّجاه الأفضل؟

ـ الله وحده يعلم. كلّ ما أعرفه أنّه كان مكتوباً أن نلعب ذاك الدور في ذلك اليوم في تلك الساعة، تماماً كما كان مكتوباً أنّنا ما أن نقوم بمهمّتنا حتى نغيب تماماً عن وجود ذاك الشخص. وصديقنا فارغاس في مفترق الطرق يا سينورة. وأنا أرجو من الله العليّ القدير أن يهديه عن طريقك إلى الوجهة الصحيحة. هذا ما أردت أن أقوله لك.

ـ إذا كان الشرقيّون على حقّ يا شيخ ابن سراج، فهذا يعني أنّ المُقدّر كائن وأنّ الأمر لم يعد في انتظار أيّ تدخّل من طرفي.

أومأ الشيخ موافقاً، ولعلّه اعتبر أن كلّ ما كان يجب أن يُقال قد قيل فواصل المشي على امتداد مسلك الحراسة. بعد لحظات التقيا فارغاس وعزرا. وجداهما جالسين على كثيب يتأمّلان المثلّث الخامس المُلقَى بينهما على العشب. عن يمينهما في منتصف الجدار المسنّن ظهر نحت لرأس ثور وتحته الشقّ الذي عثرا فيه على المثلّث. كانا يدنوان من صديقيهما حين سمعت مانويلا العربيّ يردّد:

ـ عند غروب الظلّ المائل تجدون الـ ٣. أسفل حائط كُتب عليه: *وإذ وعدنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذتم العجْلَ من بعدِهِ وأنتم ظالمون.*

الفصل ٢٩

عشاق طرويل
كم منهم
وكم منهنّ. . .
(. . . .)

سلمنقة، من الغد.

توهّجت الشمس في سماء سلمنقة وساهمت ببهائها في إضفاء جوّ من البهجة على موكب جلالتي الملكين إيزابيل وفرديناند وهما يدخلان المدينة. إلى جانب الملكين قاد عدد من الأعيان جيادهم بمهابة ومن بينهم قمسُ قبرة الشهير بعدائه للمور وعدد من الفرسان المسلّحين إضافة إلى حشد الكهّان الذي يصاحب البلاط في كلّ مكان. كان الجمع يتقدّم على إيقاع الخيول العربيّة والأندلسيّة المطهّمة وفي ظلّ الراية الملكيّة القشتاليّة بينما كانت الأعلام تنخفض لمرورهم في بهجة من الألوان على جانبي الطريق المفضية إلى الكاتدرائيّة.

امتطت الملكة حصاناً أبيض وبدا السرج من تحتها مغطّى بلحاف قرمزيّ بينما لاحت العدّة من حزير وطرّزت حاشيتها بالذهب. كانت ترتدي صداراً من المخمل وتنورة من الإستبرق عليهما معطف بقبّعة من الجوخ المذهب والمطرّز على الطريقة الموريسكيّة وكانت تحتمي من الشمس بقبّعة سوداء. إلى جانبها كانت ابنتها ترتدي صداراً أسود من

الإستبرق ومعطفاً بقبّعة يشبه معطف الملكة، أمّا الملك فكان يرتدي بزّته الحربيّة مثل بقيّة الفرسان.

في طرف الطريق وقف أسقف سلمنقة ينتظرهم بوقار على عتبة الكاتدرائيّة وقد شبك يديه على بطنه المكوّر. إلى خلفه كان في وسع المتفحّص أن يتبيّن طيف هرناندو دو تالافيرا وقد بدا فخوراً بمشهد الجيش المتقدّم. كانت تلك هي إسبانيا. إسبانيا وهي تستردّ مجدها وشرفها. منذ لاحت طلائع الموكب وهو يسترجع في سرّه الحديث الذي دار بينه وبين الملكة قبل أسابيع. *بسقوط غرناطة تكون إسبانيا قد تحرّرت ونكون قد وضعنا حدّاً لسبعمائة سنة من الاحتلال. سيكون هذا الحدث في نظري أهمّ حدث في تاريخنا. وفي وسعنا عندها أن نتحدّث عن إسبانيا الموحّدة أخيراً*. كانت آخر المعلومات القادمة من الأندلس ترسّخ هذا الأمل. قد لا تسقط غرناطة غداً لكنّ سقوطها أصبح وشيكاً ومؤكّداً.

تمّ التركيز في البداية على مدينة مالقة كي يتمّ عزلها وأحوازها الساحليّة عن بقيّة الإمارة. خرجت الجيوش المسيحيّة من قرطبة وقصر النهر في بداية الشهر الرابع وصارت على أبواب مالقة بعد أسبوعين. أقيم المعسكر الملكيّ بين المدينة والسييرا لسدّ المنافذ إلى غرناطة. وعلى الرغم من أنّ حامية الثغر صدّت بروح بطوليّة هجمات المشاة إلاّ أنّها أُجبرت على الاستسلام من الغد وخُيِّرَ السكّان بين السيف والرحيل إمّا إلى السواحل الإفريقيّة على سفن قشتاليّة وإمّا إلى مملكة بني نصر. حاول قائد حامية مالقة الصمود بأفضل ما استطاع لكنّ المدينة المحاصرة كانت تتعرّض إلى قصف المدافع في كلّ لحظة وسرعان ما نفدت المؤن وانهارت معنويّات السكّان. وأخيراً سقطت المدينة البارحة. وطبعاً لم يحرّك أبو عبد الله الصغير ساكناً لنجدة إخوانه المحاصرين عملاً بالمعاهدة السريّة التي أبرمها مع الملكين.

ـ بسقوط غرناطة تكون إسبانيا قد تحرّرت ونكون قد وضعنا حدّاً لسبعمائة سنة من الاحتلال. سيكون هذا الحدث في نظري أهمّ حدث في تاريخنا. وفي وسعنا عندها أن نتحدّث عن إسبانيا الموحّدة اخيراً.

ـ هذا صحيح يا فراي تالافيرا. وكم سيكون مؤسفاً أن لا نشهد مثل هذا الحدث.

ـ ولماذا لا نشهده؟ كلّ شيء يسير في هذا الاتّجاه.

ـ كلّ شيء. . . ولكن تكفي ذرّة رمل واحدة.

صباح اليوم نفسه علم تارفيرا عن طريق دياز بآخر تطوّرات العمليّة. حدّثه عونه بالتفصيل عن المواجهة التي حصلت بين الخادم وسيّده السابق وعن موت أحد المهاجمين على يد الراهب ثمّ أخبره بالمجزرة البشعة التي قام بها رجال توركيمادا. مجزرة لا تقل بشاعتها عن مجانيّتها فهي وفق دياز غير ضروريّة البتّة. أمّا الرجال الأربعة فهم الآن في طرويل. اتّفقت هذه المعلومات مع ما أفضى به إليه الأب ألفاريز. كلّ شيء يؤكّد لتالافيرا الآن أنّ نهاية هذه المغامرة العجيبة وشيكة وإذا لم تخنه الذاكرة حسب الوثائق التي أطلعه عليها توركيمادا، لم يبق أمام الرجال الآن سوى مرحلتين.

ما العمل إذا اتّضح أنّ هذا الكتاب موجود فعلاً؟ أليس من الواجب إفساح المجال للعدالة الإلهيّة كي تذهب في طريقها مثل النهر الذي لا يعوقه عائق؟ مهما كان مضمون الرسالة، إذا كان ثمّة من رسالة، فليس من حقّ أيّ كان أن يحتفظ بها لنفسه فضلاً عن أن يحرّفها. استعاد كلمات المفتّش العامّ على الرغم من جلبة الحشود وهي تهتف مستقبلة ملكيها:

ـ تصوّر. . . تصوّر للحظة واحدة أنّ هذا الكتاب موجود وتصوّر أنّه يتضمّن حقّاً رسالة من الربّ إلى البشريّة. عندئذ سنكون أمام أصعب الخيارات على الإطلاق: إمّا أن تدعم تلك الرسالة تفوّق المسيحيّة وإمّا أن

تغلّب عليها الإسلام أو اليهودية. ولو صحّت الفرضيّة الثانية لا قدّر الربّ لكان ذلك إيذاناً بهلاكنا وهلاك إسبانيا. إنّ ثبوت الفرضيّة الثانية يعني أنّ كلّ ما نؤمن به ونقاتل من أجله منذ قرون أمر لا حقّ له في الوجود وعليه أن يُباد وأن يُمحق إضافة إلى ما يتبع ذلك من لعنة أبديّة، بما أنّ الهرطوقيّين سيكونون نحن.

ماذا عليه أن يفعل؟ هل يتحرّك أم يكتفي بالفرجة؟ سرت في جسمه قشعريرة ثمّ انتبه إلى صوت يهتف به:

ـ فراي تالافيرا... جلالتهما.

أعاده صوت الكاردينال إلى الواقع. كان الملك والملكة يصعدان الدرج ولم تبق إلاّ لحظات ويقفان أمامه. فجأة خطرت له صورة رجل تحفّ به هالةٌ من العظمة والنبل. هو، هو وحده قادر على إنارته. عليه أن يتحدّث معه. هو وحده يعرف ما العمل. انفرجت أساريره دفعةً واحدة واستعدّ لاستقبال الملكين.

*

طرويل، الساعة نفسها.

لم تصدّق مانويلا عينيها. كمشت أصابعها على رسالة المفتّش العامّ وحوّلتها إلى كرة ضغطت عليها بقبضتها. هكذا إذن وعلى العكس من توقّعاتها يأمرونها بمواصلة المهمّة. لم تقنعهم المعلومات التي مدّتهم بها بضرورة التوقّف عن مطاردة الرجال بل يبدو أنّ هذه المعلومات أدّت إلى نتائج عكسيّة. وها هي الرسالة تؤكّد لها أن توركيمادا ازداد إصراراً على الذهاب في الاتّجاه نفسه.

ـ دونا فيفيرو.

انتفضت وهي تتذكّر الرجل ذا وجه العُقاب الذي نسيته تماماً أثناء استغراقها في قراءة الرسالة.

ـ دونا فيفيرو. لن يكون من الحيطة أن نمكث هنا وقتاً أطول وقد يلاحظ رفاقك غيابك عنهم. هل عليّ أن أبلغ فراي توركيمادا بشيء؟

ظلّت صامتة وقد ازدحم رأسها بأفكار متناقضة. استرجعت مشهداً بعينه. يوم جاءها توركيمادا وعرض عليها تفاصيل المهمّة التي ستناط بعهدتها صدر عنها سؤال عفويّ.

ـ أفهم مخاوفك فراي توركيمادا ولكن هل أنت واثق في صميم قلبك من أن ديانة كلّ من هذين الرجلين المسلم واليهوديّ ليست هي دافعك الحقيقيّ؟

لم تكن تعرف لحظتها أنّ راهباً مسيحيّاً سيرافقهما. هبط عليها ردّ المفتّش العامّ دون لفّ ولا دوران.

ـ وهب أنّ ذلك صحيح دونا فيفيرو، أين الخطأ؟

تجرّأت على الذهاب إلى أبعد.

ـ الخطأ في إزهاق أرواح بريئة لمجرّد أنّها تختلف عنّا في الدين. ألا ترى أنّ ذلك مناقض لتعاليم الربّ؟

زوّى توركيمادا ما بين حاجبيه وأحدّ فيها النظر حتّى لكأنّه يخترقها.

ـ هل يعني هذا أنك تتعاطفين مع الهراطقة والغزاة؟

صدمها السؤال فأجابت رافعة رأسها في تحدّ:

ـ لا تذهب بعيداً فراي توماس. أنا إسبانيّة وفخورة بذلك وأنا أعشق بلادي ولا حلم لي إلا أن أراها تستعيد في أقرب وقت حريّتها ووحدتها. ولكنّ الفرق كبير بين خوض معركة لطرد جيش غازٍ والبحث عن التخلّص من شخص بدم بارد دون حساب أو عقاب لمجرّد أنّه يؤمن بدين غير دينك. هذا ليس حرباً يا فراي توركيمادا. هذا يسمّى استبداداً وجريمة.

ولتطمئنّ. لا أتعاطف لا مع اليهود ولا مع المسلمين لكنّي نشأت وفي قلبي رسالة حبّ، هذا كلّ ما في الأمر.

ـ أفهم رغبتك في التسامح وأؤكّد لك أنّ هذا الشعور ليس غريباً عنّي ولكن اسمحي لي بأن ألفت انتباهك إلى دفاع مقتطف من كتاب يقول أصحابه إنّه مقدّس: ثلاث قطرات زيت طلبت الإذن لها بدخول إناء ماء. لكنّ الماء رفض السماح لها بالدخول قائلاً لها إنّك لن تمتزجي بي، بل ستصعدين للسطح ومهما فعلنا بعد ذلك لن ننظّف الإناء وسيظلّ مزيّتاً... هل فهمت التلميح؟

ـ من أيّ كتاب هذا؟

ـ إنّه التلمود... التلمود يا دونا فيفيرو. الكتاب الذي يستقي منه كبار الأحبار تعاليمهم.

أوشكت أن تقول له إنّ ما يراه في هذه الإستعارة ليس سوى رغبته في عالم أحاديّ الأبعاد شبيه به. لكنّ الحيطة نصحتها بالإحجام.

قالت للرجل ذي وجه العُقاب:

ـ أبلغ فراي توركيمادا بما يلي: لن أمضي قُدُماً في هذه المهمّة دون أن أتلقّى أمراً واضحاً من جلالة الملكة. من هنا فصاعدا لن أتلقّى أوامري إلاّ منها هي شخصيّاً.

ـ وهل تظنّين المفتّش العامّ يتّخذ قراراً دون الرجوع إلى جلالتها؟ هذا غير معقول.

أصرّت على طلبها.

ـ إمّا أن تأتيني برسالة مكتوبة بخطّ الملكة وإمّا أن أتخلّى عن كلّ شيء.

ـ كما تريدين دونا فيفيرو.

حقّاً على أحدهم أن يجعل هذه المغرورة تدفع يوماً ثمن غرورها. وكم يسعده أن يُكلّف يومئذ بتلك المهمّة.

*

تبدّد الضباب الذي نشره الحرّ وتجلّت الشمس في كامل بهائها في سماء الرحبة حيث التحقت مانويلا بعزرا وابن سراج أمام كنيسة سان دييغو. صعدوا الدرج ودخلوا الكنيسة حيث لمحوا أطياف بعض المصلّين الخاشعين في ضوء الشموع. همس عزرا في أذن الفتاة:

ـ هل أنت واثقة من أنّهما مدفونان هنا؟

ـ أجل. أكّدت لي ذلك نادلة المطعم. انظر. هناك.

بدا لهما فعلاً تابوتان رخاميّان في نهاية الممرّ. تمهّل ابن سراج في سيره وأخذ يلقي نظرات من حوله فسأله الربّي بنبرة ماكرة:

ـ ماذا أصابك يا شيخ؟ هل هو مرض الكنائس؟

ـ لم أكن أفضل حالاً منّي الآن ولكنّي مرتبك بعض الشيء فأنا أدخل مثل هذا المكان لأوّل مرّة.

ـ لا تخش شيئاً فلن يلومك أحد على ذلك لا نبيّك ولا نبيّي. كلاهما يعرف أنّ مسيح المسيحيّين لم يأت إلاّ من أجل الخراف الضالّة. فهل نحن من الخراف الضالّة يا شيخ ابن سراج؟

ندّت عن الشيخ ضحكة مكتومة.

ـ ربّما صحّ ذلك في ما يخصّك أنت يا رِبّي.

نهرتهما مانويلا بحزم.

ـ أرجوكما احترما المصلّين.

قال عزرا معترفاً:

ـ السينورة على حقّ. شيئاً من الاحترام.

ـ هل نحترم عبدة أصنام؟ إنّه معبد تماثيل.

ردّت الفتاة بنبرة حادّة:

ـ من فضلك. لا أحد يسخر من سجودكم وأذانكم الذي يشبه آهات نائحاتٍ مصابات بالزكام.

غمغم العربيّ:

ـ حسناً لن أردّ عليك.

أضاف على الرغم من ذلك:

ـ لم أظنّك سريعة الغضب مثل صديقنا الراهب. وبالمناسبة، ما الذي جعله يفضّل الانتظار في الخارج؟

ـ لا أعرف.

قالت ذلك لكنّ حدسها يحدّثها بأنّ فارغاس خاف أن يدخل الكنيسة لكلّ ما يمثّله ذاك المكان في حين يقف قلبه متردّداً أمام يقينه السابق. كان يهرب مثل طفل مقتنع بأنّه خارج الكنيسة سيكون في مأمن من عين الربّ. أو لعلّه خشي أن يواجه الحبّ الذي قاد عشيقي طرويل إلى الموت. توقّفوا أمام الضريحين فشاهدوا تحت الغطائين الشفّافين جسدين فتيّين ممدّدين لشابّين بوجهين ملائكيّين لم يتجاوزا الخامسة والعشرين. همس عزرا:

ـ هكذا إذنْ وكما حصل بالنسبة إلى البرجين التوأمين ها هو الحبّ يلعب مرّة أخرى دور القاتل.

ـ هذا إذا صدّقنا نادلة المطعم.

رغبت في لمس الضريحين فمرّت براحة يدها على الرخام البارد.

ـ كان اسم الشاب دييغو دو مارسيلاً أما هي فكانت تُدعى إيزابيل دو سيغورا.

ـ كان حبّهما جنونيّاً.

ـ لكنّ أسرة كريس. . . .

توقّفت فوراً عن الكلام وقد احتقنت وجنتاها. كانت لا تزال تحت سيطرة حكاية فارغاس فكادت تقول كريستينا عوضاً عن إيزابيل. تمالكت نفسها بسرعة وقالت مصحّحة:

ـ لكن أسرة إيزابيل دو سيغورا لم تر في الفتى أهلاً لها بسبب فقره. فتوسّل دييغو لوالد حبيبته أن يصبر عليه سنة كي يصبح رجلاً ثريّاً. سنة فقط دون زيادة يوم واحد. فقبل الأب وانطلق الفتى يجوب الأرض وبعد سنة رجع وهو شديد الثراء. إلاّ أنّه لأسباب تتعلّق بالملاحة وصل متأخّراً عن الموعد بثلاثة أيّام. فوجد إيزابيل تُزفُّ غصباً عنها إلى أحد الأعيان.

ـ فجنّ جنونه وطعن نفسه بالخنجر فلقي حتفه في الحين.

ـ هو ذاك. وحين سمعت إيزابيل بالخبر هرعت إليه وارتمت على جسده الهامد تشبعه لثماً وعناقاً ثمّ طعنت نفسها بنفس الخنجر.

أشار ابن سراج إلى أحد التابوتين:

ـ انظرا ما هو مكتوب عليه.

مال ثلاثتهم على الضريح لقراءة العبارة التالية: **كلاهما لا يقلّ جنوناً عن الآخر.**

ـ لا أدري أي درس علينا استخلاصه من كلّ هذا لكنّي أعترف بأنّي لن أسمح لقلبي بأن يحبّ في طرويل.

ردّ الربّي:

ـ لا في طرويل ولا في غيرها. ما من حبّ يبلغ هذه الدرجة من القوّة إلاّ وهو منذور إلى خاتمة أليمة. وهل تعرفان لماذا؟ لأنّه يتجاوز طاقة البشر. إنّ الحبّ بهذه الدرجة من الفناء في الآخر وتفضيله على النفس

أقرب إلى جنس الملائكة والكائنات السماويّة، ولا يفهمه البشر المحيطون بهذا النوع من المحبّين. لذلك فإنّ من يحبّون بهذه الطريقة يختارون الموت، الطريقة الوحيدة ليبقوا متوحّدين إلى الأبد صحبة الكائنات الشبيهة بهم.

هتف ابن سراج وهو ينظر إلى عزرا مشدوهاً:

ـ ها أنت تتقن الكلام على الحبّ يا ربّي فهل تراك جرّبته؟

ـ دلّني على شخص واحد يا ابن سراج لم يقع يوماً فريسة هذا الإحساس. دلّني عليه وأنا أقول لك إن كان شخصاً حيّاً حقّاً.

انشغل كلٌّ بهواجسه وخيّم عليهم الصمت للحظات قرب الضريحين. ولعلّهم كانوا يستعيدون كلمات ابن يرول التي دفعتهم إلى زيارة المكان: **وقال الربّ الإله ليس جيّداً أن يكون الرجل وحده، فأوقع على الرجل سباتاً فنام، وأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الربّ الإله الضلْعَ التي أخذها امرأةً وأحضرها إلى الرجل، منذئذ والاخ والاخت متّحدان تحت نظر الأقوياء والضعفاء، وحيث لا يدخل الملائكة هما مجتمعان.** كان دييغوا وإيزابيل دون شكّ الأخ والأخت المقصودين بنصّ ابن برول. غادروا المكان عبر شارع الإشبينة وسرعان ما وجدوا فارغاس جالساً على مقعد حجريّ في طرف الحيّ اليهوديّ القديم. قال ابن سراج على الفور:

ـ ما رأيكم؟ لم تبق أمامنا إلاّ مرحلتان ونبلغ الهدف وأرى أن نشرع في تفكيك القصر قبل الأخير.

أومأ عزرا موافقاً ونظر في اتّجاه فارغاس إلاّ أنّ هذا الأخير واجهه بابتسامة فاترة وقال:

ـ لا أراني أكون عوناً كبيراً لكم هذه المرّة بالنظر إلى المعطيات القليلة التي أملكها.

ـ ولماذا هذا التشاؤم؟

ـ لأنّي لا أعرف شيئاً، أو بقدر يكاد يكون مثيراً للسخرية.

بدا على الربّي والشيخ الإحباط.

ـ هلاّ مددتنا بشذراتك؟

ـ بكلّ تأكيد.

ردّد عن ظهر قلب:

ـ الصليب المقدّس... من ذلك الماء... يوجد أيضاً الـ٣...

ـ ثمّ ماذا؟

ـ هذا كلّ ما أراد ابن برول إعطائي هذه المرّة. ألم أقل لكم إنّه شيء قليل؟ وأنتما؟ ماذا لديكما؟

لم ينبس الآخران بكلمة فكرّر ملحّاً:

ـ ماذا تنتظران؟

الغريب أنّ أحداً منهما لم يبد متحمّساً للكلام. قال فارغاس:

ـ فهمت. أنتما أيضاً لا تملكان سوى شذرات قليلة؟

أومأ الرجلان يالإيجاب.

ـ لنقم بتوليفها على كلّ حال.

سحب الرجلان ورقتين من جيوبهما بينما جلست مانويلا على مقربة وأصاخت السمع. بنبرات هادئة أخذ الرجال الثلاثة يكشفون عن الكلمات التي كانت في حوزة كلّ منهم. كانت قليلة فعلاً بل كانت من القلّة بحيث لم تجد الفتاة أيّ صعوبة في حفظها عن ظهر قلب حتى أنّها استطاعت أن تنجح في تجميعها بسرعة الرجال الثلاثة.

مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه.

الاسم في ٢.

في المدينة التي شهدت ظهور الصليب المقدّس.

حيث استراحت خيول أنداد الفتى.

يُوجد أيضاً الـ٣.

ما من أحد يشرب من هذا الماء إلاّ عطش من جديد.

اقترح فارغاس مباشرة:

ـ لنواصل ولنحاول تجميع القصر الأخير.

سأل ابن سراج:

ـ فوراً؟

ـ أجل. لم يعد أمامنا خيار.

جرت الأمور هذه المرّة بسرعة غير متوقّعة حتّى خُيّل إلى مانويلا أنّ ثمّة كلمات غفلت عنها. قال عزرا: **مبارك مجد ي.ه.و.ه. في مسكنه. الاسم في ١.** ثمّ أدلى كلّ منهم بما عنده فلم يتجاوز المقطع الواحد لكّل منهم. ممّا كوّن الكلمة الوحيدة التالية: **برشيت**. سمعت الربّي يذكّر رفيقيه: بهذه الكلمة يُفتتح التوراة وهي تعني في البدء.

ـ في رسالة ابن برول ذكر لهذه الكلمة. *إنّها حكاية كتاب. كتاب ولد في فجر الزمن بعد المَزج الأوّل وبعد ظهور الكلمة الأولى في البرشيت: سفر التكوين.* هل تتذكّر يا ابن سراج؟

غمغم ابن سراج بكلمات غامضة وكان بادي الإحباط.

تساءل الفرانسيسكانيّ:

ـ ماذا تستنتجان من ذلك؟

بادر الربّي بالإجابة:

ـ نفس ما تستنتجانه. لكنّي أكاد لا أصدّق. وأملي الوحيد أنّ لا يمثّل لنا اللغز قبل الأخير مشكلة كبيرة.

هتف فارغاس:

ـ لن يمثّل اللغز قبل الأخير مشكلة لمسيحيّ.

عبّر الآخران عن اندهاشهما.

ـ وهل لديك فكرة؟

ـ أعتقد أن السينورة فيفيرو تملك الإجابة هي أيضاً.

التفت ناحية مانويلا:

ـ هل تعرفين في أيّ مدينة إسبانيّة ظهر الصليب المقدّس؟

فكّرت لحظة قبل أن تجيب:

ـ لعلّه ظهر في قرباكة دو لا كروث.

ـ ألم أقل لكم إنّ الأمر لن يمثّل مشكلة؟

ردّد عزرا:

ـ قرباكة؟

ـ تماماً. هناك ظهر الصليب منذ مائتي عام يحمله ملائكة كي يتمكّن راهبٌ أسير من الاحتفال بسرّ القربان المقدّس. ويُقال إنّ سلطان المدينة ما أن شهد المعجزة حتى اعتنق المسيحيّة. أمّا الموقع المعيّن الذي أُخْفِيَ فيه المثلّث فلا شكّ عندي أنّنا سنهتدي إليه ما أن نعاين المكان.

دكنت وجوه الرجال الثلاثة وكأنّ شيئاً تحطّم داخلهم وتركهم فريسة للخواء. غمغم الشيخ وقد غلب عليه الاستياء:

ـ بقيّة النصّ أشبه بالكابوس. أعني القصر الأخير. أنتم واعون طبعاً بأنّنا إذا أوّلنا كلمة برشيت على ظاهرها فهذا يعني العودة إلى نقطة البداية: غرناطة.

تنهّد عزرا قائلاً: -

- بل هو أكثر من كابوس. إنّه الحقيقة. لا معنى لهذه الكلمة سوى في البدء ومع ذلك فأنا أرى أنّ...

توقّف عن الكلام وكأنّ خاطراً طارئاً قطع عليه تفكيره.

- لنفترض أنّ غرناطة هي نقطة النهاية بعد أن كانت نقطة البداية. ما المشكلة في ذلك؟ قد نكون غفلنا عن بعض الإشارات في هذا المسار الشبيه بالمتاهة وقد نهتدي إلى ما غفلنا عنه غداً أو بعد ساعة وقد نكتشف المعنى الذي خفي عنّا. ولو فكّرنا جيّداً لرأينا أنّها ليست المرّة الأولى التي نكتشف فيها عناصر خفيّة كانت قبل قليل بعيدة المنال. لم لا غرناطة؟

أفسح الشيخ المجال لتبرّمه.

- لا يمكن لغرناطة أن تكون وجهتنا الأخيرة فالنصّ يقول: الاسم في ١، وهذا يعني أنّ أمامنا محطّة بعد غرناطة. محطّة لا نعرف عنها شيئاً. وما دام القصر الأخير يتلخّص في كلمة برشيت فماذا نفعل حين نصل غرناطة؟ إلى أيّ وجهة نسير؟ ماذا نفعل دون أيّ إشارة تساعدنا على العثور على اللوح الأزرق؟

- صحيح أنّنا بلا معطيات يا ابن سراج لكن هذا لا يصحّ إلاّ علينا نحن أمّا السينورة فهو لا يصحّ عليها.

التفت ناحية الفتاة وقال بنبرة كلّها أمل:

- والآن يا سينورة فيفيرو ألا ترين أنّه قد آن الاوان كي تمدّينا بما عهد به إليك ابن برول؟

كان لكلماته وقع الصاعقة على مانويلا. ازدردت ريقها بصعوبة قبل ان تقول بصوت خافت:

ـ هذا مستحيل. لم يأذن لي ابن برول بفعل ذلك إلاّ حين تكونون على مقربة من الكتاب وليس قبل ذلك.

أحسّ الشيخ برغبة عارمة في إطلاق سيل من الشتائم لكنّه لم يغمغم إلاّ ببعض كلمات العتاب:

ـ أنت تبالغين يا سينورة.

استرجع هدوءه وواصل:

ـ لقد قطعنا مئات الفراسخ وخاطرنا بحياتنا وعانينا الأمرّين فهل يرضيك أن نفشل وأن نرتطم بجدار؟ أليس في قلبك رحمة؟ إذا لم تجدي في الحكمة ما يدعوك إلى مساعدتنا فأين كرمك؟

قال عزرا:

ـ الشيخ على حقّ. هل تظنّين أنّ ابن برول يريد لنا أن نفشل؟ هل تعتقدين أنّ هذه الخطّة المحكمة لم تُضبط بهذه الدقّة إلاّ لتفضي إلى عدم؟ أفهم جيّداً رغبتك في احترام العهد الذي قطعته على نفسك ولكنّي أرجو في الوقت نفسه أن تفكّري في الأمر. ما هو دورك إذا لم تساعدينا الآن؟ وأي جدوى لالتحاقك بنا؟

علا محيّاها الانقباض وشوّه ملامحها التوتّر. أحسّت الفتاة فجأة بأنّها لم تعد سوى قشّة في مهبّ الريح. ما العمل؟ هل تبوح لهم بالحقيقة متنكّرة لعهدها مع إيزابيل؟ هل تواصل الكذب عليهم متسبّبة في احتقارهم لها؟ لقد أرسلت للتوّ ميندوزا وعليها أن تنتظر جواب الملكة.

ـ اعذروني. . . اعذروني. . . ولكنّي لا أستطيع.

دار عزرا على عقبيه مغمغماً بكلمات غير مفهومة، وأخذ ابن سراج يذرع المكان جيئة وذهاباً وكأنّه وحش محبوس في قفص.

ـ اسمعيني جيّداً.

دوّى صوت فارغاس متمهّلاً وتنفّست مانويلا الصعداء حين لم تتبيّن في نبرته أيّ عدوانيّة.

ـ اسمعيني. حين كنّا في دير برغش عاتبتِ ابن سراج وسألته لماذا لا يثق بعضنا ببعض؟ ولماذا لا نتبادل الشذرات التي نملكها؟ هل تذكرين ذلك؟

تمنّت أن تنشقّ الأرض وتبتلعها. واصل فارغاس.

ـ ردّ عليك الشيخ يومها قائلاً: لماذا لا تعطين المثال يا سينورة؟ أليس لديك المفتاح الأخير؟ فلماذا لا تتكرّمين به علينا؟ فهل تذكرين بماذا أجبته؟ أنا أذكر ذلك جيّداً. قلت له إنّ المفتاح الأخير لا يعني شيئاً لوحده وإنّك مستعدّة للكشف عنه إذا قمنا بتجميع كلّ النصوص. وها نحن نفعل. عليك الآن أن تفي بوعدك.

مرّت فترة طويلة من الصمت حاولت أثناءها أن تجد إجابة لائقة بحجاج الراهب. أخيراً خيّل إليها أنّها ترى مخرجاً ممكناً فقالت بنبرة متوتّرة:

ـ ***لا تحنث بل أوفِ للربّ أقسامك.***

ـ ولكن قيل أيضاً: ***لِيَكُنْ كلامكم نعم نعم لالا، وما زاد على ذلك فهو من الشرّير.***

ـ أمهلوني ثلاثة أيّام... ثلاثة أيّام لا أكثر.

ـ ولماذا هذه المهلة؟

قالت متوسّلة:

ـ أرجوكم. ثقوا فيّ.

أشهد فارغاس الآخرين عليها، فقال عزرا:

ـ لنكتف بذلك. منذ لحظة لقائنا الأوّل بالسينورة دي فيفيرو ونحن لا

نملك خياراً آخر. وعلى أيّ حال ليست مهلة ثلاثة أيام بالشيء الكبير مقارنةً بما عشناه.

ـ وأنت يا ابن سراج؟

ـ أنا عائد إلى الفندق. لكنّي أريد ان أحذّركم. أيّاً كان قرار السينورة فإنّي أخشى بعد الوصول إلى قرباكة أن يتعذّر علينا العودُ إلى غرناطة. فالخناق يضيق على الأندلس. وكما حدث لنا حين غادرنا المدينة قد يتمّ إيقافنا في أيّ لحظة لكنّنا قد لا نكون محظوظين كالمرّة الأولى. ولا شكّ أنكم سمعتم بالشائعات تتحدّث عن سقوط وشقة وبسطة. وما هي إلاّ أيّام ويمتلئ سهل المنصورة بالجنود المسلّحين. فكّري في ذلك يا سينورة فأنا لست مع الربّي في استخفافه بقيمة الزمن. لكلّ دقيقة الآن أهميّةُ مائة عام. ومنذ الآن أنت مسؤولة لا عن كتاب السفير وحده بل عن حياة كلٍّ منّا.

تكلّم بنبرة أقرب إلى الأسف والتسليم منها إلى الغضب أو السخط. تنهّد عزرا بعد برهة من الصمت:

ـ معه حقّ يا سينورة. ليرشدكِ آدوناي إلى ما فيه خير الجميع.

ما أن ابتعدا حتى دنا منها فارغاس فتراجعت في حركة عفويّة:

ـ لا تلحّ أكثر أرجوك...

ـ انظري إليّ.

سحبها من ذقنها.

ـ أريد أن أفضي إليك بحقيقة ما في نفسي. أعرف أنّك قطعت عهدا ولكنّي واثق من أنّه ليس مع ابن برول.

حاولت أن تستجمع آخر طاقتها.

ـ أرجوك...

ـ لست عدوّك. طيلة هذا الوقت وأنا متردّد بين تصديق قصّتك

وتكذيبها دون أن أنجح في حسم أمري. هل عرفت إبن برول حقّاً؟ أليست حكايتك مكيدة لا يعرف خيوطها سواك؟ قلت لك ذات يوم إنّي لا أنجح في قراءة ما بداخلك ولم أكن واثقاً من هذا الأمر مثلما أنا اليوم، مع فارق أنّي متأكّد الآن من أنّك تخفين سرّاً. ولعلّه سرّ ثقيل لا أعرف كنهه.

لاذت بصمت مستسلم رأت أنّه حيلتها الأخيرة كي لا تنهار.

ـ صدرت عنك طيلة هذه الرحلة تصرّفات غريبة لم أرغب في محاسبتك عليها. أوّل ما أثار استغرابي السرعة التي تمّ بها إطلاق سراح الربّي. ولتعلمي أنّي استفسرت عن الأمر في حينه وذهبت إلى سجن الديوان حيث أكّدوا لي أنّهم لم يروا أيّ امرأة تطلب لقاء عزرا أو تدّعي أنها أخته.

همّت بالاحتجاج لكنّه لم يمنحها الفرصة.

ـ وأخيراً أبديت منذ أيّام اطّلاعاً غريباً على شجرة أنساب توركيمادا. . . فانسلار. عندها أيضاً بدت لي شروحك مثيرة للشكوك.

صمت للحظات فخيّل إليها أنه يبحث عن براهين أخرى لمحاكمتها لكنّها كانت مخطئة. كان يحاول أن يساعدها.

ـ طلبت مهلة بثلاثة أيّام ولا أريد أن أعرف الأسباب لكن مهما كانت تلك الأسباب أرجو أن تفكّري في كلام عزرا حين حدّثك عمّا عانيناه وفي كلام الشيخ حين حدّثك عمّا يتهدّدنا. وإذا كنت تملكين حقّاً معلومات تخرج بنا من هذا المأزق فأرجوك أن تمدّينا بها.

ـ ولو. . . رفضت مساعدتكم.

ـ ماذا تتصوّرين؟ أنّنا سنعذّبك؟ أنّنا سنعرّضك إلى «الحلم الإيطاليّ» أو إلى بعض فنون التحقيق التي تحفل بها سُجون محاكم التفتيش؟ كلاّ. لا يمكن أن تتخيّلي ذلك طبعاً. لا عزرا ولا ابن سراج ولا أحد منّا يمكن أن يفكّر في إيذائك. أنا أضمن لك ذلك.

ـ تحمل تجاهي كلّ هذه الشكوك وعلى الرغم من ذلك قرّرت مكاشفتي بحقيقة الكتاب. لماذا؟

ـ لأنّ منح الثقة والاستسلام للآخر والتخلّي عن كلّ الحواجز والأسوار هي أصدق طريقة لنقول للآخر إنّنا نحبّه.

همست وهي تكاد تجهش بالبكاء:

ـ ثلاثة أيّام.

ظلّ ينظر إليها برقّة لم تملك معها إلاّ أن تنسى كلّ شيء سوى الرغبة في الارتماء في حضنه والاعتراف له بكلّ شيء.

قال فجأة:

ـ تعالي. لنعد إلى الفندق.

ما أن نهضت من المقعد الحجريّ حتّى لفت انتباهها أمر جديد. كان فارغاس يحدّ النظر في مكان ما في طرف الساحة وسرعان ما لمحت ميندوزا يراقبهما جالساً في لامبالاة على درج الكنيسة. منذ متى وهو هناك؟ قال فارغاس بصوت مكتوم:

ـ يخيّل إليّ أنّي رأيت هذا الرجل من قبل.

ـ لنذهب من هنا.

لم يبد أنّه استمع إليها.

ـ متى رأيتُه؟ في أيّ مكان؟

ـ أرجوك لنذهب.

استجاب لها على مضض دون أن يزيح عينيه عن الرجل ذي وجه العُقاب. تظاهر هذا الأخير بالنظر إلى كوكبة من الفرسان الذين أرخوا الأعنّة لمطاياهم على مقربة من الأسوار. دقّ قلب مانويلا بعنف. أخافها مرأى ميندوزا بسبب وجود فارغاس إلاّ أنّها شعرت بشيء من الراحة أيضاً

فوجوده يعني أنها لن تنتظر طويلاً جواب الملكة. ثمّ هي تعرف بعد ذلك ماذا عليها أن تفعل: أن ترحل. أن تهرب. أن تعود إلى طليطلة وأن تحاول النجاة بحياتها. انشغلت بخواطرها ولم تنتبه إلى أنّ الفرانسيبسكانيّ كان قد توقّف.

ـ تذكّرت الآن. لقد رأيته في سلمنقة يوم محاكمة البحّار الجنوي كريستوبال كولون.

ـ لا أذكر...

ـ كيف ذلك؟ لقد قلت لي إنّه كان يسألك عن معلومة.

توسّلت:

ـ لنذهب أرجوك.

كانت ملامح الراهب قد تحجّرت بشكل لا يُصدّق.

ـ انتظري هنا. لابدّ أن أعرف حقيقة الأمر.

ـ هذا جنون. ماذا تريد أن تفعل؟

ـ سأسأله.

ـ عمّاذا؟

ـ لقد تمّ اقتفاء أثرنا أكثر من مرّة وأنت تعرفين النتيجة. وهذا الرجل لم يوجد في طرويل صدفة.

أرادت الإمساك بتلابيبه لكنّه كان قد اتّجه ناحية ميندوزا.

ـ أنت... يا سينور...

نهض عون توركيمادا وابتعد بسرعة.

صرخ الفرانسيسكانيّ:

ـ توقّف.

حثّ ميندوزا الخطى حتّى بات يركض وكاد فارغاس يركض خلفه لولا أنّ يد مانويلا تشبّثت بذراعه.

قالت متوسّلة:

ـ أرجوك لا تفعل.

ـ أنت تعرفين هذا الرجل.

كانت نبرة صوته أقرب إلى الأسى منها إلى الغضب. تقوقعت مانويلا على نفسها وقد بدت لها كلّ محاولة للإنكار عملاً غير ذي جدوى. همست بصوت يكاد لا يسمع:

ـ لنعد إلى الفندق.

ـ ليس قبل أن تشرحي لي الأمر.

ـ رافائيل...

ما أن نطقت باسمه حتّى انتبهت إلى أنّها تفعل ذلك للمرّة الاولى. قالت:

ـ ألم تعدني منذ قليل بأنّك لا تريد إيذائي؟ أرجوك لا تسأل عن المزيد.

ظلّ فارغاس ينظر إليها ممزّقاً بين رغبته في إيضاح الوضع وعاطفته المشبوبة التي كانت تأمره بالإحجام.

ـ حسناً. أجيبي على الأقلّ على سؤال وحيد: هل نحن في خطر؟

ـ لا أعرف. على الأقلّ ليس في القريب العاجل.

ـ ليس في القريب العاجل؟ هذا يعني...

وضعت كفّها على شفتيه هامسة:

ـ ثلاثة أيّام...

ظلّ ينظر إليها وقد ساورته الوساوس.

ـ إنّي أخشى الأفدح.

أثْبَتَ عينيه في عيني الفتاة.

ـ إذا كنتُ على حقّ في مخاوفي، فليكن الربّ في عونك.

الفصل ٣٠

وحده الفراغ لا يُوصف.
وحده ما هو غير موجود لا يتغيّر.
(........)

دير سائيدا الفرانسيسكانيّ

بعد ثلاثة أيام.

امتدّ ظلّ المُصَلّى على سجّاد العشب الأخضر مانحاً الدير تلك الطراوة الملائمة للأرواح كي تُحلّق وتتأمّل. ووقف هرناندو دو تالافيرا تحت الأقواس الخالية من أيّ زخرف مواجهاً صديقه فرانثيسكو خيمينث دي ثيسنيروس. شبك أصابعه كأنّه يتهيّأ للصلاة قبل أن يسأل بصوت خافت:

- ماذا أفعل؟ أتحرّك أم أكتفي بالفرجة؟

- الخيار لك فراي تالافيرا. أيّ أمل جاء بك من طليطلة إلى القرية؟ هل ظننت حقّاً أنّي أملك إجابة على هذا السؤال؟

- ليس الجواب المطلق ولكن شيئاً منه على الأقلّ: هل نملك الحقّ في معارضة مشيئة الربّ؟

بحركة آلية أزال دي ثيسنيروس التجاعيد عن مسوحه وأحكم شدّ الحبل المصنوع من ليف القنّب الذي كان يتحزّم به.

- معارضة مشيئة الربّ؟ ومن يستطيع ذلك؟

ـ ذاك ما يحاول القيام به أخونا توركيمادا لو حصل المكروه واتّضح أنّ مضمون الكتاب يقوّض أسس ديننا.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي الفرانسيسكانيّ:

ـ وأنت أخي هرناندو ألا تحاول التشبّه به في محاولتك التصدّي له؟ من منكما الحكمة ومن منكما الخطأ؟ لقد اعتبرتَ ومازلتَ تعتبر من غير المجدي التعميد الجماعيّ والإجباريّ لليهود على أساس أنّ تنصيرهم دون قهر قد يملك حظًا أكبر في أن يدوم ويصدق. وهذا من حقّك، تماماً كما رأيتُ أنا أنّ من حقّي الأمر بحرق أكثر من أربعة آلاف كتاب عربيّ في الساحة العامّة باعتباره أفضل طريقة لاستئصال التأثير الإسلامي من أرضنا الإسبانيّة.

أعلن حاسماً.

ـ إنّ الخطأ أفضل من الشكّ، شرط أن يكون الخطأ عن حسن نيّة طبعاً.

فوجئ تالافيرا وهمّ بالتعليق على هذه الحكمة التي بدت له بعيدة عن الحكمة لكنّه أحجم عن ذلك. إنّه يعرف قسوة طبع الرجل لكنّه يكنّ إليه أكبر الاحترام. وفي سيرته ما يدلّ على أنّه صاحب شخصيّة لا دور فيها للكبرياء أو المداورة. لا دافع له إلاّ محبّة الربّ والحقيقة. ولد قبل واحد وخمسين عاماً في أسرة نبلاء فقراء ودرس فقه القضاء في سلمنقة ثمّ رحل فجأة إلى روما دون أن يعلم أحد ما الذي ذهب يفعل هناك ولا بمن التقى.

عند عودته من روما تعرّف عليه تالافيرا ونشأت روابط أخويّة بين الرجلين. أيّامها بدا دو ثيسنيروس راغباً في تسلّق درجات الهرم الكهنوتيّ وكان أفضل دليل على ذلك حصوله على رئاسة كهنة أوشدة بعد صراع عنيف وعلى الرغم من اعتراض الكاردينال كاريللو الذي لم يكن يحبّه.

بعد قليل سُمّي نائباً عامّا على أبرشيّة سيغوينثا. وكان كلّ شيء يوحي بأنّ الرجل سيصل أعلى المراتب حين قرّر ذات يوم من سنة ١٤٨٤ أن يترك كلّ شيء وأن يعتكف لدى الفرانسيسكان هنا في دير سائيدا. ولا يمكن لكلّ من يعرف القوانين التي تحكم مثل هذا الدير إلاّ أن يُعجب بقرار ثيسنيروس. الصوم والفقر والحياة في العزلة تلك هي حسب القديس فرانسوا المبادئ الغالية.

رأى تالافيرا من الضروريّ زيارة هذا الرجل لاقتناعه بأنّه سيجد لديه النور والحكمة الضروريّتين لاتّخاذ القرار الذي كان يعتزم اتّخاذه: إيقاف توركيمادا ومنعه من كتمان رسالة الربّ إذا اتّضح أنّ هذه الرسالة موجودة. سأل بنبرة هادئة:

ـ قلت منذ قليل إنّ الخطأ أفضل من الشكّ. . .ألا يعني هذا. . .

ـ لو سمحت فراي تالافيرا. لا تبتر العبارة. قلتُ شرط أن يكون الخطأ عن حسن نيّة. وهذا يفترض ضمنيّاً الوفاء المطلق لأفق مثاليّ حدّدناه لأنفسنا. أقصد المثال الأعلى، الكبير، النبيل، النقيّ، بعيداً عن تلك الطموحات الصغيرة التي نغذّيها في أنفسنا فقط بهدف إشباع مجدنا الشخصيّ.

ـ ذاك ما عنيته تماماً. ولكن ألا يمكن أن نُتّهم بالتعصّب الأعمى أو بما هو أفدح: الغرور؟

نهض ثيسنيروس وأخذ يتمشّى تحت الأقواس وخلفه تالافيرا.

ـ سأفتح قوسين لمساعدتك على فهم الأمور بشكل أفضل. أنت تعلم دون شكّ أن الملكة تفكّر في تعييني أسقفاً على طليطلة. ولست مستعدّا لقبول هذا التشريف. هل تعرف لماذا؟ لأنّه سيجبرني على الانتماء إلى عالم الكهنوت هذا الذي أمقته. أغلب أساقفتنا يجهلون ما هي الفضيلة والتقوى وهم مهتمّون برفاهتهم الدنيويّة أكثر ممّا هم مهتمّون بمصير

أرواحهم وهم في مستوى معيشتهم ومشاغلهم لا يختلفون في شيء عن سائر أعيان المملكة.

صمت لحظة قبل أن يواصل الحديث.

ـ ها أنت تقف على أحد الأسباب التي دفعتني إلى دخول هذا الدير. لقد اخترت أن لا أسير في الطرق الملتوية وأن أعيش في عالم لا يعرف وسيلة للتقدّم غير الخطّ المستقيم. أرفض التظاهر والنفاق وذاك في نظر البعض دليل على عدم تسامحي وعلى عدم قدرتي على العفو. كثيرون سيعلمون برفضي الأسقفيّة فيرون في ذلك عزوفاً عن القيام بواجبي في حين أنّ المملكة والكنيسة في حاجة إليّ. آخرون أكثر سطحيّة لن ينظروا إلاّ إلى عزوفي عن المجد. وهذا كلّه خطأ. أنا أفضّل الوفاء لمُثُلِي على الواجب. أمّا المجد فلو جاء نقيّاً خالصاً من كلّ أفكار مسبقة لما حرّك لي ساكناً فما بالك إذا كان مجداً ملوثاً لا يرى إلاّ انتصار مصالحه الشخصيّة.

ظلّ تالافيرا مشغول البال.

ـ أليس ما تدافع عنه في النهاية هو مفتاح النعيم؟ لو أن أفعالنا كانت كلّها محكومة بإرادة الوفاء لقناعاتنا وليس بإحساسنا بالواجب، لانفتحت أمام الإنسان وعود لانهائيّة بالسعادة. أليس كذلك؟

توقّف ثيسنيروس ووضع يده على ذراع صديقه قائلاً بهدوء:

ـ إنّ هذه الحياة مسرحيّة كبيرة ياصديقي. مؤلّفها الرب وممثّلوها أنا وأنت، أمّا الملقّن فهو للأسف، الشيطان.

حشرج صوته وهو يختم بنبرة من يكشف عن سرّ:

ـ لِنُعِد الكلمة إلى الربّ.

أومأ تالافيرا موافقاً. تبخّرت فجأة أفكاره المتناقضة التي أرّقته لليال طوال وانزاحت عنه شكوكه بفعل الكلمات الأخيرة التي نطق بها ثيسنيروس.

همس مؤكّداً:

- أنت على حقّ. لنعد الكلمة إلى الربّ.

طار بخياله إلى الرجال الثلاثة وإلى مانويلا متسائلاً إن كانوا لا يزالون في طرويل.

*

طرويل.

استندت النادلة على مصرف المطعم وأخذت تغنّي دون مصاحبة موسيقيّة أغنية حزينة عن قصّة حبّ بين أمير عربيّ وأسيرة مسيحيّة. نظر ابن سراج بطرف عينه إلى عزرا فرآه يغالب النوم وقد أسند ظهره إلى الحائط وشبك يديه على صدره. كان فارغاس قد ذهب إلى النوم أمّا مانويلا فقد غادرت المطعم للتوّ متعلّلة برغبتها في التفكير، على الرغم من انّها لم تفعل غير ذلك منذ ثلاثة أيّام. ثلاثة أيّام. كانت المهلة التي طلبتها تلفظ أنفاسها الأخيرة ومهما كان قرارها فقد اتّفق الجميع على عدم إضاعة الوقت وعلى التوجّه عند الفجر إلى قرباكة ومنها إلى غرناطة. غرناطة وما يحفّ بطريقها من أخطار. ولكنّه المكتوب.. ليس أمامهم إلاّ الذهاب إلى آخر ما هو مقدّر لهم. هكذا قال الشيخ لنفسه وهو يحاول تلمّس بعض الطمأنينة بتكرار قولة لأحد كبار الفلاسفة العرب: إذا غاب الحلّ غابت المشكلة.

دفع الشيخ الطبق الذي طفت فيه فضلة من سمك الغادس وأخذ يتأمّل المكان من حوله. لم تكفّ النادلة عن الغناء. تجاوزت الخمسين بكثير وعلى الرغم من ذلك كانت تنبعث منها فتنة وشهوانيّة مربكتان. هل هو بسبب عجيزتها الممتلئة أم بسبب نهديها المكوّرين؟ كانت تذكّر الشيخ بزوجته المفضّلة سليمة الرقيقة الدافئة. ترى ماذا تفعل الليلة؟ وماذا يفعل أولادهما؟ هل يذكرونه أم أنّهم نسوه؟ وعائشة؟ عائشة زوجته الأولى التي

تحمل اسم زوجة الرسول والتي تجمع شخصيّتها بين التفاني والإخلاص ودلال الأطفال وتقلّبهم. كانت إحداهما البحر الهادئ والأخرى المحيط الهادر. تستطيع الأولى أن تخنق بيديها غريمتها بينما جعلت الثانية من الصبر سلاحاً أمضى من ألف خنجر. بين هذين المرأتين المتناقضتين وجد ابن سراج التوازن المثاليّ. ما تحرمه منه الأولى تغدقه عليه الثانية وما تراه إحداهما عيباً تراه الأخرى مزيّة لا تضاهى. والأهمّ من ذلك كلّه أنّه يستطيع الاطمئنان إليهما وإلى وفائهما التامّ. لم تكونا شبيهتين بنساء إشبيلية التي تروي الشائعات أنهنّ يعقدن حفلات المجون والشراب على ضفّة النهر. كلاّ، لا يمكن لعائشة ولا لسليمة ارتكاب مثل هذه الضلالات.

فكّر في أنّ الله أسبغ عليه من نعمه فانقبض قلبه. اشتاق إلى زوجتيه. اشتاق إليهما بشدّة. عقد العزم على إغراقهما بالهدايا حال عودته. سيشتري لسليمة عقد الحجارة الكريمة الذي طالما تمنّته عليه وسيشتري لعائشة الإسوارة والخلخال الذهب الذي رفض شراءهما بمناسبة عيد ميلادها الأخير. سيغدق عليهما هداياه ثمّ يغلق باب الغرفة ويغدق عليهما أشياء أخرى. وقعت عينه دون وعي على الطبق أمامه فأحسّ بالتقزّز. كيف يمكن أن يقارن هذا الغذاء الغثّ بالأطباق اللذيذة المتقنة التي برعت في تصنيفها زوجتاه؟ جاهد كي يكتم آهة حنين. يدفع أيّ شيء الليلة من أجل طبق ماروزيّة متبوع بفرخ حمام طريّ يتلوهما طبق من الكعك المحشوّ بالعسل والمُغلّف بدقيق اللوز المعطّر بماء الورد.

ـ هل تحلم يا شيخ ابن سراج؟

انتفض لصوت الربّي وكأنّ سطلاً من الماء البارد أُفرغ على رأسه فتنهّد.

ـ أجل يا ربّي. كنت أحلم.

ـ بكتاب السفير؟

ـ كلاّ. كان حلماً لا علاقة له بالفكر والروح.

فجأة تغيّرت نبرته.

ـ سنعود إلى غرناطة يا ربّي.

ـ طبعاً، بعد قرباكة. لماذا هذه اللهفة؟

ـ أنا أستعجل العودة إلى بيتي. هذا كلّ ما في الأمر.

ـ آه.

لم يبد على الربّي الاكتراث فأثار ذلك حنق الشيخ.

ـ طبعاً لا تستطيع أن تفهم ذلك. أنت لا تفتقد أحداً ولا أحد يفتقدك.

غيّمت عينا عزرا بشكل خفيّ.

ـ من تظنّ أكثرنا شقاءً يا ابن سراج؟ الرجل الذي ينتظره أحبّتُهُ ويرقبون وقع خطواته كلّ ليلة أم الرجل الذي لا يسأل عنه أحد إن كان حيّاً أم ميتاً؟

كان اليهوديّ على حقّ فلا شيء أسوأ من الوحدة والفراغ. ندم الشيخ على حدّته وسأل بنبرة مصالحة:

ـ هل تزوّجت مرّة يا عزرا؟

ـ لقد فعلت. كان اسمها سارة. وحين تحدّثتُ عن الحبّ هذا الصباح في كنيسة سان دييغو كنت أتحدّث عنها. لم أعرف إلاّ ذاك الحبّ. وطيلة أربعين سنة لم يمرّ يوم دون أن يغمرني حبّها بالسعادة.

ـ هل....

ـ توفّيت قبل عشر سنوات.

كانت النادلة قرب المصرف قد كفّت عن الغناء فعاد عزرا إلى تناومه مسنداً ظهره إلى الحائط. فجأة هتف ابن سراج بصوت خافت:

ـ أنت مخطئ يا عزرا. أنت مخطئ حين تقول إنّ أحداً ليس في انتظارك. ارفع عينيك. هناك في السماء امرأة تعدّ السماط لزوجها كلّ ليلة. وكل ليلة تعدّ السميد والحساء بحَبّ وتنزع التمر من النوى وتعدّ فطائر الصنوبر. وفي كلّ عيد فصح توقد الشموع وتضع حذوها خبز الفطير. سارة في انتظار زوجها يا ربّي عزرا. وأنت لست وحيداً.

فتح الربّي عينيه وظلّ ينظر إلى الشيخ دون أن ينبس بكلمة، لكنّ نظراته كانت مبلّلة.

في الخارج كان البدر يرسل نوره الفضيّ على السطوح ويكتنف الأجراس هاطلاً على بلاط الشوارع الضيّقة. جلست مانويلا على درج الكنيسة وسمعت وقع خطى ميندوزا طويلاً قبل أن تراه.

ـ مساء الخير سينورة. منذ الصباح وأنا أحاول التحدّث إليك دون جدوى فأنت دائماً في رفقة أحدهم.

قاطعته بنبرة حادّة:

ـ هل معك جواب جلالة الملكة؟

ـ نفّذت كلّ ما أمرتني به وأوصلتُ الرسالة إلى فراي توركيمادا الذي أكّد لي أنّه يقوم بكلّ ما يلزم لإخبار جلالتها في أقرب الآجال. للأسف. . .

مال برأسه وكأنّه يريد الإلحاح على أسفه وارتباكه لكنّه في الحقيقة كان يعرف تماماً ماذا عليه أن يقول. وصلته صباحاً تعليمات من المفتّش العامّ تتلخّص في كلمات معدودة: لا سبيل إلى تخلّي دونا فيفيرو عن مهمّتها ولا سبيل إلى جواب من جلالة الملكة. جلالتها يتعذّر الوصول إليها. كانت العبارة الأخيرة مسطّرة مرّتين. اصطنع هيئته الأكثر أسفاً ليقول:

ـ كان لابدّ من إرسال البريد إلى بلاد الأندلس حيث هي الآن وأنت تعرفين صعوبة تنقّل البريد هذه الأيّام.

ـ كفّ عن اللفّ والدوران يا ميندوزا وقل لي معك جواب من جلالة الملكة أم لا؟

ـ هذا ما كنت أشرحه لك يا دونا فيفيرو. لم تطّلع جلالتها على رسالتك حتّى الآن ومن ثمّ...

ـ من ثمّ لا حاجة بي إلى الجواب. ما دمت تؤكّد لي أنّ رسالتي في الطريق إليها فهذا يكفيني. أعتبر نفسي قد قمت بواجبي وأنا منذ الساعة غير معنيّة بهذه المسألة.

ـ لا يمكنك فعل ذلك... فراي توركيمادا... الكتاب...

حاول العثور على الكلمات دون جدوى.

ـ لا داعي إلى الإلحاح فقد حسمتُ أمري.

ـ وعلى ماذا عزمت؟

ـ سأعود إلى بيتي في طليطلة.

ـ طليطلة؟ يعني أنّك تتخلين عن الآخرين؟

ـ أجل.

ـ وهل يعلمون بذلك؟

ـ ولماذا أُعلمهم. إنّه قرار يخصّني وحدي.

تصلّبت ملامح ميندوزا بشكل يكاد لا يبين.

ـ ما تزمعين القيام به أمر شديد الخطورة يا سينورة. نحن في نهاية الرحلة، فبعد قرباكة وغرناطة...

قاطعته وقد هزّتها الدهشة:

ـ ماذا؟ كيف عرفت كلّ ذلك؟ من حدّثك عن هذا؟

تظاهر الرجل ذو وجه العقاب بالتمسكن.

- لم أقم بغير الواجب يا سينورة. لقد سمعتكم تتحدّثون هذا الصباح.

واصل في السياق نفسه.

- بالمناسبة، يُخيّل إليّ حسب ما فهمت أنّ الأمور لا تسير على ما يُرام.

نظرت إليه شزراً محاولة كتمان غضبها.

- هذا صحيح. ولك في هذا السياق ان تخبر فراي توركيمادا بأنّ خارطة ابن برول ناقصة ومن ثمّ لن يصل أحد إلى الكتاب.

غمغم ميندوزا:

- هذا... هذا مستحيل.

عاود الإلحاح:

- إذنْ فلماذا يصرّون على الذهاب إلى قرباكة؟

- لا أدري ولم أعد معنيّة بكل هذا على أيّ حال. الوداع سينور ميندوزا.

كتم غضبه وردّ على تحيّتها بغمغمة غامضة. هكذا قرّرت هذه المغرورة أن تتمرّد على أوامر المفتّش العام مخاطرةً بمصداقيّة الديوان والكنيسة فضلاً عن إهانته هو ألفونسو ميندوزا والتعامل معه كأنه تافه حقير. ظلّ يتململ في مكانه دون أن تفارق عيناه الزاوية التي اختفت خلفها. ودون أن يتعمّد ذلك انزلقت يده إلى جيبه الداخلي وداعبت أصابعه الغمد الجلديّ الذي ينام داخله خنجره الوفيّ.

- مانويلا.

انتفض قلبها في صدرها حتّى أيقنت بأنّه سيتوقّف. أمسكت قبضة بذراعها وأجبرتها على الالتفات لتجد نفسها وجهاً لوجه مع فارغاس.

ـ رافائيل. . . ماذا تفعل هنا؟

قال بحزم:

ـ هيّا. . . لنبتعد.

أطاعته دون نقاش.

سحبها أماماً حتّى صارا على مشارف ساحة مثلّثة تحيط بها الأقواس. عبرا الساحة وسارا بضع خطوات ثمّ توقف فحذت حذوه. هل فعل ذلك عن ترصّد وإضمار؟ كانا أسفل البرج المائل حيث سقط البنّاء المسكين. هزّها بقوّة من كتفيها.

ـ لماذا؟

ـ لماذا يفعل أحدنا أشياء تتسبّب في هلاكه؟

ـ لأسباب عديدة: الجنون. . . الغباء. . . الطموح. . .

ـ أمّا أنا فقد فعلتُ ما فعلتُ لأسباب ثلاثة: صداقتي لامرأة وإيماني بكنيستنا المقدّسة وعشقي لإسبانيا.

ـ كنت أتمنّى أن أظلّ وفيّاً لاتّفاقنا لكنّ ما سمعته قبل قليل لا يسمح لي بذلك. طبعاً لا شيء يجبرك على. . .

ـ سأبوح لك بكلّ شيء فلم يعد لديّ ما أدافع عنه.

عرضت عليه الحكاية بالتفصيل. ببطء وبصوت متهدّج. تحدّثت عن لحظات الطفولة المتقاسمة مع تلك التي أصبحت ملكة إسبانيا وصاحبة اليد البيضاء على أخيها. تحدّثت عن الفراغ الذي كانت تعيش فيه وعن إحساسها بأنّها كانت شبه ميتة. كان صوتها يتماسك مع تقدّمها في التحرّر من السرّ الذي جثم على صدرها وخنق أنفاسها وكانت تشعر باستعادة قواها كلّما سارت في طريق الاعتراف. خُيّل إليها أنّها تمحو باعترافها كلّما حدث قبل تلك اللحظة وكأنّ سيلاً من المياه النقيّة الطاهرة يتدفّق على

روحها كانساً ساعات الخداع والأكاذيب وكلّ المظاهر التي لوّثتها. وما أن انتهت من حديثها حتّى شعرت بأنها استعادت أخيراً ما كانت تحرص عليه أكثر من أيّ شيء آخر. السلام مع نفسها.

ـ هل فهمت الآن؟

لم تطرح السؤال طلباً لغفرانه. طرحت السؤال كي تسمعه يطمئنها. كانت مقتنعة في سرّها بأنه لا يمكن أن يحاكمها بسبب ما فعلت. لكنّه لم ينبس بكلمة. أخذت ملامحه تتغيّر أمامها بشكل لا يُصدّق. ارتسم قناع من الشمع على وجهه ثمّ أخذ القناع يتلاشى رويداً رويداً تاركاً المكان لوجه معذب لم يسبق أن رأت له مثيلاً. هل يُعقل أن لا يصدّقها؟ همست:

ـ رافائيل... هل يمكن أن تتصوّر ولو للحظة أنّي...

ـ يا لك من ممثّلة بارعة يا دونا فيفيرو... يا لك من عبقريّة فذّة... أيّ قدرة وأيّ عناية بالتفاصيل؟

أرادت أن تدافع عن نفسها لكنّ حلقها غصّ بالكلمات. أضاف وقد ارتسم على طرف شفتيه ما يشبه التكشيرة:

ـ وكلّ ذاك العطف السخيّ، كلّ ذاك التفهّم، كلّ ذاك اللعب الدنيء على المشاعر والأحاسيس.

تحوّل صوته إلى نوع من الصراخ... إلى مزيج من الثورة والحزن العميق.

ـ أحبّك... هل نحن المسودّة أم اللوحة المنجزة؟ أنا ملكك... أمّا أنت فملك الربّ والكنيسة...

مدّت يدها في اتّجاهه في محاولة يائسة لإبعاده عن حافة الجنون لكنّه تراجع مبتعداً عنها.

ـ أنت تملكين خبث الشيطان يا دونا فيفيرو. ومن بين كلّ الأشخاص الذين صادفتهم أنت الأكثر نفاقاً ومراوغة. كيف أمكن لك؟ كيف أمكن لك اللعب بي وخداعي بكلّ تلك القدرة على الإقناع؟ والكارثة أنك كدت تنجحين في إبعادي عن دافعي الوحيد للحياة، وعن مهمّتي. مهمّة أكثر قداسة بكثير من العصابات التي تدورين في فلكها.

ـ توقّف أرجوك. هذا خطأ. كلّ هذا خطأ.

ـ أعرف ذلك للأسف..

انقضّت على يده فتشبّثت بها وكأنّ حياتها متعلّقة بها.

ـ اسمعني أرجوك. أتوسّل إليك. صحيح أنّي غششت وكذبت ولكنّ كلّ شيء تغيّر منذ وقعت في حبّك. وإلاّ فلماذا أتراجع وأتخلّى عن كلّ شيء مخاطرةً بخسارة الصديقة الوحيدة التي اكتسبتها في حياتي، ومخاطرةً بالتنكّر لكلّ ما آمنت به؟ أرجوك صدّقني.

هزّ رأسه جامداً.

ـ آسف يا سينورة. فات الأوان.

كرّر:

ـ فات الأوان.

ـ ولكنّي أحبّك. ألا تفهم؟ رافائيل أنا احبّك. حين كنت أسمعك تتحدّث عن تلك اللحظات النادرة التي نحسّ فيها يقيناً بأنّ الآخر جزء لا يتجزّأ منّا، وأنه يكمّلنا، لم أكن أرغب إلاّ في الهتاف بأنّك تمثّل كلّ ذلك في نظري، وأنّك حقّا ذاك الآخر.

خفت صوتها وأطلقت سبيل يده وكأنّها هرمت فجأة بألف سنة.

ـ هذا ليس عدلاً.

نظر إليها بازدراء. نظر إليها طويلا. لم تتغيّر ملامح وجهه. ظلّت تعكس نفس البرودة. نفس إرادة الطفل العنيد.

ـ أنصحك بالرحيل، وهو ما كنت تفكّرين فيه على أيّ حال.

صرّ على قبضتيه.

ـ ليس إيهامك لي بأنّك تحبّينني هو ما آلمني أكثر. ما آلمني أكثر هو أنّك جعلتني أشكّ في حقيقة مهمّتي.

أمسكت أنفاسها حتى بدا أنّ وحشاً كاسراً تسلّل إلى داخلها وأخذ يمزّق أحشاءها.

ـ حقيقة مهمّتك فراي فارغاس أم حقيقة هروبك؟

الفصل ٣١

تظلّ الحقائق التي يكتشفها العقل عقيمة.
ويظلّ القلب وحده قادراً على إخصاب الأحلام.
(أناتول فرانس)

هتف ابن سراج ساخطاً:

ـ لقد تبخّرت حقّاً.

داعب عزرا لحيته بيده.

ـ لا أفهم. هل خدعتنا طيلة هذا الوقت؟ هل كانت صداقتها لابن برول مجرّد كذب واختلاق؟

التفت ناحية فارغاس:

ـ هل لديك تفسير للأمر؟

ـ سبق أنّ حذّرتكما.

ـ حذّرتنا ممّاذا؟ إذا كانت السينورة لم تلتحق بنا إلاّ لإيذائنا فقل لي متى عبّرت تصرّفاتها عن ذلك؟ أرى على العكس أنّها وقفت معنا أكثر من مرّة وساعدتنا بل وأبدت الكثير من التعاطف تجاهنا. هل تريد أن أذكّرك بما فعلته عند إلقاء القبض عليّ؟

قاطعه فارغاس بحدّة:

ـ الوقائع تقول إنّها هربت.

ـ وذاك ما هو غير مفهوم.

قال ابن سراج:

ـ الربّي على حقّ. لا معنى لهذا التصرّف.

أطال النظر إلى الراهب متشكّكاً ثمّ سأله:

ـ ألا تكون وراء اختفاء السينورة؟

ـ كفّ يا ابن سراج عن التلميح الأحمق. أنت والربّي لا تفهمان تصرّف هذه المرأة أمّا أنا فأراه عين المنطق. إنّها لم تملك يوماً المفتاح المزعوم الذي يُفترض أن يقودنا إلى الكتاب. وكلّ ما قالته في هذا الصدد أكاذيب. وحين رأت أنّ الفخّ يوشك أن يطبق عليها لم تجد حلاً غير الفرار.

قال عزرا:

ـ حسناً. فبأيّ سحر عرفت هذه المرأة حلّ القصر الثالث؟ برغش؟ لقد قالت لنا إنّ المدينة المقصودة هي برغش أليس كذلك؟

ـ لا أعرف كيف اهتدت إلى ذلك. كلّ ما أعرفه أنّ علينا الآن الذهاب إلى قرباكة بالرغم عن كلّ شيء، ثمّ يكون لكلّ حادث حديث.

قال الشيخ

ـ ذاك ما اتّفقنا عليه. لكنّك تعرّضت الآن إلى ما أسميتَه أكاذيب السينورة، وإذا كنتَ على حقّ فإنّ عليك أن تضيف إلى تلك الأكاذيب رسالة ابن برول المزعومة. فلا شكّ أنّها كانت رسالة مزيّفة. مزيّفة بإتقان شديد لا يُصبح معقولاً إلاّ إذا كان المزيّف قد حصل على الوثائق التي سرقها منّي خادمي السابق غفر الله له. وفيها حلّ القصر الثالث. أي أنّ أحدهم ولأسباب غامضة لقّن السينورة كلّ ما خدعتنا به. لقد تمّ استغلالها للوصول إلينا ومن ثمّ للوصول إلى الكتاب. وقد يكون تمّ إجبارها على

ذلك بالرغم عنها. أمّا الذين وقفوا وراء كلّ هذا فلا شكّ أنّهم لن يقفوا عند هذا الحدّ. ولا شكّ أنّهم ماضون بخطّتهم إلى نهايتها.

أنهى كلامه بنبرة داكنة:

ـ هذا يعني أنّ حياتنا منذ الآن في خطر.

قال عزرا معترضاً:

ـ أعتقد أنّ حياتنا لن تصبح في خطر إلاّ إذا عثرنا على الكتاب. ولكنّنا نعلم وفق معطياتنا القليلة أنّ نجاحنا بات مشكوكاً فيه. وإذا صحّ الدور الذي ننسبه إلى هذه المرأة فلا شكّ أنّ شركاءها يعرفون ذلك أيضاً. ومن ثمّ فلا خطر علينا حتّى يأتي ما يخالف ذلك.

ردّد ابن سراج.

ـ حتّى يأتي ما يخالف ذلك. هذا صحيح.

خفض عينيه متأمّلاً في الأرض ثمّ أضاف شارد الذهن:

ـ ممّا يعني أنّ لدينا وسيلة لتجنّب الهلاك.

سأله الربّي:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن نتخلّى عن البحث وأن نعود فوراً إلى غرناطة.

هتف فارغاس:

ـ أنت لست جاداً أليس كذلك؟

ـ صحيح أنّي لست جاداً. وإذا كان لابدّ من الموت فليكن بعد أن نطّلع على الرسالة الإلهيّة.

انكمشت أصابع الفرانسيكانيّ على الصليب المتدلّي فوق صدره.

ـ ليسمع منك الربّ.

تكلّمَ بصوت مرهق مهزوم ثمّ تماسك قليلاً وأضاف:

ـ الصليب المقدّس ينتظرنا في قرباكة، ويكفي ما أضعناه من وقت.

*

أرخت مانويلا العنان لمطيّتها مستسلمة لهواجسها غافلة عن كلّ ما حولها. لم تنتبه إلى الهاوية المحاذية ولا إلى المرتفعات المسنّنة التي تختفي وراءها قرية كانييطة. في الرياح التي كانت تلفح وجهها لم تكن تتبيّن إلاّ وجه فارغاس، وجهه القاسي الذي لا يعكس شيئاً غير عدم الفهم والرغبة في تدمير كلّ ما لا يستطيع بناءه. لا يعني رفضُه تصديقَها إلاّ أمرا واحداً: أنّه يرفض الواقع. لقد عجز عن تجاوز فشله مع كريستينا ريباديو فنفى نفسه إلى الصمت الكنسيّ رافضاً الاعتراف بأنّ الجلبة التي تصمّ وجوده ليست قادمة من الخارج بل هي طالعة من داخل قلبه. صدّت رغبتها في البكاء. لم يحدث لها يوماً أن شعرت بأنّها قريبة من السعادة الكاملة مثلما شعرت بذلك وهي معه. وها هي تحاول عقلنة يأسها منذ غادرت طرويل. لو أنّها تستطيع احتقاره. لم تكن خبيرة بشؤون الحبّ لكنّ هاتفاً يهمس في داخلها بأنّ الاحتقار هو السلاح الوحيد الذي يتيح لنا أن نحرق من عبدناهم. اعترتها مرّة أخرى رغبة في البكاء فلم تحاول صدّها.

ستعود إلى طليطلة ثمّ ماذا؟ كيف تجد معنى لحياتها؟ في الأدب؟ في الفنون؟ في الركض بمحاذاة نهر تاجة؟ في حفلات البلاط؟ لن يكون لحياتها معنى ما دامت خالية من المهمّ: شخص يقاسمها تلك الحياة. ما قيمة جمال مشهد إذا لم يهزّ روحاً أخرى تعتبرها توأماً لروحها؟ ما قيمة لوحة رائعة أو كتاب رائع إذا لم تتقاسم تلك الروعة مع أحد؟ صحيح أنّها ستكون حرّة ولكن ما جدوى الحريّة إذا كانت لا تقود إلى شيء؟ أعمتها الدموع فلم تنتبه إلى الفارسين أو لعلّها لم تكترث لهما ولم تشعر بالخطر

إلاّ حين أصبحت على بعد بضع قامات منهما. كانا يعترضان طريقها فأوقفت حصانها فوراً ورأت أحدهما يكشّر عن ابتسامة ساخرة. ميندوزا. . .هنا؟ أخرستها الدهشة فنطقت بالاسم في سرّها.

- مرحباً سينورة.

لزمت الصمت وظلّت تتفحّص الرجلين مستنفرة كلّ حواسّها.

غمز الرجل ذو وجه العقاب ناحية شريكه وقال ساخراً:

- فارسة لا يشقّ لها غبار أليس كذلك؟

أومأ الآخر موافقاً بسخرية ظاهرة. استعادت مانويلا رباطة جأشها فسألت بحزم:

- ماذا تفعل هنا يا ميندوزا؟ أليس المفروض أن تكون خلف طرائدك؟

- وأنت يا سينورة؟

- تعرف جيّداً أنّي في طريقي إلى طليطلة.

أطلق ميندوزا صفرة.

- فارسة بارعة وشخصيّة قويّة. حقّاً أنت امرأة استثنائيّة يا سينورة.

تحوّلت الابتسامة إلى تكشيرة.

- لكنّ هذا كلّه انتهى الآن. . .لقد تلقّيت أوامر محدّدة.

- أوامر؟

وضع يده على حزامه وأشهر خنجراً لمع نصله تحت الشمس.

- ثقي بأنّي دافعت عنك قدر الجهد لكنّ هربك أغاض المفتّش العامّ.

تكلّم بنبرة دبقة تكشف عن كلّ نفاق العالم. انتفض قلب مانويلا بشدّة في صدرها وانكمشت أصابعها المبلّلة على العنان والتصقت ركبتاها بجنبي الحصان. هل يُكتب لها أن تموت هنا؟ وعلي يدي هذا السافل؟

ـ ترجّلي يا سينورة ولا تحاولي الفرار فأنا أصيب فرخ الحجل على بعد مائة خطوة.

التفت إلى صاحبه:

ـ أليس كذلك أميغو؟ قل للسينورة.

لم يعد أمامها مجال للتردّد. أشبّت الحصان فرفع قائمتيه الأوليين بعنف شديد كاد يطيح بميندوزا ثمّ نخسته وأرخت له العنان فانطلق كالسهم من الفجوة الصغيرة التي كانت تفصل بين الفارسين. فوجئ الرجلان إلاّ أنهما سرعان ما انطلقا في إثرها. مالت مانويلا على عنق مطيّتها وأسلمت لها القياد فبدت وكأنّها تسبح في الفضاء دون أن تلامس حوافرها الأرض. اعترضها حاجز من الزعرور فتجاوزته بمرونة ولاحت لها هضبة مرصّعة بالنتوءات الصخريّة فتسلّقتها بيسر ثمّ انحدرت من الجهة الأخرى بنفس السرعة فبدا كأنّ شيئاً لا يمكن أن يعوقها. كانت تبدو في هربها وكأنّها تريد أن تلتحق بالسماء المشدودة فوق.

ألقت نظرة خاطفة من فوق كتفها إلى مطارديها فرجّحت أنّ حصانيهما أقلّ سرعة من مطيّتها لكنّهما أفلحا مع ذلك في البقاء على مسافة قصيرة. كم تستطيع المحافظة على هذا النسق الجنونيّ؟ وإلى أين؟ قرية كانييطة بعيدة وحيثما ولّت الوجه لم تر أثراً للحياة في الأنحاء. اصطدم أحد الأغصان بوجنتها وكانت مشغولة بهواجسها فلم تحسّ بالألم. الإحساس الوحيد الذي كان يغلب عليها هو الفزع والرعب من أن يلحق بها الرجل ذو وجه العقاب. مرّت ساعة وأخذ حصانها يتعب. التفتت مرّة أخرى فرأت مطارديها على نفس المسافة بل لعلّهما اقتربا منها أكثر. هل يُعقل هذا؟ هل تموت بهذه الطريقة العبثيّة؟ فجأة خرّت الأرض من تحت حوافر جوادها فكبا وألقى بها أرضاً بعنف شديد. هل كانت حفرة أم جذع شجرة؟ كانت عاجزة عن تحديد العائق الذي تسبّب في كبوة جوادها.

اصطدمت وجنتها بحجر وهبط على عينيها الضباب. كانت صورة ميندوزا وهو يقترب آخر الصور التي دارت في مخيّلتها وهي تحاول النهوض دون جدوى. أخذ قلبها يدقّ بقوّة وأخذ الدم يفور في رأسها حتّى شعرت بأنّها على حافة الانفجار. عرفت أنّها على وشك الإغماء وقبل أن تسقط في العتمة بلحظة سمعت صوتاً مفزوعاً يهتف:

ـ سينورة؟ هل أنت بخير؟ هل تستطيعين النهوض؟

حاولت أن تتثبّت من مصدر الصوت فتبيّنت أطياف فرسان ببزّات عسكريّة يتحلّقون من حولها، تعرّفت فيهم على جند جلالة الملكة إيزابيل ملكة قشتالة. عندئذ كفّت عن المقاومة واستسلمت للغيبوبة.

*

لوّن شفق الغروب السماء المشدودة كاللحاف على السهل المقفر فلم يَبْدُ من المشهد إلاّ لطخات غامضة الشكل. اختاروا جمّيزة كثيفة الأغصان فتوقّفوا عندها للاستراحة بإلحاح من عزرا، على بعد فراسخ من قرية البرج الأسفل المحاذية لنهر طوريّة. بعد برهة أطلّ عليهم الهلال شبيهاً بجرح فضيّ لن يلبث أن يلتحق بكوكبة النجوم الساهرة. اتّجه ابن سراج إلى القبلة وشرع في الصلاة. وما أن فرغ منها حتّى طوى سجّادته والتحق بعزرا وفارغاس وجلس بينهما. قال الربّي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيّة:

ـ أرى أنّك عدت إلى الصلاة بقوّة.

ثمّ خشي أن يحتجّ عليه الشيخ فقال بسرعة:

ـ الأمر صحيح بالنسبة إليّ أيضاً.

ثمّ أضاف ملتفتاً إلى الفرانسيسكانيّ:

ـ بل هو صحيح بالنسبة إلينا كلّنا.

اعترف الراهب بدقّة ملاحظة الربّي فقد شعر منذ مغادرتهم طرويل برغبة عارمة في توثيق حواره الخاصّ مع ربّه وأصبحت عبارة «أبانا الذي في السماوات» أقرب إلى شفتيه من أيّ عبارة أخرى. ولم تبد له عبارة «لتكن مشيئتك» أعمق وأكثر إشعاراً بالطمأنينة ممّا بدت له في الساعات الأخيرة. خفتت الرياح الحارّة وأخلت المكان إلى سكون منعش. عقّب ابن سراج:

- وما الغرابة في أن يلجأ الإنسان إلى خالقه حين يعدم الأجوبة على أسئلته؟

أجاب عزرا:

- لا غرابة ولكن هل يسمع لنا الخالق في هذه المرحلة من رحلتنا؟ ولو أجابنا هو هل نسمع إليه نحن؟ لقد أرشدنا بواسطة عبده ابن برول إلى الطريق المفضية إلى رسالته لكنّه في الوقت نفسه جعل هذه الطريق غير سالكة.

قال فارغاس فجأة:

- ربّما لم تكن عبارتك دقيقة يا رِبّي فالأفضل أن تقول إنّها طريق غير واضحة. ولكن لماذا فقدنا الثقة بالربّ على الرغم من أنّنا لا ننقطع عن ذكره؟ لقد أعمت بصيرتنا هذه الكلمة **برشيت** وكأنّ أملنا خاب إذ عادت بنا إلى نقطة بداية رحلتنا فداخلنا الشكّ. علينا أن نعترف بأنّنا في المدّة الأخيرة وربّما بسبب الإرهاق الجسدي والذهني قد أهملنا التوجّه إلى مولانا، ناسين أنّنا لم نخض هذه الرحلة إلاّ وفي يقين كلّ منّا أنّ الربّ اختاره كي يكون أميناً على حدث معجز. فهل أنيط مثل هذا الدور إلاّ بعهدة أناس من طينة خاصّة؟ أقصد الأنبياء أكان اسمهم موسى أم عيسى أم محمّداً. الرأي عندي ونحن أمام هذا المأزق أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: هل مازلنا جديرين بالمهمّة المقدّسة التي أناطها الربّ بعهدتنا؟

أجابه الشيخ فوراً بتواضع عميق:

- رافائيل يا صديقي، وهل كنّا يوماً جديرين بهذه المهمّة؟ تحدّثت قبل قليل عن أناس من طينة خاصّة فهل تعتقد حقّاً أنّك أنت أو عزرا أو أنا من هؤلاء الرجال الاستثنائيّين؟ لقد طوّحت بنا الظنون كلّ تطويح. لم يضعف إيماننا ولكنّنا اعتمدنا على علمنا وحده، ودون أن نشعر آمنّا بقدرة المعرفة ناسين حقيقة جوهريّة: أنّ العقل أقرب إلى البشر وأنّ القلب أقرب إلى الربّ.

مرّت برهة من الصمت قبل أن يستأنف ابن سراج الكلام.

- ما دمنا تحدّثنا عن العقل، فلنفكّر قليلاً في نصّ القصر المرتبط بقرباكة. **في المدينة التي شهدت ظهور الصليب المقدّس. حيث استراحت خيول أنداد الفتى. يُوجد أيضاً الـ٣. ما من أحد يشرب من هذا الماء إلاّ عطش من جديد.** إنّ كلمة «فتى» هي التي قادتنا إليك يا فارغاس وهذا يعني أنّ الإشارة في هذا النصّ تتعلّق بك شخصيّاً. أليس كذلك؟

أومأ فارغاس موافقاً.

- فكّرتُ في هذا الأمر والظنّ عندي أنّ عبارة **أنداد الفتى** تعني واحداً من أمرين: إمّا أنّهم إخوتي في الفرانسيسكانيّة وإمّا أنّهم أسلافي فرسان الهيكل. ولن نحسم أمرنا إلاّ بعد أن نصير على عين المكان. أمّا حديثه عن الماء والعطش فأعتقد أنّه على صلة بلقاء المسيح بالسامريّة وإن لم يحن الوقت لتأكيد ذلك.

زوى ابن سراج ما بين حاجبيه.

- الفرانسيسكان أم فرسان الهيكل؟ الدير أم الحصن؟

التفت الشيخ ناحية عزرا يسأله عن رأيه لكنّه أحجم عن ذلك. كان الحبر قد اغتنم فرصة حوارهما ليشرع في الصلاة.

داهمهم الفجر في الطريق. بعد البرج الأسفل مرّوا بألياغيلا ثمّ ساروا على امتداد ثلاثة أيّام حتّى عبروا نهر جبريل ودخلوا بياطويا يوم جمعة فمكثوا فيها نزولاً عند رغبة عزرا احتراماً للسبت ولم يغادروها إلاّ صباح الأحد. في مساء اليوم نفسه كانوا على مشارف آلباسيت التي أصرّ ابن سراج طوال الرحلة على تسميتها باسمها العربيّ: البسيط.

ضلّوا طريقهم لفترة وتاهوا في سباخ عفنة لم تنفع لتجفيفها جهود السقي والشفط التي بذلها العرب على امتداد قرون. أصابهم الدوار بسبب الروائح العطنة المنبعثة في بعض الأماكن من بين الأعشاب والقصب. هل هو الإرهاق أم الهواء الخانق أم لأنّه أضعف الثلاثة؟ هوى الحبر من على دابّته وغطس في المياه الموحلة ولولا فارغاس وابن سراج لمات غرقاً دون شكّ. جرّداه من ملابسه وألقيا بها بعيداً لفرط نتونتها ثمّ اقترح عليه الفرانسيسكانيّ مسوحاً والعربيّ جبّة كي يستر عريه فاختار الجبّة دون تردّد.

أمضوا الليل في المدينة وانطلقوا من الغد مجتازين حقول الزعفران المنثورة مثل بُسُطٍ شمسيّة قاصدين طوبارة. بعد مسيرة يومين وعلى مقربة من لاس ميناس اكتشفوا أوّل مظاهر الحرب. ضيعات مخرّبة ومحاصيل محروقة وفلاّحون عرب جالسون على قارعة الطريق وقد زاغت أبصارهم. بدت المشاهد شبيهة بتلك التي رأوها قبل أسابيع عند مغادرتهم غرناطة. وكانوا على مشارف قرباكة حين لاقوا مفرزةً من الجيش الملكيّ تتقدّم نحو الأندلس. حوالي الألف جنديّ من الرجّالة والرماة والخيّالة يتقدّمون في صفوف متفاوتة الانتظام وفي مؤخّرتهم دوابّ تجرّ المنجنيقات. همس ابن سراج بصوت عقده الخوف:

ـ لنبتعد عن طريقهم.

قال فارغاس ناصحاً:

ـ لنهدأ فليس لهؤلاء أيّ داع للاهتمام بثلاثة مسافرين عزّل.

ـ لا تكن ساذجاً ففي مثل هذه الأيّام ليس لبني جنسي أيّ مصلحة في إثارة الاهتمام سواء أكانوا مسلّحين أم عزّلاً. وأنا لا أرغب في أن أموت مشنوقاً أو مقطوع الرأس. إضافةً إلى أنّنا لم نخبرك بأنّنا كدنا نُقتل في طريق الرابطة علي أيدي مفرزة من جند بني نصر.

قال عزرا مؤكّداً:

ـ الشيخ على حقّ، ولو لم يكن من آل سراج لكنّا الآن من المفقودين.

رضخ فارغاس للأمر وكان يهمّ بتغيير مسار جواده حين دوّى الصوت بلهجة آمرة:

ـ قفوا مكانكم.

انقشعت سحابة كثيفة من الغبار عن مجموعة من الخيّالة التابعين للمفرزة.

ـ إلى أين؟

اقترب منهم أحد الفرسان فتولّى فارغاس الإجابة:

ـ إلى قرباكة.

ثمّ عنّ له أن يضيف:

ـ من أجل الزيارة.

لاحظ الجنديّ مسوح الراهب فسأل بلهجة أقلّ حدّة:

ـ من أجل الزيارة أيّها الأب؟ زيارة من؟

ـ يا له من سؤال غريب على لسان أحد أبناء المسيح. ألا تعلم يا ولدي أنّ الصليب المقدّس قد ظهر في قرباكة منذ قرنين؟

أشعّت عينا الجندي ببريق الريبة.

ـ وأنتما أيّها السيّدان؟

قال عزرا بنبرة كلّها رصانة:

ـ الأخ فارغاس أجابك منذ حين. نحن ذاهبان إلى زيارة المكان الذي ظهر فيه إعجاز سيّدنا المسيح للصلاة من أجل أن يتوب الكفرة.

استقام الجنديّ في جلسته على سرجه ليتفحّص هندام ابن سراج وعزرا.

ـ أنتما عربيّان...

كانت النبرة أقرب إلى التأكيد منها إلى الاستفهام.

ـ قل لي أيّها الأب، منذ متى يُبدي المسلمون ولاءهم للصليب؟

أجابه الفرانسيسكانيّ دون أن يفقد رباطة جأشه:

ـ منذ دخولهم في الدين الصحيح. وهو حال أخوَيّ.

ثمّ تلا بخشوع:

ـ إنّه هكذا يكون فرحٌ في السماء بخاطئٍ واحد يتوبُ أكثر من تسعةٍ وتسعين بارّاً لا يحتاجون إلى توبة.

بدت على ملامح الجنديّ علامات التردّد وظلّ يحدّ البصر في الربّي وابن سراج. لا يعرف لماذا كان يحسّ في هيئتهما بشيء مريب. ولو لم يكونا في صحبة الراهب لألقى عليهما القبض دون تردّد ولكنّ آباء الكنيسة تحوّلوا في هذا الزمن إلى جند للإيمان شأنهم في ذلك شأن فرسان الجيش، وسيكون من الخطل أن يزعج أحدهم دون موجب حقيقيّ. أخيراً قال على مضض:

ـ حسناً أيّها الأب. تابعوا طريقكم في حماية الربّ ولكن أوصيكم بالحيطة.

أضاف وهو ينظر شزراً إلى الشيخ:

ـ فالكفرة في كلّ مكان.

تحرّكت الكوكبة بإشارة منه في اتّجاه الشرق. انتظر العربيّ أن يبتعدوا بما فيه الكفاية كي يتلو بصوت مرعد:

ـ ***وأعِدّوا لهم ما استطعتُم من قُوّة ومن رباط الخيل تُرْهبون به عدوّ الله وعدُوكم.*** صدق الله العظيم.

قال عزرا:

ـ لنذهب. أتعجّل الوصول إلى قرباكة للتخلّص من هذه الجبّة.

ـ سأله الشيخ متبرّماً:

ـ وما الذي يزعجك فيها؟

ـ ها أنت ترى بعينك. بالجبّة أبدو عربيّاً.

ـ وبالهندام الإسبانيّ ومهما فعلت ستبدو يهوديّاً.

ـ ربّما كان ذلك صحيحاً لكنّها مسألة أولويّات. وعليك الاعتراف بأنّ من الأفضل في الساعات القادمة أن أكون يهوديّاً لا عربيّاً.

ارتسمت على شفتي الشيخ ابتسامة مرّة.

ـ لم يبق أمامي إلاّ أن أرتدي مسوح الرهبان.

دير أم حصن؟ اتّضح أنّ فرضيّة فارغاس الثانية هي الصحيحة. فحين وصلوا إلى قرباكة بعد ثلاثة أيّام شاهدوا أسوار قلعة أو بالأحرى أنقاض قلعة. وما أن سألوا بعض السكّان حتّى قيل لهم إنّها كانت مقرّاً لفرسان الهيكل قبل حوالي المائتي عام. أمّا اليوم فقد أصبحت ملاذاً لأسراب الحجل وعصفور التين.

عبروا إلى ساحة الحصن المهجورة فأحس ثلاثتهم برهبة غامضة وغلب عليهم الاعتقاد بأنّ مصير رحلتهم مرتهن بهذا المكان. في أحد أطراف الساحة تبيّنوا من تحت الركام والأعشاب الطفيليّة واجهة حجريّة مهدّمة وبقايا وصلة كانت في ما يبدو جداراً رابطاً بين برجين مربّعي

الأضلاع قاما شرق المكان وغربه. إلى اليمين اكتشفوا ما يشبه الرواق المقام على دعامات حجريّة انهارت كلّها ولولا ما بقي تحت ركامها من معالف أغلبها مكسور إضافة إلى بعض المعالق، لما انتبهوا إلى أنّهم أمام إسطبلات قديمة. **حيث استراحت خيول أنداد الفتى. يُوجد أيضاً الـ٣.**
أخذ فارغاس يفكّر بصوت عال وهو يتفحّص المكان.

ـ إذا كان ابن برول يريد مساعدتنا فلا شكّ أنّه يعني هذه الإسطبلات بحديثه عن المكان الذي استراحت فيه الخيول.

بحث لنفسه عن مسلك وسط الردم وكان قد توقّف أمام معلف معدنيّ هزّأه الصدأ حين سمع عزرا يسأل:

ـ أين نبحث؟

فكّر الراهب لحظة ثمّ قال:

ـ بئر. لابدّ أنّ ثمّة بئراً في هذا المكان.

لم يبد على رفيقيه أنّهما فهما قصدَهُ فشرح لهما فارغاس الأمر:

ـ **ما من أحد يشرب من هذا الماء إلاّ عطش من جديد.** ألم أقل لكما قبل أيّام إنّ هذه العبارة قد تكون مرتبطة بلقاء المسيح بالسامريّة؟ لقد تمّ هذا اللقاء في. . .

هتف الربّي:

ـ في بئر يعقوب.

ـ هو ذاك. *فقالت له المرأةُ يا سيّدُ لا دلْوَ لكَ والبيرُ عميقةٌ. فمن أين لك الماءُ الحيُّ. ألعلّك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البيرَ وشرب منها هو وبنُوهُ ومواشيهِ. أجاب يسوعُ وقال لها، كلّ من يشرب من هذا الماء يعطشُ أيضاً. ولكن من يشربُ من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطشَ إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه. . .*

هتف الشيخ:

ـ لا داعي للمزيد فها هي بئرك.

غير بعيد من هناك توقّف العربيّ عند قبّة صغيرة غطّتها الحشائش والأعشاب حتّى كادت لا تبين. خفّ إليه عزرا وفارغاس فاكتشفا فجوة مفتوحة على السماء عقد في ذروتها حبل من الليف الغليظ تدلّى إلى الأسفل وكأنّه وضع البارحة. كان الحبل يختفي في قاع البئر. مال الراهب على خرزة البئر فرأى الجنبات مفروشة بنباتات تتخلّل الشقوق ومن تحتها لاح الماء داكناً لا أحد يعرف مقدار عمقه. سأل الربّي:

ـ ما رأيكما؟ هل يكون المثلّث تحت الماء؟

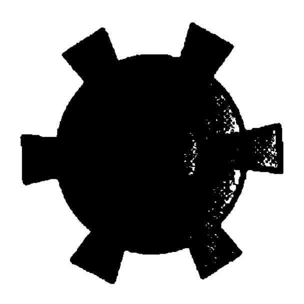
ـ ربّما...

بحذر شديد سحب الحبل فأحسّ بثقل يعيقه. ضاعف الحذر وواصل السحب إلى أن ظهر شيء دائريّ الشكل فسأل ابن سراج حائراً:

ـ ما هذا؟

ـ سنعلم بسرعة.

واصل فارغاس سحب الحبل بإيقاع أسرع وبعد لحظات كان يمسك بأسطوانة من الفخار حفرت فيها ستّ فجوات ظهر في إحداها مثلّث. المثلّث السادس.



قلب الفرانسيسكانيّ الأسطوانة فرأى في قفاها كتابة محفورة في شكل نصف دائرة:

علينا أن ننظر في داخلنا كي نرى الخارج.

قال ابن سراج:

ـ ها نحن مرّة أخرى أمام فكرة ابن برول الأساسيّة: الحفر في الباطن وفي الذات. بالأمس ألمحَ إليها بواسطة الكهف وها هو يرمز إليها اليوم بالبئر.

قال الربّي مدقّقاً:

ـ مع تفصيل إضافيّ: أنّ البئر ترمز إلى الحقيقة المخفيّة. حقيقة تتعرّى تماماً ما أن تخرج من الظلمات.

أضاف فارغاس:

ـ ولدينا هنا معلومة أخرى أكثر أهميّة. هذه الأسطوانة دليل على أنّنا وعلى العكس مما اعتقدنا لم نصل إلى زقاق. وإلاّ لماذا وضعها ابن برول هنا؟ ما كنّا لنجد هذه الأسطوانة في هذا المكان لو لم تكن أمامنا مرحلة أخرى. ثمّ انظرا جيّداً.

وضع الأسطوانة على خرزة البئر.

ـ لو تأمّلنا جيّداً في مواقع الفجوات الستّ المهيّأة لاستقبال المثلّثات الخمسة الأخرى للاحظنا أنّها ليست متباعدة بنفس المسافة الواحدة عن الأخرى. ثمّ انظرا إلى هذه الحزوز في وسط الأسطوانة.

ـ ما جدواها في رأيك؟

ـ أغلب الظنّ عندي أنّ الأسطوانة قد صُمّمت بهذا الشكل لتُعشّق وتُشبك بعنصر آخر.

ـ تعني أنّ هذه الأسطوانة قد تكون مفتاحاً؟

ـ أعتقد ذلك. لهذا السبب قلت لكما إنّ غرناطة ليست نهاية الرحلة فما كان ابن برول يصمّم هذه الأسطوانة لو لم يرد لنا أن نستعملها.

ظلّت عيونهم لا تفارق الأسطوانة وظلّوا مشدودين إلى الفجوات الستّ بينما ظلّت عقولهم تحاول تتبّع الخيط الأخير. الخيط الأخير الذي أصبح ويا للمفارقة الخيط الأوّل: في البدء. بيريشيت.

الفصل ٣٢

أرعبني التفكير في أنّ ذاك الحلمَ كان له وضوح المعرفة. فهل يكون للمعرفة في المقابل، لا واقعيّةُ الحلم؟

(مارسيل بروست)

برغش، صيف ١٤٨٧.

منذ برهة وفرانسيسكو توماس دي توركيمادا يدير ظهره لكاتبه متأمّلاً ناقوسَي الكاتدرائيّة وكأنّه يراهما لأوّل مرّة. قال وهو يلتفت فجأة ناحية ألفاريز:

ـ لنحوصل. دونا فيفيرو خانتنا. الرجال الثلاثة عادوا إلى غرناطة. وحسب ميندوزا لا أمل في العثور على كتاب السفير.

أومأ الكاتب موافقاً ثمّ أضاف:

ـ وصلتنا أيضاً معلومات تفيد بأنّ أشخاصاً يحومون حول بيت العربيّ في حيّ البيّازين.

ـ هل حاولتم التعرّف عليهم؟

أكّد ألفاريز الأمر.

ـ سأل ميندوزا قائدهم باسم ديوان التفتيش ولكنّه لم يقابَل بغير الصمت المطبق.

ـ غريب. . . هناك إذن من يهتمّ بأمر هذا الكتاب غيرنا؟

كان يعرف أن مخاطبه لا يملك أيّ إجابة فأضاف:

ـ هذا يعني أنّهم مثلنا يريدون التحقّق من أن العثور عليه أصبح متعذّراً بشكل نهائيّ فعلاً.

عاد المفتّش العامّ إلى مكانه ووضع وجهه بين كفّيه وظلّ صامتاً لبرهة طويلة. سأل ألفاريز هل كان رئيسه يصلّي أم أنّه أصيب بمغص ثمّ فضّل من باب الحيطة أن يلوذ هو أيضاً بالصمت وأن ينتظر. أخيراً نهض توركيمادا والتفت إليه بملامح تعبّر عن ضيق شديد. صرخ فجأة:

ـ من؟

انتفض ألفاريز بالرغم عنه.

ـ من باستثنائك أنت يعلم بخبر وجود الكتاب؟ القباليّ الذي دبّج رسالة ابن برول المزيّفة والسينورة فيفيرو وجلالة الملكة وأنا؟

مرّة أخرى لم ينتظر إجابة من مرؤوسه.

ـ ومن أيضاً؟

أضاف بصوت يكاد لا يبين:

ـ نسيت. . . هرناندو دو تالافيرا.

غلبت الدهشة على ملامح الكاتب وتسارعت دقّات قلبه وداخله الرعب. هل يشكّ المفتّش العامّ في أمره؟ سأل بصوت أقرب إلى الحشرجة:

ـ فراي تالافيرا؟ هل تتخيّل أنّ. . .

ـ لا أتخيّل شيئاً لكنّي أتوقّع كلّ شيء.

انكمشت أصابعه على مكتبه.

ـ لا أظنّك نسيت ما دار بيننا من حديث هنا حين عرضتُ عليه المسألة. لقد بدأ بالتشكيك في مصداقيّة الملفّ ثمّ أبدى اعتراضه على كلّ محاولة لانتزاع الكتاب.

ـ أذكر ذلك تماماً. كما أنّي لا أنسى جوابه حين سألتَه إن كان على استعداد ليرى سقوط المسيحيّة وإسبانيا. . .لقد قال. . .

ـ أعرف ما قال.

انقبضت أصابعه حتى لاح بياض العظام من تحت جلدة المفاصل.

ـ لقد ظلّت تلك الكلمات كابوساً يجثم عليّ كلّ ليلة. ظلّت تطاردني مثل الوباء. لقد تجرّأ على القول: *ليس من حقّنا المحافظة بأيّ ثمن على هرطقة بدعوى أنّها تخدم غرورنا وكبرياءنا.*

استقام المفتّش العام في جلسته مسنداً ظهره إلى ظهر كرسيّه. استولت عليه حمّى لم يحاول كبحها وأخذت شفتاه ترتعشان وقد شوّهتهما تكشيرة.

ـ الكبرياء. إذا كان الكبرياء هو الدفاع عن الإيمان ضدّ الهرطقة ورفع أسوار في وجه العلم والغنوصيّة وإذا كان يعني إرادة المحافظة على الطريق القويمة الوحيدة من بين كلّ الطرق وإيصالها للأجيال جيلاً بعد جيل، طريق الكتابات المقدّسة في وجه كلّ الطرق الأخرى، فأنا الكبرياء. نعم. أنا الكبرياء.

توقّف عن الحديث وأشار بسبّابته ناحية كاتبه.

ـ هل تعرف ما هو الكبرياء فراي ألفاريز؟ إنّه ليس سوى اليقين بأنّنا ولدنا من أجل شيء لا يستطيعه سوانا.

ضرب على الطاولة بقبضة يده.

ـ هل تفهمني فراي ألفاريز؟ لا يستطيعه سوانا.

لاذ بالصمت واستنشق طويلاً ثمّ خفض رأسه إلى صدره في هيئة استسلام. شُلّ الدومينيكانيّ لكنّه لم يجد بدّاً من السؤال بصوت خافت بعد أن مرّت برهة طويلة:

ـ ماذا قرّرت فراي توماس؟ ميندوزا في انتظار أوامركم.

ردّ بحزم:

ـ لا تغفلوا عنهم. لا تغفلوا عنهم لحظة واحدة. لا سبيل إلى أن يقع الكتاب في أيدي غيرنا. أريد هذا الكتاب ثمّ لكم أن تقتلوا الرجال الثلاثة على عين المكان. أمّا المراقبون الآخرون فأريد أن تبيدوهم. قل لميندوزا إنّي سأضاعف عدد رجاله.

غالب الكاتب خوفه وقد رأى من الصالح أن يتثبّت.

ـ فراي توماس، لا شكّ أنّك انتبهت إلى أنّ الدلائل تشير إلى أنّ خارطة ابن برول غير كاملة. وهذا يعني أنّ انتظارنا قد يكون بلا جدوى.

ـ لا تغيير لأوامري. عليكم أن تقتلوا الرجال الثلاثة عثروا على الكتاب أم لم يعثروا عليه.

*

طليطلة، من الغد.

أُسدلت الستائر فحالت دون دخول أشعّة الشمس باستثناء شعاع صغير استطاع أن ينسلّ إلى الداخل. منذ وصوله إلى سلمنقة وهرناندو تالافيرا يجد صعوبة في تحمّل الضوء الساطع. ربّما لرغبة لا واعية في العزلة المعتمة الأكثر ملاءمة للتأمّل. انتقل بنظره من جاسوسه إلى الأب ألفاريز.

ـ أجد صعوبة في التصديق بأنّ هذه الرحلة يمكن أن تصل إلى أفق مسدود. لأيّ سبب عادوا إلى غرناطة؟

طرح نفس السؤال للمرّة الثانية.

ـ لم يعد لهم خيار.

كان ألفاريز هو الذي تولّى الإجابة.

ـ وأنت واثق من أنّهم لم يجدوا في قرباكة غير تلك الأسطوانة؟ ألم يجدوا شيئاً يشبه من بعيد أو قريب لوحاً أزرق اللون؟

ـ لم يجدوا شيئاً آخر فراي تالافيرا، أؤكّد لك ذلك.

أضاف مستبقاً سؤال المعرّف:

ـ وعلى ظهر الأسطوانة قرأ الفرانسيسكانيّ بصوت عال: **علينا أن ننظر في داخلنا كي نرى الخارج.**

كان من الصعب على تالافيرا الاقتناع بأن هذه الرحلة عبر شبه الجزيرة منذورة إلى الانفتاح على اللاشيء. ثمّة حلقة ناقصة لاشكّ أنّها فاتت الرجال الثلاثة. بقدر شكّه في البداية في إمكانيّة وجود مثل هذا الكتاب أصبح الآن على يقين من الأمر. لقد أحكم ابن برول رسم خارطته وتصميم ألغازه بما لا يسمح بتصوّر أن يفضي الأمر إلى زقاق. ثمّة حلقة مفقودة ولكن هل يهتدي إليها الرجال الثلاثة؟

غريب أمره. منذ ترأّس في سلمنقة تلك اللجنة للنظر في ملفّ البحار الجنوي وهو يستعيد باستمرار تلك الفقرة من أعمال الرسل: ***فوقف بُولُسُ في وسط أريوس باغوس وقال. أيّها الرجال الإثينيّون أراكم من كلّ وجهٍ كأنكم متديّنون كثيراً. لأنّني بينما كنتُ أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدتُ أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه. لإلهٍ مجهول. فالذي تتّقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم بهِ.*** وماذا لو أنّ أقوى تعبير عن الإيمان هو أن لا نحاول أن ننسب إلى الربّ ماضياً أو حاضراً، وأصلاً أو تاريخاً؟

توقّف أمام مكتبه ومرّ براحة يده على مساحته الصقيلة. هل يمكن لهذه الطاولة أن تتصوّر النجّار الذي أنشأها؟ أليس كبرياؤنا في تناهيه حدّ الغرور هو الذي يوهمنا بالقدرة على حلّ ما لا يُحلّ؟ «أنا هو أنا». ما انفكّت هذه العبارة تعود على امتداد القصور التي حاول تفكيكها الرجال الثلاثة. ألا تكون تعبيراً عن الإرادة الحقيقيّة للربّ؟ لا تمنحوني اسماً معيّناً

بل اقبلوني كما أنا. أي مجهولاً وأجلّ من كلّ وصف. طرد عنه هذه الهواجس وعاد إلى الحوار.

ـ فراي ألفاريز. أنت واثق من أنّ المفتّش العامّ لم يربط الصلة بيني وبين رجال دياز؟

تنفّس ألفاريز الصعداء حين تولّى عنه دياز نفسه الإجابة.

ـ كلّ الثقة. والسبب أنّهم لا يعرفون شيئاً عنكم فهم يتسلّمون أوامرهم منّي شخصيّاً.

أضاف بسرعة:

ـ إلاّ أنّ مهمّتهم في خطر.

أكّد ألفاريز كلام العون.

ـ دياز على حقّ. فقد أمر المفتّش العام بمضاعفة عدد رجال ميندوزا ولو قرّروا الهجوم على رجالنا لما استطعنا الصمود. إلاّ إذا. . .

ترك عبارته معلّقةً قصداً.

سأله تالافيرا:

ـ إلاّ إذا ماذا؟

أجابه ألفاريز باحتشام:

ـ إلاّ إذا تدخّلت جلالتها. لو استطعت إقناعها. . .لتغيّر ميزان القوى إلى صالحنا ولاستطعنا النجاح.

أمهل المعرّف نفسه لحظات للتفكير وبدت نظراته شاردة في البعيد قبل أن يقول:

ـ سأفكّر في الأمر.

أضاف ملتفتاً إلى دياز:

ـ امكث هذه الليلة في طليطلة وغداً أوافيك بقراري.

*

غرناطة، مساء اليوم نفسه.

همس ابن سراج واقفاً على شرفته ووجه إلى السماء المرصّعة بالنجوم:

ـ أنت لا تصدّقني يا رافائيل لكنّي أؤكّد لك أنّ كلّ شيء مكتوب هناك.

اقترب من طبق دمشقيّ كبير وضع عليه إبريق فضيّ وبجانبه كوب نصف ملآن بشراب عنبريّ اللون. تناول الكوب وأدناه من شفتيه. علّق رافائيل بنصف ابتسامة:

ـ هكذا إذن يا ابن سراج قرّرت الليلة أن تخالف تعاليم النبيّ؟

تهالك الشيخ على الوسائد متسبّباً في ترنّح لهب قنديل الزيت وقال بصوت هادئ:

ـ لا داعي للإنكار يا صديقي فليس منّا من يزعم أنّه كاملٌ في هذه الحياة. لقد خُلق الإنسان ضعيفاً ولم أشعر بضعفي كما أشعر به هذه الليلة.

عرض الكوب على الفرانسيسكانيّ:

ـ وأنت؟ لماذا تتردّد؟

ـ لا لشيء ولكنّ الرسول بولس علّمنا أن يظلّ خَدَمَةُ الربّ شرفاء بعيدين عن السكر كي يحتفظوا بسرّ الإيمان في أرواح صافية.

ـ أليس في هذا بعض المفارقة؟ ألم يدعكم المسيح في العشاء الأخير أن تأكلوا من الخبز وتشربوا من الكأس؟

صحّح بسرعة:

ـ أعرف أنّ الفرق كبير بين جرعة وسهرة سكر. ولكنّي في ذروة الحزن الليلة. وإذا كُتب عليّ أن أكون كافراً مسافة سكرة فليغفر لي الله إنّه الغفور الرحيم.

ملأ الكوب مرّة ثانية أثناء الكلام وسأل صديقه:

ـ ألا تريد أن تشاركني؟

لاح على فارغاس التردّد للحظة خاطفة أشعّت فيها عيناه بنوع من الحنين ثمّ قال:

ـ هات، فلا يصحّ أن أتركك وحيداً.

أخذ الكوب وأفرغه في جوفه دفعةً واحدة.

ـ لن أكون أكثر تقوى من نوح الذي ما أن انتهى الطوفان حتى سكر.

قال ابن سراج بنبرة وعظيّة:

ـ ها أنت ترى أنّ الآباء المؤسّسين كانوا هم أيضاً بشراً.

ثمّ شرع يتلو:

ـ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوحٌ ابنَه وكان في معزلٍ يا بُنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. صدق الله العظيم.

احتقن وجهه فجأة فهتف دون أي صلة وبلهجة ثائرة:

ـ لا أفهم ولن أفهم الجدوى من هذه الرحلة إذا كان محكوماً علينا أن نصل إلى أفق مسدود. كلّ هذه الآمال كي نصل إلى العدم.

لم يعلّق الفرانسيسكانيّ بشيء. أحسّ بأنّه لا يقلّ حيرة عن الشيخ. غداً يعود إلى الرابطة وإلى ديره وينتهي الحلم. هزّت قشعريرة جسمه. كان النسيم لطيفاً في ليل غرناطة وعبقاً برائحة الصعتر والبرتقال. تأمّل في المشهد الليليّ. من بعيد لاحت قمم السييرا نيفادا البيضاء شبيهة بالأشباح وعلى مسافة أقرب كان نهر شينيل غافياً في أحضان الفيغا بينما سهرت أبراج الحمراء تحرس المكان. من الذي يخطر على باله أنّ كلّ هذا التناغم والانسجام مجرّد مظهر وأنّ الحرب تهدر على بعد فراسخ معدودة وأنّها قريباً تعبر آخر الحواجز وتأتي على كلّ تلك الحياة الناعمة؟

حين كنت أسمعك تتحدّث عن تلك اللحظات النادرة التي نحسّ فيها يقيناً بأنّ الآخر جزء لا يتجزأ منّا، وأنّه يكمّلنا، لم أكن أرغب إلاّ في الهتاف بأنك تمثل كلّ ذلك في نظري، وأنك حقّا ذاك الآخر. كان صوت مانويلا يعاوده في الصمت فينقبض كأنّ خنجراً مُحمّى انغرس في قلبه. عليه أن يقاوم وأن لا ينهار. إنّه ملْك الربّ والزمن كفيل بتضميد الجراح، وبمرور الفصول تصبح الذكريات طيّ النسيان. *كلّ شيء تغيّر منذ وقعت في حبّك.* الكاذبة. أجهد نفسه للابتعاد عن أفكاره وهتف ناحية ابن سراج:

ـ هلاّ سقيتني مرّة أخرى؟

كان الشيخ يهمّ بتناول الإبريق حين انفتح باب الغرفة فجأة وظهر في نصف العتمة طيف عزرا.

ـ تعال يا ربّي، شاركنا أحزاننا.

لم ينبس الربّي بكلمة وظلّ واقفاً على العتبة يتأمّلهما جامداً مثل تمثال.

أعاد ابن سراج الدعوة.

ظلّ عزرا لائذاً بالصمت لكنّه سار خطوات في تصلّب مخيف ولم يكتشف الرجلان الأوراق التي كانت في يديه إلاّ حين اقترب منهما.

ـ أدنِيا القنديل فأنا في حاجة إلى المزيد من الضوء.

كانت تلك أولى كلماته. تربّع على الأرض وبدا خاشعاً وهو ينشر أوراقه قائلاً:

ـ برشيت. في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خرِبةً وخاليةً وعلى وجه الغَمْر ظُلْمةٌ وروحُ الله يرفُّ على وجه المياه. وقال الله ليكُنْ نورٌ فكان نورٌ. ورأى الله النور أنّه حسنٌ. وفصل الله بين النور

والظُلمة. ودعا الله النور نهاراً والظُلمةَ دعاها ليلاً. وكان مساءً وكان صباحاً يوماً واحداً.

ربت على لحيته دون انتباه.

ـ وهكذا حتّى اليوم السادس. في اليوم السادس خلق الله الإنسان. . .ستّة هو عدد القصور. ستّة هو عدد المثلّثات. ستّة هو عدد الأبواب في سور شريش. ستّة هو عدد الفجوات المحفورة في الأسطوانة.

أضاف بهدوء:

ـ العدد ستّة هو الذي يتضمّن المفتاح.

ظلّ ابن سراج وفارغاس صامتين لا يجرؤان على القيام بأيّ حركة وكأنّهما يخافان قطع الخيط.

ـ منذ عودتنا إلى غرناطة وأنا أقلّب الأمر على جميع الوجوه. أعدت النظر في كلّ سطر وفي كلّ كلمة. رجعت بالذاكرة إلى كلّ مرحلة قطعناها وخرجت من كلّ ذلك بيقين يتمثّل في كلمة واحدة: الدقّة. الدقّة التي توخّاها ابن برول في كلّ لغز عرضه علينا. في ضوء هذا اليقين حاولت أن أقرأ رحلتنا لعلّي أخرج بتناقض أو نشاز فبدا لي أنّ مسار رحلتنا يبدو عشوائيّاً. لقد انتقلنا من مدينة إلى أخرى في حركة تبدو للوهلة الأولى بلا دلالة. من ولبة إلى شريش إلى قصرش إلى سلمنقة وبرغش وطرويل وقرباكة وغرناطة. تُرى ماذا يربط بين هذه المدن في نظركم؟ لا شيء. أو لعلّه شيء أقلّ من أن يلفت انتباهنا. وهكذا بدا مسارنا أشبه بالتيه منه بالمسار المحدّد بالدقّة التي عوّدنا بها ابن برول. فهل يمكن أن نتخيّل ابن برول يعدّ ألغازه حسب الصدفة أو وفق أبراج وآبار عثر عليها في إحدى جولاته؟

توقّف لحظة ثمّ استأنف حديثه:

ـ في خارطة ابن برول لا وجود للارتجال أو الصدفة فلماذا يفعل ذلك

بالنسبة إلى المسار أو المسلك الذي قادنا إليه؟ ما أن طرحت هذا السؤال حتّى استنتجت أنّ ما يبدو لنا نقطة ضعف هو في الحقيقة شيء يخفي أمراً آخر.

كفّ عن الكلام فخيّم الصمت على الجميع. رفع ابن سراج الكأس وتأمّل الثمالة ثمّ قال بصوت هادئ:

ـ واضح يا ربّي أنّك وصلت إلى خلاصة فمدّنا بها ولا تعذّبنا بالانتظار.

تململ الربّي في جلسته وبدت ملامحه في ضوء القنديل أكثر لطفاً.

ـ انظرا.

بسط إحدى الأوراق على الطبق الفضّي.

ـ هذه خارطة لإسبانيا رسمتها بيدي لذلك قد لا تكون شديدة الإحكام. وكما ترون فقد أثبتت فيها خاصّة المدن التي زرناها والمسالك التي تنتمي إليها هذه المدن.

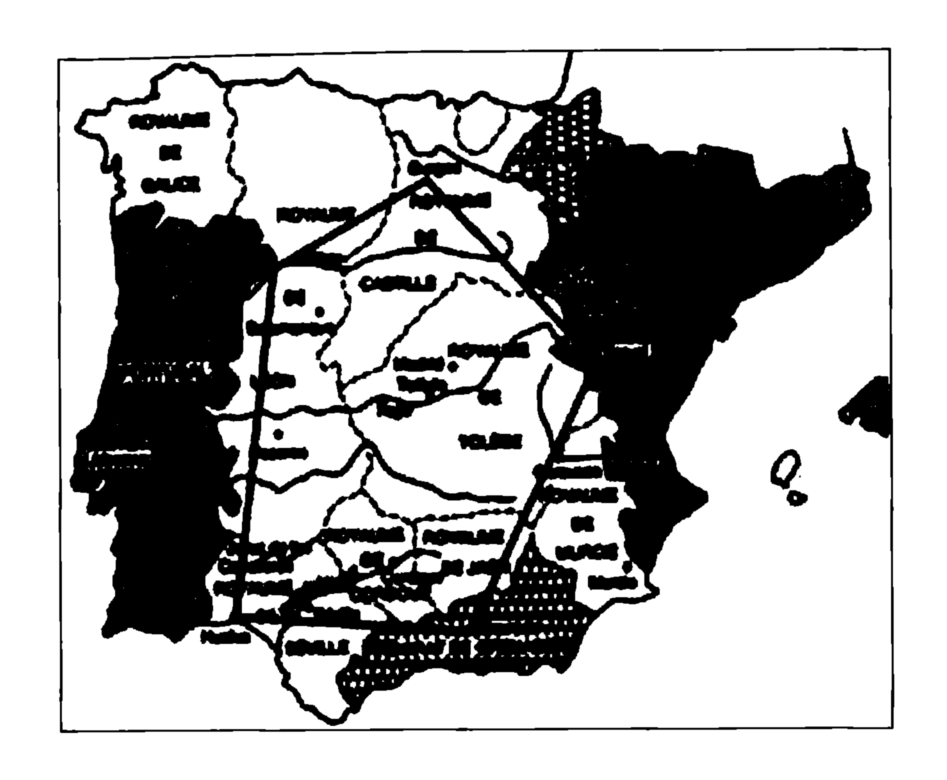
التفت إلى الشيخ:

ـ هل يمكن أن تأتيني بقلم ودواة؟

تحرّك الشيخ بسرعة وعاد بالمطلوب.

قال الربّي:

ـ تابعا معي. لو ربطنا بخطّ بين المدن التي زرناها لحصلنا على الشكل التالي.



غمغم فارغاس:

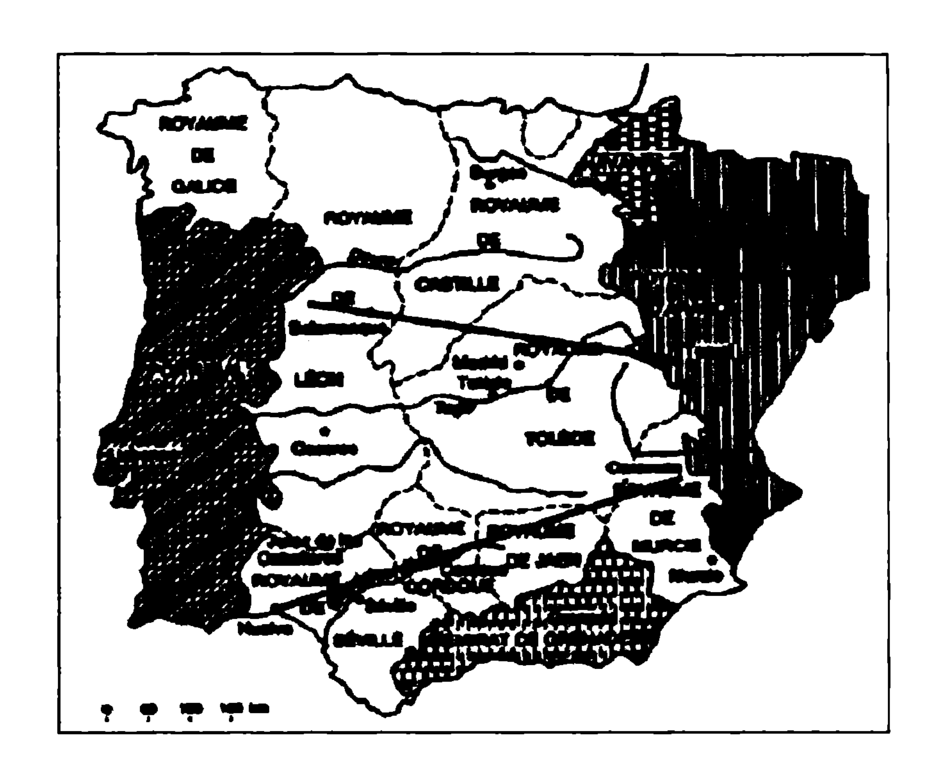
ـ للوهلة الأولى لا يبدو الأمر مثيراً للاهتمام إلاّ إذا. . .

أدنى الورقة من القنديل.

ـ إلاّ إذا اعتبرنا هذا الشكل مضلّعاً خماسيّاً غير متناظر الأضلاع.

ـ لذلك تصوّرت طريقة أخرى.

تناول الربّي ورقة أخرى عليها نفس الخارطة وتولّى هذه المرّة الربط بين المدن المتقابلة في الأطراف. رسم خطّاً بين ولبة وقرباكة ثمّ رسم خطّاً بين سلمنقة وطرويل.

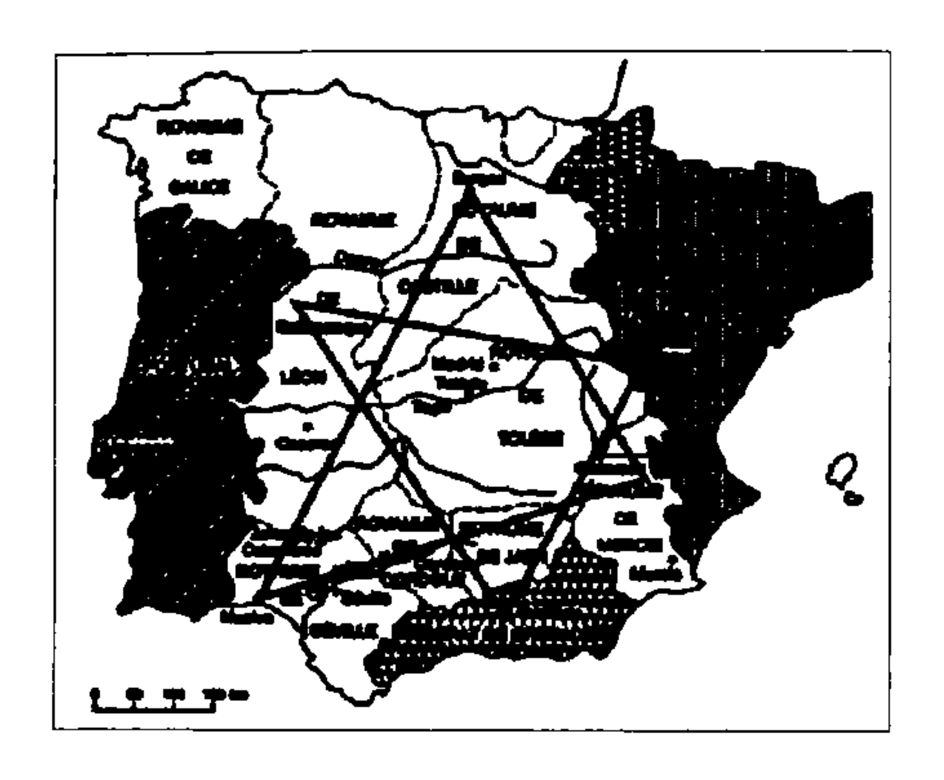


ـ ما رأيكما الآن؟

كان واضحاً في نبرة صوته أنّه لا ينتظر منهما جواباً فاكتفيا بمتابعته وهو يملأ الخارطة الموالية خطوطاً. رسم خطّاً يبدأ من ولبة وآخر يبدأ من قرباكة ليلتقيا معاً في برغش ثمّ رسم خطّا يبدأ من سلمنقة وآخر يبدأ من طرويل ليلتقيا معاً في غرناطة.

ما أن فرغ من الخطّ الأخير حتّى أخذ ابن سراج يغمغم وهو غير مصدّق:

ـ ما هذا؟ هل يكون. . .



إلى جانبه كان فارغوس يكتشف مدهوشاً هو أيضاً الشكل الهندسيّ الذي اتّضح من بين أصابع عزرا.

استنشق عزرا طويلاً قبل أن يقول:

ـ ما تريانه ليس وهماً ولا هلوسة. ما نراه الآن هو فعلاً خاتم سليمان. نجمة سداسيّة غير متناظرة الأبعاد مثل المضلّع الخماسيّ. ولكنّي اهتديت إلى طريقة لجعلها متناسقة الأبعاد.

تناول ورقة أخرى واحتفظ بها في يده:

ـ لقد أطلت التفكير في ابن برول وفي طريقته وفي العدد ستّة الذي جعله أساس كلّ شيء. كم من مدينة زرنا؟

أجابه ابن سراج دون تفكير:

ـ ثماني مدن إذا أضفنا غرناطة.

ـ هذا يعني أنّنا أمام مدينتين زائدتين عن النصاب وعلينا أن نعيد النظر في طريقة الحساب.

ـ هل تعني أنّ نتلاعب بالأعداد كما فعلنا حين اعتمدنا على «العزيمة»؟ ألا ترى أنّ ذلك يجعلنا نحرّف الوقائع كي تتماشى مع رغباتنا؟

ـ ليس هذا ما أردته يا شيخ ابن سراج. ليست طريقة الحساب هي ما علينا تغييره بل العناصر التي علينا إدخالها في الحساب. مادمنا لا نحصل على العدد ستّة إذا جمعنا المدن التي زرناها فهذا يعني أنّ علينا أن نجمع أشياء أخرى غير المدن.

كان اهتمام الرجلين قد بلغ الذروة حتّى أن ابن سراج نسي كوب الشراب.

ـ تذكّرا. قسمّ ابن برول خارطته أو لغزه إلى قصور رئيسيّة وأخرى فرعيّة ولم نسأل حتّى الآن عن سرّ هذا الاختلاف في التسمية. وكنّا على خطأ فهناك تكمن الإجابة.

تناول القلم وكتب:

١ ـ ولبة، قصر رئيسيّ

٢ ـ شريش وقصرش وسلمنقة، قصور فرعيّة.

٣ ـ برغش، قصر رئيسيّ.

٤ ـ طرويل، قصر رئيسيّ.

٥ ـ قرباكة، قصر رئيسّي.

٦ ـ غرناطة، قصر رئيسيّ.

وضع القلم في الدواة.

ـ ستّة

قال فارغاس.

ـ هي ستّة حقاً ولكن ماذا يعني ذلك،؟ وكيف يساعدنا على إعادة التناظر إلى أبعاد الشكل السداسيّ؟

بحركة من يده هدّأ عزرا من روع الفرانسيسكاني.

ـ قصور رئيسيّة وقصور فرعيّة. لماذا سمّى ابن برول قصوره بطريقتين مختلفتين؟ هل اعتمد على أهميّة المدن؟ ولكن برغش وسلمنقة متشابهتان وكذلك قصرش وشريش. هل اعتمد على وضعهما الجغرافيّ؟ أيضاً لا. لكنّ السبب واضح في الخارطة.

مرّت برهة قبل أن يهتف فارغاس:

ـ إنّها الممالك.

ـ أحسنت.

تناول عزرا القلم من جديد وكتب أسماء المدن والممالك التي تنتمي إليها:

١ ـ ولبة، قصر رئيسيّ، مملكة إشبيلية.

٢ ـ شريش وقصرش وسلمنقة، قصور فرعيّة، مملكة ليون.

٣ ـ برغش، قصر رئيسيّ، مملكة قشتالة.

٤ ـ طرويل، قصر رئيسيّ، مملكة أرغون.

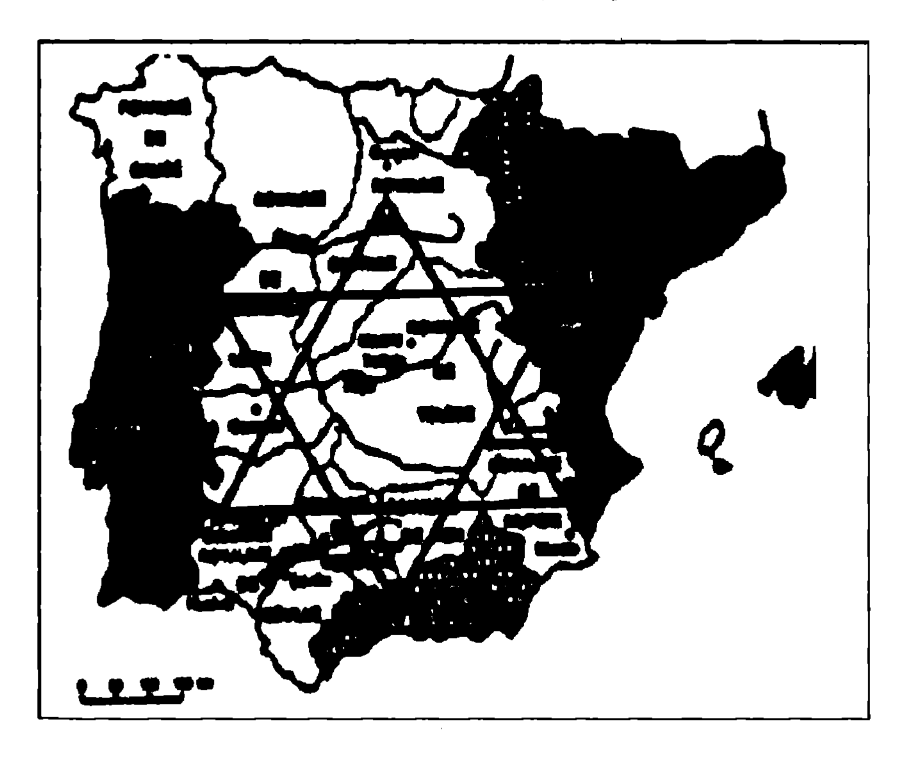
٥ ـ قرباكة، قصر رئيسيّ، مملكة مرسيّة.

٦ ـ غرناطة، قصر رئيسيّ، مملكة غرناطة.

ـ ستّ ممالك. ها هو مرّة أخرى العدد السحريّ الذي يصاحبنا منذ بداية رحلتنا. وهنا لا بدّ من استنتاج. ليس علينا أن نربط بين المدن بل بين الممالك.

ربط بين القول والفعل فتناول الورقة الأخيرة ورسم عليها النجمة السداسيّة رابطاً بين الممالك فظهرت متناسقة الأبعاد.

ـ ها هو يا أصدقائي خاتم سليمان دون أيّ تشويه.



ظلّ فارغاس وابن سراج ينظران إلى الخارطة وقد عقدت لسانيهما الدهشة.

ـ الدقّة والمنطق تماماً كما اعتقدت. لا مجال للصدفة في خطّة ابن برول. كانت كلّ حركاتنا مرسومة بدقّة وعن تفكير وتخطيط.

قطّب العربيّ جبينه وهو ينتبه إلى تفصيل لم يعره اهتماماً في البداية. أشار بسبّابته إلى علامة رسمها عزرا فوق مدينة طليطلة في النقطة المركزيّة من النجمة السداسيّة.

ـ لماذا هذه العلامة في مركز الشكل؟

ـ لأنّه المكان الذي سنجد فيه كتاب السفير.

ـ وما الذي يجعلك واثقاً من ذلك.

قال عزرا مؤكّداً:

ـ إنّه هناك وليس في أيّ مكان آخر.

أخذ يدلك أصابعه الموجوعة شارحاً وجهة نظره.

ـ نعرف جميعنا أنّ خاتم سليمان ليس مجرّد شكل هندسيّ بل هو جماع الفكر الهرمسيّ. إنّه يتضمّن العناصر الأربعة. المثلّث الأوّل الذي تتّجه زاويته الحادة إلى أعلى يمثّل النار، والمثلّث الثاني الذي تتجه ذؤابته إلى أسفل يمثّل الماء، ومثلّث النار الذي تقطعه قاعدة مثلث الماء يمثّل الهواء، أمّا مثلّث الماء الذي تقطعه قاعدة مثلّث النار فيمثّل التراب. والكلّ يمثّل جماع عناصر الكون. ولو تأمّلنا في الرؤوس الأربعة الجانبيّة للنجمة للاحظنا تجلّي علاقات العناصر الأربعة في ما بينها وصفاتها المتقابلة بشكل ثنائيّ، أعني الحرارة والجفاف، والبرودة والرطوبة. وهنا يبدو خاتم سليمان توليفاً للمتناقضات وتعبيراً عن وحدة الكون. بعض علماء القبالة يضيفون إلى ذلك المعادن الأساسيّة الستّة: الفضّة والحديد والنحاس والقصدير والزئبق والرصاص.

ـ كلّ هذا لا يبيّن لنا لماذا اخترت جنوب طليطلة؟

ـ لأنّه يمثّل تقريباً مركز الخاتم. المركز: الذهب والشمس.

ـ قلت تقريباً وهذا يعني أنّ تدقيق البحث قد يجعلنا نغيّر المكان.

لم يبد على عزرا أنه استمع إلى ملاحظة الشيخ.

ـ لقد تفحّصت المنطقة جيّداً. وبالمناسبة أريد أن أهنئك يا ابن سراج على مكتبتك المكتنزة بالكتب الثمينة. وبالنظر في كتاب أحد الجغرافيّين الكبار من أبناء جلدتك علمت أنّه يوجد في جنوب طليطلة قريباً من هذا المركز التقريبيّ، مبنًى لا يدع مجالاً للشكّ في نظريّتي.

وضع أصبعه على المكان في الخارطة:

ـ حصن منطالبان.

التفت إلى فارغاس.

ـ ألم تسمع به من قبل؟

بدت على الفرانسيسكانيّ علامات الحيرة.

ـ يبدو لي أنّه حصن قديم بناه قبل حوالي المائة عام أحد أبناء الملوك في ذلك العهد واسمه خوان مانويل.

ـ هو ذاك. وهل تعرف على ماذا أقيم هذا الحصن؟ على أنقاض قلعة يا فراي فارغاس. قلعة بناها...

سكت لحظة قبل أن يضيف:

ـ فرسان الهيكل... إخوتك القدامى.

علت الدهشة وجه الراهب.

واصل عزرا حديثه:

ـ وهل تعرفان أيّ شكل لهذا الحصن؟ إنّه ذو شكل ثلاثيّ الأبعاد. لقد سمعتما جيّداً: إنّه ثلاثيّ الشكل.

توتّر جسده وكأنّه حيوان يتهيّأ لتسديد الضربة الحاسمة.

ـ إضافةً إلى أنّ برجين من أبراجه خماسيّا الأضلاع.

أخذ يعدّد:

ـ لدينا إذنْ الشكل خماسيّ الأضلاع، والشكل المثلّث، وفرسان الهيكل. وهكذا يتضمّن حصن منطالبان كلّ العناصر التي وردت في القصور الستّة. فهل فهمتما الآن لماذا اخترتُ هذا المكان *التقريبيّ*؟

لم يجبه غير الصمت العميق. بينما أخذت خيوط الفجر الأولى تطلّ على الفيغا من وراء الأفق البعيد.

الفصل ٣٣

إذا كان القلب لا يعرف بماذا تهمس الشفاه، إذنْ
فليست تلك بالصلاة.

(مثل قديم)

عبق الجوّ برائحة العنبر في غرفة نوم الملكة ورقصت بها أنوار الشمعدانات. قبضت أصابع إيزابيل على طرف الأريكة وقد غلب عليها الاضطراب والتأثر وأكّدت لمانويلا:

ـ صدّقيني لم أكن على علم بشيء.

ـ لا يساورني أيّ شكّ في ذلك يا صاحبة الجلالة. ولكن تلك هي الوقائع. لقد حاول المفتّش العامّ قتلي فعلاً ولولا العناية الإلهيّة التي وضعت في طريقي مفرزة من جندك لكنت الآن في عداد الأموات ولما كشفتُ لك الحقيقة.

ـ حمداً للربّ على سلامتك يا مانويلا. ولكنّي أؤكّد لك مرّة أخرى أني لم أعلم بشيء من هذا. لقد تجاوز المفتّش العامّ حدود صلاحيّاته. وثقي أن هذا المدعوّ ميندوزا سيقضي بقيّة حياته في السجن.

ـ لا يهمّني ذلك الآن. المهمّ أنّي نجوت. ولكنّي قولي لي يا صاحبة الجلالة. ما دمت عرفت أنّ الأمر ليس فيه مؤامرة وأنّ المسألة تتعلّق بثلاثة رجال يبحثون عن رسالة سماويّة مفترضة، فلماذا رضخت لطلبات المفتّش العامّ؟

بدت على ملامح الملكة علامات الترفّع وهي تعلن:

ـ الملكة لا ترضخ لطلب يا عزيزتي. الملكة توافق على ما فيه خير الدولة.

ـ وماذا عمّا فيه خير الربّ؟ وأنت المؤمنة؟

جاء الجواب قاطعاً ومفاجئاً.

ـ ثقي أنّي لم أشكّ لحظةً واحدة في مضمون الكتاب. بكلّ قواي وبكلّ قطرة دم كاثوليكيّ تجري في عروقي لم أتصوّر لحظةً أنّ هذه الرسالة مهما كانت افتراضيّة، يمكن أن تتضمّن شيئاً آخر سوى تأكيد الحقيقة الوحيدة الواحدة: أنّ ربّنا المسيح ابن الله وأنّ المسيحيّة تحتضن أبناءه المخلصين.

ـ فلماذا الإصرار إذن على هلاك هؤلاء الرجال؟ لماذا البحث عن كتمان حقيقة قد يكون الربّ هو الراغب في كشفها؟

لم تجب الملكة فوراً. امتدّت يدها إلى طاولة صغيرة من الخشب المطعّم وُضعت عليها مروحة من عرق اللؤلؤ. تناولت المروحة وفتحتها بحركة جافّة. كانت مزيّنة بزهور بيضاء لا تعرف مانويلا لماذا ذكّرتها بزهور اللوز. حدّثتها نفسها بأنّ الحياة شبيهة بتلك الشجرة: زهور عطرة وثمار مرّة. غادرت الملكة فجأة أريكتها وأخذت تذرع الغرفة وكأنّها فريسة لنزاع داخليّ حامي الوطيس ثمّ قالت بصوت أجشّ:

ـ الحقّ أنّي خشيت للحظة، للحظة خاطفة، أن يكون هذا الكتاب مصدر خطر. وتلك الخشية كانت كافية كي أوافق على خطّة توركيمادا.

تقدّمت من النافذة في ضجّة من حفيف الإستبرق ونظرت من خلال ستائر المخمل القرمزيّة.

ـ عليك أن تعلمي أنّ للدولة أسبابها التي لا يتحمّلها القلب، لكنّها

معقولة وضروريّة من أجل حياتها واستمرارها. لا شيء خارج الدولة ولا شيء فوق الدولة ولا شيء ضدّ الدولة. الدولة هي إسبانيا.

اشتدّت الحيرة بمانويلا وشعرت فجأة بأنّها مفرغة من كلّ قوّة أو حجّة. منذ ساعتين وهي تحاول ثني الملكة عن قرارها وإقناعها بضرورة وضع حدّ للخطّة التي أقرّها توركيمادا. دون جدوى. على ابن سراج وعزرا وفارغاس أن يموتوا. حدست بالكارثة الداهمة مباشرة إثر الهجوم الذي استهدفها. فكّرت في شخصيّة المفتّش العامّ الذي لا يتورّع عن شيء في سبيل تحقيق أهدافه وفي الرسالة التي زعموا لها أنّها لم تصل إلى إيزابيل وفي الغموض الذي حفّ بشروح الرجل ذي وجه العقاب. ففضّلت الإنصات إلى حدسها وهرعت إلى الملكة تطلب مقابلتها، فأذنت لها إيزابيل بذلك في الليلة نفسها. وسرعان ما تأكّدت من أنّها كانت على حقّ في مخاوفها. لم يُخبر المفتّش العامّ جلالتها برغبة مانويلا في وضع حدّ لمهمّتها. ولا شكّ أنّه الآن قد بتّ في مصير الرجال الثلاثة. استأذنت في الانصراف منقبضة القلب تكاد تجهش بالبكاء فاقتربت منها الملكة.

- ثمّة تفاصيل تجهلينها يا عزيزتي. قبل أيّام من مجيئك وحين عرفت أنّ الرجال الثلاثة على وشك بلوغ هدفهم حدّدتُ موعداً لتالافيرا. وسيتمّ اللقاء بعد غد.

غمغمت مانويلا:

- ولكن. . . لماذا؟

- لأكشف له عن قراري.

- هل أستطيع أن أسأل جلالتك: أيّ قرار؟

لم تجبها الملكة بل دنت من مكتب صغير من خشب الورد فنحّت عنه الغطاء وتناولت ورقة ثمّ غمست ريشة في دواة من الذهب الدمشقيّ وشرعت في الكتابة. إثر ذلك وقّعت أسفل الرسالة بحركة سريعة وأخذت تهوّيها بالمروحة لتجفيف الحبر ثمّ عرضتها على مانويلا:

ـ خذيها. سلّميها غداً باكراً لتالافيرا.

أضافت:

ـ تستطيعين الاطّلاع عليها قبل أن أختمها بالشمع.

ندّت عن مانويلا حركة تردّد خفيّة وقد تنازعتها أحاسيس الخوف والأمل. ثمّ قرّرت أن تنظر في الكلمات التي لم يجفّ حبرها بعد.

*

نواحي طليطلة.

مسح فارغاس قطرات العرق عن جبينه بقفا يده. كانت الشمس قد حوّلت المشهد إلى مرجل يغلي حتّى أنّ الأشجار نفسها بدت تتعذّب. ألقى الفرانسيسكانيّ نظرة على رفيقيه. كانا يقودان حصانيهما وقد تهدّلت أكتافهما وتبذّلت ملامحهما وتسمّرت عيونهما في الأفق فأيقن أنّهما ليسا أفضل حالاً منه. غادروا غرناطة منذ ستّة أيّام وبالكاد تبادلوا بعض الكلمات طيلة الرحلة. وكأنّ التوجّس من قرب النهاية والخوف من المجهول جعلاهم يغرقون في قلق شبيه بالوهن.

وماذا لو أنّ عزرا أخطأ في استنتاجاته؟ ماذا لو أنّه جانب الصواب في تأويله عن رغبة لا واعية في الاعتماد على أحد الرموز الأساسيّة لديانته: خاتم سليمان؟ كلاّ. هذا مستحيل. لقد قلّبوا الأمر على جميع الوجوه وأشبعوه تحليلاً وتأويلاً وفحصوا كلّ الفرضيّات الممكنة فلم يجدوا حلاً أقرب إلى المنطق ممّا اقترحه الربّي العجوز. لم يبق الآن إلا السؤال النهائيّ: ماذا يتضمّن الكتاب؟ هل يكشف اللوح الأزرق عن رسالته مثلما فعل في الماضي أم يظلّ صامتاً؟ ألم تفصل قرون بين جدّ ابن برول وابن برول نفسه؟ ولكن لماذا يعذّب نفسه بهذه الأسئلة؟ إنّهم لا يملكون الإجابة، شأنهم في ذلك شأن موسى ويعقوب وسليمان. وحده الربّ يملك أن يجيب على كلّ الأسئلة.

ـ فارغاس.

نخس رافائيل حصانه والتحق بالشيخ.

ـ ماذا هناك؟

ـ علينا أن نترجّل.

ـ هنا؟ ماذا أصابك؟

لم يجبه الشيخ بل ترجّل عن حصانه وأشار إلى غيضةٍ صغيرة قريبة من المكان.

ـ اتبعاني إلى هناك.

قال الربّي محتجّاً:

ـ المسافة أمامنا طويلة فما الجدوى من. . .

ـ اسمع يا عزرا. لم تضربني الشمس على رأسي بعد وإذا طلبت منكم الترجّل فلديّ أسبابي. تعال.

تبادل عزرا وفارغاس نظرات استسلام وأذعنا لطلب الشيخ. ما أن بلغوا الغيضة وما أن تأكّد من أنّهم مستترون خلف الأغصان حتّى قال ابن سراج:

ـ هناك من يقتفي أثرنا.

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد فهمتماني جيّداً. لو انتبهتما إليّ للاحظتما أنّي لا أنفكّ أتلفّت منذ الصباح.

أشار إلى سحابة من الغبار تتقدّم في اتّجاهم على مسافة حوالي الفرسخ.

ـ لم يغفلوا عنّا لحظةً واحدة.

ـ عمّن تتحدّث؟

ـ عن شركاء السينورة فيفيرو.

غمغم فارغاس:

ـ لا. . . لا أظنّ ذلك.

ـ ألا تذكران ما قلته لكما يوم تركتنا السينورة؟ قد تكون هي انسحبت لكنّ مستخدميها سيمضون في خطّتهم إلى النهاية.

أشار بسبّابته إلى سحابة الغبار.

ـ وها هم يفعلون.

سأل عزرا:

ـ وما العمل؟ نحن على وشك الوصول إلى الهدف فهل نتخلّى عن كلّ شيء؟

هزّ الشيخ كتفيه في هيئة من يستسلم إلى الأقدار.

ـ نحن أمام واحد من أمرين: إمّا أن نعود أدراجنا وإمّا أن نمضي في رحلتنا إلى النهاية، أي إلى الموت. فنحن نعلم أنّ الكتاب هو غايتهم وما أن نوصلهم إليه حتّى ينتهي كلّ شيء. سيذبحوننا كما تُذبح المواشي.

عقب ذلك صمت طويل مخيف. هناك في البعيد كانت سحابة الغبار تتقدّم. قال فارغاس فجأة:

ـ تذكّروا أسطورة حيرام. الموت ثلاث مرّات. . . أيّ مصير أنبل من أن نضحّي بحياتنا من أجل أن نُبعث أكبر وأنقى؟ لقد ضحّى ابن برول بنفسه من أجل أن يترك لنا إرثاً مقدّساً وها هو لم يكن أكثر حياةً ممّا هو اليوم. ولا أظنّ أنّ فينا من يفكّر مجرّد التفكير في خيانته ومن ثمّ في خيانة الربّ جلّت قدرته.

أومأ ابن سراج وعزرا موافقين دون أي تردّد. قال الربّي وقد التمعت عيناه ببريق من الحنين:

ـ ثمّ ما هو الموت إن لم يكن مرحلة لابدّ من عبورها؟ إنّها الموعد المنتظر مع إيلوهيم. أمّا في ما يخصّني، فلعلّ السرمديّ قد أمهلني أكثر ممّا أستحقّ بكثير.

هتف ابن سراج وهو يقترب من حصانه:

ـ ماذا ننتظر إذنْ؟ ليذهب هؤلاء الكفرة إلى الجحيم. وإذا كانوا يريدون اقتفاء أثرنا مثل الكلاب فليفعلوا.

تحرّكوا جميعهم، وما هي إلاّ لحظات حتّى كانوا يرخون الأعنّة لمطاياهم متّجهين إلى حيث ينتظرهم اللوح الأزرق.

*

في اللحظة نفسها، على بعد فراسخ من هناك.

ارتعشت شفتا مانويلا من شدّة الغضب والإحباط. تفرّست في تالافيرا محاولة إقناع نفسها بأنّه على خطأ وأنّ المعلومات التي وصلته غير صحيحة لكنّه قال مؤكّداً:

ـ لقد فقدوا أثرهم يا دونا فيفيرو.

ـ هذا مستحيل.

أشارت إلى الجنود من حولهما.

ـ وضعت جلالتها تحت تصرّفنا مفرزة كاملة. كوكبة من الخيّالة كاملي العدّة والعتاد. نخبة رماتها. كلّ هذا من أجل العودة بلا شيء؟

أشرع تالافيرا ذراعيه مستسلماً. كان لا يقلّ يأساً وحيرة عن الفتاة.

ـ ماذا أقول لك؟ رجالي هم السبب. خافوا أن ينتبه إليهم أعوان المفتّش العام فتركوا المسافة تكبر حتّى فقدوا أثرهم.

ـ فراي تالافيرا. إنّهم سيهلكون.

كانت صرخة خارجة من الأعماق أكثر مما كانت تأكيداً.

ـ هدّئي من روعك يا سينورة فلم نفقد الأمل بعد. سأعطي أوامري كي نبثّ عيوناً في كلّ اتّجاه ولا شكّ أنا سنعثر عليهم.

ـ ولكن قد يستغرق ذلك ساعات بل أيّاماً وقد نصل بعد فوات الأوان.

وضع تالافيرا يده على كتف الفتاة وقال بحماسة:

ـ ضعي إيمانك قويّاً في الربّ دونا فيفيروا. عليك أن تثبتي وأن لا تفقدي الإيمان أبداً. هل سمعتني؟ أبداً.

أومأت موافقة دون كبير اقتناع. وما أن ذهب تالافيرا يتحدّث مع قائد المفرزة حتّى أسندت ظهرها إلى أقرب شجرة وتهالكت على الأرض. فاوغاس. . .لو حدث له مكروه لما غفرت لنفسها أبداً ولظلّت تعيش بجرحه فاغراً حتّى رمقها الأخير. بل لعلّها عاجزة عن العيش أصلاً. وما يعذّبها أكثر أنّه لحظة يموت قد يفكّر فيها فيراها في أسوأ صورة، صورة لا مكان معها للسماح. ولعلّه أبداً لن يعلم بكلّ ما حاولته من أجله.

الفصل ٣٤

في طرق الهلال الخصيب، كان يتقدّم من جديد،
شعب الوعد، كما في أيّام إبراهيم.
(.......)

لاح حصن منطالبان غربيّ السهل مشرفاً على المدينة بكتلته الداكنة المحفوفة بأشجار الزان والفلّين ونشرت مياه نهر طرقن شريطها الفضّي في اتّجاه المدينة مقيمة نوعاً من السور الطبيعيّ من الجهة الغربيّة. أمر الرجل ذو وجه العقاب أعوانه بالترجّل ثمّ تقدّم من نائبه المدعوّ ألونزو كيجانا فهمس في أذنه:

ـ خذ حذرك فلن أغفر أيّ خطأ. خذوا مواقعكم هناك.

أشار إلى صفّ من أشجار السرو على يسار المكان.

ـ وانتظروا أوامري.

أومأ المدعوّ ألونزو موافقاً بحركة جافّة من رأسه.

سأله ميندوزا:

ـ ألم يظهر أحد من رجال تالافيرا حتّى الآن؟

ـ لا أثر لهم يا سيدي.

ـ أمر غريب. لقد انقطع أثرهم عند أطراف المدينة. ترى ما الذي دفعهم إلى الانسحاب؟ في غرناطة كانوا مستعدّين لكلّ شيء حتّى للمواجهة.

ـ لعلّهم اكتشفوا ضعفهم. إنّ عدد جنودنا ضعف عددهم. أو لعلّهم ضيّعوا أثرنا.

ربت ميندوزا على لحيته بتوتّر. كان واضحاً أنّ نظريّة مرؤوسه لم تقنعه بما فيه الكفاية. قال بعد لحظة:

ـ لنحترس على أيّ حال فقد يغيّرون رأيهم.

ـ كن على ثقة بأنّنا سنكون لهم بالمرصاد يا سيّدي.

ولتأكيد كلامه قبض ألونزو على مقبض سيفه فنظر إليه ميندوزا نظرة رضا.

ـ نفّذ الآن ما طلبته منك وانتظر أوامري.

ما أن اختلى بنفسه حتى التفت ميندوزا ناحية الحصن المهجور. ارتسمت على شفتيه ابتسامة بانت لها نواجذه.آه لو كانت تلك المغرورة هنا. إذن لاكتملت سعادته ولقام بنفسه بذبحها من الوريد إلى الوريد ولما ترك لها فرصة للنجاة هذه المرّة.

ـ سينور ميندوزا.

ـ ماذا هناك؟

ـ إنّهم قادمون.

ـ الزموا مواقعكم بسرعة.

شدّ ابن سراج عنان مطيّته حتى خفّت سرعتها والتحق به فارغاس وعزرا. قال مشيراً إلى المبنى:

ـ ها هو حصن منطالبان أخيراً. العجيب أنّه يبدو مهجوراً.

ردّ فارغاس:

ـ ولم العجب؟ لم تعد له الجدوى الاستراتيجيّة التي كانت له قبل مائتي عام حين كانت طليطلة مركز تجمّع جيوش مملكة قشتالة.

ـ هذا الهدوء لا يبشّر بخير فلا شكّ أنّ ملاحقينا يتربّصون بنا في مكان ما، مستعدّين للانقضاض علينا عند أوّل فرصة ما أن نحصل على الكتاب.

ـ لا شكّ في ذلك يا شيخ ابن سراج. ولكن ألم نتّفق على المضيّ في طريقنا إلى النهاية؟ لا مجال للتراجع الآن.

أكّد عزرا على الأمر:

ـ أجل لا مجال للتراجع. نحن بين يدي إيلوهيم وأيّا كان الثمن فلتعرفوا أنّه لا يساوي شيئاً أمام هباته وعطاياه.

بعد ذلك لاذوا بالصمت على امتداد نصف الفرسخ الفاصل بينهم وبين الحصن. كان صمتاً شبيهاً بالخشوع. ما أن صاروا أمام باب الحصن حتّى ترجّلوا وأخذوا يتفحّصون المكان. هبّ النسيم لطيفاً محرّكاً الأعشاب في الجوار بينما لاحت الشمس وهي تميل رويداً إلى الغروب بين سحابات متناثرة فوق مياه النهر. قال فارغاس بنبرة غلب عليها التأثّر:

ـ هنا تنتهي رحلتنا.

أخرج من جرابه الأسطوانة الطينيّة والمثلّثات البرونزيّة الستّة.

ـ لنتمنّ على الربّ أن لا تكون أخطأت في استنتاجاتك يا ربّي عزرا وأنّ يكون الكتاب هنا حقّاً.

لم ينبس عزرا بكلمة. كان محتقن الوجه جافّ الشفتين. تقدّم ابن سراج بضع خطوات ليتفحّص المبنى بشكل أفضل. كان كما قال عزرا ثلاثيّ الشكل وكان برجاه خماسيّي الأضلاع تعلوهما مراقب مخروطيّة الشكل تتخلّلها مزاغل لإطلاق السهام وفتحات للرمي. لاحظ أنّ الخندق الذي كان يحمي المدخل قد ردم إلى نصفه وأنّ الباب الزلاّق قد اقتلع من مكانه. ظلّ يتأمّل المبنى برهة طويلة قبل أن يلتفت إلى عزرا وفارغاس.

ـ ماذا تقترحان؟ نحن لا نملك أيّ إشارة للبحث في هذا الاتّجاه أو ذاك.

قال عزرا:

ـ أرى أن نعتمد على فكرة المثلّث فهي من بين الرموز التي اعتمدها ابن برول، الرمز الأكثر ثباتاً وتكراراً. ويبدو ذلك واضحاً من خلال إشارته الأخيرة: خاتم سليمان.

ـ هذا جائز ولكن من أين نبدا؟

ـ لنفكّر. المثلّث متساوي الأضلاع يرمز أوّلا إلى اسم الخالق الذي يُحرّم النطق به: ي.ه.و.ه.

اعترض ابن سراج:

ـ هذا في التراث اليهوديّ وليس في تراث الأديان الأخرى.

تنهّد عزرا:

ـ أسلّم لك بذلك لكنّي مضطرّ إلى تعداد الصفات الأساسيّة المتعلّقة بالمثلّث. وحتّى لو وجدت عنتاً في القبول بذلك فإنّ اسم الخالق جزء منها. هل نسيت أنّ التيتراغرام كان نقطة بداية كلّ هذه المغامرة؟

أومأ الشيخ بالموافقة عل مضض.

ـ من الناحية الرمزيّة يمثّل الخاتم الألوهيّة والتناسب والموازنة. وبما أنّه متكوّنٌ من مثلّثين متعاكسين فإنّ المثلّث الأوّل هو انعكاس للثاني.

أضاف فارغاس:

ـ ولعلّه يمثّل من ثمّ الطبيعة المزدوجة للمسيح: الإلهيّ والبشريّ.

وافق عزرا على الفكرة دون أن يتوقّف عندها:

ـ دون أن ننسى الفهم الأولّي الذي يجعل من المثلّث رمزاً عن العدد ٣.

ـ فهم أوّليّ لكنّه أساسيّ. . .خاصّة بالنسبة إلى مسيحيّ مثلي.

قطّب عزرا جبينه.

ـ تقصد. . .

ـ عقيدة الثالوث الأقدس.

هتف ابن سراج:

ـ عقيدة ينفيها الإسلام نفياً باتّاً، ليس فحسب لأنّها تطعن في وحدانيّة الله ولكن لأنّها تغري بالشِرْك أيضاً. وقد جاء في سورة. . .

ـ كُفّا.

نهض عزرا متوتّراً وقد احمرّت وجنتاه.

ـ كفّا عن هذا. هل تريان الوقت مناسباً لمبارزة فقهيّة؟ شيئاً من التعقّل رجاءً.

أذعن الرجلان وقد بدا عليهما الحرج.

ـ لنعد إلى العدد ٣. إنّه تعبير عن نظام عقليّ وروحيّ تجاه الربّ والكون والإنسان. إنّه العدد الفرديّ الأوّل. وهو يمثّل السماء بينما يرمز العدد ٢ إلى الأرض. أمّا العدد ١ فهو سابق على خلقهما. هل أنتما معي؟

سأله الفراسيسكانيّ:

ـ إلى ماذا ترمي؟

ـ أنا متردّد. . . ولكن إذا كان العدد ١ يمثّل المبدأ الفعّال. المبدأ الذي ينشأ عنه كلّ فعل، وإذا كان يمثّل رمز الكائن الأعلى، أي رمز الظهور الأعظم. فقد يكون ابن برول أخفى الكتاب في قمّة المثلّث.

ـ هل تعني الخالق بقولك رمز المبدأ الفعّال.

ـ هو ذاك.

قال ابن سراج:

ـ حسناً. لا طريقة لنا لإثبات كلّ ذلك سوى أن ندخل الحصن.

وسار بخطوات ثابتة في اتّجاه القبّة التي تغطّي مدخل المبنى.

*

أرخى فرسان المفرزة التي قادها تالافيرا الأعنّة لجيادهم وأخذوا يقطعون المسافة لا يلوون على شيء مثيرين من حولهم أمواجاً من الغبار تكاد تحجب السماء. قبل نصف ساعة رجع أحد الرجال بالخبر الذي كانوا في انتظاره: شوهد أعوان توركيمادا يراقبون أنحاء حصن منطالبان. هبّ نسيم من الأمل على قلب مانويلا. كان أملاً هشّاً لكنّه أفضل بكثير من الإحباط الذي غمرها حتى الآن. استرقت نظرة ناحية الكاهن. كان يثبت عينيه في الطريق بتوتّر مستسلما لأفكاره. حين سمع الخبر اكتفى بإيماءة من رأسه دون أن ينبس بكلمة. كان يعلم دون شكّ أنّ أملهم ضعيف في الوصول قبل فوات الأوان فهم على بعد أكثر من عشرة فراسخ من الحصن.

*

توقّف ابن سراج الذي كان يتقدّم الجماعة وسط الساحة ثلاثيّة الأضلاع. قبالته قام مدرج خارجيّ شديد الصعود اختفت درجاته الأولى بين الأعشاب وبدت درجاته العليا متباعدة ومنكسرة. هناك لاح باب يتوسّط الجدار الرابط بين البرجين وأعلاه كتابة محفورة في الحجارة المصفرّة تمثّل ما بقي من شعار النبالة الخاصّ بسيّد المكان. كانت الواجهة ككلّ تبعث إحساساً بالصرامة الخانقة. وعلى ارتفاع خمسة عشر قدماً لاحت بقايا برج صغير كان من السهل تخيّله وهو حافل بالرايات أيّام عهده الزاهر. اقترب فارغاس وعزرا من العربيّ. كانت وجوه الرجال الثلاثة تعكس توتّراً لا يوصف وكأنّ عواطفهم تدفّقت فجأة من قلوبهم وأصبحت مرئيّة من الجميع. أشار الراهب إلى البرج.

ـ هل هو قمّة المثلّث؟

أجابه الربّي فريسة للتردّد والحيرة:

ـ هذا ممكن.

تخلّف قليلاً وكأنّه يختلي بنفسه واتّخذ ما يلزم للصلاة فصلّى قبل أن يقول وقد عادت إليه طمأنينته:

ـ هيّا بنا.

تقدّم رفيقيه على المدرج ونحّى جانباً وبحذر شديد مصراع الباب المخلخل المتكوّن من تعاريق متشظّية وحواشٍ حديديّة صدئة كانت فيما مضى جزءاً من باب كبير من خشب السنديان المصمت. ما أن صاروا إلى الداخل حتّى غمرتهم رطوبة حادّة شبيهة بمعطف جليديّ وانفتح أمامهم ممرّ هائل تتلوّى تفرّعاته في شكل تاء يونانيّة، طالعتهم في طرف فرعه العموديّ بهرة ضوئيّة غامضة المعالم أعقبت الظلال الداكنة.

أشار عزرا بأصبعه قائلاً:

ـ هل رأيتم ذلك الضوء؟ أعتقد أنّ علينا السير في هذا الاتّجاه.

ـ أنا معك فلا شكّ أنّه ضوء فتحة أو مدرج يفضي إلى الخارج.

تقدّم الربّي الرجلين من جديد. مع تقدّمهم كانت البهرة الضوئيّة التي اتّخذوها منارةً تزداد سطوعاً حتّى خُيّل إليهم أنّها ستجهرهم. وفعلاً. ما هي إلاّ لحظات حتّى اضطرّوا إلى وضع أيديهم أمام أعينهم كواقية الوجه حماية لها من الضوء المتوهّج. سأل ابن سراج وقد داخله الاضطراب:

ـ ما هذا؟ لكأنّ الشمس نزلت على سطح الأرض.

ردّ عزرا بصوت يكاد لا يبين:

ـ إنّها ليست الشمس. إنّها شيء آخر. . .

حين كادوا يبلغون آخر الممرّ أصبح الضوء أقلّ سطوعاً ولكن ليس بما يكفي كي يستطيع أيّ منهم النظر إلى الجدران أو إلى السقف. واصلوا السير متحسّسين طريقهم بأقدامهم وأيديهم حتّى اصطدموا بجدار من الحجارة فعرفوا أنّهم لن يستطيعوا الذهاب إلى أبعد. ما أن توقّفوا حتّى

تحوّل الضوء إلى نار زرقاء غمرتهم كليّاً وتحوّل معها الهواء والجدران والسقف وغبار الأرضيّة إلى ما يشبه الكريستال. ثمّ وبنفس السرعة انطفأ كلّ شيء وتبخّرت النار في لحظة واستعادت الأرضيّة والهواء والسقف والجدران مظهرها الطبيعيّ. بُهت الرجال الثلاثة وانكمشوا على أنفسهم ولم يجرؤ أيّ منهم على الكلام أو الحركة لبرهة طويلة. ثمّ تمتم فارغاس بصوت خافت:

ـ الكتاب... لم يكن حلماً... الكتاب موجود...

أومأ الربّي برأسه مرّات عديدة وقد فغرت عيناه وزاغ بصره حتّي خيّل إلى الناظر أنّه يرتدي قناعاً.

ـ إنّه موجود يا ولدي... إنّه هنا...

أراد أن يشير بيده لكنّه كان أضعف من أن يذهب بحركته إلى مداها. عندئذ نظر ابن سراج وفارغاس إلى حيث أشار الربّي ومثله شاهدا الأسطوانة الخشبيّة المثبتة في أحد الجدران، وشاهدا الفجوات الثلاثيّة المحفورة فيها والتي كانت في انتظار أسطوانةٍ توأمٍ تحمل ستّة مثلّثات. هتف ابن سراج:

ـ ولكن... هذا مستحيل... لم تكن الأسطوانة هناك قبل قليل.

أكّد عزرا:

ـ بل كانت هناك لكنّ النور الساطع منعنا من رؤيتها.

التفت ناحية الفرانسيسكانيّ.

ـ هل معك اسطوانة ابن برول؟

أومأ فارغاس بالإيجاب واقترب من الجدار ببطء فأدنى الأسطوانة الطينيّة من الأسطوانة الخشبيّة المثبتة في الجدار، مقابلاً المثلّثات البرونزيّة الستّة بالفجوات الثلاثيّة المحفورة في الخشب. ثمّ توقّف. هتف عزرا وقد نفد صبره:

ـ ماذا تنتظر؟ يكفي أن. . .

انتهت عبارته بصرخة ألم مرعبة. اخترق سهمٌ الفضاء وانغرس في صدره فانكمشت أصابع الربّي على ذيل السهم المريّش وخرّ على الأرض. في اللحظة نفسها سُمع وقع خطًى سريعة في الطرف المقابل من الممرّ وارتفع أحد الأصوات ببعض الأوامر وأخذ رجال مسلّحون يركضون في اتّجاههم. بينما اتّخذ أحد حملة البرقيل هيئة التسديد مستهدفاً الفرانسيسكانيّ هذه المرّة.

صرخ العربيّ:

ـ أسرع يا فارغاس. أَوْلِجِ الأسطوانة في وَلِيجَتها.

كان فارغاس قد أدخل المثلّثات البرونزيّة في الفجوات المُعَدَّةِ لها ولم يبق أمامه إلاّ أن يدير الكلّ مثلما يدير مفتاحاً. ولكن في أيّ اتّجاه؟ ترك الأمر للصدفة وحاول إدارتها من اليسار إلى اليمين فلم يحدث شيء. حثّه ابن سراج:

ـ أدرها في الاتّجاه المعاكس.

أشهر الشيخ خنجره بيأس الغريق ورمىَ به صاحب البرقيل الذي كان يستهدف فارغاس. شقّ النصل الهواء في حفيفٍ غطّته جلبة الجنود وقبل أن يُطلق الرامي سهمَه انغرس الخنجر في رقبته فأرداه قتيلاً في الحين. إلاّ أنّ جنديّاً آخر سرعان ما حلّ محلّه واستعدّ للتسديد ناحية فارغاس مرّة أخرى. هتف ابن سراج:

ـ ليرحمنا الله وليسكنّا فراديس جنانه.

اقترب الجنود الآن حتّى سهُل على الشيخ أن يتبيّن ملامحهم بوضوح. كانوا عازمين على تمزيقهم إرباً. لم ينتبه فارغاس إلى شيء من ذلك لفرط انشغاله بأمر الأسطوانة. كان جبينه يتصبّب عرقاً وكان مشدوداً إلى ما بين يديه فلم ير أوّل الجنود يرفع سيفه وقد صار على بعد خطوات قليلة منه.

ـ حذار يا فارغاس.

لم يبد على فارغاس أنّه سمع تحذير صديقه. تحاشى ابن سراج الضربة الأولى صارًا على قبضته وقد قرّر الدفاع عن نفسه وعن رفيقيه إلى آخر رمق. عندئذ حصل أمر غريب. كان الجنديّ يهمّ بالانقضاض عليه حين انتفض فجأة وتشوّهت ملامحه وخرّ على الأرض يتلوّى من الألم.

ظلّ ابن سراج فاغر الفم وقد خُيّل إليه للوهلة الأولى أنّ الله جلّ جلاله قد صعق الرجل وأراحهم منه، إلاّ أنّه سرعان ما اكتشف الخنجر المزروع بين كتفي خصمه فعرف أنّ يد الموت جاءته من طريق أخرى. نظر إلى طرف الرواق فرأى مهاجميه يرجعون على أعقابهم في فوضى لا توصف مطلقين صرخات الرعب والألم. كان واضحاً الآن أنّ عدوّاً غير متوقّع فاجأهم من خلف. حاول الشيخ أن يتبيّن في نصف العتمة بزّة الجنود المنقذين إلاّ أنّه فشل في ذلك. ففكّر في أنّ أرحم الراحمين قد أرسل ملائكته.

ـ أبشِرْ يا ابن سراج.

هزّته صيحة النصر التي أطلقها فارغاس. التفت ليرى جزءاً من الحائط يدور حول نفسه على محاور غير مرئيّة فاتحاً الطريق إلى قاعة دائريّة مزروعة بالأعمدة والأقواس.

ـ ساعدني على حمل عزرا.

أمسك أحدهما بكتفي الحبر والآخر بقدميه فندّت عن العجوز صرخة ألم. كان لا يزال يمسك بالطرف المريّش من السهم وكأنّه يتشبّث بآخر خيط يصله بالحياة. هتف ابن سراج وهما يدخلان القاعة:

ـ لابدّ من إغلاق المدخل.

ـ لا تهتمّ. لقد انغلق لوحده.

التفت العربيّ. كان الجزء المتحرّك من الجدار قد عاد إلى مكانه وكأنّه

السحر مقيماً حاجزاً لا يُخترق بينهم وبين ملاحقيهم في الخارج. غمغم الشيخ:

ـ يا للروعة... نحن في يد خالق الأكوان.

ندّت صرخة أخرى عن الربّي وحاول أن يتلفّظ ببعض الكلمات لكنّها اختنقت في حلقه. أشار فارغاس إلى أحد الأعمدة:

ـ لنحمله إلى هناك.

حملاه بحذر شديد ومدّداه على الأرض. نزع ابن سراج اللحاف الذي كان يضعه على كتفه وكوّره ثمّ دسّه بلطف تحت رأس المحتضر.

ـ اثبتْ يا عزرا. إذا كان في العمر بقيّة فلن يكون إلاّ ما قدّر الله. ***فإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.***

طرف الربّي بعينيه.

ـ الساعة... الساعة توقّفت يا شيخ ابن سراج... إنّها في انتظار الكلمات المقدّسة.

بدا على الراهب والشيخ الضياع. كانا أشبه باليتيمين. قال الراهب:

ـ علينا أن نجد الكتاب.

أشار إلى عزرا.

ـ من أجله.

ألقى نظرة دائريّة على القاعة فلم ير شيئاً يُذكر. كانت مقفرة خالية من أيّ أثاث. لا دليل فيها ولا علامة.

ـ أين الكتاب؟ أين هو؟

أخذ يذرع المكان بخطوات محمومة متفحصاً الأرضيّة ناظراً إلى السقف متأمّلاً الجدران بحثاً عن أيّ إشارة.

ـ فارغاس.

ـ ماذا هناك؟

ـ ألم تلاحظ أنّ القاعة دائريّة كالأسطوانة؟

ـ لاحظتُ ذلك.

ـ والأعمدة؟

ـ ما لها؟

ـ ألم تلاحظ أنّ عددها ستّة وأنّها هي أيضاً تمثّل دائرة؟

اضطرب الراهب وتمعّن في المكان. كان الشيخ على حقّ.

ـ لو عدنا إلى آخر تعليمات برول لوجدناه يقول: **علينا أن ننظر في داخلنا كي نرى الخارج**. ألا تراه يلمح إلى المركز بعبارة الداخل؟

خفّ الراهب إلى نقطة الوسط وقد أقنعته فكرة الشيخ. أخذ يتفحّص المكان ثمّ أشرع ذراعيه مستسلماً.

ـ لا شيء.

التحق به ابن سراج.

ـ إنّ الربّي على وشك الموت.

ـ أعرف... الغريب أنّه لم يمت حتّى الآن ولكن ما العمل؟

بدا سؤاله الأخير أشبه بصرخة اليأس. كان يهمّ بالانتقال من مكانه لمعاودة البحث حين تشبّثت به يد العربيّ.

ـ هنا. تحت أقدامنا.

انحنيا معاً على الأرضيّة فشاهدا نجمة سداسيّة صغيرة محفورة في البلاطة التي كانا واقفين عليها. أمعنا النظر فاكتشفا عند إحدى زواياها فجوة صغيرة كافية لتمرير نصل سكّين أو خنجر. تبرّم ابن سراج:

ـ لقد فقدت خنجري.

ـ لا بأس. معي خنجر.

ربط الراهب القول بالعمل وأظهر خنجراً من جيب مسوحه.

ـ عجباً. . . ألم تقل لي ذات يوم إنك لن تحمل سلاحاً أبداً؟

ـ بلى يا ابن سراج. . . كان ذلك ذات يوم.

جثا على ركبتيه وأوْلَجَ النصل في الشقّ محاولاً استعماله كرافعة.

ـ ساعدني.

التحق به الشيخ، وعلى الرغم من اللهفة الشديدة التي بلبلت حركاتهما فقد استطاعا بعد لحظات أن يزيحا البلاطة عن مكانها. هتف فارغاس:

ـ ها هو هناك.

على عمق قامة ونصف القامة لمحا قالباً مستطيل الشكل محفوظاً في نوع من الغمد الجلديّ المتين. دون وعي وباندفاع عفويّ امتدّت يداهما معاً ناحيته وبنفس العفويّة سحبا يديهما.

ـ لا أنا ولا أنت. بل هو. . .

وافق العربيّ دون تردّد. تناول القالب وضمّه إلى صدره ثمّ هرع إلى الربّي وجثا بالقرب منه هامساً وقد امتقع لونه:

ـ ها هو الكتاب يا أخي.

غالب عزرا غيبوبته وتململ مستجمعاً آخر قواه فمرّ براحته على القالب.

ـ أظْهِراه رجاءً.

بإجلال وخشوع سحب الشيخ الغمد الجلديّ فظهر اللوح الأزرق. كان بطول ذراع ونصف الذراع وبعرض ذراع. وبشفافيّة لا توصف.

ـ بسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين الرحمان الرحيم. . .

أخذ الشيخ يقرأ سورة الفاتحة ساعياً في الوقت نفسه إلى الإمساك باللوح قريباً من وجه الربّي بحيث يراه بوضوح. فتح الربّي عينيه وفي اللحظة نفسها أشعّ اللوح بالزرقة وظهرت الحروف الأربعة:

أَهْيَه الذي أَهْيَه

تحت الكلمة الرباعيّة ظهر نصّ مكتوب بحروف ذهبيّة استطاع عزرا قراءته بصوت أصبح فجأة شديد الوضوح:

أنا إلهُ أبيك إلهُ إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب.
أبارك من يباركك وألعن من يلعنك وبك تُبارَك كلّ أمم الأرض.
قطعت عهداً بيني وبينك وجعلته من جيل لجيل عهداً أبدياً.
أن أكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك.

تلاشت الكلمات مع تلاشي الزرقة واستعاد اللوح هيئته الأولى فاغرورقت عينا الربّي بالدموع وأشعّ وجهه وهمس بصوت خافت:

ـ ها أنا أرحل بسلام... الربّ قوّتي ونشيدي... وقد صار خلاصي... هذا إلهي فأمجّده...

لم يستطع الذهاب إلى أبعد من ذلك فقد تشنّج جسده ومال رأسه على جنبه ومات. لكنّ مسامّه كلّها كانت تشعّ بالسلام والسعادة. ظلّ فارغاس وابن سراج ثابتين مكانهما في جمود التماثيل عاجزين عن الكلام عاجزين عن لفت نظرهما عنه. أخيراً التفت الشيخ إلى الراهب وسأل بصوت متهدّج:

ـ هل يعني هذا أنّهم حقّاً شعب الله المختار؟

ـ يبدو أنّ تلك هي الحقيقة.

ـ لا أستطيع أن أصدّق.

لم يبد عليهما الغضب بقدر ما غلبت على صوتيهما نبرة الإحباط القريب من اليأس. بحركة سريعة أدار ابن سراج اللوح في اتّجاهه. وما أن فعل حتّى توهّج اللوح بالزرقة من جديد وغمر وجهه نفس النور الذي غمر وجه عزرا، فندّت عنه شهقة فزع ولم يصدّق عينيه وهو يرى نصّاً آخر يظهر:

لا إله إلاّ الله

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون. إنّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يُؤمنون...

وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان يهوداً أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين...

وإلهكم إلهٌ واحد لا إله إلاّ هو الرحمان الرحيم.

مثلما حدث مع عزرا تلاشت الزرقة والكلمات واستعاد اللوح هيئته الأصليّة وظلّ ابن سراج يترنّح وقد شلّه التأثر. هل توهّم كلّ هذا؟ هل كان يحلم؟ كلاّ. لقد قرأ آيات من سورة البقرة. لا شكّ في ذلك. ولن

تمّحى هذه الآيات من ذاكرته. كان فارغاس يتفرّس فيه وقد داخله اضطراب عظيم. لا حظ النور وهو يتوهّج دون أن يستطيع قراءة الكلمات من حيث كان. فسأله متردّداً:

ـ قل لي ماذا رأيت؟

أطلعه ابن سراج بصوت مرتعش على كلّ ما حدّثه به اللوح فمرّ الراهب بيده على جبينه وقد أصابه الدوار.

ـ هذا مستحيل. اعطني اللوح.

ما أن صار اللوح في يده حتّى جثا على ركبتيه وأثبت عينيه في المساحة الزرقاويّة. وكالمرّتين السابقتين توهّج اللوح بزرقة ساطعة واستطاع الفرانسيسكانيّ أن يقرأ:

أنا هو أنا

الحقّ الحقّ أقول لكم. أنا الباب...

من آمن بي لا يُؤمن بي أنا بل يُؤمن بالذي أرسلني. ومن رآني رأى الذي أرسلني. جئتُ نوراً إلى العالم، فمن آمن بي لا يُقيم في الظلام...

أنا في الآب والآب فيّ... فكلّ ما تطلبونه باسمي أعملهُ حتّى يتمجّد الآب في الإبن...

من سمع إليكم سمع إليّ. ومن رفضكم رفضني. ومن رفضني رفض الذي أرسلني.

ما أن فرغ فارغاس من قراءة النصّ حتّى هتف وقد خارت قواه:

ـ أيّها الربّ يا ذا الجبروت... غفرانك يا ربّ...

انطفأت الكلمات وخبت الزرقة ولكن على عكس المرّتين السابقتين لم يستعد اللوح هيئته الأولى بل مالت زرقته شيئاً فشيئاً إلى حمرة حوّلته إلى ما يشبه لطخة دم مرعبة. دون أن يحدّث أحدهما الآخر عرف الرجلان أنّ نفس الرؤية انطبعت في روحيهما وأنّها رؤية تفضح كم أنّ البشر مغرور وعابث ومجنون وغير متسامح. انتظرا تائهي النظرات لا يعرفان ماذا عليهما عمله. أخيراً استعاد اللوح هيئته الأولى وقبل أن يتحرّك أيٌّ منهما ارتفع من بين يدي فارغاس واستقرّ في الفضاء للحظات ثمّ أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً وفجأة تحوّل إلى غبار. في نفس اللحظة تململ الجزء المتحرّك من الجدار ودار على نفسه مفسحاً أمامها الطريق.

في الخارج هبّت الرياح عنيفة فتمايلت لها أشجار السرو ونشر الشفق لحافه على ساحة الحصن فكساها هيئة الهاوية الممتقعة وكادت الألوان تمّحي وظلّ الغرب وحده مشرباً بشيء من الحمرة. كان فارغاس أوّل من ظهر على المدرج حاملاً عزرا فوق ذراعيه. أجال بصره في كوكبة الأطياف الواقفة أسفل الأبراج فخيّل إليه أنّه يتعرّف من بينها على هرناندو دو تالافيرا، وخلفه بقليل، لاح له طيف مانويلا وقد شبكت بديها كأنّها تصلّي.

عندئذ تنفّس الصعداء، وسار إليها.

*

الفهرس

هذا الكتاب

توقّف أمام مكتبه ومرّ براحة يده على مساحته الصقيلة. هل يمكن لهذه الطاولة أن تتصوّر النجّار الذي أنشأها؟ أليس كبرياؤنا في تناهيه حدّ الغرور هو الذي يوهمنا بالقدرة على حلّ ما لا يُحلّ؟ «أنا هو أنا». ما انفكّت هذه العبارة تعود على امتداد القصور التي حاول تفكيكها الرجال الثلاثة. ألا تكون تعبيراً عن الإرادة الحقيقيّة للربّ؟ لا تمنحوني اسماً معيّناً بل اقبلوني كما أنا. أي مجهولاً وأجلّ من كلّ وصف. طرد عنه هذه الهواجس وعاد إلى الحوار.

